هوسي وعشقها

بقلم/ لي لي محمد



الـــكـــتـــاب: هوسي وعشقها

الـــنـــوع: رواية

الـــمـــؤلـــفة: لي لي محمد

التصحيح اُللغوي: دينا عيسى

تـصـمـيم الغلاف: مروة صلاح

الـتنسيق الداخلي: أحمد جمال شاهين

الـطـبـعة الأولى: 2026

رقـــم الإيـــداع: 14383/ 2026

الـترقيم الدولي: 978-633-8490-35-5

الناشر: دار انطلاق للنشر والتوزيع

مدير الدار: أحمد مكي

تليفون الدار: 01142340157

بريد: للتواص:startpublishing372@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

وأي اقتباس، أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية، يُعرّض صاحبه للمساءلة القانونية؛ أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى القارئ الذي يمسك بقلبي بين يديه الآن..

قبل أن تبحر في هذه الصفحات، عليك أن تعلم أنَّك لا تقرأ مجرد كلمات رُصَّت بجانب بعضها، بل تقرأ شظايا من روحي. قد تجد في هذه الرواية أصداءً لحكايات تعرفها، لكنني أعدك أنَّها تحمل بصمةً مختلفة تمامًا؛ فهي لم تُكتب بالحبر، بل استنزفتني حرفًا بحرف، وخرجت من أعمق نقطة في وجداني لتستقر في صفحاتي الأولى.. ولن تكون الأخيرة بإذن الله.

الإهداء

أمي التي حملتني بقلبها قبل يديها كلما تعثرتُ بخطواتي، وكانت لي القوة حين عزَّت القوة.

أبي سندي الذي لم يمل يومًا من قول أنا معكِ..

إلى صديقاتي سحر وأنوار وهنا؛ فهم كانوا الضوء في عتمة أيامي..

وإلى نفسي الضائعة.

هوسي وعشقها

علـى قمـة جبليـة شـاهقة تلامـس السـحاب، وقفـت سـيارة فارهـة، يستند إليها رجلٌ تفيض ملامحه بالرجولة والجاذبية؛ عيناه بنيتان، وبشرته قمحية، بينما ينساب شعره الأسود الكثيف بتمردٍ طبيعي. وإلـى جـواره، وقفـت "تيـا".. فتـاةٌ فاتنـة الجمـال، شـعرها الأسـود يتطاير مع نسمات الجبل، وعيناها الملونتان تتلألآن تحت ضياء الشـمس كجـواهر نـادرة، فـي وجـهٍ لـم تمسـه مسـاحيق التجميـل، فكانت إشراقته الطبيعية كافية لخطف الأنفاس.

قطع آسر الصمت بتساؤلٍ يحمل نبرة تعب:

— هنفضل هنا كتير؟

أجابته تيا وعيناها تجوبان الأفق البعيد:

— خلينا شوية.. إحنا مش بنيجي هنا كتير، وبعدين إنت ناسي إن بكرة هنرجع مصر؟

— ومالك بتقوليها بزعل كدة ليه؟

تنهدت تيا بضيقٍ مكتوم وهي تلتفت إليه:

— عشان مش بعرف أمشـي معـاك فـي الشـوارع هنـاك بحريتـي زي هنا.. إحنا هنا بنلف أوكرانيا جزء جزء مفيش حد يعرفنا، أمَّا مصر.. فمحدش يعرف أصلًا إنك اتجوزت.

قال آسر موضِّحًا بلهجة حازمة:

— وأنا إيه في إيدي معملتوش، وبعدين العيلتين مش حلوين سوا وإنتِ أكتر واحدة عارفة ده.

صمتت تيا، وغرقت عيناها في تفاصيل وجهه كأنها تبحث عن ملاذٍ آمن لقلبها المرهق، ثم همست بصدق:

ـــ أنا.. خايفة.

ابتسم بخفة، وخرج صوته حنونًا وواثقًا في آنٍ واحد:

ـــ وإنتِ معايا؟

توقفت الكلمات في حلقها لثوانٍ قبل أن تستجمع شجاعتها قائلة:

ـــ خايفة عليك.. اللي عرفته عن عثمان ده يقلق، الراجل ده مش سهل وده بشهادة أي حد اتعامل معاه.

اقترب منها آسر حتى صار في مستوى طولها، ومسحت عيناه القلق المرتسم على وجهها وقال بلهجة ساخرة:

ـــ إنتِ هتعرفيني على شخص أنا عايش معاه من ساعة ما اتولدت؟ ده أكتر واحد ممكن يتقال عليه "شيطان في صورة إنسان".. هو فعلًا مش سهل، بس إحنا معانا ربنا وأظن ده كفاية أوي يخلينا ماشيين من دون خوف.

ضحكت بخفة وغيرت مجرى الحديث وهي تنظر إلى المدى البعيد، والسكينة تغزو ملامحها:

ـــ فاكر لما كنا بنيجي هنا كنت بتقعد تعلمني كمية حاجات وتبقى مصمم تعلمني الكاراتيه لحد ما كنت بعيط وأقول لك بكرهه.

ـــ والله إنتِ ظالمة! ده أنا كنت حنين معاكي جدًّا.. هتنكري؟

ـــ بصراحة مش هعرف أنكر..

صمتت قليلًا قبل أن تقول:

ـــ بس دلوقتي جدو عايز أدهم وكايلا يفضلوا معاه.

ـــ ماشي.. وإيه المشكلة؟

انتفضت الأمومة في صوتها وهي تجيب بحدة:

ـــ المشكلة إني بعدت عن ولادي الفترة اللي فاتت يا آسر، ومش هبعد تاني.. حياتهم ومدرستهم وكل حاجة في مصر.

انفجر آسر ضاحكًا وهو يتأملها بذهول:

ـــ كل ما بسمعك بتقولي ولادي بموت من الضحك! مش متخيل إن البنوتة الصغيرة اللي كبرت قدامي بقيت أم وبتقول ولادي.

ـــ ده على أساس إنهم ولادي لوحدي؟ ما هم ولادك إنت كمان!

ـــ آه فعلًا.. ولادي اللي خدوكي مني وسرقوا وقتك!

نظرت له بصدمةٍ تلاشت أمام بريق الغيرة المحبب في عينيه:

ـــ خدوكي مني؟! ده أنا مش بشوفهم غير فين وفين.. إنت بتقول كدة عشان بتغير منهم صح؟

أجاب ببرود مصطنع:

ـــ لا.

ـــ كداب بجد.

ـــ كداب؟.. لا ده إنتِ اتعودتي عليا زيادة عن اللزوم.

قالها وهو يركض خلفها بمرح، لتتعالى ضحكاتهما في فضاء الجبل الصافي، قبل أن يقطع رنين هاتفها سكون اللحظة.

— ألو؟

— إنتِ فين يا تيا؟

— على الجبل، أنا وآسر.. في حاجة؟

— لا يا حبيبتي، بس تعالي عشان نتغدى سوا.

— حاضر.

أمسك آسر كفَّ يدها الصغير بين يديه وسألها بهدوء:

— يلا بينا؟

— يلا.

— إلبسي طرحتك.

استقرت تيا في مقعد السيارة، ورفعت المرآة أمامها لتبدأ في ارتداء العدسات السوداء التي تطمس لون عينيها المميز، وفي أثناء ذلك، صدح رنين هاتف آسر.

تمتمت تيا بتهكُّم:

— ده لو متفقين مش هيرنوا ورا بعض كدة!

أشار لها آسر بالصمت وهو يفتح الخط:

— ألو يا سيف..

— بقالك أسبوع في أوكرانيا بتعمل إيه؟ جدك قالب عليك الدنيا.

— بكرة هكون عندكم.. كنت بخلص شغل ومحتاج أصفي دماغي أسبوع، إيه حرام؟

في تلك اللحظة، تمردت خصلة شعر من تحت حجاب تيا، فاقترب آسر برفقٍ مباغت يحاول إعادتها، متجاهلًا نظراتها المندفعة بضيق.

تابع سيف بضيق:

— أنا في شغل تاني بعمله، وداليا مشغولة مش فاضية تشيل شغلي وشغلك.. إنت فاكرها هترضى تشيل عنك؟

— وجاسر؟

— جاسر اتخانق مع جدك خناقة كبيرة إمبارح، والدنيا اتقلبت بينه وبين ريم مراته.

— أنا ماليش دعوة بكل ده.. لما أنزل أبقى أشوف المطلوب مني.

أغلق المكالمة دون انتظار ردَّ، لتنفجر تيا في وجهه بغيظ:

— إيه يا عم! قاعد تشد في الطرحة لحد ما بوظتها خالص!

نظر إليها بصرامةٍ غلَّفها العشق:

— وطي صوتك.. وبعدين حجاب إيه اللي يخليكي تبيني شعرك يعني؟

بـدأت تبـرطم بكلمـاتٍ غيـر مفهومـة وهـي تشـيح بوجههـا، بينمـا انطلق هو بالسيارة، وسألها بمكر:

ـــ بتبرطمي بتقولي إيه؟

ـــ مش بتنيل أقول حاجة!

ـــ طب افردي وشك.

ـــ أنا حرة.

ـــ هزعلك!

ـــ متقدرش.

هنا، أوقف المناقرة ونظر إليها بعمقٍ جعل دقات قلبها تضطرب:

ـــ إنتِ عارفـة إنـي أقدر.. بـس المشـكلة إنـي مش بعـرف أعمل معاكي حاجة للأسف.

ارتسمت ابتسامة عاشقة على شفتيها وهمست:

ـــ إنت بتثبتني على فكرة.

ـــ ما أنا عارف.. وعارف إنك مابتعرفيش تزعلي مني.

ضـحكت بهـدوء، فأمسـك يـدها ورفعهـا إلـى شـفتيه ليهـديها قبلـة حنونة، وظلَّ ممسكًا بها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<.

وفي بقعةٍ أخرى، كان يقف قصرٌ ضخم، مزخرفٌ ببراعةٍ تبهر الأبصار وتمنح الروح سكينةً خاصة.

داخل جدرانه، كانت تعيش عائلةٌ متماسكة، يربطها رباطٌ من الحب الصادق والولاء المطلق.

كان الجد ألكسندر يجلس بوقاره المعهود، يغوص في صفحات كتابٍ باللغة الإنجليزية، بينما استقر حفيده الغالي أدهم على قدميه، يشاركه القراءة

رفع الجد نظره نحو ابنه فيكتور، الذي كان ينكب بتركيزٍ شديد على محاولة إصلاح لعبة كايلا الصغيرة، التي وقفت أمامه تراقب لعبتها العزيزة بقلقٍ طفولي.

قال الجد بنبرةٍ مازحة:

— لو مش عارف تصلحها يا فيكتور، قول لـ ماكس أو ديم أو إيفان.

أجاب فيكتور وهو لا يزال يحاول:

— مقولتش يوهان يعني؟

— يوهان هتلاقيه مع مراته نتاليا.. من ساعة ما عرف إنها حامل وهو مش بيفارقها لحظة.

— عندك حق والله.. طب إيفان فين؟

— واقف في المطبخ بياكل السلطة اللي لينا وليلا بيعملوها.. أهو جه أهو!

نظر فيكتور بضيقٍ مصطنع لـ إيفان الذي ظهر فجأة:

— إيفان.. تعالى أعمل اللعبة دي، مش عارف أركبها خالص.

— حاضر.. بس هو آسر وتيا اتأخروا كدة ليه؟

في تلك اللحظة، صدح صوت محرك سيارة آسر في الأرجاء، فضحك الجد قائلًا:

— بيجوا دايمًا على السيرة!

توجهت الأنظار نحو آسر وتيا فور دخولهما، فنظر فيكتور لابنته بحبٍ فخور:

— أخيرًا وصلتوا.. تعالي شوفي بقى اللعبة دي بتتركب إزاي، غلِّبتني.

ابتسمت تيا برقة وقالت:

— هات يا بابا.. وبعدين يا كايلا، إنتِ لحقتي تكسريها؟

اتجهت كايلا لوالدتها ببراءةٍ ساحرة، وارتمت في أحضانها الدافئة قائلة:

— هي اللي اتكسرت لوحدها يا ماما.

ضمتها تيا بحنان وهي تربت على ظهرها:

— ماشي يا أستاذة كايلا.. والحمد لله هي مفكوكة بس مش مكسورة.

— ركبيها بقى يا ماما.

— حاضر يا حبيبتي.

قطع اللحظة دخول لينا وليلا وهما تركضان خلف "إيفان" بضيقٍ واضح، فنظرت لهما تيا بتعجب:

ـــ في إيه؟ مالكم؟

قالت لينا بغضب وهي تشير لإيفان:

ـــ كل ما نعمل أكل يخلصه يا تيا!

ـــ إنت لسه فيك الحركات دي يا إيفان؟

أجاب إيفان بمرحٍ مشاكس:

ـــ أيوه.

لم يكد ينهي كلمته حتى باغتته زجاجة مياه من ليلا، التي قالت بتحدٍ وهي تضم تيا:

ـــ كدة أنا خدت حقي..

تعالت ضحكات تيا على طفولتهما، بينما رمق إيفان تيا بغيظٍ فكاهي، وكاد أن يلقي عليها شيئًا، لولا نظرة آسر الحادة التي جعلته يتراجع وقال:

ـــ خلاص والله بهزر.

نظرت له تيا بتكبرٍ مداعب:

ـــ ولا تقدر تعمل حاجة أصلًا.

التفتت تيا لابنها الجالس في أحضان جده:

ـــ إيه يا أستاذ أدهم؟ مفيش إزيك يا ماما؟ وحشتيني؟ أي حاجة؟

— وحشتيني أوي يا ماما، بس كنت بقرأ مع جدو في حاجة مهمة.

ابتسمت تيا لجدها وقالت بمشاكسة:

— بقيت مسيطر على أدهم خالص يا جدو.

قبَّل ألكسندر حفيده بحب جارف:

— طبعًا.. ده حبيبي.

ساد الهدوء قليلًا قبل أن يقطعه رنين هاتف آسر، فتأففت تيا قائلة:

— يوه.. هما مش بيتهدوا أبدًا!

ضحك آسر على تذمرها، وعندما رأى اسم "رهف" ابنة عمه التي تطارده بحبٍ لا يريده، نظر لتيا بهدوء وهمس في أذنها:

— تيا.. هقوم أرد بره.

لمعت عيناها بشكٍ مازح:

— ليه؟ بتخوني صح؟ قول متتكسفش!

تعالت ضحكاته الرجولية وهو يقرص وجنتها بمرح:

— يا بت اتهدي بقى!

خرج آسر للحديقة وفتح الخط بملل:

— خير يا رهف.. بترني ليه؟

جاءه صوتها بأنوثةٍ مصطنعة مقززة:

— هو أنا غلطانة يعني عشان بسأل على ابن عمي؟

أبعد الهاتف عن أذنه بضيق، وهو يشعر بالاشمئزاز من محاولاتها الفاشلة.

قال بحزم وحِدَّة:

ـــ اخلصي يا رهف.. متصلة ليه؟

ـــ وحشتني.

في تلك الثانية، كانت تيا تقف خلفه بعينين مشتعلتين من الغيرة. فوضع آسر يده على فمها بسرعة قبل أن تصرخ، بينما كانت تيا تغرز أسنانها في يده بغيظ.

ـــ أنا مش فاضي.

أغلق الهاتف ونظر لتيا بتوعد، فانفجرت هي بضيق:

ـــ عشان كدة كنت عايز ترد بره! إنت إزاي تسمح لها تقولك كدة؟

أجاب ببرود يحاول كبت غيظه:

ـــ هو أنا اللي قولت لها تقولي؟

ترقرت الدموع في عينيها، فلان قلبه وتنهد بضيق، ثم ضمها بلطفٍ شديد:

ـــ متزعليش.. إنتِ عارفة إنها بتلف عليا، بس إنتِ عارفة أنا بحب بمين. إنتِ حياتي كلها يا تيا.

استكانت بين أحضانه، فربت على ظهرها وقبَّل وجنتيها المحمرتين بدموع البكاء، وقال بحزنٍ مصطنع:

ـــ مش قولتلك مش عايز أشوف دموعك تاني من دون سبب؟

ـــ آسفة

ـــ ماشي هعديها

نظرت له بعشقٍ نقي، ولكن حدث.. انفجارٌ مدوٍ، تلاه صراخٌ عالٍ هزَّ أركان القصر..

انتفضت تيا من مكانها، وتشبثت بذراع آسر بقلقٍ سرعان ما استحال إلى غضبٍ عارم. ركضت باتجاه القصر وهي تصب جام غضبها وتكيل السباب لابن عمها "ماكس ستيفان كورولينكو"، ذلك الشاب الذي لا يهدأ عشقه للمواد الكيميائية واختراعاته المجنونة.

صاحت تيا بوعيد:

ـــ لا بجد كدة كتير.

دلفت إلى الداخل لتجد الجميع متسمرين أمام غرفة ماكس، يترقبون خروجه بوجوهٍ تحمل مزيجًا بين الرعب والاعتياد.

وبعد لحظات، فُتح الباب واختفى الدخان ليظهر ماكس وهو يبتسم ابتسامة واثقة، رغم السواد الذي غطى وجهه وشعره المبعثر بفعل الانفجار.

سألهم ببرود مستفز:

ـــ مالكم في إيه؟ بتبصولي كدة ليه؟

قالت تيا بضيق:

ـــ مالنا؟! لا ولا حاجة..

أجاب بلا مبالاة:

ـــ ماشي.

ـــ إنت بارد.. أقسم بالله بارد!

ردَّ ماكس باستفزازه الشهير:

ـــ أكيد مش هيكون في برودك إنتِ وجوزك.

رمقه آسر بابتسامة باردة وقال:

ـــ عارفين والله.. مش محتاج تقول.

تعالت ضحكات ماكس وهو يمازح تيا:

ـــ خلاص بقى يا تيا عادي يعني.

ـــ المرة الجاية هتولع في القصر كله على فكرة.

ضحك الجد ألكسندر بهدوء وهو يراقب أحفاده؛ فقد اعتاد على تناقض شخصياتهم، لكنه كان يرى في تيا وآسر توافقًا عجيبًا؛ فتيا التي تشتعل كالنار فجأة، آسر هو الوحيد القادر على ترويض جنونها والسيطرة على ثوراتها.

همس آسر في أذن زوجته، غافلًا عن أعين الجد التي تتابعهما بفيضٍ من المحبة والرضا:

ـــ خلاص يا تيا اهدي.. ما إحنا متعودين على هبله، مفيش جديد.

تنهدت تيا بغلب:

ـــ إنت هتقولي؟ ما أنا عارفة ابن عمي كويس وعارفة جنانه.

في تلك اللحظة، جاء صوت العم ستيفان وهو يضحك على تصرفات ابنه، مختلطًا بصوت ضحكات زوجته فيرين.

التفتت تيا إليهما بغيظ وقالت باللغة الأوكرانية:

ـــ هل تضحك حقًّا يا عمي؟ سيأتي اليوم الذي أفقد فيه أعصابي وأبرحه ضربًا!

تدخَّل ماكس بغرور مُحبب:

ـــ لا.. لن تستطيعي يا فتاة، فأنا شقيقكِ الكبير.

ردَّت بتحدٍ:

ـــ لا سأفعلها وسترى قريبًا يا أخي.

اتسعت ابتسامة الجد؛ فهو يعشق هذا التلاحم بينهم، وفخور بأنهم يتعاملون كإخوةٍ من دمٍ واحد، مما يزيد من تماسك بنيان عائلته.

فجأة، شعرت تيا بآسر يحاوط كتفها بهدوء، فسألته باهتمام:

ـــ مالك يا آسر؟

أجاب بهدوء:

ـــ آسر هيموت من الجوع.

ضحكت برقة وقالت:

ـــ حاضر.. هحضر الأكل حالًا، بس تعالى ساعدني.

ابتسم لها بحب وتحرك معها نحو المطبخ، تاركين خلفهم ضجيج العائلة الدافئ.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

وفي مكانٍ آخر...

في دولتنا الحبيبة مصر، وتحديدًا داخل قصرٍ ضخم مزخرف بشدة، كان الجمال الخارجي يغلف حياة أسرة متفككة، لا يربط بين أفرادها حبٌ أو وئام. في غرفة الحفيد الأكبر سيف، كان يجلس على فراشه يراقب زوجته داليا الواقفة أمام المرآة تصفف شعرها، فقال بهدوء:

ـــ داليا.. إيه رأيك نخرج النهاردة؟

ردَّت دون أن تلتفت إليه وبنبرة خالية من الاهتمام:

ـــ والشغل؟

ـــ إحنا كل يوم بنشتغل، بس مش كل يوم بنخرج مع بعض.. وأصلًا إحنا بقالنا كتير مخرجناش سوا.

نظرت له بضيق وتابعت:

ـــ سيف أنا مش فاضية والله، وبعدين آسر مسافر يعني الشغل كله فوق دماغي، فبلاش النهاردة.

أجاب بمرارة حاول إخفاءها خلف بروده:

ـــ يعني أنا اللي مش مشغول؟ بس أنا عايز أخرج مع مراتي.

ـــ وأنا قولت مش فاضية.

نظر لها ببرود وحزن مدفون، ثم عاد لتفقد هاتفه بصمت، قبل أن تسأله هي:

ـــ هو آسر قالك هيجي إمتى؟

ـــ بكرة أو بعده بالكتير.

ـــ تمام.. هتنزل معايا ولا إيه؟

ـــ لا.. هنزل.

وبالفعل توجها للأسفل، وفي طريقهما وجدا رهف تغلق باب غرفتها بعنف وهي تنظر لهاتفها بغلٍ وغضب. سألتها داليا بهدوء:

ـــ مالك يا رهف؟

ـــ آسر قفل في وشي!

كتم سيف ضحكته، وكذلك داليا التي حاولت تلطيف الأجواء:

ـــ أكيد مش قصده.

نظرت لهما رهف نظرات كالسهام الحادة، ثم تركتهم ونزلت بسرعة فائقة ووجهها عابس. صادفت والدتها ميسون التي سألتها بقلق:

ـــ مالك يا رهف؟

ـــ مفيش حاجة يا ماما.

تدخلت شقيقتها الصغرى سيرين بمشاكسة:

ـــ أكيد اتخانقت مع آسر.

هنا، وجَّه الجد عثمان الطنطاوي نظراته الغاضبة لرهف وسأل:

ـــ قالك حاجة عن ميعاد رجوعه؟

ـــ لا.

أجاب سيف وهو يتابع هاتفه:

ـــ قالي إنه هيبقى هنا بكرة أو بعده بالكتير.

ضرب الجد عصاه في الأرض بغضب:

ـــ وهو بيعمل إيه كل ده في أوكرانيا؟

ـــ اهدى يا جدو، هو قالي إنه خلص الشغل وخد يومين يرتاح فيهم.

ـــ أهدى إزاي؟ هو بيعمل اللي على مزاجه من غير ما يرجعلي!

جاء صوت سارة عثمان الطنطاوي وهي تحاول تهدئته:

ـــ بلاش تعصب نفسك يا بابا.

ـــ أما نشوف آخرته إيه.

قطع حديثهم صوت خطوات منتظمة على السلالم؛ ظهر جاسر ومن خلفه زوجته ريم. سخر الجد قائلًا:

ـــ صباح الخير يا أستاذ جاسر.. كنت فاكر إنك هتسيب القصر زي آسر.

لم يكترث جاسر لكلماته السامة وجلس على الطاولة، وجلست بجانبه ريم؛ تلك الفتاة ذات الملامح المصرية الجميلة والأعين

العسلية، ولكن بنظرات باردة وغير مبالية. كانت ريم قد تزوجت جاسر زواجًا تقليديًا خاليًا من الحب أو التفاهم ولكن هذه لم تكن المشكلة لأن المشكلة الحقيقية كانت زواجها من دون موافقتها.

وجَّه الجد كلماته الحادة لريم:

— هو إنتِ كل يوم والتاني تشتكي لأهلك إنك عايزة تتطلقي؟ خدي الأمور بالراحة شوية.

تجمَّد جاسر في مكانه ونظر لريم بصدمة وغضب، فهو لم يكن يعلم بطلبها للطلاق. نظرت ريم للفراغ وقالت ببرود:

— حاضر.

استشاط الجد غضبًا من برودها، ونهض عن الطاولة وهو يسبُّهم جميعًا، ثم غادر القصر متوجهًا إلى الفرع الرئيسي لشركات الطنطاوي.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

وفي قصر عائلة كورولينكو..

كانت تيا تتحرك في المطبخ كالفراشة، وخصلات شعرها السوداء تداعب وجهها، بينما يراقبها آسر بعشقٍ يفيض من عينيه. رفعت عينيها لتسأله عن شيء، فوجدته غارقًا في ملامحها، فابتسمت بمشاكسة:

— إيه اللي واخد عقلك؟

— إنتِ.

ضحكت برقة ووضعت يدها على خصرها بشكٍ مصطنع:

— يا راجل! يعني مش بتفكر في واحدة كدة ولا كدة؟ قول متتكسفش ده أنا مراتك برده.

ضحك على جنونها وحاوطها بذراعيه يضمها بحنان:

— هو في واحدة قدرت تخطف قلبي غيرك؟

— عارفة، بس بحب أهزر معاك بصراحة.

سألها بجدية:

— هو إنتِ هتنزلي معايا مصر بكرة ولا هتفضلي هنا؟

— هنزل معاك طبعًا.

قطع حديثهما دخول كايلا وأدهم اللذين سألا بحب:

— ممكن نقعد معاكم؟

حملت تيا ابنتها تقبّلها بلهفة، وفعلت المثل مع أدهم، بينما كان آسر يراقبهم بمزيج من الحب والغيرة. اقتربت تيا منه وقبَّلت وجنتيه قائلة بمرح:

— إنت بوستك زيهم، بس مش هعرف أشيلك زيهم معلش بقى.

لمعت عيناه بمكر وحملها فجأة بين ذراعيه:

— يبقى أشيلك أنا بقى أنا سهلة خالص.

تعالت ضحكات تيا وأطفالها وهي تترجاه:

— نزلني.. يا آسر بقى!

— لا.. انسي.

— عشان خاطري، يرضيك العيال يضحكوا عليا؟

قالت كايلا بضحك:

— بابي متنزلهاش، شكلها حلو أوي!

ضحك آسر وأنزلها أخيرًا بعد إصرارها، لتبدأ تيا في تحضير الطعام وسط جو من السعادة والمرح، ثم سألت:

— هما لسه بره ولا ناموا؟

— لسه بره ومستنيين الأكل.

— طيب شيلوا الأطباق على ما ألبس الطرحة.

خرجوا جميعًا لتناول الطعام في أجواء عائلية دافئة مع إيفان وليلا ولينا وماكس وألكسندر وفيكتور. بعد الانتهاء، ذهبت تيا لمساعدة المنزل كارولين التي تعتبرها أمًّا لها:

— معلش يا داده، هاخد منك أدهم وكايلا بكرة.

ردَّت كارولين بحنان:

— ماشي يا حبيبتي، رغم إنهم هيوحشوني أوي.. بيعوضوني عن غيابك وبحس بوجود جيسيكا معاهم.

دمعت عينا تيا لذكرى جيسيكا الراحلة، فمسحت كارولين دموعها بمرح:

— لا متعيطيش آسر هيزعل كدة

ضحكت تيا وذهبت لغرفتها، وجدت آسر يرتدي ملابس سوداء، فبدَّلت ملابسها لتكون مثله وجلست أمامه بابتسامة خطفت قلبه:

ـــ بتعمل إيه؟

ـــ عادي بقلب في التليفون شوية.. تعالي.

فتح لها ذراعيه فارتمت في أحضانه يستنشق عبير شعرها، ثم همس وهو يلمس على خصلاتها:

ـــ مش عايز أنزل مصر بصراحة.. مش عايز أبعد عنك ومش مستعد للمشاكل اللي هناك.

ـــ أنا كمان مش عايزة أبعد، بس لازم عشان شغلك وكليتي.

قبَّل جبينها وضمها بقوة حتى ذهبوا في نوم عميق.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في الصباح.. في قصر الطنطاوي..

كان صوت الجد يزلزل المكان بغضب عارم:

ـــ مبقاش أنا غير لما أربيه!

جاءه صوت آسر البارد مستنكرًا:

ـــ تربي مين؟

التفت الجد إليه والغضب يتطاير من عينيه:

ـــ هربيك إنت! لأني شكلي سيبتك على مزاجك كتير..

ارتسمت على وجه آسر ابتسامة باردة، ونظر لجده بنظرة استهزاء لم يحاول إخفاءها:

— لا.. ما أنا مش همشي على مزاجك معلش أيًّا كان، أصل عيب أوي واحد عنده 35 سنة، يفضل يمشي على مزاج جده أنا مش عيل صغير.

تجهَّمت ملامح الجد أكثر، وصرخ فيه بعنفٍ هزَّ أركان المكان:

— هي بقت كدة؟!

أجابه آسر ببرودٍ قاتل وهو يتحرك مبتعدًا:

— آه.. هي بقت كدة. وسلام بقى عشان هموت وأنام.

تركهم آسر وغادر المكان متوجهًا للجناح الخاص به في القصر، وقبل أن يغلق الباب، لحق به شقيقه سيف ودلف خلفه وجلس أمامه بضيقٍ ظاهر:

— أنت مش شايف إنك زودتها أوي معاه؟

تحدث آسر وهو يبحث عن ملابس مريحة في غرفته دون أن يعيره اهتمامًا:

— لا.. مش شايف.

مسح سيف وجهه عدة مرات محاولًا كبح انفعاله:

— مهما كان.. ده جدك يا آسر.

هنا، انفجر آسر بصوتٍ حاد:

ـــ لا! ده جدك أنت وجاسر.. عشان بتمشوا ورا قراراته زي العيال، أنا بقى حر نفسي، وبعمل اللي أنا عايزه ومش هسمح لحد يقيدني.

ـــ إنت كدة بتبني عداوة بينك وبينه يا آسر..

نظر له آسر بسخرية مريرة:

ـــ العداوة دي موجودة من زمان يا سيف.. بس محدش فيكم كان واخد باله.

صمت سيف قليلًا ثم سأل بفضول:

ـــ طب إنت ليه قولتلي إنك جاي بكرة.

قال بانشغال:

ـــ لقيت إن مبقاش في شغل فقولت أرجع.

نظر له سيف بهدوء واستسلام:

ـــ على العموم.. حمدًا لله على سلامتك في كل حال.

قطع حديثهما صوت الباب وهو يُفتح مرة أخرى ليدلف جاسر بمرحه المعتاد:

ـــ وحشتني يا ابن عمي والله!

رمقه آسر بهدوئه:

ـــ شكرًا.

جلس جاسر بجانب سيف وقال بضحك:

ـــ هما كام ساعة، وهتلاقي رهف جت من النادي، وهتفضل لازقة فيك.

ضحك سيف موافقًا:

ـــ عنده حق بصراحة.

ابتسم آسر بمجرد أن تذكَّر تيا، وكان يتوق للحديث معها قبل أن يغلبه النوم، فقال لهما بضيق متصنَّع:

ـــ اطلعوا برة بقى.. عايز أنام.

خرجا وهما يتمتمان بضيق، وبمجرد مغادرتهما، أحكم إغلاق الباب، وأمسك هاتفه واتصل بمعشوقته فورًا:

ـــ ألو يا آسر..

ـــ إيه يا حبيبتي.. وصلتوا؟

ـــ من بدري.. والولاد ناموا كمان من التعب.

ـــ وأنا كمان وصلت.

صمتت تيا لثوانٍ ثم قالت بحنان:

ـــ حاسة إن صوتك متغير.. في إيه؟

قصَّ عليها كل ما حدث مع جده بالتفصيل، فقالت بهدوء وحكمة استمدتها من معاشرتها له:

ـــ فاهمة إنك مضايق منه، وعارفة إنك بتكره أسلوبه.. بس خف الطريقة دي شوية، بلاش تضغط على أعصابك إنت كمان..

تنهد آسر بعمق:

— أنتِ الوحيدة اللي بتحسي بيا يا تيا.. الوحيدة اللي عارفة إني بكون مخنوق بجد بعد الحوارات دي.

— أنا فاهماك يا حبيبي.. بس بلاش مشاكل دلوقتي، إنت لسه واصل.. ارتاح وخلينا نعدي الأيام دي على خير.

— حاضر.. هتنامي؟

— آه.. أنا فصلت بجد، والسفر كان مرهق.

— ماشي يا حبيبتي.. تصبحي على خير.

أغلق المكالمة، واعتدل في فراشه، وبمجرد أن أغمض عينيه، ذهب في نومٍ عميق، هربًا من عالمٍ مليء بالصراعات.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في بقعةٍ أخرى هادئة من أرض مصر، وفي فيلا شديدة الجمال والخصوصية، كانت تيا تستلقي في غرفتها الواسعة التي تشاركها مع آسر.

كانت الفيلا تُعد تحفةً معمارية بحديقتها الخلفية التي يزيّنها حمام سباحةٍ لامع، وغرفها المرتبة التي تنطق بالهدوء. كانت تيا تغط في نومٍ عميق، ترتدي بيجامة بيضاء، وشعرها الأسود مرفوعٌ في كحكة فوضوية، تفر منه خصلات متمردة تداعب وجهها النائم.

تململت في فراشها على أثر رنين هاتفها المتكرر، وبنصف عين نظرت للشاشة لتجد اسم صديقة عمرها وشقيقتها التي لم تلدها أمها.. لمار.

— ألو.. يا لمار.

— قلب لمار والله! عاملة إيه يا تيا؟

— الحمد لله.. بس السفر هد حيلي بجد.

انطلقت شهقة ذهول من الطرف الآخر، فلمار لم تكن تعلم بموعد عودتها:

— إنتِ في مصر؟! وجيتي من غير ما تعرفيني؟

ضحكت تيا بشدة وهي تستمتع بصدمة صديقتها:

— كنت عايزاها مفاجأة الصراحة، ومكنتش لسه فوقت.

— طب اقفلي بقى.. أنا جاية لك حالًا!

أغلقت لمار الخط، فابتسمت تيا بحب، ثم أسندت رأسها للوراء وهي تحدِّق إلى سقف الغرفة. غاصت في بحر ذكرياتها مع آسر.. قصة عشقهم التي تشبه في تفاصيلها الروايات الخيالية. لمعت عيناها وهي تتذكر موقفًا حدث حين كانت في الخامسة من عمرها، وكان هو مراهقًا يافعًا في السابعة عشرة.

"فلاش باك"

كانت طفلة بجمالٍ يسلب الأنفاس، وكان هو شابًا بملامح رجولية جذابة.

كان آسر يجلس بهدوء، ممسكًا بفرشاة الشعر يمشط خصلاتها السوداء بحنانٍ بالغ، فتململت هي بغضبٍ طفولي وهي تشعر ببعض الوجع:

ـــ يوه يا آسر.. إنت كل سوية تسد سعري!

انفجر آسر ضاحكًا على مخارج حروفها المتعثرة:

ـــ "سوية" و"تسد" و"سعري" في جملة واحدة؟! بت إنتِ.. إنتِ تميتي خمس سنين يعني المفروض تتكلمي صح، لازم أظبط لك حرف الـ ش ده.

لوت فمها بضيق مصطنع:

ـــ إنت بتتريق عليا؟

جذب وجنتيها بخفة وهو يبتسم بحب:

ـــ مش بتريق يا ستي.. اقعدي بس عدل عشان أخلص وألحق أذاكر، أنا هسقط بسببك يا قردة!

وضعت يدها على خصرها بصدمة طفولية:

ـــ أنا قردة يا آسر؟

حملها فجأة وضمها لصدره:

ـــ وأحلى قردة كمان! هتقعدي بقى في جنب تلعبي في تليفوني لحد ما أخلص مذاكرتي.. اتفقنا؟

ـــ إنت عايز تبقى دكتور؟

ـــ لا.. مهندس.

— أنا بقى هبقى دكتورة لما أكبر.

قبَّل وجنتها بحنان:

— هتبقي أشطر وأنجح دكتورة، بس لازم تدعي ربنا كتير زي ما علِّمتك.. ها، في حاجة تانية؟

— آسر.. عايزة أقولك حاجة.

— قولي يا حبيبتي.

— رهف قالت لي إني لما أكبر إنت هتبعد عني وهتكرهني.

اعتصر قلبه ضيقًا من رهف التي بدأت تزرع سمومها في عقلها من الآن، فضمها بقوة وقال:

— هو أنا لما تكبري وتبقي آنسة حلوة كدة، طبيعي إن هيكون في حدود بينا، بس مش معنى كدة إني هكرهك أو هسيبك أبدًا.. إنتِ في قلبي يا تيا.

— حدود؟

— يعني مش هينفع أحضنك كدة، ولا أشيلك، ولا تلبسي لبس قصير قصادي.. البنت المحترمة لازم يكون ليها حدود مع أي حد

— يعني أعمل كدة دلوقتي؟

ضحك ضحكته الصافية التي لا تظهر إلا لها:

— لا.. إنتِ لسه طفلة، لسه بدري أوي على الكلام ده.

— ماشي.. أنا عايزة أنام.

تنهد وهو يغلق كتابه بغيظ مداعب:

— أنا بالمنظر ده هجيب 50%.. ده لو جبتها أصلًا!

فتحت ذراعها له، فضمها بنعاس وهي تهمس ببراءة:

— تصبح على خير يا آسورة.

— وإنتِ من أهله يا قردة أسورة.

"باك"

عادت تيا من ذكرياتها والابتسامة لا تفارق ثغرها، لكنها انتفضت فجأة على صوت طرقات قوية ومستمرة على باب الفيلا.

ضحكت وهي تعلم أنَّ لمار قد وصلت.

نزلت الدرج بسرعة وفتحت الباب، لترتمي لمار في أحضانها بلهفة:

— وحشتيني أوي أوي يا تيا! أول مرة تغيبي أسبوعين كاملين.

— وإنتِ وحشتيني أكتر يا لمار والله.. مكنتش أعرف إني هوحشك كدة.

دلفت لمار للداخل وهي تتلفت حولها:

— فين كايلا وأدهم؟ وحشوني أوي.

— نايمين من ساعة ما وصلنا، السفر كان مرهق عليهم.

— حبايبي.. زمانهم تعبوا فعلًا.

كانت تيا تهمُّ بالرد، لكن عينيها وقعت فجأة على جرحٍ غائر في يد لمار، فتبدَّلت ملامحها للذعر:

ـــ إيه ده يا لمار؟! الجرح ده من إيه؟

ارتبكت لمار وتوترت نظراتها وهي تحاول إخفاء يدها:

ـــ ها؟ لا مفيش.. كنت بقطع حاجة فاتعورت عادي.

صاحت تيا بغضب وخوف:

ـــ هو أنا عيلة عشان أصدق الكلام ده؟

نظرت لها لمار بخوف، وهي تقص ما حدث، والكلمات تخرج منها كالصاعقة التي جعلت تيا تتسمر في مكانها بصدمة وغضب مكتوم حين قالت:

ـــ اللي اسمها أم زينب.. لقيتها بتخبط عليا وقت الظهر، كنت لسه بقوم من على سجادة الصلاة وسمعت هبد على الباب يا دوب فتحت، لقيتها بتمسكني من لبسي ونزلت فيا ضرب من غير ما أعرف السبب.

انتفضت تيا بعصبية شديدة وصاحت:

ـــ وسكتلها يا لمار؟

عدلت لمار من جلستها وتحدثت بفخر:

ـــ أسكت لمين؟ ده أنا جبتها من شعرها هي وبنتها وعجنتهم ضرب لحد ما كانوا هيموتوا في إيدي!

ـــ أيوه.. برده اتعورتي إزاي؟ الجرح ده سببه إيه؟

ـــ ما هي زينب لما شافت أمها بتنضرب، راحت جابت سكينة وحاولت تغرزها فيا، بس الحمد لله جت في إيدي وجرح بسيط.

أمسكت تيا يد صديقتها وهي تضغط على أسنانها بغيظ:

ـــ آه لو كنت موجودة.. كان زماني دفنتهم هما الاتنين، الحربايـة وبنتها الحية دي!

ـــ خلاص يا تيا.. ما أنا قومت بالواجب وزيادة.

ـــ بس قولي لي هي ضربتك ليه أصلًا؟

ـــ بتقولي إن خطيب بنتها سابها أول ما شافني، وقال إيه حبني أنا!

ضحكت تيا بسخرية لاذعة:

ـــ خطيب بنتها؟ اللي اتمسك في قضية مخدرات قبل كدة؟

جلست لمار بأريحية وبدأت بفك طرحتها بعدما تأكدت من غياب آسر:

ـــ هو بعينه! أصل أنا على آخر الزمن هسيب رجالة الكرة الأرضية وأبص لـ سيد؟ ليه إن شاء الله.. بايرة ولا بايرة؟

نهضت تيا متوجهة للمطبخ وهي تعلِّق بابتسامة:

ـــ لا يا حبيبتي مش بايرة، هي بنتها اللي مدلوقة على أي حد، ولما بيسيبها بتبقى عايزة تلبسها فيكي عشان بتغير منك.

حرَّكت لمار شعرها يمينًا ويسارًا وهي تتأمل انعكاسها في المرآة بزهو:

— وليها حق تغير يا بنتي.. أنتِ مش شايفة الحلاوة؟

عادت تيا تحمل طبقًا من الفواكه وجلست تضحك على صديقتها:

— يا بت بلاش نرجسية بقى!

— بذمتك مش من حقي أتغر؟

— لا.. حقك طبعًا.

ساد الصمت قليلًا قبل أن تسأل لمار بجدية:

— هتروحي الكلية بكرة؟

— آه هروح، وأدهم وكايلا هيروحوا مدرستهم.

تأملت لمار وجه تيا بعمق وقالت بنبرة خفيضة:

— مالك يا تيا؟ حاسة إنك مضايقة، في حاجة تانية؟

تركت تيا السكينة من يدها ونظرت للمار بحزن مكتوم:

— حاسة إني زهقت.. زهقت من فكرة إني مش من حقي أمشي مع جوزي في الشارع، ولا أروح له وقت ما أحتاجه.. الموضوع بقى تقيل أوي على قلبي يا لمار.

— إيه اللي جد يا تيا؟ ما أنتِ بقالك خمس سنين عايشة كدة.

لمعت عينا تيا ببريق الغيرة:

ـــ رهف.. البنت دي بقت بتحاول تلفت نظره بكل الطرق، وأنا خايفة.. خايفة إنه.. مش عارفة يا لمار.

ضمتها لمار بهدوء محاولة طمأنتها:

ـــ تيا.. آسر عمره ما هيشوف غيرك. آسر فضل عازب وعينه مبتشوفش غيرك من وقت ما كنتِ عيلة تفتكري هيغير رأيه دلوقتي؟

ابتعدت تيا ونظرت لها بثقة:

ـــ أنا عارفة إن آسر بيحبني.. مش قلقانة منه هو، أنا بس مش فاهمة نفسي!

ربتت لمار على كتفها:

ـــ أنتِ عايزة تظهري للكل.. عايزة العالم يعرف إن آسر الطنطاوي بتاع تيا وبس.. مش كدة؟

أومأت تيا برأسها بضعف، فابتسمت لمار:

ـــ وده هيحصل.. سيبي كل حاجة لوقتها.

حاولت تيا تغيير الجو الكئيب وقالت بمرح:

ـــ هتباتي معايا؟ كدة كدة آسر مش هييجي النهاردة، ونوصل الولاد الصبح ونطلع على كليتنا.

ـــ حاضر يا ستي.. هبات معاكي.

قضيا وقتًا ممتعًا، ومع تأخر الوقت، أعطت تيا ملابس مريحة للمار، وذهبت كل منهما لغرفتها. استلقت تيا على الفراش وأرسلت رسالة صوتية لآسر:

— آسر.. لو صاحي كلمني، عايزة أسمع صوتك.

بعد دقيقتين، اهتزَّ هاتفها باتصال منه، فابتسمت وأجابت بسرعة:

— كنت فاكراك نمت.

أجاب آسر بصوته الرجولي الحنون:

— نمت شوية وصحيت جعان، فنزلت عملت سندوتش وشاي وطلعت تاني.. كنت لسه هبعت لك بس أنتِ سبقتيني.

سكتت للحظات قبل أن تهمس بشوق:

— وحشتني.

— لحقت أوحشك؟ ده أنا لسه سايبك الصبح.

ضحكت بخفوت:

— آه وحشتني.. ومن كلامك باين إني موحشتكش خالص على فكرة!

تنهد بعشق:

— والله لو عليا مش عايز أسيبك أصلًا ويتحرق كل حاجة.. بس نعمل إيه بقى.

— هتروح الشركة بكرة؟

— آه..

— طب هنام بقى عشان الكلية.. وأنت كمان نام بدري.

— حاضر.. تصبحي على خير يا حبيبتي.

— وأنت من أهله.

أغلقت الهاتف وغرقت في نوم عميق، والابتسامة لا تزال تداعب شفتيها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في الصباح..

في قصر عائلة الطنطاوي، وتحديدًا في جناح آسر، اخترقت طرقاتٌ حذرة على الباب سكون الصباح. تمتم آسر بصوتٍ أجش غلَّفه النعاس وهو يسأل بحدة:

— ميين؟

أتاه صوت الخادمة المرتجف من خلف الباب، وهي تجيب باحترامٍ شديد:

— عثمان بيه قالي أصحيك.

— طيب.. انزلي.

— حاضر يا بيه.

اعتدل آسر في فراشه، وبحركةٍ اعتاد عليها كلما ابتعد عن معشوقته، أمسك هاتفه ليسجل لها رسالة صوتية يغمرها الاهتمام، ليكون صوته أول ما تفتتح به يومها:

— صباح الخير.. كنت عايز أتصل بيكي بس قولت أكيد نايمة ومحبتش أزعجك.. لما تصحي ابقي ابعتيلي.

ابتسم وهو يتخيل ملامحها النائمة، ثم نهض ليواجه يومًا شاقًا ينتظره.

بعد أن أدَّى فرضه وجهز نفسه، كانت الساعة قد قاربت السابعة، فلم يطاوعه قلبه على الانتظار أكثر واتصل بها.

لم تجب في المرة الأولى، فأعاد الاتصال حتى أتاه صوتها المليء بالخمول:

— آلو.. مين معايا؟

انطلقت ضحكة هادئة من بين شفتيه:

— أنا آسر يا تيا.

ردَّت بتوهانٍ مضحك:

— آسر مين؟.. حبيبي؟

— آه.. آسر حبيبك، فوقي بقى.

— وإنت بتصحيني ليه دلوقتي؟

— إنتِ وديتي الولاد المدرسة؟

صمتت لثانية قبل أن تسأل بغباء:

— ولاد مين؟

مسح آسر وجهه بيده وهو يضحك بغلب على حالتها:

— ولادنا يا تيا!

هنا شهقت تيا:

— ولادنا إزاي؟

لم يجد آسر مفرًّا غير الصياح باسمها ليقطع حبل تخاريف النوم تلك:

— تياااااا! فوقي يا ماما وراكي كلية!

انتفضت تيا على أثر صراخه:

— إنت بتزعقلي ليه كدة؟

— حمد الله على السلامة يا تيا.. أخيرًا فوقتي.

— طبيعي أفوق.. ده أنت صوتك جاب الناس اللي في الشارع المجاور!

— ها.. وصلتي الولاد؟

— أيوة.. الباص جه وأخدهم من شوية.

— طيب.. اجهزي بقى وروحي الكلية.. مفهوم؟

— حاضر.. من عينيا الاتنين.

أغلقت الهاتف وهي تبتسم بهدوء، ثم تذكرت وجود صديقتها. غسلت وجهها وخرجت من غرفتها لتوقظها، ولكنها بمجرد أن دلفت لغرفة لمار، صاحت:

— لمااار! لا.. إنتِ بتهزري كدة!

حيثُ كانت لمار في قمة استرخائها، تجلس على الفراش وأمامها جهاز اللابتوب تعرض عليه أحد أفلام الأنيمي، بينما تنهمك في تناول المانجو بشهيةٍ نظرت لها لمار باستغراب من أثر صرختها المفاجئة وسألت ببرود:

— بتصرخي ليه يا بنتي في إيه؟

— بصرخ عشان سيادتك صاحية من بدري، وقاعدة بتاكلي وبتتفرجي، ولا فكرتي تصحيني عشان نلحق الكلية!

ردَّت لمار دون أن تحيد بنظرها عن الشاشة:

— بلا كلية بلا وجع دماغ.. اقعدي منها النهاردة كمان، مش هيجرى حاجة يعني.

دارت تيا بعينيها في الغرفة تبحث عن أي شيء تفرغ فيه غيظها، حتى وقعت عيناها على مخدة قطنية، فأمسكتها وانهالت بها ضربًا على لمار وهي تصيح:

— بت إنتِ.. إنتِ هتشليني قومي خلصي!

تركت لمار المانجو من يدها بغيظ وهي تمسح فمها:

— قومت أهو يا ست دحيحة.. بقيتي بتحبي الدراسة أوي يا ختي!

ضحكت تيا على تذمر صديقتها وعادت لغرفتها بخطوات سريعة. أدَّت فرضها بخشوع، ثم دلفت إلى غرفة تبديل الملابس "Dressing Room" الملحقة بجناحها الفخم.

وقفت تتأمل خياراتها بتفكير، وقع اختيارها على بنطالٍ باللون الأسود الداكن، وارتدت فوقه جاكيت جينز بلونٍ ثلجي جذاب، ومن تحته توب ناصع البياض يضفي إشراقًا على وجهها، وأكملت أناقتها بحجابٍ أسود لفتْه ببراعة.

كانت تتحرك بسرعة البرق وهي تسب لمار في سرها لأنها السبب في ضياع الوقت.

سمعت طرقات خفيفة على الباب، فأذنت للمار بالدخول.

أطلَّت لمار برأسها وهي تبتسم ببراءة مصطنعة لتتجنب غضب تيا مجددًا:

ـــ خلصتي؟

ـــ آه خلصت.. أدينا اتأخرنا.

ـــ طيب.. هتفطري هنا ولا في الجامعة؟

ـــ الجامعة طبعًا.. إحنا يدوب نلحق الطريق.

ـــ ماشي.. يلا بينا.

خرجتا من الفيلا، وتوجهتا نحو السيارة، بينما كانت تيا تراجع جدول يومها في عقلها، غافلةً عمَّا قد يواجهها في ممرات الجامعة من استفزازات كانت قد توعدت آسر بأن تقابلها بهدوء، فهل ستلتزم بوعدها؟

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

وفي ذات الوقت..

خلف جدران قصر الطنطاوي العتيقة..

كانت العائلة تجتمع حول مائدة الإفطار، في مشهدٍ يبدو هادئًا من الخارج، لكنه يغلي بالصراعات المكتومة من الداخل. كان الجميع يتناقشون في أمورٍ شتى، أمَّا آسر فكان حاضرًا بجسده فقط، يحدِّق إلى هاتفه بصمت.

قطع حبل أفكاره صوت الجد عثمان الرخيم الذي يحمل نبرة الآمر:

— مش ناوي تتجوز أنت كمان يا آسر؟ أنت تميت الـ 35 سنة.. هتفضل عازب كدة لحد إمتى؟

في تلك اللحظة، انتفض قلب رهف بين ضلوعها بحماسٍ مفرط، فظنها أنَّ الجد قد بدأ أخيرًا في تنفيذ خطة زواجها منه. لكن آمالها سقطت أرضًا وتحولت نظراتها لغضبٍ مستعر حين نطق آسر، وابتسامة باردة ومستفزة تزين وجهه الوسيم:

— لا مش ناوي اتجوز.. أنا مبسوط كدة.

نظر له الجد عثمان بتحدٍ، وعيناه تلمعان بمكر:

— بس أنا شايف إنك لازم تتجوز.

ترك آسر الشوكة من يده ببطء مستفز، ورفع عينيه ليقابل نظرات جده بتحدٍ أكبر، وصوتٍ هادئ كهدوء ما قبل العاصفة:

— والله كان نفسي أقولك اللي تشوفه، بس دي حياتي أنا مش حياتك أنت.. يعني أنا بس اللي أقرر أعمل إيه ومعملش إيه.

تحت الطاولة، وكز سيف شقيقه بقوة لينبهه من حدة كلماته السامة التي يلقيها في وجه الجد، لكن آسر لم يلقِ له بالًا. نهض من مقعده بوقارٍ واثق، وقال بنبرة قاطعة:

— سفرة دايمة.

غادر القصر دون أن ينتظر ردًّا، استقل سيارته الفارهة وانطلق نحو مقر الشركة. وفي الطريق، قطع صمت سيارته رنين هاتفه، كانت مساعدته وفاء:

— آلو.. صباح الخير يا آسر بيه. حضرتك عندك كمان نص ساعة اجتماع مع شركات الحسيني.. حضرتك هتيجي ولا ألغي الميعاد؟

أجاب بجدية ورسمية صارمة:

— لا.. أنا في الطريق، جاي.

— تمام يا فندم.

أغلق الخط وألقى بالهاتف بجانبه، يشعر بضيقٍ يتآكل صدره من محاولات جده المستمرة للسيطرة عليه، لكنه أقسم في سره ألا يسمح له بذلك أبدًا. وصل إلى مقر الشركة، وترجل من سيارته ليدخل المبنى بهيبته المعتادة.

وقف أمام مكتبه، وجد مساعدته وفاء بانتظاره؛ كانت فتاة محتشمة، وجميلة بأخلاقها وبساطتها.

— صباح الخير يا وفاء.

ـــ صباح النور يا آسر بيه.. العملاء مستنيين حضرتك في قاعة الاجتماعات.

هـزَّ رأســه بإيجــاب، وتحــرك بخطــواتٍ واثقــة نحــو غرفــة الاجتماعات لتبدأ معركته اليومية في عالم المال والأعمال.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في بقعةٍ أخرى من القاهرة، وتحديدًا في الحرم الجامعي، كانت تيا تقف، تراقب بعينيها الحادتين نظرات الطلاب والفتيات التي تلاحقها هي ولمار:

ـــ هما شايفين عفاريت ولا إيه؟ مالهم بيبصوا لنا كدة ليه؟

أجابت لمار بلا مبالاة:

ـــ لا.. أصل أنا بقالي أسبوع مبروحش الجامعة وإنتِ كمان فمستغربين.

نظرت لها تيا بدهشة:

ـــ أسبوع؟! يعني إنتِ حضرتي أسبوع واحد.

ـــ أيوة.. وكان أسبوع وحش أوي من غيرك، الجامعة مكنش ليها طعم.

ابتسمت تيا وضمت صديقتها بحب:

ـــ طيب تعالي نلحق المحاضرة بدل ما نترفد إحنا الاتنين.

دلفت الفتاتان إلى المدرج، لتجدا الدكتورة منهمكة في مراجعة بعض الأوراق. وما إن سمعت صوت خطواتهما، حتى رفعت رأسها لتتسع ابتسامتها بترحيبٍ حار:

ـــ تيا؟! فينك يا بنتي؟ إيه الغيبة الطويلة دي؟

ابتسمت تيا بلطف واحترام للدكتورة:

ـــ غيبة إيه بس يا دكتورة؟ دول يا دوب أسبوعين اللي غبتهم.

ولكن صمت الجميع مع توافد الطلاب، واتجهت تيا ولمار إلى مقاعدهما المعتادة وبدأت المحاضرة، وكانت تيا تدير القلم بين أصابعها وهي تستمع بتركيز، حتى لفت نظرها فتاة تجلس في الصفوف الأمامية، تنظر للجميع بتكبرٍ وغرورٍ فج.

همست تيا للمار وهي تشير بعينيها:

ـــ هي دي تبقى..؟

قاطعتها لمار بضحكة مكتومة:

ـــ هي بعينها.. سيرين الطنطاوي.

اتسعت عينا تيا بصدمةٍ حقيقية لم تستطع مداراتها:

ـــ إزاي؟! دي جت هنا إمتى؟

ـــ بعد ما أنتِ سافرتي بيومين بالظبط، لقيناها اتنقلت هنا.. وطبعًا عثمان بيه متوصي بيها جامد والدكاترة بيعملوا لها ألف حساب.

لمعت عينا تيا بخبثٍ أوكراني، وقالت وهي تبتسم ابتسامة ماكرة:

ـــ ده إحنا هنتسلى أوي الأيام الجاية يا لمار.. الجامعة وحشتني بجد!

ردَّت لمار بتوجس:

ـــ نفس اللي قولتله لنفسي والله.. بس من غير أذى عشان آسر ميبهدلكيش.

ازدادت ابتسامة تيا اتساعًا وهي تتابع تحركات سيرين بغموض:

ـــ بالعكس.. ده آسر هيشجعني جدًّا على أي حاجة هعملها.. وهتشوفي بنفسك!

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في قاعة الاجتماعات بشركة الطنطاوي، كان الصمت يطبق على المكان، يقطعه فقط صوت أنفاس الحاضرين المتوترة. كان آسر يجلس بهدوءٍ مستفز، كصيادٍ ينتظر وقوع فريسته في الشباك. تنحنح "تامر الحسيني" وقال بنبرة مهتزة:

ـــ بس يا آسر بيه الشرط الجزائي ده كبير جدًّا، وفي حالة حدوث أي مشكلة، هتكون الخسارة كبيرة بالنسبة لينا.

تدخل سيف، الذي كان يتابع الموقف باهتمام بجانب زوجته داليا وجاسر، وقال بتفكير:

ـــ وإيه اللي هيجيب لكم خسارة؟ هو أنتم ناويين تغدروا بينا ولا إيه؟

ـــ أكيد لا طبعًا.. القصد مش كدة.

هنا، نطق آسر بكلماتٍ كالرصاص الصامت:

— يبقى خلاص.. إيه اللي مانعكم؟ الشرط ده مجرد حبر على ورق.

— بس أنتم مش هتخسروا زينا لو تراجعنا!

— وسؤالنا الأهم.. أنتم هتتراجعوا ليه أصلًا؟

عجز الطرف الآخر عن الرد أمام منطق آسر، وبعد جولة مفاوضات اتسمت بالمهارة والذكاء، استطاع آسر وسيف انتزاع التوقيع بشروطهم الخاصة.

دلفوا جميعًا إلى مكتبه، فقالت داليا بذهول:

— مش مصدقة إنكم قدرتم عليهم! أنا كنت شبه متأكدة إننا هنطلع خسرانين من الصفقة دي.

ابتسم آسر بثقةٍ وهو يعدل وضعية جلوسه:

— هو أنا أي حد يا داليا؟

وقال سيف:

— الحوار كان محتاج زقة مش أكتر.

لكزهم جاسر في كتفهم بمرح:

— لا بصراحة.. برافو عليكم، مدرسة يا ابني والله!

رمقه آسر بنظرة باردة حادة جعلت جاسر يتراجع للخلف وهو يتمتم بخوف مصطنع:

— بهزر والله.. إيه!

ضحك سيف على ذعر جاسر، ثم سأل شقيقه:

ـــ هتروح القصر؟ ولا هتخرج معانا؟

ـــ لا.. هروح في أي حتة غير القصر، وممكن أبات في فندق النهاردة.

تنهد سيف بضيق:

ـــ نفسي أعرف مش بتيجي معانا ليه؟ إحنا عيلتك يا آسر.

ـــ أروح فين؟ أنا ماليش في خروجاتكم دي.. روحوا أنتم.

خرج سيف وداليا وجاسر، وفي الممر قال سيف بحزن:

ـــ نفسي أعرف هيفضل بعيد عننا ومقفل على نفسه كدة لحد إمتى؟

أجابه جاسر بنبرة خفيضة وجادة:

ـــ إنت عارف يا سيف إن اللي آسر شافه مش سهل.

أما في الداخل، فكان الوحش قد تحول إلى عاشق في لحظة. كان آسر يبتسم بعشق وهو يقرأ رسالة تيا المشاكسة:

ـــ آسر تخيل إن بنت عمك سيرين معايا في الكلية، وأكيد هيحصل بينا كلام حتى لو صغير، يا رب بس أقدر أمسك نفسي.

ضحك بخفة وهو يكتب لها بروحٍ مرحة:

ـــ براحتك يا تيا.. اعملي اللي يعجبك، هقفل أنا بقى عشان ورايا شغل.

أغلق هاتفه والابتسامة لا تزال تشرق على ملامحه، ليعود لمباشرة عمله بذهنٍ صافٍ، وقلبٍ معلق معها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كانت تيا تقف في ممر الجامعة، تنظر للمار بضحكاتٍ متتالية على أثر ذهولها، بينما تمتمت لمار بعدما استوعبت ردَّ فعل آسر:

— لا.. بجد إنتِ وجوزك مش طبيعيين.

انفجرت تيا ضاحكة، وقالت بدلالٍ فطري واثق:

— آسر مستحيل يزعل مني أبدًا.

ردَّت لمار بسخرية محببة:

— إنتِ هتقولي لي؟ بأمارة ما كنت كل ما أسألك رايحة فين، تقولي لي رايحة أصالح آسر.

احتقن وجه تيا بغيظ طفولي وصاحت:

— مكنتش كل مرة يعني! هي مرة واحدة بس اللي شوفتيني فيها بصالحه.

كتمت لمار ضحكاتها بصعوبة وقالت:

— مرة واحدة يا تيا؟ ده أنتِ حرفيًّا كنتِ كل شوية بتصالحيه من كتر الخناقات اللي كنتِ بتهببيها! فاكرة موضوع البنت اللي فتحتِ دماغها في أوكرانيا؟

هنا، غاصت تيا في نوبة ضحك عميقة وهي تسترجع ذلك الحدث الذي غير الكثير في طفولتها..

فلاش باك - أوكرانيا

كانت تيا في الثالثة عشرة من عمرها، تجلس في مكتبة المدرسة بتركيزٍ تام، تغوص في صفحات كتابها، بينما تجلس بجانبها لمار بملٍل واضح. سألتها تيا بهدوء:

— مالك يا لمار؟

— نفسي أعرف خليتيني أسافر معاكي ليه؟ ما كنت فضلت في مصر وخلاص.

تجهمت ملامح تيا؛ فهي تفهم صديقتها ككتابٍ مفتوح. تعلم أنَّ لمار تشعر بالحرج من إقامة عائلة تيا لها، وتكفلهم بمصاريف دراستها ولغتها. ضمتها تيا بحنان وقالت:

— مستحيل كنت أسيبك في مصر.. إحنا اتفرقنا سبع سنين، ولما صدقت لقيتك تفتكري هسيبك تمشي؟

همست لمار بصدق:

— تيا.. أنا ماليش غيرك. بابا اتجوز ورماني، وماما اتجوزت ورمتني لتيتا.. أنا اتصدمت لما عرفت إنك عارفة أخباري كلها وجيتي مخصوص لمصر عشان تجيبيني هنا.. بس أنا فعلًا محرجة.

ابتسمت تيا باتساع، وشعرت أنَّ لمار ليست صديقة، بل قطعة من روحها:

— لمار.. أنتِ أختي، والعيلة كلها هنا بتحبك ومبسوطة بوجودك.. فكيها بقى!

كانت لمار ستجيب، لكنها لمحت فتاة من المتنمرات تقترب، فهمست بتحذير:

ـــ بلاش مشاكل، اعملي نفسك مش سامعة.

اقتربت الفتاة لينارا وقالت باللغة الأوكرانية بسخرية:

ـــ أوه.. مشهد مؤثر حقًّا! هل هي لا تمتلك ثمن الطعام لكي تحتضنيها هكذا؟

نظرت لها تيا بأعينٍ متفحصة وباردة:

ـــ لن أرد عليكِ يا لينارا.. لأن هذا ببساطة لا يخصك.

ـــ أنتِ فتاة غبية وحمقاء!

تجاهلتها تيا وعادت لكتابها، لكن لينارا ارتكبت خطأ عمرها حين جذبت الكتاب ومزقته ببرود. هنا.. انطفأ الهدوء في عيني تيا، واقتربت منها بهدوء مرعب:

ـــ هل أنتِ مستعدة لتحمل عواقب ما فعلتِ؟

وقبل أن تسخر الفتاة، أمسكت تيا بـ تحفة ثقيلة كانت على المكتب وضربتها على رأسها بقوة! صرخت لمار بفزع:

ـــ يخرب بيتك يا تيا! هنروح في داهية!

وبعد مدة..

في مكتب المديرة، كان آسر يجلس بضيق ونظر لتيا التي دخلت في نوبة دموع مصطنعة فور رؤيته فأخذها وخرجوا قليلًا ليتحدثوا على انفراد:

ـــ إيه اللي حصل؟ أنا زهقت والله.

ـــ أنت بتزعق لي يا آسر؟ بقى كدة؟

ـــ أيوة وبعد دموع التماسيح دي، إيه اللي حصل؟

قصَّت له ما حدث، فسألها بهدوء:

ـــ أنا مش قولت لك حافظي على هدوئك؟ كدة ضيعتِ حقك باللي عملتيه ده.

ـــ ده جرح صغنن خالص يا آسر!

دخل والدا الفتاة يصرخان، والابنة رأسها ملفوف بـ شاش أبيض عريض وأربع عشرة غرزة! لم يستطع الدفاع عنها فهي بالفعل ارتكبت خطأ فادح وفُصلت من المدرسة لمدة أسبوعين.

في السيارة، كان الصمت يسود وحاولت تيا الكلام:

ـــ آسر..

ـــ مسمعش صوتك لحد ما نوصل القصر!

انهمرت دموعها حقيقةً هذه المرة، وهو، الذي كان يراقبها بطرف عينه، شعر بغصة؛ كان يود احتضانها وتهدئتها، لكنه كان يضع حدودًا صارمة لأنها لم تعد طفلة. فور وصولهم، ركضت تيا

لداخل القصر لتصطدم بجسد جيسيكا؛ تلك المرأة الفاتنة بجمالها الأجنبي وروحها المصرية وطريقتها أيضًا.

ـــ مالك يا قلب جيسيكا؟

ـــ آسر زعلان مني يا جاكي..

احتضنتها جيسيكا وضحكت وهي تسمع القصة:

ـــ هو المفروض ميزعلش.. لأنه هو اللي عودك.

باك...

عادت تيا من شرودها بابتسامة حزينة تداعب شفتيها، لكن الابتسامة تلاشت تمامًا واختفت ملامح المرح من وجهها عندما رأت شلة شباب يتجهون لهم:

ـــ كانت أحلى أيام بوجود جيسيكا.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

بعد يومٍ شاق، كانت تيا تقود سيارتها بهدوء، بينما لمار بجانبها تنهمك في تناول شطيرة الشوكولاتة والنسكافيه الساخن.

سألت لمار فجأة:

ـــ تيا.. هو ليه ولادك بيحبوا السفر أوي كدة؟

أجابت تيا بتركيز وهي تتابع الطريق:

ـــ أدهم بيعشق القعدة معايا أنا وآسر على فكرة، بس برضه بيحب قعدته مع جده.. وكايلا نفس الحكاية، بس هي بتميل لـ لينا وليلا.

— أيوه يعني.. بيسافروا ليه برده؟

ضحكت تيا على تشتت صديقتها:

— يا بنتي قصدي إنهم بيحبوا الأجواء هناك.. السفر ليهم فسحة!

ضربتها لمار بغيظ:

— طب ما تقولي كدة من الصبح! لازم اللفة الطويلة دي؟

توقفت تيا أمام المدرسة، وبعد دقائق، رأت أدهم وكايلا يركضان نحوها بضحكاتٍ تمحو تعب اليوم. فتحت ذراعيها ليرتميا في حضنها الدافئ، واستقبلتهما بحنانٍ غامر.

جلست كايلا على قدم لمار التي لم تتمالك نفسها وظلَّت تقبّل وجنتيها قائلة:

— يا ناس على الحلاوة والجمال!

ثم نظرت لأدهم وأردفت بإعجاب:

— طالعين حلوين أوي يا تيا.

— إنتِ كل ما تشوفيهم تقولي نفس الكلام.

عبست كايلا بطفولة وبراءة:

— يوه يا مامي.. يعني أنا مش جميلة؟

مررت تيا يدها على شعر ابنتها بحنان:

— إنتِ زي القمر يا قلب مامي..

ودَّعت تيا لمار أمام منزلها وانطلقت لبيتها. في الطريق، رفع الصغيران شهادات تقديرهما بفخر:

— بصي يا ماما.. المس أدتنا الشهادات دي عشان كتبنا الحروف ورسمنا صح!

تأملت تيا الشهادات في المرآة والابتسامة لا تفارق وجهها:

— قلب وروح ماما الشاطرين اللي رافعين راسي دايمًا.

دخلوا الفيلا، واتجهت تيا لغرفتها. نزعت طرحتها السوداء لتنساب خصلات شعرها كالشلال الثائر على ظهرها.

اختارت بيجامة بلون الأزرق السماوي، كانت تبرز ملامحها الرقيقة التي تشبه أميرات ديزني.

مرَّت على غرف الأطفال، دللت كايلا وقبَّلت رأس أدهم الفخور بإنجازه الدراسي.

في المطبخ، وبينما كانت تيا تدندن أغنيتها المفضلة وهي تحضر الطعام، شعرت بيدين تحتضناها بقوة.

شهقت بذعر قبل أن تدرك أنَّه هو.. آسر!

— مقولتش إنك جاي ليه يا آسر؟

ضمها بشوقٍ حاول إخفاءه خلف نبرة مراوغة:

— حبيت أعملها مفاجأة.. وبعدين إيه الفرحة دي كلها؟

ده إحنا غيبنا عن بعض يوم واحد بس!

همست في أذنه باستفزاز:

— والله قول لنفسك.

ابتعد بضيق مصطنع وهو يبتسم:

— طب ابعدي بقى وشوفي اللي وراكي.. عيلة فصيلة!

أمسكت كفه قبل أن يرحل:

— اركن جو القط والفار ده على جنب.. وحشتني بجد، وفي حاجات كتير عايزة أتكلم معاك فيها.

— عيوني ليكِ.

خرج آسر ليجد أدهم وكايلا يركضان نحوه. انحنى وضمهما بقوة وقال:

— وحشتوني.. هطلع أغير هدومي وأنزلكم، ونروح نرخم على ماما شوية في المطبخ!

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في أوكرانيا، وتحديدًا في مقر شركة "نوريس" الضخم، كان الصمت يغلف مكتب ألكسندر المهيب، بينما يجلس أمامه أبناؤه الأربعة:

ستيفان، سيرجي، وأدريان، وفيكتور، وبجانب كل منهم أولاده.

كان ستيفان يجلس بوقار وبجانبه ابنه ماكس، وسيرجي الذي لا تفارقه الابتسامة وبجانبه إيفان.

وأدريان وبجانبه يوهان وديم.

كسر ألكسندر الصمت وهو يتحدث بالأوكرانية بنبرة قاطعة:

— نحن نستطيع النزول إلى مصر في أي وقت.. أحوالنا هنا استقرت تمامًا، والعمل يسير كالساعة.

ظهر القلق بوضوح على ملامح فيكتور، وفرك يديه بتوترٍ ملحوظ سائلًا:

— هذا يعني.. أننا سنتجه إلى مصر في أي لحظة؟

نظر إليه إخوته بمساندة وتفهم، بينما تحدث والده بحنانٍ أبوي يحاول طمأنته:

— أجل يا فيكتور.. وأتمنى أن تستعد للمواجهة من الآن، لأني أشعر أنَّها اقتربت أكثر مما نتخيل.

حاول إيفان كسر هذا الجمود والتوتر السائد، فقال بمرحه المعتاد:

— وهل فتيات مصر جميلات مثل فتياتنا هنا؟

انطلقت الضحكات في المكان، واقترب منه ماكس ليضربه على رأسه بمزاح:

— أنت حقًّا تعطي صورة سيئة لشباب العائلة أيها الأحمق! كيف تسأل هذا وأنت لم تدخل في علاقة عاطفية من قبل؟

عدل إيفان خصلات شعره بثقة وغرور مضحك:

— أحب أن أثير الجدل قليلًا أيها الوغد!

ضحك سيرجي وهو ينظر لابنه المشاكس، فابتدره يوهان بسؤال:

— إيفان يشبهك كثيرًا يا عمي سيرجي.. أليس كذلك؟

أجاب سيرجي بدفاعٍ مصطنع:

ـــ لا.. أنا والده نعم، ولكن هذا الأحمق لا يشبهني في شيء!

هنا صرخ فيكتور وأدريان وستيفان في صوت واحد:

ـــ كاااااذب!

ضحك سيرجي مستسلمًا:

ـــ حسنًا.. أنا أكذب، إيفان هو نسختي المصغرة بالفعل.

راقب الجد ألكسندر أبناءه وأحفاده بحب، ثم قال بنبرة دافئة:

ـــ كل شخص منكم يشبه أباه وأمه.. ما عدا تيا، فهي تشبه آسر في كل شيء.

علَّق فيكتور بابتسامة:

ـــ وأيضًا تأخذ ملامح أمي إيفا.. أليس كذلك يا أبي؟

لمعت عينا ألكسندر بحنينٍ لزوجته الراحلة:

ـــ هي بالفعل تشبه إيفا كثيرًا..

أضاف سيرجي بحب لابنة أخيه الغائبة:

ـــ تيا تشبهها في الشكل، وفي قدرتها على احتوائنا جميعًا.. رغم صغر سنها إلا أنَّها كانت دائمًا مَن يخفف عنا ضغوط الحياة.

ابتسم ألكسندر ثم قال بمزاح وهو يطردهم:

ـــ هيا انصرفوا من أمامي ودعوني أجلس بهدوء قليلًا!

ديم سأله بشك مضحك:

ـــ هل حقًّا تريدنا أن نخرج؟

ـــ نعم.. أريدكم أن تخرجوا.

قال بمزاح:

ـــ حسنًا كنت أريد التأكد فقط.

خرج الجميع بضحكات صاخبة، لكن يوهان كان ذهنه في مكان آخر. نظر لهاتفه وسأل عمه فيكتور بقلق:

ـــ لينا وليلا مع نتاليا.. أليس كذلك؟

ـــ لا تقلق يا يوهان، هنَّ معها بالفعل.

لكن يوهان لم يهدأ، فخرج سريعًا واتصل بزوجته نتاليا التي أجابت بضحكة عند سماع صوته القلق:

ـــ هل أنتِ بخير؟

ـــ نعم يا حبيبي.. لا تقلق، أنا بخير، وطفلنا أيضًا بخير.

ابتسم يوهان بعمق، وشعر بسعادة لا توصف وهو يتحسس مستقبلهما القادم:

ـــ أنا أحبكِ جدًّا يا نتاليا.

ـــ وأنا أيضًا أحبك..

أغلق الاتصال والابتسامة لا تفارق شفتيه، بينما كانت رياح التغيير بدأت تهب بالفعل، حاملة معها أسرارًا ستنفجر فور وصولهم لأرض مصر.

في فيلا تيا وآسر الهادئة، كان الوقت قد مضى في مذاكرة الدروس مع صغيريها، وبعدما طبعت قبلةً دافئة على جبين كل منهما وتركتهما يغرقان في سباتٍ عميق، واتجهت إلى غرفتها بخطواتٍ ناعمة.

وجدت آسر يجلس على الفراش، يغرق في أوراقه المبعثرة بعشوائيةٍ حوله.

تسمَّرت مكانها للحظات وهي تتأمله؛ كان يبدو لطيفًا وهو في قمة انشغاله.

اقتربت منه وجلست أمامه بمرح، وعيناها تقطران عشقًا، وقالت بنبرةٍ غازلة:

ـــ شكلك حلو أوي وأنت مشغول كدة...

رفع عينيه عنها وأجاب بنبرةٍ رخيمة غلَّفها العشق:

ـــ مفيش أحلى منك إنتِ... تعالي.

ضحكت بخفة، وقالت بحماس طفلة لا تظهره إلا معه:

ـــ فاضي أحكيلك اللي حصل في الجامعة؟

أغلق شاشة اللابتوب ووضعه جانبًا، مفسحًا لها المجال:

ـــ فاضيلك.

ظلت تقص عليه أحداث اليوم بحماس:

ـــ بس.

— طب الحمد لله اليوم مفيش فيه مشاكل.

ابتسم بحنان ومدَّ يده ليزيح خصلة تمردت على عينيها، ثم تمتم بضيقٍ مكتوم:

— هو أنتِ بقيتي تكسلي تشيلي العدسات وأنتِ معايا؟

ضحكت وهي تنهض متجهةً للمرآة، لتزيل العدسات التي تخفي سحر عينيها الحقيقي:

— بصراحة بقيت بكسل جدًّا فوق ما تتصور..

نظر لها بعشقٍ حين ظهرت عيناها الملونتان اللتان يسلبانه عقله في كل مرة يراهما، وسألها بهدوء:

— مش بلاحظ إنك بتضايقي من موضوع العدسات ده.. ليه؟

— لسببين:..

الأول إني اتعودت أشيلها وأنا معاك أنت بس.

والتاني إني بحس إنها بتخليني أشوف أوضح، رغم إن نظري تمام بس برتاح فيها.

ابتسم براحة؛ فهو يخشى دائمًا أن يشعرها أنها تفعل الأشياء بالإكراه، لكن تيا اقتربت منه وربتت على كتفه بحنان:

— على فكرة أنت مش بتجبرني على حاجة.. أنا مقتنعة بكل حاجة بعملها.

سكن الصمت بينهما للحظة، قبل أن يسألها عن ركنهم الأساسي:

— صليتي فروضك كلها النهاردة؟

— الحمد لله صليتها.. وأنت؟

— الحمد لله.. صليتها.

لمعت عيناها بفخر وهي تتابع:

— أحلى حاجة إننا ملتزمين، وكمان أدهم وكايلا بقوا بيقوموا يصلوا من نفسهم أول ما يسمعوا الأذان..

شعر آسر بسعادة غامرة؛ فجهوده في غرس الإيمان داخل تيا منذ صغرها أثمرت جيلًا جديدًا يحمل نفس المبادئ. وبينما كان الهدوء يلف الغرفة، قرَّر آسر أن يعبث قليلًا بهدوء زوجته، فقال بخبثٍ ومكر لا يُضاهى:

— تصدقي جدي فاتحني للمرة العاشرة في موضوع جوازي أنا ورهف.. متخيلة؟

في ثانية واحدة، تبخر الهدوء، واشتعلت في عيني تيا نيران الغيرة التي تحرق كل شيء، وقالت بنبرةٍ حادة كالسيف:

— وإنت قولت له إيه؟

خرج السؤال من بين شفتيها كحفيف الأفعى، بينما كانت عيناها تشتعلان بنيران غيرةٍ كفيلة بإحراق القصر ومن فيه. نظر آسر لعينيها المشتعلتين، وأجاب بنبرةٍ هادئة، رخيمة، نزلت على قلبها كالماء البارد لتطفئ ثورته:

— زي كل مرة يا تيا.. قولت له إني رافض مبدأ الجواز من أساسه.

صمتت لثوانٍ تتأمل في ملامحه، قبل أن تعود ابتسامتها الساحرة لتنير وجهها من جديد دون أن تنطق بحرف. تعالت ضحكات آسر وهو يهزُّ رأسه بذهول:

ـــ إيه التغيير السريع ده؟ كنتِ من لحظة هتاكليني!

نظرت له بدلالٍ منتصر:

ـــ مش إنت رفضت؟ يبقى أنت كدة تمام.. وتبقى حبيبي وروحي وكل حاجة في دنيتي.. بس لو كنت قولت حاجة تانية، مكنتش أعرف بصراحة كنت هعمل فيك إيه.

مال آسر بجسده نحوها بنظرة ترقبٍ ومزاح:

ـــ كنتِ هتعملي إيه يعني؟

ابتسمت بشرٍ طفولي وهي تحدِّق إلى عينيه مباشرةً وقالت بمزاح:

ـــ والله سيب خيالك يسرح بقى.. ممكن كنت أقطعك حتت وأحطك في الفريزر عشان أفضل شايفاك قدامي دايمًا.. أو أضربك بالنار بس دي موتة كلاسيكية ومملة.. أو ممكن سم مفعوله سريع يخلص الموضوع في صمت ومن دون مجهود.. أو..

وضع آسر يده على فمها بسرعة وهو ينظر لها بدهشة حقيقية:

ـــ يخرب بيتك! إيه الأفكار دي؟

ابتسمت بمزاح وهدوء وقالت:

ـــ طيب.. نام بقى وراك شغل بدري.

نظر لها بهدوء وبسمة صادقة غلفت وجهه:

ـــ حاضر.. تصبحي على خير.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

على ضفاف البحر، حيث يختلط زفير البحر بأوجاع البشر، كانت تقف سارة الطنطاوي.

امرأة في الخامسة والأربعين من عمرها، لكن الحزن المحفور في عينيها جعلها تبدو كأنها حملت هموم الدهر كله. كانت تراقب الأمواج وهي ترتطم بالصخور بعنف، كأن البحر يشاركها ثورتها الداخلية وندمها الذي لا ينتهي.

انهمرت دموعها بغزارة وهي تتذكر أنَّها كانت السبب.. السبب في فراقها عن الرجل الذي ما زال ينبض به قلبها، والسبب الأكبر في ضياع ابنتها منها. جلست على الرمال بضعف، ودفنت وجهها بين يديها بينما غاصت في أعماق ذكرى تعود لخمسة وعشرين عامًا مضت..

فلاش باك – أمريكا...

كانت سارة في العشرين من عمرها، بجمالها العربي الهادئ. وقفت في مكتبة الجامعة تتأمل رفوف الكتب بحيرة، حتى امتدت يدٌ غريبة تحمل كتابًا معينًا وتقدمه لها. رفعت بصرها لتجد شابًا وسيم الملامح، بملامح أجنبية طاغية، لكنه فاجأها حين نطق بلهجة مصرية سليمة:

ـــ الكتاب ده هيفيدك جدًّا في البحث بتاعك.

نظرت له بتعجب، وسألت بعفوية:

— هو أنت مش أمريكي؟

ابتسم بهدوء، ابتسامة جعلت قلبها يخفق للمرة الأولى، وقال وهو يغرق في سحر عينيها:

— جزء مني أمريكي، وجزء من دولة تانية.. بس قضيت سنين في مصر، وصحابي كلهم مصريين، ده غير إن والدتي أجنبية بس عاشت نص حياتها في مصر وبتتعامل معانا بالمصري.. يعني عيلتنا كوكتيل كدة.

ابتسمت سارة وسألت بلطف:

— وأشمعنا الكتاب ده بالذات؟

رفع الكتاب أمام وجهها وقال:

— لأن الدكتورة ماريا ركزت عليه جدًّا وهي بتشرح النهاردة.

— أنت معايا في نفس المدرج؟

— أيوة.. بس لازم أمشي دلوقتي عشان صحابي بينادوا عليا.. بس قولي لي، اسمك إيه؟

— سارة.

اتسعت ابتسامته ونطق اسمها كأنه يذوق طعمًا حلوًا، ثم قال بهدوء:

— وأنا فيكتور.

باك...

عادت سارة من ذكرياتها على شهقة بكاءٍ مريرة مزقت صدرها.

صرخت بصوتٍ خافت ضاع وسط ضجيج الأمواج:

ـــ أنا اللي غلطت.. أنا اللي دمرت كل حاجة بجد! مكنتش أعرف إن التمن هيبقى غالي كدة يا فيكتور.. مكنتش أعرف.

نهضت بجسدٍ يرتعش، وجرَّت أذيال خيبتها وحزنها خلفها. استقلَّت سيارتها وانطلقت عائدةً إلى قصر الطنطاوي؛ ذلك السجن الفخم الذي شهد على ضياع أجمل سنوات عمرها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في قصر عائلة الطنطاوي، وتحديدًا في جناح جاسر، كان يقف أمام المرآة يتفحص مظهره الجذاب بزهوٍ يحاول من خلاله لفت انتباه زوجته ريم. كانت ريم غارقة في شاشة هاتفها، متجاهلةً وجوده تمامًا. تنحنح جاسر محاولًا اختراق حصونها الباردة:

ـــ والدك اتصل بيا وبيقول إنك مش بتردي.. قولتله إنك مش بتسمعي التليفون.

رفعت ريم عينيها ببطء، ونظرت له بنظراتٍ فاترة لا تبالي:

ـــ كنت قولت له إني مش هرد.. لأني قفلته بمزاجي.

التفت إليها بذهول وصدمة:

ـــ وده ليه إن شاء الله؟

تنهدت بعمق وعادت لهاتفها قائلة ببرود:

ـــ مظنش إن دي حاجة تخصك يا جاسر.

اشتعل الضيق في صدره، وكان يود الصراخ فيها لولا كبريائه الذي منعه. أخذ مفاتيح سيارته وقال بلهجةٍ حادة:

ـــ أنا نازل.. وهتأخر.

ردَّت دون أن ترفع بصرها:

ـــ مسألتكش.

ترك الغرفة وهو يغلي من الداخل، متسائلًا بمرارة عن سبب غضبه من تجاهلها، وهو الذي يقنع نفسه ليل نهار بأنه لا يكنُّ لها أي مشاعر!

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في جناح سيف، كان يرتدي حذاءه بضيق وهو يراقب "داليا" المنهمكة في أوراقها، فسألها بنبرةٍ جافة:

ـــ هو ليث فين؟ مشوفتهوش النهاردة.

ـــ راح المدرسة ورجع، ومن وقتها وهو في أوضته.. بس غريبة إنك بتسأل!

حدَّق إليها بسخرية:

ـــ قولت أسأل جايز تفتكري ابنك اللي أنتِ رمياه ده.

انتفضت داليا بغضب:

ـــ ده على أساس إنك أنت اللي مهتم أوي؟

أدرك سيف أنَّ الجدال معها عقيم، فتركها واتجه لغرفة طفلهما. فتح الباب ليجد ليث غارقًا في ألوانه وكراسته. سأله بصوتٍ خفيض:

— بتعمل إيه يا ليث؟

رفع الصغير عينيه الزرقاء الواسعة التي ورثها عن أمه، وبشرته القمحية التي أخذها عن أبيه، وأجاب بهدوء:

— برسم يا بابا.

جلس سيف بجانبه وتأمل الرسمة؛ رأى ثلاثة أطفال يمسكون أيدي بعضهم البعض. سأل باستغراب:

— مين دول يا حبيبي؟

أشار ليث للأول بحب:

— ده أدهم.. ودي كايلا.. وده أنا. إحنا أخوات يا بابا ومش هنتفرق أبدًا.

تعجب سيف، فهو يعلم انطوائية ابنه:

— اتعرفت عليهم إمتى؟

— من سنة.. أدهم وكايلا شاطرين أوي وبياخدوا شهادات تقدير، وأنا كمان خدت زيهم.

ضمه سيف بحنانٍ أبوي صادق، وشعر بغصة في حلقه وهو يرى ابنه يبحث عن الإخوة خارج جدران هذا البيت البارد.

ودَّعه ونزل ليجد جاسر واقفًا في الردهة بتوهان، فسأله:

ـــ مالك؟

تمتم جاسر بكلمات غير مفهومة، فصرخ به سيف محاولًا إفاقته:

ـــ مش فاهم! ما تتكلم عدل!

انتفض جاسر وصاح هو الآخر:

ـــ خضتني يا سيف! هو أنا ناقصك؟

ـــ أنت اللي سرحان.. اركب يلا.

انطلقت السيارة بهما، وسند سيف رأسه على الزجاج مراقبًا الطريق:

ـــ هنروح فين؟

ـــ أي حديقة.. أي بحر.. المهم نفك عن نفسنا شوية.

أغلق سيف عينيه بتعب وهمس:

ـــ هنتخنق تاني يا جاسر.. متستعجلش.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

قصر عائلة كورولينكو، وفي سكون غرفة الجد ألكسندر، كان يجلس على فراشه يمرر أصابعه بحنان فوق صورة زوجته الراحلة. تنهد بعمق وهو يهمس بنبرةٍ غلبها الشوق:

ـــ اشتقتُ إليكِ كثيرًا يا إيفا.. حدث الكثير في غيابك، الكثير جدًّا.

ثم انطلقت ضحكةٌ خافتة من بين شفتيه وهو يتابع:

— تيا وآسر تزوجا أخيرًا.. أتذكرين حين كنت أقول لكِ أنهما سيقعان في العشق؟ لقد صدق حدسي، بل إنَّ حب آسر بها قد ازداد حتى بات لا يرى غيرها.

أغمض عينيه، لتجرفه أمواج الذكريات إلى ذلك اليوم البعيد.

فلاش باك...

كان ألكسندر يجلس بجوار زوجته إيفا، يراقبان أحفادهما وهم يركضون في حديقة القصر، وضحكاتهم تتعالى كمعزوفة موسيقية تملأ الروح بالبهجة. لكن عين ألكسندر التقطت مشهدًا آخر؛ آسر وتيا يجلسان في ركنٍ بعيد، غارقين في حديثٍ خاص وضحكاتٍ خافتة لا يسمعها سواهما. مال ألكسندر نحو زوجته وقال بهدوء:

— آسر وتيا يجلسان وحدهما.. ألا يلفت هذا انتباهكِ لشيء؟

نظرت إليهما إيفا باستغراب، ثم رفعت عينيها الملونتين نحوه قائلة:

— لا.. أراهما طفلين لطيفين فحسب.

— بل هو العشق يا إيفا.. أراه يلمع في عيني آسر بوضوح.

شهقت بخفة، وانطلقت الكلمات من بين شفتيها باللغة المصرية التي تعشقها:

— إزاي ده؟ ده أكبر منها باتناشر سنة يا ألكسندر!

ضحك ألكسندر وهو يحتضن كتفيها ويهمس:

ـــ لا أعلم لماذا تصرين على التحدث بالمصرية دائمًا، رغم أنَّك أوكرانية الأصل!

سندت رأسها على كتفه وأجابت بابتسامة حالمة:

ـــ مش عارفة.. بحسها لغة سهلة وقريبة للقلب، وبعدين إنت مش بتتكلم بيها ليه؟

ـــ أحيانًا أفضل لغتي الأم.. ثم لا تخرجي عن مسار حديثنا.

عادت إيفا لتنظر لآسر وتيا، لكن ملامحها تبدلت للقلق وقالت:

ـــ حتى لو حصل ده مش عايزة العليتين يتقابلوا، مش عايزة فيكتور يعاني، عايزة أموت وأنا مطمنة عليه.

انتفض ألكسندر بفزع وحاوط وجهها بكفيه:

ـــ لا تقولي هذا! ستظلين معي لنكمل تربية أحفادنا معًا.

ابتسمت بحنانٍ وضمته قائلة بصوتٍ هادئ كأنها تودع الدنيا:

ـــ متقلقش.. محدش يعرف القدر مخبي إيه.

باك...

سقطت دمعة حارقة من عيني ألكسندر لتستقر فوق زجاج الصورة:

ـــ كنتِ تشعرين بالرحيل يا إيفا.. لكنني كنت صادقًا حين أخبرتكِ أنَّ زواجهما هو المكتوب.

ابتسم وسط دموعه وأكمل:

— والآن أصبح لديهما كايلا وأدهم أيضًا.. كم أتمنى لو كنتِ هنا لتريهما.. اشتقتُ إليكِ يا عزيزتي.

احتضن الصورة بقوة، كأنه يستمد منها الدفء، حتى غلبه النوم في عناقٍ مع الماضي.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في الصباح الهادئ داخل فيلا آسر وتيا، كانت تلك المدللة تتحرك بكسلٍ فوق فراشها، تداعبها خيوط الشمس المتسللة من النافذة، قبل أن تهمس بنعاس:

— آسر.. قوم بقى.

همهم آسر بضيق وهو يحاول استعادة غفوته، سحبت تيا الغطاء قليلًا محاولةً إيقاظه، فقال بصوتٍ مبحوح:

— سيبيني يا تيا.. خمس دقايق بس.

كان سيعود للنوم بالفعل، لكنه فجأة استوعب شيئًا؛ فهي إن استكانت الآن، ستتأخر عن جامعتها، وحينها سينال هو نصيبه من التوبيخ لأنها ستلقي باللوم عليه كالعادة.

فتح عينيه بجهد وقال:

— قومي يا تيا.. أنا صحيت أهو، بلاش كسل.

لكن تيا، ببرود تجاهلت كلامه وأكملت نومها، فصاح بها بنعاس:

— بت.. اصحي بقى.

فتحت عينًا واحدة ونظرت له بضيقٍ مصطنع:

ـــ بتصحيني ليه دلوقتي؟

ـــ عشان جامعتك يا أستاذة.. مش عايزك تتأخري.

هنا، بدأ الكسل يهرب من وجهها، واعتدلت في جلستها لتغرق في عينيه البنيتين، وقالت بنبرةٍ تذوب عشقًا:

ـــ أنا راضية ذمتك.. في واحدة عاقلة في الدنيا تسيب العيون دي وتنزل الجامعة؟ دي تبقى حمارة.

انطلقت ضحكة رجولية من أعماق آسر وهو ينظر لها بإعجاب، وقال بمشاكسة:

ـــ يا شيخة! أنتِ بتحاولي تثبتيني عشان متنزليش، مش كدة؟

همست بصدقٍ وهي تقترب منه:

ـــ لا والله.. أنا فعلًا مش عايزة أسيبك وأقوم.

ابتسم آسر وضمها إليه، وكان على وشك أن ينطق بكلمة، ولكن فجأة.. دوت صرخة رنين هاتف تيا لتكسر هذا الهدوء نظرت تيا لشاشة الهاتف، لتجد المتصل هي نتاليا، زوجة ابن عمها يوهان. أجابت بلهفة:

ـــ أهلًا نتاليا.. كيف حالكِ أنتِ ويوهان؟

جاءها صوت نتاليا بالأوكرانية، واهنًا ومتعبًا:

ـــ تيا.. أشعر بألم شديد في بطني ولا أعلم السبب، أنا خائفة.

ابتسمت تيا بطمأنينة وقالت بحنان:

ـــ لا تقلقي يا عزيزتي، هذا أمر طبيعي جدًّا في شهور الحمل الأولى.

ـــ ماذا أفعل؟ الألم يزعجني.

ـــ حاولي تدليك بطنكِ بهدوء، وتمشي قليلًا في أرجاء المنزل.. كنتُ أفعل ذلك حين كنتُ مكانكِ.

بعدما انتهت المكالمة، حدَّق إليها آسر باستغراب وسأل بعفوية:

ـــ هي بتولد ولا إيه؟

ضحكت تيا بمرح:

ـــ تولد إيه يا آسر؟ دي لسه في الرابع! مجرد وجع بسيط.

ابتسم آسر حين جرفته الذكرى لأيام حمل تيا:

ـــ فاكرة لما كنتِ بتصحي في نص الليل وتتسحبي عشان تتمشي في الجنينة؟

تبدلت ملامح تيا لابتسامة باهتة وقالت بعتاب رقيق:

ـــ كنت بطلع عشان مضايقكش.. خصوصًا إنك مكنتش عايز الحمل ده في الأول.

تنهد آسر بضيق وهو يجذبها إليه، هامسًا بصوتٍ يحمل كلَّ الصدق:

— أنا مكنتش رافض الفكرة، أنا كنت خايف عليكي. كنتِ لسه صغيرة، وعندك كلية ومستقبل وحياة صعبة.. كنت عايز نأجلها بس عشان تقدري وتتعودي على حياتك الجديدة.

نظرت له بجدية:

— ودلوقتي.. شايفني مقصرة؟

لامس وجهها بحب قائلًا:

— بالعكس.. إنتِ قدرتي تكوني أم وزوجة وصاحبة، وكمان طالبة ناجحة، ومحافظة على علاقتك بربنا. إنتِ قدرتي تتفوقي على نفسك.

دخلت تيا في أحضانه أكثر كأنها تستمد منه الطاقة، لكنه فجأة جذب خصلات شعرها بلطف وصاح بمشاكسة:

— قومي يا بت بقى بلاش دلع.. جامعتك!

— آسر! قولت ميت مرة متشدش شعري!

غرزت أسنانها في يده بغيظ، ليصرخ آسر متألمًا:

— تيا!!!! إيدي ورمت بسببك.. بجد هزعلك!

ردَّت ببراءة مصطنعة:

— بعمل لك ساعة.. أنا غلطانة يعني؟

لم يتركها تفر بفعلتها، فجذب شعرها مرة أخرى بانتصار وهو يضحك:

ـــ كدة تعادل.. يلا قومي اتوضي عشان نصلي الصبح سوا.

بعد الصلاة، ساد صمتٌ ثقيل قبل أن تسأل تيا بتلعثم:

ـــ هي.. داليا كويسة؟

أغمض آسر عينيه بأسى، فهو يعلم مدى قلقها على أختها رغم كل شيء، فأجابها ليهدئ روعها:

ـــ كويسة يا تيا.. متقلقيش عليها.

نزلا معًا للمطبخ، وتشاركا في تحضير الإفطار وسط ضحكاتهما ومناوشاتهما المعتادة. وحين حان وقت الرحيل، وقف آسر ببدلته السوداء الفخمة التي زادته هيبة ووسامة، فقالت تيا بإعجاب:

ـــ لا شياكة شياكة يعني!

ردَّ بغرور مصطنع:

ـــ طبعًا.. ده أنا البنات هتموت عليا النهاردة.

رفعت تيا سكينًا من على الطاولة ووجهتها نحوه بوعيد:

ـــ بتقول حاجة يا آسر؟ مسمعتش!

ـــ أنا؟ لا ده أنا بقول الأكل طعمه حلو تسلم إيدك.

ضحكا سويًا، لكن الضحكة انقطعت حين قال آسر بجدية:

ـــ تيا.. أنا همشي دلوقتي، واحتمال مجيش غير بعد يومين أو تلاتة بسبب الشغل.

اعتصر الحزن قلبها، فضمها بقوة:

ـــ عارف إنه كتير.. بس غصب عني.

ـــ ولا يهمك يا حبيبي.. بس اتصل بيا كتير.

ودعها بقبلة على رأسها ورحل، تاركًا خلفه فراغًا لم يملأه سوى ركض أطفالها أدهم وكايلا نحوها بملابس المدرسة. جهزتهم وودعتهم، ثم صعدت لتبدل ملابسها وتتجه لصديقتها لمار، لتبدأ فصلًا جديدًا من يومها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في منزلٍ بسيط يتوسط حارة شعبية، كانت رائحة الإفطار المصري التقليدي تملأ الأرجاء، ممزوجة بنظافة وترتيب يعكسان ذوق صاحبة البيت الرفيع رغم بساطة الإمكانيات. زفرت لمار بضيق حين تعالت أصوات المشاجرات المعتادة في الخارج، ولكن فجأة.. تناهى إلى مسامعها صوت احتكاك إطارات سيارة تيا المألوف.

ارتدت لمار إسدالها سريعًا وأطلت من الشرفة، لتجد تيا تترجل من سيارتها بهدوءٍ وثبات. نادتها أم سعاد بابتسامة:

ـــ بت يا تيا.. فينك يا بنتي مختفية كدة؟

ـــ معلش يا أم سعاد، كنت مشغولة والله وما صدقت جيت.

هنا تدخلت أم زينب بنبرةٍ يقطر منها الكره والسم:

ـــ وكنتِ فين بقى يا ست تيا؟

رمقتها تيا بنظرة باردة حادة وردت بوعيد:

— خليكي في حالك يا أم زينب، بدل والله أطلع لك أنا وأنا على أخري منك.. خصوصًا بعد اللي عملتيه مع لمار.

صرخت أم زينب بغضب:

— هي اللي بدأت.. هي اللي خطفت خطيب بنتي!

ابتسمت تيا بكيدٍ وهي تلمح زينب تقف بجوار أمها:

— والله مش ذنبنا إن بنتك مش عارفة تملى عينه.. جاية تلومي لمار ليه؟

ضغطت أم زينب على أسنانها بينما قالت زينب باحتقار:

— وهو هيبص لها على إيه؟ دي مقطوعة من شجرة ومالهاش راجل نكلمه!

هنا ضحكت تيا بشرٍ مستطير:

— والله يا حبيبتي الرجولة مش بالعدد.. ما أنتِ أخوكي موجود أهو ومش عارف يلمك ولا يعلمك الأدب! ولمار مالهاش راجل آه.. بس الحارة كلها تشهد لها بأخلاقها، ولا إيه يا أم سعاد؟

— عندك حق يا بنتي.. منهم لله الظلمة!

دخلت تيا منزل لمار التي كانت تنفجر ضحكًا:

— يخرب بيتك بجد.

خلعت تيا طرحتها لتنساب خصلات شعرها بحرية وقالت بغيظ:

ـــ ست حربايـة..

بينما كانت لمار تحضر الفطار، وقعت عينا تيا على خبرٍ صحفي هزَّ كيانها: "آسر الطنطاوي.. هل سيتزوج من رهف الطنطاوي أم هي مجرد إشاعة؟".

قرأت الخبر بصوتٍ مرتجف، لتقول لمار التي جاءت وهي تحمل الأطباق:

ـــ يا بنتي ده خبر مش مؤكد.. إيه اللي مضايقك؟

رفعت تيا الهاتف أمام وجه لمار لتجد رهف قد وضعت قلوبًا على الخبر.

ـــ عادي ممكن بالغلط بتحصل في أحسن العائلات.

ـــ لمار متعصبنيش! إزاي أتحمل إن الناس كلها فاكرة إنهم مخطوبين وأنا لازم أسكت!

حاولت لمار تغيير مجرى الحديث:

ـــ تيا.. هو إيه الفرق بين غيرتك وغيرة آسر؟

تقبلت تيا تغيير مسار الحديث وابتسمت بهدوء:

ـــ مفيش فرق غيرة عادية.

ـــ بأمارة العدسات؟

ـــ العدسات دي وعد بينا وأنا مبسوطة بيه جدًّا.

سألتها تيا فجأة:

ـــ وإنتِ يا لمار؟ مش ناوية تتجوزي؟.

ـــ ها لا... وبعدين مش وقته.

ـــ وماكس؟ أنا مش غبية وفاهمة.

تجمعت الدموع في أعين لمار الزرقاء:

ـــ بخاف يا تيا.. بخاف حياتي تطلع زي حياة أبويا وأمي.. أطلع بأطفال وأترمي في الشارع.

ـــ لمار.. ماكس بيعشقك، وإنتِ كمان بتموتي فيه.. بلاش تضيعي عمرك في الخوف.

سكتت لمار قليلًا ثم سألت وهي تغير الحديث مرة أخرى:

ـــ إيه اللي مانع آسر يعلن جوازكم لحد دلوقتي؟

أجابت تيا برزانة وغموض:

ـــ مستنيين اللحظة المناسبة.. عثمان الطنطاوي فرَّق بين بابا وماما زمان، وآسر مش عايز يديله فرصة يفرقنا.. بس حاسة إن اللحظة دي قربت أوي يا لمار.. قربت جدًّا.

قطبت لمار حاجبيها بعدم فهم وسألت:

ـــ يعني إيه الوقت قرب؟

لمعت عينا تيا بخبثٍ لم تستطع إخفاءه، وأجابت بنبرةٍ واثقة:

ـــ جدو ألكسندر قالي إنه ممكن ينزل مصر في أي وقت.. وإنتِ عارفة ده معناه إيه يا لمار.

اتسعت عينا لمار بصدمة وهتفت بذهول:

— سارة وفيكتور.. هيتقابلوا تاني!

ساد صمتٌ ثقيل لثوانٍ، قبل أن تلمح لمار نظرة حزنٍ خاطفة انكسرت في أعين تيا، ممتزجة بمرارةٍ قديمة وهي تهمس:

— وهقابل الست اللي سابتني ومفكرتش فيا ثانية واحدة.. رغم إنها المفروض أمي.

شعرت لمار بوجع صديقتها، فاقتربت منها وضمتها بقوةٍ كأنها تحاول حمايتها من ذكرياتها الأليمة:

— لا يا تيا.. بلاش تضعفي دلوقتي بالذات. اللي جاي مش سهل خالص.

أخذت تيا نفسًا عميقًا، كأنها تستعيد درعها الواقي، ثم ابتسمت ابتسامةً باهتة وقالت وهي تنهض:

— عارفة.. قومي بقى البسي عشان نلحق الكلية، ورانا يوم طويل.

وبالفعل، قامت لمار بتجهيز نفسها، وانطلقتا معًا نحو الجامعة.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

داخل جدران شركة الطنطاوي العريقة، كان يجلس عثمان الطنطاوي بهيبته الطاغية وجبروته الذي يخشاه الجميع.

كان يرمق آسر بنظراتٍ ثاقبة، بينما جلس آسر أمامه بكل ثقةٍ وغرور، كأن هذا العجوز لا يرهبه.

في ركنٍ آخر، كان سيف يراقب الموقف بتوتر، مرسلًا إشارات تحذيرية بعينيه لآسر كي يظل هادئ، بينما جلست داليا ببرودٍ تام، تتابع ما يحدث كأنها تشاهد مسرحية لا تعنيها.

كسر عثمان الصمت قائلًا بصوتٍ أجش:

— كنت متأكد إنك هتكسب الصفقة دي يا آسر..

أجاب آسر بابتسامة باردة لم تصل لعينيه:

— دي حاجة من فضل ربنا.

مال الجد بجسده للأمام، وضيق عينيه وهو يقول:

— راجل ناجح في حياتك العملية.. مش ناوي بقى تبقى ناجح في حياتك الشخصية وتفرحنا؟

ردَّ آسر بغموضٍ استفزَّ الجد:

— لا.. مش ناوي.

هنا فقد عثمان صوابه، وضرب بقبضته فوق المكتب الخشبي بقوة جعلت الأقلام تهتز، وصاح بغضب:

— أنا زهقت منك.

كان آسر على وشك أن ينفجر صراخًا في وجه جده، لكن فجأة.. انفتح الباب بعنف ودلفت رهف وهي تتباكى بدموع مزيفة، يتبعها جاسر بملامح قلقة. هتفت رهف بصوتٍ مرتجف:

— جدو! إلحقنا.. سيرين حد ضربها في الجامعة وهي دلوقتي في مكتب العميد!

في البداية، كان آسر سيتجاهل الأمر تمامًا، لكن فجأة لمعت صورة تيا في خياله، وتذكر شقاوتها وقوتها، فارتسمت على شفتيه ابتسامة مكرة وخطيرة. نهض بهدوء وعدل ياقة حلته الفخمة وقال:

— طيب يلا بينا..

انطلق الجميع نحو الجامعة، وآسر في داخله يضحك؛ فهو يعلم جيدًا أنَّ معشوقته قد بدأت لتوها في ردِّ الصاع صاعين.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

داخل مكتب العميدة نورا، كان الهواء مشحونًا بالتوتر. تقف سيرين وهي تنتحب بصوتٍ مرتفع، ووجهها يحمل آثار معركة لم تكن تتخيل خسارتها، بينما تجلس تيا ببرودٍ تام وابتسامة شماتة تزين ثغرها، وهي تسترجع ما حدث قبل قليل..

فلاش باك...

عندما وصلتا إلى الجامعة، توجهت تيا ولمار إلى الكافيتريا. جلستا تتبادلان الضحك، حتى قامت لمار لتجلب القهوة قبل بدء المحاضرة.

وفجأة، اخترق مسامع تيا صوت ارتطامٍ قوي، لتلتفت وتجد لمار ملقاة على الأرض والقهوة الساخنة تغمر ملابسها، بينما تقف سيرين الطنطاوي بغرورها المعهود وسط شلتها وهي تضحك بسخرية.

شعرت تيا بغليان الدماء في عروقها؛ تحركت كالبرق، مدت يدها للمار لتنهض، ثم التفتت لسيرين بأعينٍ تشتعل شرًا:

ـــ إنتِ قد الحركة اللي عملتيها دي؟

ضحكت سيرين باستهزاء كلفها الكثير:

ـــ آه قدها.. وهتعملي إيه يعني؟

في لحظة، لم تدرك سيرين كيف أصبحت خصلات شعرها بين قبضة تيا، التي انهالت عليها بضرباتٍ عنيفة لقنتها درسًا لن تنساه.

باك...

انقطع شريط ذكرياتها بصوت فتح الباب بعنف. دلف عثمان الطنطاوي بجبروته، وابتسمت تيا بشماتة، لكن الابتسامة تلاشت وحل محلها اشتياقٌ جارف حين وقع بصرها على داليا. كانت تقف بشموخ وجبروت أنثوي فريد، وحقًّا كانت فاتنة. لمحت تيا نظرة آسر المحذرة لها لكي لا تفضح أمرها، فاستعادت قناع البرود فورًا.

صاح الجد عثمان بغضب وهو يرى حفيدته:

ـــ إيه اللي حصل يا سيرين؟

قالت سيرين بشهقات متقطعة:

ـــ ضربتني يا جدو.. شوفت عملت فيا إيه؟

اتسعت ابتسامة آسر؛ كان يشعر بشماتة لا حدود لها في سيرين، ونظر لتيا بعشقٍ ثم غمز لها بعينه في خفاء، لتضحك تيا بلطف على دعمه.

لكن ملامحها تحولت لغضبٍ عارم حين رأت رهف تلتصق بآسر بجرأة مستفزة.

همست تيا للمار بحدة:

ـــ شوفتي بتقرب منه إزاي؟ والله هقوم أجيبها من شعرها دلوقتي وأخليها هي وأختها زي بعض.

جذبتها لمار من ملابسها لتجلس:

ـــ اهدي يا تيا! إنتِ دلوقتي طالبة ضربت بنت عمه.. مش مراته.

لاحظ آسر نيران الغيرة في أعين زوجته، فدفع رهف عنه بجفاء ونظر لها باشمئزاز. صرخ عثمان في تيا:

ـــ إنتِ إزاي تمدي إيدك عليها؟ إنتِ متعرفيش هي بنت مين؟

ردَّت تيا ببرود واستفزاز:

ـــ والله لو بنت رئيس الجمهورية كنت همد إيدي عليها برده.. هي اللي بدأت وأنا مبسمحش لحد يغلط فيا.

حاولت سيرين الإنكار والاحتماء بجدها، لكن صمت أصدقائها وتجاهلهم لها جعلها تنصدم. في هذه الأثناء، كانت داليا تدقق في ملامح تيا بتركيزٍ غريب، فسألتها فجأة:

ـــ إنتِ اسمك إيه؟

أجابت تيا بابتسامة غامضة:

ـــ تيا عاصم.

استغربت لمار الاسم، لكن تيا تجاهلتها. سألت داليا بشكٍ طفيف:

ـــ هو إحنا اتقابلنا قبل كدة؟ وشك مش غريب عليا.

شعرت تيا بدقات قلبها تقرع كالطبول؛ هل تذكرتها شقيقتها؟ خرج صوتها مبحوحًا:

ـــ لا.. متقابلناش قبل كدة.

صاح عثمان مطالبًا برفد تيا، ليتدخل جاسر بمشاكسة وهو يتأمل جمال تيا:

ـــ لا يا جدو مش للدرجادي.. الآنسة أكيد مكنش قصدها.

نظر له آسر بضيقٍ مكتوم، فقالت تيا بتوتر وهي تتهرب من أعين آسر:

ـــ مدام تيا لو سمحت.

سألها جاسر بذهول:

ـــ هو أنتِ متجوزة؟

ضحك سيف بسخرية وهو يضرب كتف جاسر:

ـــ بتقولك مدام يا أذكى إخواتك.. هتبقى إيه يعني؟

شرحت العميدة حقيقة ما حدث، ليعتذر سيف عن تصرف ابنة عمه.

نهضت تيا بشموخ وهي تمسك حقيبتها وتجذب لمار:

ـــ شكرًا.. مش محتاجة أسف، أنا خدت حقي بإيدي.

هروح أحضر المحاضرة اللي ضاع نصها بسبب النقاش ده.

تركتهم خلفها في ذهول، وذهبت لتكمل يومها، تاركةً داليا غارقة في تساؤلاتها.

في أوكرانيا، وتحديدًا داخل أروقة إحدى المدارس الثانوية، كانت التوأمتان لينا وليلا تجلسان جنبًا إلى جنب، تتبادلان المزاح والضحكات التي تخفف من وطأة اليوم الدراسي. تنهدت "ليلا" بملل وقالت:

ـــ الواحد زهق من المدرسة دي والله.. مابتخلصش!

ضحكت لينا وهي تنقر كتف شقيقتها بخفة:

ـــ آه.. بتفضلي تقولي كدة دلوقتي، وبكرة لما ندخل أولى جامعة، هتبقي هتموتي وترجعي لأيام تالتة ثانوي بأي طريقة!

فجأة، تلاشت الابتسامة عن وجه ليلا وحل مكانها شرودٌ حزين. اقتربت منها لينا بقلق:

ـــ مالك يا حبيبتي؟ إيه اللي قلب حالك كدة؟

نظرت لها ليلا بهدوءٍ يحمل في طياته الكثير من التساؤلات:

ـــ تفتكري يا لينا.. تيا ممكن تبعد عننا لما داليا تدخل حياتها؟

شهقت لينا بصدمة من فكرة شقيقتها التي وصفتها بالحمقاء:

ـــ لا طبعًا! إنتِ بتقولي إيه؟ تيا مش بس أختنا الكبيرة، دي الأم اللي عوضتنا عن جيسيكا..

ابتسمت ليلا بلطف، وقالت بنبرةٍ أوكرانية عاشقة لشقيقتها الكبرى:

ـــ تيا استطاعت أن تكون زوجة وأمًّا حنونة، وشقيقة رائعة.. لن تتركنا أبدًا.

ابتسمت لينا براحة وضمت توأمتها بحبٍ صادق.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

وفي مكانٍ آخر بأوكرانيا، داخل مكاتب شركة نوريس الفخمة..

كان ماكس يجلس غارقًا في تأمل صورة معشوقته التي خطفت قلبه بملامحها المصرية الرقيقة. تلاشت ملامحه الحالمة وحلَّ محلها الضيق عندما فُتح الباب بقوةٍ أطارت سكون المكتب. رفع رأسه ليجد إيفان أمامه، فصاح بغضب:

ـــ هو أنا مش قولت لك ألف مرة تخبط على الباب قبل ما تدخل؟

انطلقت ضحكة إيفان الصاخبة وهو يغلق الباب خلفه:

ـــ يا عم كبر دماغك مش باخد بالي.. المهم، اعترف كنت سرحان في إيه؟

زفر ماكس بضيق وهو يحاول إخفاء الصورة:

ـــ هكون سرحان في مين غيرها يعني؟

جلس إيفان أمامه بمرح:

ـــ طيب ما تروح وتقولها؟

غيم الحزن على عيني ماكس وهو يهمس بضعف:

ـــ هترفض يا إيفان.. أنا متأكد.

ربت إيفان على كتف ابن عمه بمساندة أخوية:

ـــ هتكون ليك في الآخر والله.. الصبر بس.

ابتسم ماكس وضمه بامتنان:

ـــ شكرًا إنك دايمًا جنبي يا إيفان.

ـــ إحنا إخوات يا ماكس.. طبيعي أكون جنبك.

لكن فجأة، انتفضا كلاهما من مكانهما بفزع، عندما فُتح الباب مرة أخرى بقوةٍ هائلة كادت أن تكسره، ليدخل يوهان، الذي وقف يرمقهما بابتسامةٍ مستمتعة أثارت حنق ماكس. صرخ ماكس بنفاد صبر:

ـــ هو المكتب ده بقى كافيه وأنا معرفش؟ مفيش ذوق خالص؟ مفيش استئذان؟

لم يكترث يوهان بكلماته، بل سار بخطواتٍ واثقة وارتمى على الأريكة الموجودة في زاوية المكتب بأريحية تامة، ونظر لماكس ببرودٍ مرح:

ـــ لا مفيش استئذان.. وبعدين ما أنت بتدخل مكتبي من غير ما تخبط ومبفتحش بوقي، اشمعنا دلوقتي بقى عندك ذوق؟

انفجر إيفان ضاحكًا وهو يسرع بالجلوس بجوار يوهان، وقال بزهوٍ مصطنع:

ـــ الحمد لله.. أنا الوحيد في العيلة دي اللي محدش بيقدر يدخل مكتبي بالطريقة الهمجية دي!

وكزه يوهان في كتفه بخفة وهو يسخر منه:

ـــ ده على أساس إنك بتقعد في مكتبك دقيقتين على بعض أصلًا؟

ضحك ماكس بيأسٍ وهو يهز رأسه من تصرفات أولاد عمه، وشعر أنَّ توتره بخصوص لمار بدأ يتلاشى قليلًا وسط هذه المشاكسات العائلية الدافئة.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<.

داخل غرفة القراءة الهادئة بجامعة الطب، كانت لمار تحاول استيعاب ما حدث في مكتب العميدة.

مالت نحو تيا وهمست بصوتٍ خافت:

ـــ تيا.. إيه عاصم دي؟ هو أنتِ مش أبوكي اسمه فيكتور وجدك ألكسندر؟ جبتي الاسم ده منين؟

ابتسمت تيا ببرودٍ وهدوء:

ـــ لو كنت قولت تيا فيكتور، داليا كانت هتعرف إني أختها.. وأنا مش عايزة ده يحصل دلوقتي.

شهقت لمار بعدم فهم:

ـــ طب إزاي هي متعرفتش عليكي من شكلك؟

ضربتها تيا بخفة على يدها وهي تهمس بغيظ:

— يا بنتي هي آخر مرة شافتني كان عندي حوالي 5 سنين.. دلوقتي أنا 23 سنة! الملامح اتغيرت تمامًا.

لم تقتنع لمار وسألت بمجادلة:

— طب حتى لو قولتي تيا فيكتور، الأسماء كتير مكنتش هتشك.

نظرت لها تيا بنظرة تحمل الكثير من السخرية على غباء صديقتها:

— هو أنا اسمي بالكامل إيه؟

— تيا فيكتور ألكسندر كورولينكو.

— وداليا اسمها إيه؟

صمتت لمار لثوانٍ قبل أن تتسع عيناها بدهشة:

— داليا فيكتور ألكسندر كورولينكو!

تنهدت تيا:

— يعني الاسم هيعرفها يا لمار.. وعشان كدة اتفقت مع العميدة إن لو حد سأل عني، تقول تيا عاصم وتخفي ملفي الحقيقي.

نظرت لها لمار بإعجاب شديد:

— أنا حقيقي مشوفتش كدة.

ابتسمت تيا بغرور، لكن سرعان ما انطفأت البسمة وحلَّت مكانها نيران الغيرة عندما تذكرت رهف وهي تلتصق بآسر. لاحظت لمار التحول المفاجئ فقالت بقلق:

— هو أنتِ بتتحولي ولا إيه؟ مالك؟

— أنا وآسر هنتخانق خناقة فلة النهاردة في التليفون.

— واشمعنا في التليفون؟

— عشان الأستاذ هيبات في القصر.. يعني هيكون في نفس البيت مع الهانم اللي كانت بتتمسح فيه!

حاولت لمار تهدئتها بنبرة حكيمة:

— تيا.. اهدي وبلاش تنكدي على نفسك وعليه. البت هي اللي مش متربية، هو ذنبه إيه؟

ردَّت تيا بغليان:

— كان بإيده يبعدها أكتر من كدة!

— هو بعدها فعلًا يا تيا بلاش تظلميه.. إحنا شوفناه وهو بيزقها.

شعرت تيا ببعض التوتر لأنها تعلم صدق كلام لمار، لكن كبرياؤها منعها من الاعتراف، فأصرت بطفولية:

— وليه يسيبها تقرب أصلًا؟

ضحكت لمار بصوتٍ عالٍ لفت أنظار الطلاب، فرفعت يدها تعتذر لهم قبل أن تهمس لتيا بمشاكسة:

— هو شخص واحد بس اللي بيعرف يسيطر على جنانك ده يا تيا.. وآسر مش موجود دلوقتي.

حدَّقت إليها تيا بغيظ وبدأت تبرطم بكلمات غير مفهومة من شدة عصبيتها، وهي تتخيل المواجهة القادمة مع زوجها.

داخل ردهة قصر الطنطاوي الفخمة، كان صوت الجد عثمان يتردد بحدة، وهو يصب جام غضبه على سيرين الواقفة أمامه بانهيار، والدموع تنهمر من عينيها كالشلال.

صاح بها بجفاء:

ـــ إنتِ لسه بتعيطي؟ طبعًا ليكي حق، لما تخلي واحدة متسواش تمد إيدها عليكي وتهزقنا!

شعر آسر بضيقٍ شديد كاد أن يخنقه من حديث جده المزعج عن زوجته، فقبض على كف يده بقوة وهو يتمتم في سرّه بمرارة:

ـــ متسواش؟ دي تسوى بلدك كلها.

حاول جاسر التدخل لتهدئة الموقف، فقال مدافعًا بصوتٍ هادئ:

ـــ خلاص يا جدو.. موقف وخلص، مش محتاج كل العصبية دي.

لم يحتمل آسر البقاء أكثر، فنهض بصمتٍ مهيب متجهًا إلى غرفته بالأعلى.

وبمجرد أن دلف للداخل وأغلق الباب، ارتمى على فراشه بإرهاقٍ شديد، فقد استنفدت أحداث اليوم طاقته بالكامل.

لم تمر دقائق حتى غرق في نومٍ عميق، هربًا من ضجيج القصر ومن نظرات رهف التي تلاحقه.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

ـــ تبًا لك أيها الأحمق الصغير!

صرخت بها كاترينا، تلك السيدة التي خط الزمن آثاره على وجهها الوقور، وهي تلاحق طفلًا صغيرًا يركض بمرح، مرتسمًا على وجهه برودٌ وذكاء ورثهما عن أبيه.

هذا المشاكس الصغير هو ليو أندريا بترو كوفالينكو، الذي صاح بصوتٍ مرتفع ليغيظ جدته:

ـــ أنا لستُ أحمق يا جدتي العزيزة.. الأحمق هو من يتسلل ليلًا ليأكل طعامكِ المفضل!

ولم يكد ينهي جملته حتى صرخ متألمًا إثر صفعةٍ خفيفة على رأسه من يد والده الوسيم والمشاغب أندريا بترو كوفالينكو، الذي قال محذرًا:

ـــ اصمت يا ليو.. فإذا وصل حديثك لعمك تاراس، فسيبرحك ضربًا.

شهقت الجدة كاترينا بصدمة:

ـــ ولماذا يضربه تاراس؟ هل هو من يسرق طعامي حقًّا؟

قهقه أندريا وهو يرتمي على الأريكة بلا مبالاة:

ـــ نعم يا جدتي..

لم تنتظر كاترينا ثانية واحدة، بل صاحت بأعلى صوتها:

ـــ تاراااس.

جاءها صوته المشاغب من بعيد:

ـــ أنا هنا يا جدتي.. لا داعي للصراخ!

ركضت خلفه وهي تلوح بيدها:

ـــ أنت من يأكل طعامي أيها الوغد؟

ردَّ تاراس وهو يركض ضاحكًا:

ـــ أنا وليو.. لستُ وحدي!

شعر الصغير ليو بالخطر يقترب، فاحتمى بوالده كفأرٍ يخشى هجوم أسد، وهمس بوجل:

ـــ أبي.. هل ستتركني لها؟

ردَّ أندريا ببرود مضحك:

ـــ بالتأكيد يا عزيزي.. فليكن الله في عونك.

هنا قرر ليو استخدام سلاحه السري، وهمس بتهديد:

ـــ إذن سأخبر أمي عن أليندرا!

تصلَّب جسد أندريا وكاد أن يصرخ به ليصمت، لكن فات الأوان.. فقد جاء الصوت الأنثوي العذب والمحمل بالغضب من خلفهما:

ـــ ومن هي أليندرا؟

كانت ميرا، زوجة أندريا، تقف بملامحها الطفولية التي اشتعلت غضبًا.

ترك أندريا طفله فورًا واتجه نحوها محاولًا التبرير:

— لا أعلم يا ميرا عمَّا يتحدث هذا الوغد الصغير!

— طفلي ليس وغدًا يا أندريا! قل لي يا حبيبي.. من هي أليندرا؟

اقترب ليو من والدته بملامح بريئة لا تمت لواقعه بصلة، وقال بهمس:

— إنها سيدة جديدة تعمل مع أبي في الشركة.

نظرت ميرا لزوجها بعبوسٍ قاتل، فتربَّت أندريا على رأسها بحنان محاولًا استرضاءها:

— لا تصدقيه.. إنه يحاول إيقاعي في المشاكل كالعادة.

لكن ميرا حملت طفلها وقبَّلته بحب قائلة:

— صغيري لا يكذب أبدًا!

عبس أندريا بغيظ، ثم جذب ليو من أحضانها ووضعه في أحضان تاراس الذي كان يتابع المشهد بتسلية، وقال بحنق:

— أنت من جعلته يشبهك يا تاراس.. إذن أكمل تربيته وحدك!

ثم أمسك بيد زوجته ميرا واتجه بها للخارج..

تعالت ضحكات تاراس وليو بانتصار، لكن الضحكات تحولت لصرخات ذعر فجأة.. عندما وجدا الجدة كاترينا تقف أمامهما وتنظر لهما بضيقٍ شديد.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في زاويةٍ مظلمة من زوايا الذاكرة، حيث تفوح رائحة الموت والخوف، كان يجلس طفلٌ ضئيل يرتجف بشدة. نظر آسر الصغير ليديه الملطختين بدمائه التي نزفت من جسده المرهق، وهمس بصوتٍ مبحوح يملأه الانكسار:

— ما.. ما.. سـ..يف..

كانت دموعه تشق طريقها فوق وجنتيه الشاحبتين، وقلبه الصغير يئنُّ من خذلانٍ لا يرحم. كان يدرك في قرارة نفسه أنَّ أمه لن تأتي، وأنَّ والده غائبٌ في عالمه، وشقيقه سيف لن يخاطر. وفجأة.. انفتح الباب ليدخل شعاع نورٍ خافت، لكن الفرحة لم تدم، فقد تجسد كابوسه في هيئة عثمان الطنطاوي الذي قال بسخرية مقيتة:

— لا.. مينفعش كدة يا آسر، هو في راجل بيعيط؟

كتم آسر شهقاته بيده الملونة بالدماء، لكن الجد اقترب وضغط بقسوة على جرحه المفتوح، لتنطلق صرخة ألمٍ مزقت سكون المكان. وبقلبٍ لم يعرف يومًا معنى الرحمة، رفع عثمان عصاه الخشبية وانهال على حفيده بالضرب، معاتبًا إياه على رغبته في اللعب كبقية الأطفال!

انتفض آسر من نومه والعرَق يتصبب من جبينه، وظلَّ يتنفس بصعوبة وهو يتلفت حوله بفزع، حتى بدأ يستوعب أنَّه في غرفته بالقصر. نظر في هاتفه ليجدها الرابعة فجرًا؛ لم يكن يطمح لشيء سوى سماع صوتها.. هي الوحيدة القادرة على طرد أشباح ماضيه.

ضغط على زر الاتصال، وبعد ثوانٍ، جاءه صوتها الهادئ:

ـــ آلو؟

ـــ عاملة إيه؟

ـــ الحمد لله كويسة.. كنت لسه هكلمك عشان تصلي الفجر.

تنهد بثقلٍ لاحظته هي فورًا، فسألته بقلق:

ـــ مالك يا حبيبي؟ صوتك مش مطمني.

ـــ حلمت بكابوس وحش أوي يا تيا.

ـــ إيه هو؟

ـــ مش عايز أفتكره.. عايز أنساه وبس.

جاءها صوته الحنون كأنها تربت على قلبه المنهك:

ـــ طيب قوم اتوضى وصلي، وأنا معاك على الخط مش هقفل.

وبالفعل، استعاد آسر سكينته بفضل صوتها؛ توضأ وصلَّى وأطال السجود يشكو همه لرب العالمين. وعندما انتهى، سأل بهدوء:

ـــ تيا.. إنتِ لسه معايا؟

ـــ معاك يا حبيبي.. صليت؟

ـــ الحمد لله.. روحي نامي بقى عشان جامعتك.

ـــ مش عايزة أنام.. خليني معاك شوية.

ابتسم آسر بعشقٍ حقيقي؛ تيا بالنسبة له هي الزوجة والصديقة والأم التي حُرم منها.

قاطعت تفكيره بسؤالٍ محمل بالحب:

ـــ تعرف تيجي؟

ـــ مش هينفع دلوقتي.. قولتلك هغيب يومين بالكتير، بس ليه؟

همست بحزن:

ـــ قلبي واجعني عليك.. حاسة إنك مش كويس.

ـــ لا يا حبيبتي، أنا كويس.. متقلقيش.

استمر الحديث بينهما بكلماتٍ دافئة، حتى استسلم كلاهما لنومٍ عميق، وقلوبهما متعانقة رغم المسافات.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

انسابت خيوط الشمس الدافئة فوق أرضية الغرفة، لتداعب وجه تيا بلطف كأنها توقظها لاستقبال فجر يوم جديد. أصدرت تيا صوتًا خافتًا ينمُّ عن انزعاجها الرقيق، قبل أن تدلك عينيها وتنهض بابتسامة ناعمة تزين ثغرها. خطت نحو الشرفة، ليستقبلها الهواء النقي مداعبًا خصلات شعرها السوداء التي لمعت تحت الضوء كالحرير.

ـــ الجو حلو النهاردة.. أكيد لمار زمانها في الطريق.

تمتمت بها وهي تضحك بخفة، ثم بدأت روتينها المعتاد بكل حيوية؛ غسلت وجهها بالماء البارد، واختارت فستانًا رقيقًا بلون البحر مع حجاب أبيض ناصع، لتبدو كفراشة هادئة.

اتجهت لغرفة أطفالها، غمرتهم بقبلاتها الحانية وساعدتهم في الاستعداد، ثم ودعتهم عند حافلة المدرسة بقلبٍ مطمئن. كادت أن تعود للداخل، حتى اخترق هدوء الصباح صوت لمار المرح:

ـــ تياااااا!

ـــ يخرب عقلك خضتيني! في إيه؟

ـــ مفيش.. بعرفك إني جيت بس.

ـــ طب تعالي بقى نفطر سوا.

دلفتا للداخل، ووقفتا في وقت واحد تنظر كل منهما للأخرى بإعجاب، لتقولا معًا:

ـــ شكلك تحفة النهاردة!

ضحكتا بصخب على تلك العادة التي لا تنقطع بينهما، وجلست لمار في المطبخ تتأمل طاولة الإفطار:

ـــ كيك ونسكافيه وميادة الحناوي؟ شكلك رايقة ع الآخر النهاردة..

ـــ صح..

ـــ مش ماكس رن عليا؟

ـــ بجد طب احكي.

ابتسمت تيا بمكر، فتلعثمت لمار وحاولت الهروب، لكنها استسلمت في النهاية لتبدأ في سرد ما حدث..

فلاش باك...

في حي لمار الشعبي، وسط ضوضاء الباعة وصياح النسوة، استيقظت لمار بضيق وهي تظن أنَّ يومها سيكون عسيرًا. وبينما تتصفح هاتفها، تجمدت أطرافها حين رأت اسم ماكس ينير الشاشة. أجابت بصوت مرتعش:

— صباح الخير.

جاءها صوته الرجولي الدافئ الذي تعشقه:

— صباح النور.. عاملة إيه؟

— الحمد لله.

ساد صمتٌ محمل بالأمنيات، كانت لمار تنتظر كلمة واحدة تشفي قلبها المتلهف، لكن ماكس هدم كل أحلامها حين سأل ببرود مصطنع:

— وتيا أخبارها إيه؟

ابتسمت بمرارة وقالت:

— هي كويسة.. ما كنت ترن عليها هي؟

صمت قليلًا قبل أن ينهي المكالمة بكلمات كالرصاص:

— طيب اقفلي.. هرن عليها أنا.

أغلقت الخط وظلت شاردة في خذلانها، لا تدري أنَّ خلف هذا البرود بركانٌ من الخوف.

باك...

نظرت لمار لتيا لتجدها تبتسم بمشاغبة واضحة، فهتفت بتوتر:

— مالك بتبصيلي كدة ليه؟

— ولا أي حاجة يا روحي.. عادي.

— تيا أنا مش مرتاحة ليكي أبدًا!

ابتسمت تيا بشرود وهي تحدث نفسها:

— أما نشوف آخرتكم إنتو الاتنين يا لمار..

قاطعت لمار تفكيرها بحدة:

— سرحتي في إيه؟ وقومي بقى عشان الجامعة.. هنروح بعربيتي ولا عربيتك؟

— لا.. بعربيتي النهاردة.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

خارج فصول مدرسة إنترناشيونال الراقية، كان يقف أدهم وشقيقته كايلا يرمقان ليث بنظراتٍ يملأها الضيق. زفر ليث بضيق مماثل وصاح بهما:

— مالكم؟ بتبصولي كدة ليه؟

حدَّق إليه أدهم ببرودٍ شديد، وهو برودٌ لم يكن غريبًا على من يرى والده، ثم همس بغيظٍ مكتوم:

— إنت؟! ده أنا المفروض أضربك ضرب.. بسببك وبسبب كلامك، المس زعقت لنا كلنا قدام الفصل!

تعجب ليث من اتهامه وحاول الدفاع عن نفسه:

ـــ ليه بس؟ المس زعقت لي أنا لوحدي، إنتوا ذنبكم إيه؟

هنا تدخلت كايلا بنبرةٍ طفولية:

ـــ ليث.. إحنا مع بعض في أي حاجة عشان إحنا إخوات، يعني أكيد لازم نزعل لزعل بعض.. ماما قالت لي كدة دايمًا.

خيَّم الحزن على ملامح ليث الطفولية، وسأل بتساؤلٍ مرير يراوده دومًا:

ـــ أيوة أخوات.. بس كل ما بسألكم باباكم فين، بتسكتوا ومحدش بيرد عليا!

لان برود أدهم قليلًا، ونظر لليث بنظرةٍ تحمل حنانًا أخويًّا دفينًا وقال:

ـــ إحنا أخوات فعلًا يا ليث.. بس ماما طلبت مننا منتكلمش مع أي حد في الموضوع ده، وإحنا مش عايزين ماما تزعل مننا أبدًا.

تنهد ليث بيأسٍ طفولي وتمتم:

ـــ ماشي.. خلاص.

فجأة، قفزت كايلا بحماس محاولةً تغيير الأجواء:

ـــ النهاردة ميس الرسم جاية يا ليث! فاكر؟

ارتسمت الفرحة فورًا على وجه ليث:

ـــ بجد؟! أنا رسمت الرسمة اللي قالت عليها وجهزتها!

أجاب أدهم بهدوءٍ ورزانة:

— أنا مش بحب الرسم.. ماليش فيه.

— مش ناوي تتعلم يا أدهم؟

— لا.. الميس هناك أهي، اسكتوا بقى عشان متزعقش تاني.

— حاضر.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

— آسر..

همهم آسر بضيقٍ مكتوم حين تناهى لمسامعه صوت رهف المزعج. التفت إليها ببرودٍ جليدي وسأل بجفاء:

— خير؟

— ممكن توصلني النادي في طريقك؟

مالت شفتاه بابتسامةٍ ساخرة وباردة:

— لا مش ممكن والله.. وبعدين هو إنتِ ملكيش عربية ولا إيه؟

تنحنحت بإحراج وقالت محاولةً التودد:

— لا عادي.. بس حبيت نقعد مع بعض شوية.

— ونقعد مع بعض ليه أصلًا؟ بقولك إيه يا رهف، ابعدي عني عشان آخر ما هزهق مش هتعرفي هعمل فيكي إيه!

نغزه سيف من تحت الطاولة وهمس محذرًا:

ـــ جدك هيقعد يزعق.. اسمع واسكت وخلاص، إحنا مش ناقصين نكد.

تجاهله آسر وأنهى قهوته بضيق، ثم نهض موجهًا حديثه للجد عثمان:

ـــ أنا ماشي.. وقول لـ جلال بيه يحضر الاجتماع النهاردة.

ردَّ الجد باستنكار:

ـــ هو مش جلال ده أبوك؟ ما تروح تكلمه إنت!

ضحك آسر بسخرية مريرة:

ـــ أبويا؟! مش مهم.. قوله وخلاص لأني مش هكلم حد.

استوقفته سارة وهي تنهض:

ـــ عايزة أتكلم معاك يا آسر.

ـــتمام.. تعالي معايا الشركة.

وبينما كانت تركب بجانبه في السيارة، همس آسر لنفسه بسخرية:

ـــ اتفضلي يا حماتي..

بدأت سارة الحديث بهدوء:

ـــ مش عايز تتجوز رهف ليه يا آسر؟ أنا مش شايفة سبب مقنع للرفض.

ضحك آسر بصخب ساخر:

ـــ هما فقدوا الأمل فخلوكي تكلميني إنتِ؟

ـــ ومالي أنا يا آسر؟

نظر إليها ببرود أطاح بمشاعرها:

ـــ واحدة نسيت بنتها وعايشة حياتها عادي كأنها متعرفهاش.. منتظرة إني أسمع لها؟

دمعت عينا سارة بضعف:

ـــ أنا.. أنا معرفش عنها حاجة.. وأكيد..

قاطعها بقسوة:

ـــ تيا اترحمت لما بعدت عنك وعن العيلة المريضة دي.. إنتِ فشلتي تكوني أم لداليا، فكنتي هتفشلي مع تيا أكيد.

صرخت سارة بغضب:

ـــ وإنت مالك ومال تيا؟ أنا بكلمك عن رهف!

ـــ وأنا جاوبت.. مش هتجوز.

حدَّقت إليه بشك وقالت:

ـــ آسر.. لو مستني تيا ترجع يبقى عمرك ما هتتجوز.

ابتسم آسر ابتسامة ماكرة وهو يحدث نفسه بانتصار:

ـــ ياااااه.. نفسي أشوف اليوم اللي تكتشفي فيه إن تيا مراتي أصلًا من 5 سنين، وعندي منها ولد وبنت.

ساد صمتٌ ثقيل، وبينما كان آسر يغرق في حنينه المفاجئ لتيا وهربه إليها بخياله من قسوة الواقع، تنهد تنهيدة حارة.. وفجأة، انتفض على صرخة سارة المذعورة وهي تغلق عينيها بهلع:

ـــ حاااااااسب يا آسر!!!

توقفت سيارة آسر بصريرٍ حاد قبل أن تصطدم بتلك السيارة المستهترة بإنشاتٍ قليلة. تجمَّع المارة في ثوانٍ، واقترب رجلٌ عجوز يسأل بقلق:

ـــ إنت بخير يا بني؟ حصلكم حاجة؟

ردَّ آسر وهو يحاول التقاط أنفاسه:

ـــ الحمد لله يا حاج.. قدر ولطف.

كان آسر يحدِّق بغضب إلى السيارة التي كادت أن تنهي حياته، وكاد أن يفقد السيطرة على أعصابه، لكنه تمتم في سره: اهدى.. مش هناخد ذنوب عشان أشكال زي دي.

لكن هدوءه تبخر حين نزل من السيارة الأخرى شابٌ في العشرينيات، يبدو عليه الثراء الفاحش والاستهتار، وقال ببرود مقزز:

."Sorry!"

نظر إليه آسر باشمئزاز وأردف ببرودٍ لاذع:

ـــ "لو مش بتعرف تسوق، ابقى قول لابوك يجيب لك سواق.. ربنا سترها المرة دي، المرة الجاية ممكن تموت حد يا..

قاطعه الشاب بغرور:

ـــ أحمد.

ـــ مش مهم أعرف اسمك..

تركه آسر يغلي من الغضب وعاد لسيارته، لتقول سارة بهدوء:

ـــ ده أحمد المنياوي.. ابن..

ـــ عارف.. ابن حسن المنياوي.

ـــ عرفت إزاي؟

لم يجبها آسر بل اكتفى بنظرة استهزاء وأكمل طريقه، بينما غابت سارة في عالمٍ آخر.. عالمٍ لم يكن فيه سوى هو.. معشوقها فيكتور.

فلاش باك...

كانت سارة تجلس في كافتيريا الجامعة، تحاول جاهدة فهم مادةٍ تمقتها، لكن وجود فيكتور بجانبها كان يهون كل شيء. قطع شرودها جلوسه أمامها بابتسامةٍ ساحرة:

ـــ أهلًا يا سارة.

ردَّت بخجلٍ فطري:

ـــ أهلًا فيكتور.

ـــ بتعملي إيه؟

تاهت سارة في نبرة صوته الدافئة، ورفعت عينيها لتغرق في زرقة عينيه التي تشبه سماءً صافية لم ترها من قبل. كان ينظر إليها كأنه يكتب في ملامحها العربية قصيدة عشق، وقال فجأة:

ـــ إنتِ حلوة أوي يا سارة.. ماما كانت دايمًا تقول إن جمال الست العربية بيخطف القلب من غير إنذار، مكنتش أعرف إن ده هيحصل معايا.

خفضت رأسها بحياء، وهمست بتوتر:

ـــ فـ.. فيكتور..

قاطعها بهمسٍ مشحون بالعاطفة:

ـــ بيحبك.

ـــ ها؟

ـــ فيكتور بيحبك يا سارة.

وقعت الكلمة على قلبها كالنسمة الباردة في عز الهجير. سألها بإصرار وهو يستمتع بخجلها:

ـــ بتحبيني؟

تعمَّقت في النظر لملامحه الأجنبية الوسيمة وقالت بوجنتين تشتعلان حمرة:

ـــ بحبك.

ابتسم بعشقٍ وهو يهمس:

ـــ وأنا بعشقك.

باك...

أفاق آسر على الابتسامة الرقيقة التي ارتسمت على وجه سارة المرهق، فتعجب من تبدل حالها لكنه آثر الصمت. فكل ما يشغل باله الآن هو صغيرته التي اشتاق لها حد اللعنة. قبض على مقود السيارة بقوة وهو يعد نفسه:

— هيجي اليوم اللي محدش هيقدر يبعدك عن حضني دقيقة واحدة يا تيا.. وعد!

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

هل سمعتم من قبل عن ترابط القلوب؟

هذا بالضبط ما كانت تشعر به تيا في تلك اللحظة؛ كأن خيطًا خفيًّا يربط نبضها بنبضه، شعرت بآسر دون أن تراه. وضعت يدها على موضع قلبها الذي انتفض فجأة، ونظرت أمامها بشرودٍ عميق، مما أثار تعجب لمار التي نادتها مرارًا:

— مالك يا تيا؟ تيااااا!

انتبهت تيا أخيرًا وهي تحاول استجماع شتات نفسها:

— ها.. أه.. معاكي، في حاجة؟

— واضح جدًّا إنك معايا! بتفكري في إيه يا بنتي؟

— مش بفكر في حاجة مخصوص.

— يا شيخة؟ يعني مش بتفكري في حبيب القلب؟

ابتسمت تيا بخبثٍ ومشاغبة، وقررت قلب الطاولة على صديقتها:

ـــ اممم.. وإنتِ بقى، بتفكري في حبيب القلب برده ولا إيه؟

اشتعلت وجنتي لمار غيظًا وردت سريعة:

ـــ أنا مش بفكر في حد أصلًا!

ـــ اممم.. قولتيلي. صحيح يا لمار، فاكرة لوسيندا؟

بمجرد سماع الاسم، التمعت عينا لمار ببريق غيرةٍ حارق؛ فهي تعلم تمامًا أطماع تلك السيدة في ماكس، سألت بثباتٍ مصطنع:

ـــ مالها؟

ـــ كان في اجتماع معاها امبارح، وحقيقي كان نفسي أحضر بس مالحقتش، فقولت لماكس يحضر هو بدالي.

اشتعلت شرارة الغيرة في قلب لمار، وهمست بصوتٍ خافت يحمل مرارة مكتومة:

ـــ وحضر معاها فعلًا؟

ـــ أكيد طبعًا.

تظاهرت لمار بالبرود، لكن بداخلها كانت البراكين توشك على الانفجار. في تلك الأثناء، كانت تيا تبحث بتوتر في حقيبتها:

ـــ لمار.. مشوفتيش تليفوني؟

ـــ تليفونك قدامك يا تيا على الترابيزة! في إيه يا ماما مالك؟

تنحنحت تيا بإحراج وهي تمسك الهاتف:

ـــ تصدقي صح.. مش عارفة مالي، حاسة إني مخنوقة أوي.

اقتربت لمار منها بحنان وربتت على يدها:

ـــ مخنوقة من إيه؟ حصل حاجة؟

ـــ مش عارفة يا لمار.. مش عارفة.

ـــ طيب تيجي نقوم نصلي؟ العصر بيأذن أهو.

اتسعت ابتسامة تيا برقة حين قفزت لذهنها كلمات آسر التي كان يهمس بها في أذنها منذ طفولتها كلما رآها حزينة:

"أول ما تحسي إنك مخنوقة يا تيا، روحي اتوضي وصلي.. الصلاة مش حمل تقيل، بالعكس دي المكان الوحيد اللي هترتاحي فيه بجد، وربنا هيسمعك في كل اللي مخبياه.. أنا يمكن مش متدين للدرجة الكافية، بس الصلاة دي الحاجة اللي عمري ما هسيبها".

ـــ تياااااا!

انتشلها صوت لمار من ذكرياتها الدافئة، فقامت تيا بهدوء وابتسامة صافية:

ـــ جاية أهو.. يلا بينا.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في مكانٍ يغلفه هدوءٌ قاتل، كانت رائحة القهوة تفوح معبأة بالذكريات، بينما ينساب صوت أغنية أمريكية من هاتفٍ موضوع

بإهمال. هناك، على ذلك الكرسي العتيق، كان يجلس "فيكتور كورولينكو".. هادئ الملامح، لكن بداخله عواصف لم ولن تهدأ.

كانت عيناه تتنقلان بمرارة بين صورتين؛ صورة ورقية قديمة لفتاة في العشرينيات بملامح تخطف الأنفاس، وجريدة حديثة تظهر فيها نفس السيدة في الأربعينيات من عمرها. همس بصوتٍ مهتز:

— لسه زي ما إنتِ يا سارة.. متغيرتيش. لسه جميلة، وأنا لسه بحبك زي ما أنا.

انقبض قلبه وهو يتذكر اليوم الذي قلب موازين حياته..

فلاش باك...

كان فيكتور الشاب يجلس بتوتر أمام والده ألكسندر ووالدته الرقيقة إيفا. سألت إيفا باهتمام:

— ما بك يا بني؟

— أنا.. أنا أحب يا أمي.

تهلل وجه إيفا بسعادة غامرة:

— حقًّا يا فيكتور؟ أوه يا عزيزي، أخيرًا دقَّ قلبك!

— نعم يا أمي.. ولكنها فتاة عربية.

اتسعت ابتسامة إيفا كأنها تلقت هدية ثمينة:

— هذا رائع! فأنا أعشق الفتيات العربيات.

غازل ألكسندر زوجته متجاهلًا ابنه:

ـــ ولكنني أعشقكِ أنتِ يا إيفا.. فأنتِ الأجمل دائمًا.

خجلت إيفا وهمست برقة:

ـــ ألكسندر!

قبل أن تعود لاهتمامها بفيكتور:

ـــ من هي؟ زميلتك؟ وهل هي جميلة؟

لمعت عينا فيكتور وهو يتخيل وجه سارة الفاتن، عينيها البنيتين، وشعرها الأسود المموج كليلٍ طويل:

ـــ هي ليست جميلة فقط يا أمي.. بل فاتنة. إنها مصرية.

تأثرت إيفا وقالت بحزن دفين:

ـــ أصبتَ الاختيار يا عزيزي.. يكفي أنَّ صديقتي الراحلة كانت مصرية.

سأل ألكسندر بهدوء:

ـــ ومن تكون؟

ـــ سارة الطنطاوي.

وقع الاسم كالصاعقة على إيفا، فتلاشت ابتسامتها فورًا وحلَّ مكانها صرامة غريبة:

ـــ لا!

ـــ لا؟ ولكن لماذا يا أمي؟ أنا أحبها!

قالت إيفا ببرودٍ غير معهود:

ـــ أنا أرفضها يا فيكتور.. وهذا يكفي.

نظر فيكتور لوالده طلبًا للمساعدة، لكن ألكسندر ربت على كتف زوجته وقال بهدوء:

ـــ لقد قالت والدتك لا.. وهذا أمر.

ثار فيكتور وصرخ بغضب

ـــ ولكن هذه حياتي!

وتركهم خلفه وهو يركض نحو قدره المجهول.

باك...

تسربت دمعة حارة من عيني فيكتور، لترسم طريقها فوق وجنته المنهكة:

ـــ أنا تركت والدتي وحدها.. تركتها تتألم بسببي. أنا أكرهكِ يا سارة.

ثم أغمض عينيه باستسلام، وهو يهمس لنفسه بصدقٍ يمزق الروح:

ـــ أنا كاذب.. أنا أحبكِ أكثر من أي وقتٍ مضى.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

ـــ ليو.. أين أنت يا صغيري؟

نادت "ميرا" وهي تبحث في أرجاء المنزل، لكنها شهقت بذعر حين شعرت بيدٍ تربت على كتفها فجأة. كادت أن تطلق صرخة مدوية، لولا ذلك الكف الذي كتم صوتها سريعًا، وصاحب الصوت الرخيم يسألها بمشاكسة:

ـــ ما بكِ؟ ولماذا كل هذا الصراخ؟

التفتت إليه بضيقٍ مصطنع وهي تتنفس الصعداء:

ـــ لقد أفزعتني يا أندريا! ألم تتعلم الاستئذان بعد؟

ـــ أوه.. أعتذر حقًّا يا عزيزتي، لم أقصد إخافتكِ.

قالها وهو يمسد خصلات شعرها بحنان، فأمسكت يده وسألته باهتمام:

ـــ هل رأيت ليو اليوم؟ بحثت عنه في كل مكان.

تغيرت نبرة أندريا للهدوء وهو يجيب:

ـــ نعم.. لقد ذهب مع جدتي لزيارة عمتنا جيسيكا.

خيَّم الحزن على ملامحه فور ذكر الاسم، فما كان من ميرا إلَّا أن ضمت زوجها إليها بحنان، تواسيه في فقدان تلك السيدة التي كانت بمثابة الروح لعائلتهم.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

وفـي مكـانٍ آخـر، حيـث يفـوح رائحـة المـوت الممـزوج بهـدوءٍ مهيب..

كانت السيدة كاترينا تجلس وبجانبها الصغير ليو أمام قبرٍ يخص العائلة و همست بوفاءٍ وحب:

ـــ عزيزتي جيسيكا.. اشتقتُ إليكِ كثيرًا يا ابنتي.

أردف ليو بنبرته الطفولية:

ـــ أهلًا بكِ يا عمتي.. أنا أيضًا اشتقتُ إليكِ.

ضمت كاترينا الصغير لذراعها وقالت بشرود:

ـــ تعلم يا ليو.. جيسيكا كانت من أجمل النساء اللاتي رأيتهن في حياتي.

نظر إليها ليو بتعجب وسأل:

ـــ ماذا؟ ألم تقولي من قبل أنَّ تيا هي الأجمل؟

ضحكت كاترينا بحب وأجابت:

ـــ نعم ولكن وبالرغم من أنَّ جيسيكا ليست والدة تيا الحقيقية، إلا أنَّها تشبهها في الشكل والقوة والشخصية أيضًا.. لدرجة أننا نلقب تيا بـ جيسيكا الثانية.

تمتم ليو بتفكير:

ـــ اممم.. ولكن تيا امرأة قوية جدًّا.

ـــ نعم يا صغيري.. وجيسيكا كانت كذلك.

كاد ليو أن يطرح سؤالًا آخر كان يدور في عقله الصغير، لكنهما انتفضا فجأة حين اخترق سكون المكان صوت خطواتٍ واثقة تقترب منهما وكانت ليلا ولينا:

ـــ اشتقنا إليكِ يا جدتي!

التفتت كاترينا بلهفة، لتجد أمامها الفتاتين تشعان حيوية وجمالًا، فصاحت باشتياقٍ غامر:

ـــ ليلا.. لينا! أين أنتما يا فتيات؟ لقد اشتقتُ إليكما كثيرًا!

اقتربتا منها بابتسامة دافئة، وقالت لينا وهي تلمح الصغير ليو:

ـــ ونحن أيضًا يا جدتي.. أوه، أنت هنا يا صغيري؟

أجاب ليو بحبٍ وهو يقترب منهما:

ـــ نعم يا لينا.. اشتقتُ إليكما حقًّا.

ضمت الفتاتان ليو بحنانٍ، قبل أن تسألهما الجدة كاترينا بتعجب:

ـــ لكن، ما الذي أتى بكما إلى هنا الآن؟

اقتربت لينا من قبر والدتها بخطواتٍ هادئة، وقالت بنبرةٍ يملأها الشجن والحب:

ـــ كنا نريد زيارتها.. أهلًا يا أمي..

أردفت ليلا وهي تقف بجوار شقيقتها:

ـــ نحن نعلم أننا تأخرنا في المجيء هذه المرة، ولكننا نعلم أيضًا أنَّ تيا لا تتركُكِ أبدًا، فهي تزوركِ يوميًّا عندما تكون هنا.

اتسعت ابتسامة الجدة كاترينا عند ذكر اسم تيا وسألت باهتمام:

— صحيح.. ما أحوال تيا الآن؟ هل هي بخير؟

ضحكت ليلا بمرح وهي تغمز لجدتها:

— بالتأكيد هي بخير يا جدتي.. فهي الآن مع معشوقها، وهل هناك حالٌ أفضل من ذلك؟

تعالت ضحكات الجدة الصافية، وقالت بحنانٍ مفرط:

— تيا تستحق الأفضل دائمًا.. وقلبها لا يليق به إلا السعادة.

أمنت لينا على كلام جدتها وهي تنظر للقبر:

— هي بالفعل تستحق كل الحب في هذا العالم.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

— لا يعني لا!

صدح صوت آسر الحازم عبر الهاتف، ليرد عليه صراخ تيا الغاضب في الجانب الآخر:

— هو إيه اللي لا يا آسر؟ أنا بقولك عايزة أروح عند لمار أقعد عندها يومين..

— وتسيبي بيتك ليه أصلًا؟ إيه الداعي لكل ده؟

ردَّت بعنادٍ طفولي وضيق ينهش قلبها:

— براحتي يا عم.. أنا حرة!

— هو إيه اللي براحتك؟ هو أي هبل وخلاص؟

حرَّكت يدها على شعرها بجنون وهي تأخذ الغرفة ذهابًا وإيابًا، وصوتها يرتجف بانفعال:

ـــ إنت ليك عين تتكلم أصلًا؟ على فكرة، مش معنى إني كنت هادية معاك إمبارح إني نسيت اللي حصل في الجامعة!

سأل آسر ببرودٍ استفزها أكثر:

ـــ وهو إيه اللي حصل في الجامعة أصلًا يستاهل كل ده؟

هنا انفجر بركان الغيرة الذي تملَّكها، كأن شعلة نارٍ هوت فوق أرضٍ زراعية لتحرق كل خضرتها، صرخت فيه:

ـــ اعمل نفسك ناسي يا آسر! الزفتة اللي اسمها رهف دي.. إنت قولتلي إن آخرها كلام وبس، لكن اللي أنا شوفته كان العكس تمامًا!

تسلل الضيق لصوت آسر وقال بنبرة تحذيرية تعرفها جيدًا:

ـــ تيا.. وطِّي صوتك!

ـــ بقولك إيه متنرفزنيش! رهف كانت شبه في حضنك يا آسر.. وإنت واقف عادي!

أغمض آسر عينيه محاولًا كبح غضبه، وأجاب بحذر:

ـــ وهل أنا كنت مبسوط يعني؟ ما أنا بعدتها عني.

ـــ وأنا ليه أستحمل كدة؟ أنا زهقت يا آسر.. من حقي لما أشوف واحدة بتبص لجوزي نظرة إعجاب بس، أروح أجيبها من شعرها! لكن أنا مش عارفة أعمل ده.. حاسة إن حياتي معقدة أوي، مش بسيطة زي ما كنت متخيلة.

لان قلبه قليلًا حين شعر بصدق وجعها، فابتسم بهدوء وهمس بنبرة مطمئنة:

ـــ صدقيني.. بإذن الله كل حاجة هتتحل، وهتكوني قدام الكل بس الصبر.

قالت بإصرار هادئ هذه المرة:

ـــ أنا هروح عند لمار.

مالت شفتاه بابتسامةٍ هادئة، لكنها تحمل أمرًا لا يقبل النقاش:

ـــ تخلصي جامعتك، وتخرجي معاها براحتك.. بس تروحي على البيت يا تيا. مفهوم؟

أنهى كلماته بصرامة أحرقت قلبها غيظًا، لتتمتم هي بضيق وهي تغلق الهاتف:

ـــ ماشي يا آسر.. ماشي!

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كانت ابتسامة آسر تتسع تدريجيًّا وهو يرى سيارته تقترب من بوابة القصر، ليلمح ليث جالسًا يتأمل زهرةً بين يديه بشرودٍ طفولي. ترجل آسر وجلس أمامه يسأل بحنان:

ـــ بتعمل إيه يا ليث؟

رفع الصغير الزهرة أمام عينيه وأجاب ببراءة:

ـــ مش بعمل حاجة يا عمو آسر.. بس الوردة دي عجبتني أوي.

قبَّل رأسه بحنان وتركه واتجه لمكتب الجد عثمان، دلف دون طرق الباب فقال عثمان بغضب:

___ البااااب.

ـــ إنت اللي طلبتني.. خير؟

ـــهتروح غدا العمل النهاردة؟

ـــ أكيد.

ـــ تاخد رهف معاك.. عيب كل واحد يدخل ومعاه مراته وإنت داخل لوحدك!

أغمض آسر عينيه محاولًا كبح جماح غضبه، وهمس لنفسه بوعيد: بإذن الله هي فترة بسيطة وهروح مع مراتي في كل مكان.

ثم قال بصرامة:

ـــ أنا مش واخد حد.. اللي عايز يجي يروح مع سيف وجاسر.

صعد لغرفته ليستعد، وبدأ في اختيار تفاصيل أناقته بعناية فائقة؛ بدلة سوداء فخمة من ماركة (Michael Kors)، قميص أبيض ناصع بتوقيع (Tom Ford)، وساعته الـ (Rolex) التي تلمع في معصمه. رش عطر (Creed Aventus) الفواح، وقبل أن يغادر، اهتزَّ هاتفه برسالة من تيا.

فتح الصورة ليجدها متألقة بجمالها الطبيعي بملابس محتشمة وأنيقة، ومكتوب أسفلها:

___ إيه رأيك؟ هخرج بيه ولمار بتقول إنه حلو.

لم يتمالك نفسه فأرسل لها رسالة صوتية بهمسٍ عاشق: زي القمر.. وحلو أوي عليكي.

التقط صورة لنفسه وأرسلها إليها، لتتصل به:

— إنت رايح فين وإيه اللبس ده؟

أجاب بمراوغة وهو يلمح غيرتها في نبرتها:

— عندي غدا عمل.. ماله لبسي؟

— ليه البدلة دي بالذات؟ غيرها يا آسر.. البس أي حاجة تانية!

— ليه؟ مش عاجباكي؟

صمتت قليلًا ثم قالت بنبرة هادئة ذوبته:

— غيرها عشاني.. البدلة دي حلوة والله.

انفجر آسر ضاحكًا بعد أن استوعب سبب غضبها:

— يعني أغيرها عشان حلوة؟

— أيوه يا آسر.. عشان حلوة!

— تيا.. أرجوكي بلاش نكد، أنا فعلًا مضغوط في الشغل.

تحولت نبرتها للحنان والقلق:

— ليه يا حبيبي؟

— مفيش.. ضغوط عادية. المهم، النهاردة ترجعي البيت ومتباتيش عند لمار، مفهوم؟

تنهدت باستسلام وقالت:

ـــ يووووه.. حاضر يا آسر.. حاضر.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

نظرت لمار لتيا بخبث فور انتهائها من المكالمة وسألتها:

ـــ مالك؟

قصت تيا عليها ما حدث، لتنفجر لمار ضاحكة وهي تحاول كتم صوتها، فصرخت تيا بغيظ:

ـــ لمااااار! بطلي ضحك، الراجل ده مستفز بجد.

ـــ خلاص والله سكت.. بس إنتِ واخدة استفزازه يا عسل.

شهقت تيا بنفي قاطع:

ـــ لا طبعًا.. أنا مش مستفزة زيه كدة!

انطلقتا بالسيارة، وقررا البحث عن مطعم شاورما غير تابع للمقاطعة. وبينما كانت الأغنية من دون موسيقى تملأ أرجاء السيارة، ابتسمت تيا عندما لاح في ذاكرتها موقفٌ قديم من صباها.. حين كانت في الرابعة عشرة.

"فلاش باك"

كانت تيا تجلس على الأرجوحة، تدندن بكلمات خافتة، حتى شعرت بجيسيكا تجلس أمامها فجأة. سألتها جيسيكا بالأوكرانية:

ـــ ما بك؟

___ لا شيء.

— تتحدثين بالأوكرانية؟ إذًا أنتِ حزينة.. ما بكِ يا عزيزتي؟

تنهدت تيا بمرارة:

___ آسر لم يتذكر يا جيسيكا.. اليوم عيد ميلادي، وهي المرة الأولى التي ينسى فيها أن يقول لي وُلدت طفلتي المشاكسة في هذا اليوم.

ابتسمت جيسيكا وهي تلمح آسر يقترب من الخلف حاملًا قالب الكيك المفضل لتيا، وسألتها بخبث:

— وهل تصدقين حقًّا أنَّه قد ينسى؟

فجأة، جاء صوت آسر الدافئ بالمصرية:

— ويا ترى تيا هانم جه في دماغها إن آسر نسي ليه بقى؟

التفتت تيا بدموع الفرح، ليخبرها بحب:

___ كنت بحضرلك مفاجأة أكبر.. غمضي عينك واتكلمي مصري بلاش عوجة اللسان دي!

فتحت تيا عينيها على صندوق ضخم مليء بكل الروايات التي كانت تتمناها. صرخت بفرحة طفولية: أنا بحبك.. بحبك أوي يا آسر!

نظر إليها آسر بأعين تلمع بعشقٍ لم يستطع إخفاءه، وقال بغير وعي:

___ وأنا بموت فيكي.

في تلك اللحظة، رفعت جيسيكا هاتفها والتقطت لهما صورة، خلدت فيها نظرة العشق التي كانت تيا هي محورها الوحيد.

"باك"...

أفاقت تيا من شرودها على صوت لمار وهي تسألها عن نوع الشاورما المفضلة، فأجابت بهدوء: "فراخ". بينما ذهبت لمار لطلب الطعام، فتحت تيا محادثتها مع معشوقها "My Life".

ظلت تتأمل صورته بالبدلة الأنيقة و الغيرة تنهش قلبها، والوسامة التي تفيض منه تجعلها تخشى عليه من أعين الجميع.

وفجأة.. انتفضت تيا بهلع حين سمعت طرقات قوية على زجاجة العربية.

أخذت أنفاسها وهي تنظر لـ لمار الواقفة خلف زجاج السيارة وسألتها بنهجان:

ـــ في إيه؟ خضتيني على فكرة!

أشارت لمار للداخل وقالت ببساطة:

ـــ تعالي ناكل في المطعم أحسن.. القعدة جوه هادية.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في أوكرانيا، كان "يوهان" يجلس غارقًا في شرودٍ لم يقطعه سوى اقتراب "نتاليا". جلست أمامه بصعوبةٍ واضحة بسبب حملها المتقدم، وسألته بالأوكرانية بنبرةٍ يملأها القلق:

ـــ ما بك يا يوهان؟

حاول رسم ابتسامةٍ مطمئنة على وجهه:

ـــ لا شيء يا عزيزتي.. هل أنتِ بخير؟

ابتسمت برقة وهي تحرك يدها على بطنها المنتفخة:

ـــ أنا بخير.. وطفلنا أيضًا بخير.

اتسعت ابتسامته وهو يضع يده بجوار يدها، هامسًا للجنين كأنه يسمعه:

ـــ "اشتقتُ إليك يا عزيزي.. أتمنى أن تكون بأفضل حال.

نظرت إليه نتاليا بإعجابٍ وربتت على كتفه بحنان:

ـــ سوف تكون أبًا رائعًا يا يوهان.

أجاب بصدق وهو يطبع قبلة حنونة على رأسها:

ـــ وأنتِ ستكونين أمًا أروع.. أحبكِ.

ـــ وأنا أيضًا.. لكنني لن أتركك حتى تخبرني ما الذي يشغل بالك؟

تنهد يوهان بعمق واعتراف:

ـــ أشعر بالقلق من القادم يا نتاليا...

ردَّت عليه بهدوءٍ وثقة في الله فهي التي اختارت الإسلام عن قناعةٍ وجذبها نوره قبل زواجهما:

ـــ لا تقلق يا عزيزي.. اترك كل ما يحزنك على الله، فهو مدبر الأمور.

ابتسم لها بفخر، وضمها إلى صدره وهو يهمس بجانب أذنها بامتنان:

ـــ ستظلين دائمًا الجزء الأجمل والأطهر في حياتي يا نتاليا.

ترقرت الدموع في عينيها تأثرًا، وهمست بصوتٍ يملأه الحب:

ـــ وأنت أيضًا يا يوهان..

أمَّا في الطابق السفلي، فكانت الفوضى هي سيد الموقف! ديم يركض خلف إيفان والمنزل يضج بصيحاته:

ـــ إيفان! قمت بتنبيهك أكثر من مرة، لا تزعج ليلا!

ردَّ إيفان وهو يضحك ويحاول الإفلات:

ـــ أنا أمزح معها فقط، صدقني!

ـــ لا، هي تشعر بالانزعاج حقًّا من مزاحك الثقيل.

توقف إيفان فجأة واقترب من أذن "ديم" هامسًا بمكر:

ـــ اممم.. لم أكن أعلم أنَّك تعشقها لتلك الدرجة يا أخي!

وضع ديم يده على فم إيفان بسرعة وهو يشعر بحرارة تجتاح وجهه:

ـــ تبًا لك أيها الأحمق! ماذا تقول؟

ـــ أقول الحقيقة التي نراها جميعًا!

ـــ لا، ليست حقيقة.

ـــ بل هي الحقيقة.. ثم لماذا لا تتحدث مع عمي فيكتور في هذا الأمر؟ أنت الآن في سنتك الجامعية الأولى، وليلا في الثالث الثانوي.. أنتما مناسبان جدًّا لبعضكما.

زفر ديم بضيق وهو يحاول إخفاء ارتباكه:

ـــ الأمور لا تُقاس هكذا يا أحمق.. والآن أعطني هاتفها!

تراجع إيفان بخطوة حين لمح الغضب في عيني ديم:

ـــ أوه.. كنت أريد إزعاجها أكثر، ولماذا تنظر لي هكذا وأنا أكبر منك؟

تجاهل ديم حديثه تمامًا، وانتزع الهاتف منه ليتجه نحو "ليلا" التي كانت تجلس والضيق يرتسم على ملامحها. قال لها بنبرة هادئة وعينيه تشعان بحبٍ حاول جاهدًا كتمانه:

ـــ لا تحزني يا صغيرة.

تحولت نظراتها للغضب فور سماع الكلمة:

ـــ صغيرة؟!

ابتسم ديم في سره وهو يتمتم: نعم.. فأنتِ صغيرتي المدللة.

ولكنه قال بصوت مسموع بمشاكسة:

ـــ نعم، أنتِ بالفعل لا تزالين صغيرة.

اختطفت منه الهاتف وصاحت بغيظ قبل أن تغادر المكان:

ـــ تبًا لكما أنتما الاثنان!

تركت "ديم" يغرق في نوبة ضحكٍ نابعة من أعماق قلبه، وهو يتابع أثرها بأعينٍ تعشق كل تفاصيل غضبها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كان الصمت يثقل الأجواء في الغرفة، بينما يجلس فيكتور أمام والده ألكسندر والملامح المنهكة ترتسم على وجهه. سأله ألكسندر:

— ما بك يا بني؟

تنهد فيكتور بمرارة وقال:

— اشتقتُ لأمي.. اشتقتُ لإيفا كثيرًا.

أغمض ألكسندر عينيه، والاشتياق ينهش قلبه هو الآخر، لكنه تمالك نفسه وقال:

— هي تسكن أرواحنا دائمًا يا فيكتور.. لم تغادر قط.

— أعلم يا أبي.. أعلم.

حدَّق إليه ألكسندر بشكٍ ونظرةٍ ثاقبة:

— ولكن.. ليس هذا هو السبب الوحيد لكل هذا الحزن في عينيك، أليس كذلك؟

شعر فيكتور بالاضطراب وتجنب نظرات والده:

— لا.. بل هو السبب الوحيد.

— حسنًا.. كما تشاء.

شرد فيكتور في الفراغ، ليعود به الزمن إلى ذلك اليوم الذي زلزل أركان حياته..

فلاش باك...

ـــ ماذا؟! ستتزوجها دون علمي؟

صاح ألكسندر بضيق، ليرد فيكتور بإصرارٍ أعمى:

ـــ أنا أحبها يا أبي.. ولن أتخلى عنها.

ـــ ولكنني لم أوافق، ولن أوافق على هذا الزواج!

ـــ في كل الأحوال.. أنا سأتزوجها، هذا قراري النهائي.

ـــ هل تعصي أوامري يا فيكتور؟

نظرت إليه إيفا والدموع تترقرق في عينيها:

ـــ أنت تتخلى عن عائلتك التي وهبتك كل شيء.. من أجل تلك الفتاة؟

ـــ أنا لم أتخلَّ عنكم قط يا أمي!

هنا، نطق ألكسندر بكلماته التي وقعت عليهم كالنار المشتعلة:

ـــ ولكن نحن من سنتخلى عنك.. من هذه اللحظة، لستَ ابنًا لي.

شهقت إيفا بصدمة وقالت بذعر:

ـــ ماذا؟! ألكسندر أنت تمزح، أليس كذلك؟ قل إنك تمزح!

ـــ لا يا إيفا.. أنا جادٌ تمامًا.

انهمرت دموع إيفا كالسيل وهي تصرخ في ابنها بضعف:

ـــ كيف تفعل بنا هذا؟ كنتُ أشتاق لرؤية وجهك وأنت جنين في أحشائي.. والآن تتركنا؟ لن تتزوجها.. ستبقى معي يا فيكتور!

نظر إليها فيكتور بانكسارٍ قاتل، وعيناه معلقتان بوالده الذي أشاح بوجهه عنه، فقال بهمسٍ ممزق:

ـــ آسف يا أمي.. آسف.

صمتت الصرخة في حلقها وهي تراه يوليها ظهره ويرحل.. يرحل نحو مجهولٍ اختاره بنفسه.

"باك"...

ضغط فيكتور على قبضة يده بقوة حتى ابيضَّت مفاصله، وعقله يوبخه بضراوة على ما فعل. لقد أدرك بعد فوات الأوان أنَّه ترك مَن يستحق لأجل مَن لا يستحق.

كان كل هذا يحدث تحت أنظار ألكسندر الصامتة، الذي كان يقرأ أفكار ابنه ككتابٍ مفتوح، ويعلم أنَّ الندم هو العقاب الأكبر الذي فرضه القدر على فيكتور.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في مطعمٍ فخمٍ يفيض بالرقي، حيث الأنوار الخافتة تنساب بنعومة لتلامس تفاصيل المكان، وصوت الموسيقى الهادئة يملأ الأجواء بوقار.. كان آسر يجلس ببرودٍ جليدي، غير مكترثٍ بمحاولات رهف المستميتة للفت انتباهه. بجانبه، كانت داليا غارقة في هاتفها، ويختلس "سيف" النظر إليها بابتسامةٍ شاردة في جمالها

الهادئ، وفي الجهة المقابلة، كان جاسر يتأمل ريم التي جلست بلا مبالاة كأن العالم حولها لا يعنيها.

قطع حبل أفكارهم صوت طارق الهاشمي متسائلًا بجدية:

ـــ قولت إيه يا آسر بيه؟

ردَّ آسر بثباتٍ وثقة:

ـــ والله بنود الصفقة ممتازة..

التفت طارق نحو سيف:

ـــ وإنت يا سيف بيه؟

ـــ أنا كمان موافق.. الصفقة مربحة للطرفين.

ـــ وحضرتك يا جاسر بيه؟

ـــ تمام.. مفيش أي ملاحظات.

ابتسم طارق برضا وقرر حسم الأمر:

ـــ طيب، بما إننا اتفقنا، نمضي العقود ونطلب العشا.

مالت رهف بجسدها نحو آسر وقالت بنبرةٍ أنثوية مصطنعة:

ـــ آسر.. سمعت إن عندهم Desserts تحفة، لازم تجربها.

نظر إليها آسر نظرةً عابرة خالية من أي اهتمام، ثم أشاح بوجهه عنها دون كلمة، مما جعلها تتراجع بحرجٍ واضح كاد أن يفضحها أمام الجميع.

كتم سيف وجاسر ضحكاتهما بصعوبة على هذا الإحراج العلني، وأخرج سيف هاتفه ليرسل رسالةً سريعة لآسر:

___ إنت أحرجتها.

أخرج آسر هاتفه، وبذات البرود ردَّ برسالةٍ مقتضبة:

___ مش مهم.

ابتسم سيف في سره على طبيعة شقيقه الصارمة، بينما استمرت الأجواء مشحونة بصمتٍ غريب تحت غطاء العمل الرسمي.

"الحب مثل الدوامة.. فإذا سحبتك لها، فاعلم أنَّك لن تستطيع الخروج منها مهما فعلت".

وقفت سارة عند هذه الجملة طويلًا، ظلت تقرأها والكلمات تحرق روحها قبل عينيها. نظرت بآلية إلى ذلك الخاتم في إصبعها؛ الخاتم الذي عاصر كل نبضة حب، وكل شهقة ألم في حكايتها مع فيكتور. أوهمت الجميع، بل وأوهمت نفسها لسنوات أنَّها تكرهه، لكنها الآن تدرك كم كانت كاذبة بارعة. ضغطت على الخاتم بقوة وهمست بصوتٍ مخنوق:

ـــ حبك لعنة يا فيكتور.. لعنة مش راضية تسيبني في حالي.

انسابت دموعها فجأة كشلالٍ متدفق لا يرحم وجنتيها. انتفضت واتجهت نحو ركنٍ مخفي في غرفتها، سحبت صندوقًا خشبيًّا قديمًا وضمته إلى صدرها كأنه أغلى ما تملك في هذا العالم. فتحته بهدوء، لتطل منه صورة فيكتور.. ضمت الصورة بقوة وارتفع صوت بكائها بقهرٍ دفين.

كانت تقلب الصور باشتياقٍ يحرق قلبها، لكن أنفاسها حُبست تمامًا حين وقع نظرها على صورة فتاة صغيرة، شديدة الجمال، خصلاتها السوداء تنساب كالليل فوق وجهها الدائري الأبيض كقطعة قطن، وعيناها الملونتان تفيضان ببراءة طفل.. كان مكتوبًا أسفل الصورة "تيا".

انهارت سارة في البكاء أكثر وهي تردد بمرارة:

ـــ آسفة.. والله العظيم آسفة يا تيا. أنا كل يوم بكره نفسي أكتر، مش مصدقة إني فرطت فيكي بالسهولة دي.

عادت نظراتها لصورة فيكتور، ومعها جرفها تيار الذكريات لزمنٍ بعيد..

فلاش باك..

ـــ بس أنا موافقة.

قالتها سارة بكل ثقة وتحدٍ، ليرد عثمان بغضبٍ مكتوم:

ـــ وأنا مش موافق يا سارة! ده واحد جاي من غير أهل، ومن عيلة نكرة.. بيقولي اسمه فيكتور! كنت مستني يقول اسم عيلة كبيرة تليق بينا، لكن محصلش.

أغمضت سارة عينيها بقوة وقالت بإصرار:

ـــ مش مهم العيلة يا بابا.. المهم إني بحبه، وده كفاية.

ـــ وأنا خلاص خدت قراري.. مفيش جواز.

ـــ وقرارك يُحترم يا بابا، بس أنا هتجوزه حتى لو كلفني الموضوع إيه.

تدخل شقيقها جلال قائلًا ببرود:

ـــ هو مش مناسب ليكي يا سارة.

وأردف شقيقها الأكبر عماد:

ـــ سارة.. الموضوع خلص.

لكن سارة لم تكن لتستسلم أبدًا، رسمت ابتسامة واثقة وقالت:

ـــ لا مخلصش.. أنا ممكن بكل سهولة أتجوزه من غير موافقة حد..

ضحك عثمان بسخرية:

ـــ وده إزاي بقى من غير ولي؟

لم تستطع الإجابة فقالت بترجي وإصرار:

ـــ تمام ممكن معرفش بس بابا.. أنا خدت قراري.

أمام إصرارها الذي يشبه الإعصار، وافق عثمان على مضض قائلًا:

ـــ فرحك هيبقى مع أخوكي جلال.

ركضت سارة لغرفتها، وأمسكت هاتفها لتتصل بمعشوقها بلهفة. وفي تلك اللحظة، كان فيكتور ينظر لصورة عائلته التي تخلى عنها، وعن بلده، وعن اسم كورولينكو لأجلها. فتح الخط بلهفة:

ـــ ها.. وافق؟

صرخت بحماس:

___ أيوة يا فيكتور! وافق أخيرًا، وفرحنا مع جلال أخويا كمان شهر!

ابتسم فيكتور بفرحة لم تسعها الدنيا وقال:

___ بحبك.

—— وأنا بحبك أكتر بكتير..

مرَّ الشهر كالحلم وسط تجهيزات بيتهم الصغير؛ البيت الذي كان عثمان يستحقره ويقول:

___ بنت عثمان الطنطاوي تتجوز في البيت ده؟

لكن سارة لم تكن ترى سوى أنَّها ستصبح أخيرًا ملكًا لمَن أحبت.

باك...

أفاقت سارة من دوامة ذكرياتها على رنين هاتفها. كانت داليا:

___ آلو يا ماما الصفقة نجحت الحمد لله.

—— تمام يا داليا.

—— ماما.. مالك؟ صوتك متغير.

—— مفيش.. سلام.

أغلقت الهاتف، ليعود شعور الذنب ينهشها من جديد. لقد قصَّرت في حق ابنتها الكبرى داليا أيضًا، لكنها الآن حبيسة قرارات قديمة لا تملك تغييرها، وما باليد حيلة.

الغيرة شعورٌ لا يُحتمل، حين يسيطر على امرأةٍ عاشقة، يحوّل هدوءها إلى إعصار، وغضبها إلى نيرانٍ كفيلة بإحراق كل ما يحيط بها. كانت تيا تتحرك في غرفتها بعشوائية وصوتها يرتجف بانفعال وهي تتحدث مع لمار:

ـــ مش قادرة يا لمار.. من ساعة ما شوفت الصورة اللي رهف نزلتها وأنا حاسة إن دمي بيغلي!

ـــ يا بنتي اهدي، هي كانت مصورة نفسها سيلفي، عرفتِ منين إنها مع آسر أصلًا؟

تنهدت تيا تنهيدةً حارقة وأجابت بيقينٍ لا يقبل الشك:

ـــ ساعته!

ـــ إيه؟! ساعة إيه؟

ـــ آسر متعود لما يجي ياكل بيقلع الساعة ويحطها جنبه.. وساعته كانت واضحة على الطربيزة في طرف الصورة.

حاولت لمار تهدئتها:

ـــ أيوة بس ممكن تكون ساعة أي حد تاني، مش لازم آسر يعني.

صرخت تيا بعصبية:

ـــ لا ساعته! أنا أعرف الساعة دي من وسط مليون ساعة، دي أكتر واحدة بيحبها.. والبيه كمان مش بيرد على تليفونه!

همست لمار لنفسها بإشفاق:

ـــ آه من الست لما تبقى عارفة عن جوزها كل تفصيلة.. ربنا يكون في عونك يا آسر على اللي هيجرالك.

ـــ بتقولي حاجة يا لمار؟

ـــ بقول اهدي يا تيتو.. خلاص بقى.

ـــ طيب اقفلي، هروح أعمل كاكاو.

أغلقت الهاتف واتجهت لغرفة أطفالها لتطمئن عليهم، ثم نزلت للطابق السفلي. دلفت للمطبخ وبدأت بتجهيز مشروبها المفضل، ثم اتجهت نحو حمام السباحة حيث يسكن الهدوء.

جلست تنظر للمياه بشرود، وعقلها لا يتوقف عن تأليف سيناريوهاتٍ تشعل نار الغيرة في صدرها أكثر فأكثر.. آسر ورهف، الضحكات، نظرات الإعجاب.. كل فكرة كانت كطعنة في قلبها.

وفجأة، شعرت بحركةٍ غريبة خلفها لكنها لم تهتم ولكن:

ـــ اااااااااه!

صرخت تيا بقوة حين شعرت بيدٍ تلمس كتفها بخفة، ليتراجع آسر فزعًا من صرختها وهو يهتف:

ـــ خضتيني يا تيا! في إيه؟ شوفتي عفريت؟

وضعت يدها على قلبها الذي كان يقرع كالطبول وقالت بحدة:

ـــأنـا اللـي خضـيتك بـرده؟ حـرام عليـك يـا آسـر، كنـت هقطـع الخلف!

اقترب منها بهدوء وضمها، ينثر قبلات دافئة على كفها ورأسها وهو يهمس باعتذار:

ـــ خلاص، آسف يا حبيبتي..

كادت ملامحها أن تلين، لكن نيران الغيرة اشتعلت مجددًا فابتعدت عنه بضيق. تنهد آسر بتعجب وحاوط وجهها بكفيه:

ـــ مالك؟

لم تجب، بل رفعت هاتفها أمام عينيه بصورة "رهف"، فقال بعدم فهم:

ـــ أيوة.. مش فاهم برده، إيه المشكلة؟

ـــ مقولتش يعني إنها هتيجي معاك الغدا!

ـــ أولًا ده عـادي، ثانيًـا.. وإنـتِ عرفـتِ منـين أصـلًا إنهـا كانـت معايا؟

ضيقت عينيها بشر وهي تلوح بالهاتف كمن يمسك دليل إدانة:

ـــ نفس السـاعة دي ولا مش نفس السـاعة؟ يمكن أكون شـوفت غلط؟

اتسعت عيناه بصدمة حقيقية:

ـــ يخرب بيت كدة! إنتِ خدتِ بالك منها أصلًا؟

ـــ ها.. مردتش برده، كانت قاعدة جنبك ليه؟

ـــ والله هي اللي قعدت جنبي، وكانت جاية مع جاسر مش معايا، وأنا مش عيل صغير عشان أول ما تقعد جنبي أقوم أجري!

عقدت حاجبيها وقالت:

ـــ ولما اتخانق معاك؟

ضحك آسر برجولة وضمها بقوة لصدره:

ـــ ممكن تفصلي خالص وتنسي أي حاجة مزعلاكي النهاردة؟ أنا جايب أكل ومكسرات وحلويات وشوكولاتة، وعايز أسهر معاكي ومع الولاد للفجر.. لا مدرسة ولا جامعة ولا شغل لبكرة.

اتسعت ابتسامتها واتجهت تيا لغرفة كايلا لتوقظها، لتنتفض الصغيرة بذعر:

ـــ لا مامي! أرجوكي قولي إن الصبح مجاش.. مش عايزة أروح المدرسة!

ضحكت تيا وضمتها بعشق:

ـــ لا يا روح مامي، مفيش مدرسة، بابي جاب حلويات وهنسهر كلنا سوا.

في تلك اللحظة فُتح الباب وظهر آسر وهو يحمل أدهم النائم، لتركض كايلا نحوه وتقبّله بحماس:

ـــ أحلى بابي في الدنيا بجد!

تعالت الضحكات في أرجاء المنزل وهم يتجهون للأسفل. عانقت تيا آسر وهي تهمس:

ـــ بحبك أوي يا آسر..

ـــ بحبك أكتر بكتير

كادت أن ترد بكلماتٍ تفيض عشقًا، لولا ركض كايلا المشاكس التي جعلت تيا تصرخ بخوف:

ـــ كايلا! متجريش يا حبيبتي هتقعي!

وضعت الصغيرة يدها على خصرها بعناد مضحك:

ـــ مش هقع يا مامي!

نظر آسر لتيا بغمزة ممتعة:

ـــ بنتك واخدة العند بتاع سيادتك بالظبط، فبلاش شكوى!

وبكل سعادة انتشرت ضحكاتٍ صافية تملأ القصر، وآسر يداعب أطفاله تحت نظرات تيا التي تشعر بانتصار حبها وعائلتها الصغيرة.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في قصر الطنطاوي، داخل تلك الغرفة الفخمة التي يسودها هدوءٌ موحش.. كانت رائحة دخان السيجار الفاخر تخنق الأنفاس، وعقارب الساعة تدق برتابةٍ تزيد من هيبة المكان. جلس عثمان الطنطاوي على كرسيه الأسود، غارقًا في جبروته المعتاد، وعيناه مثبتتان على صورة زوجته الراحلة مريم بنظراتٍ يمتزج فيها البرود بالكثير من الكُره.

نفس دخان سيجارته وقال بهدوءٍ مخيف:

ـــ شوفتي أنا وصلت لإيه؟ عمري ما هكون نكرة زي ما كنتِ بتقولي.

ثم انفجر بضحكةٍ جنونية، ارتجفت لها أركان الغرفة وأردف:

ـــ إنتِ اللي خسرتي كل حاجة.. عشان كنتِ بتحبيه! كنتِ عايزة تسيبيني أنا عشان واحد زي ده.

تحوَّلت ضحكاته إلى نوبة هيستيرية، بينما الدموع تنهمر على وجنتيه في تناقضٍ غريب بين الضعف والقوة. قطع تلك الأجواء المشحونة طرقاتٌ على الباب، ليدلف جلال وعماد أبناء عثمان، ليتغير قناع وجهه فورًا إلى الغضب الصارم وهو ينظر لجلال:

ـــ أهلًا بالأستاذ اللي منعرفش عنه حاجة! ومراتك اللي بتسيب البيت يوميًّا وتروح النادي ومبنلمحهاش أصلًا.

ردَّ جلال بهدوءٍ يحاول تجنب العاصفة:

ـــ معلش يا بابا.. مشغول والله.

رمقه عثمان بنظرةٍ محقرة، ثم اتجه بنظره إلى عماد:

ـــ وسيادتك.. جاسر ابنك كمان مش ناوي يجيبها لبر؟

جلس عماد بلا مبالاة وأجاب:

ـــ مليش دعوة بيه.. يعمل اللي يعمله.

نفخ عثمان دخان سيجارته بغضبٍ أشعل عينيه، وتمتم باحتقار:

ـــ أغبية.

خفضوا أنظارهم في صمتٍ مطبق، حتى سأل عثمان جلال بنبرةٍ حادة:

ـــ وابنك؟

تعجب جلال وسأل:

ـــ سيف؟

ابتسم عثمان بسخرية مريرة:

ـــ هو إنت معندكش غير سيف؟ أنا بتكلم عن آسر.. الأستاذ مش راضي يتجوز رهف، ومصمم يمشي بدماغه.

أجاب جلال بقلة حيلة:

ـــ آسر طول عمره كدة يا بابا.. بيمشي بدماغه ومحدش بيقدر عليه.

تنهد عثمان بعمق، وعاد يحدِّق إلى صورة مريم بكرهٍ قديم، كأن صراعه معها لم ينتهِ بموتها، بل بدأ لتوّه في أحفاده.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

ـــ هسس.. الولاد ناموا خلاص.

همست تيا بتلك الكلمات وهي تراقب أنفاس أطفالها الهادئة، ليحملهم آسر برفق ويتجهان بهما إلى غرفهم. طبعوا قبلات الحنان فوق جباههم، وعادوا لمجلسهم الدافئ، لتقول تيا بحماس:

ـــ إيه رأيك نتفرج على صغيرة على الحب لسعاد حسني؟

انفجر آسر ضاحكًا وهو يهز رأسه:

ـــ نفسي أعرف سر حبك للفيلم وللممثلة دي.

اقتربت منه واستقرت في حضنه الدافئ قائلة بعينين لامعتين:

ـــ دي سندريلا السينما يا آسر.. أيام ما كان التمثيل فن حقيقي.

داعب خصلات شعرها وسألها بمزاح:

ـــ والوقتِ بقى إيه؟

زفرت بضيق وأجابت:

ـــ الفن دلوقتي بقى عبث.. ألفاظ خارجة، وعنف، وحاجات تانية تخنق بجد. الزمن اتغير أوي، والمشكلة إننا بقينا بنتعامل مع القرف ده إنه عادي!

استمع إليها آسر باهتمام وهي تكمل وجهة نظرها بدقة:

ـــ إحنا اللي بندي للحاجات دي حجم أكبر من حجمها لما بنعمل عنها شو ونتكلم عنها، والنتيجة إن الأطفال بقوا يعملوا جرايم تقطع القلب وبقت الأسلحة البيضاء في إيديهم كأنها لعب عادية.. مفيش تحضر ولا رقي في اللي بيتقدم.

تنهد آسر بوقار وضمها إليه بقوة:

ـــ ربنا يحفظهم كلهم.

سندت رأسها على كتفه وهمست بفضول طفولي:

ـــ شغل الفيلم بقى!

ـــ يا بنتي ده إنتِ شوفتيه أكتر من مية مرة!

— بحبه بقى.

ابتسم وهو يبحث في القائمة، ثم تذكر شيئًا هامًا فقال بنبرة هادئة ورقيقة:

— متنسيش صلاة القيام.. هنخلص الفيلم ونقوم نصلي سوا.

نظرت إليه بمراوغة مشاكِسة:

— ممم.. مكسلة شوية.

ابتعد عنها قليلًا والحزن يرتسم على ملامحه:

— لا كدة أزعل بجد.

لم تحتمل نظرته، فابتسمت بلطف وقبَّلت وجنته:

— بهزر معاك يا حبيبي.. أكيد هنصلي.

ابتسم بهدوء وسحبها إلى أحضانه مجددًا، ليبدأ عرض الفيلم المفضل لمعشوقته وسط هدوء الليل وسكينة قلوبهم.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

— داليا..

همس بها سيف وهو يحدِّق إلى عينيها بعشقٍ لم ينقص يومًا، رغم كل الحواجز التي تضعها شخصيتها القوية. انتبهت إليه وسألت برقة:

— إيه؟

— بحبك.

كلمة واحدة، لكنها كانت كفيلة بأن تجعل قلبها يرقص طربًا؛ ارتسمت بسمة هادئة على ثغرها وأجابت بصوتٍ خفيض:

ـــ وأنا كمان بحبك.

رفع يدها إلى شفتيه وقبَّلها برقيٍ معهود، لتقطع هي الصمت قائلة بمشاكسة:

ـــ شوفت رهف النهاردة كانت لازقة في آسر إزاي؟

انفجر سيف ضاحكًا وهو يتذكر ملامح شقيقه الجليدية:

ـــ آه.. وشوفتِ كمان آسر ردَّ عليها ازاي؟ أخويا ده مشكلة، ملوش حل.

فجأة، خيَّم الحزن على ملامح سيف ونظر أمامه بشرودٍ أليم، ليقول بصوتٍ مثقل بالندم:

ـــ تعرفي يا داليا.. ساعات بحس بالذنب ناحيته أوي.

تعجبت داليا وسألت بفضول:

ـــ ليه؟ آسر مش زعلان منك في حاجة.

ـــ أوقات كتير وأحنا صغيرين، كنت بسمعه بينادي عليا عشان أروحله... بس كنت بفضل واقف مكاني، خايف.

حاولت تهدئته قائلة:

ـــ زمانه نسي يا سيف، إحنا كبرنا خلاص.

هزَّ رأسه بنفيٍ حزين وأجاب بجملةٍ وقعت كالصاعقة على مسامعها:

ـــ القسـوة والجـرح عمـرهم مـا بيتنسـوا يـا داليـا.. بيفضـلوا محفورين في القلب مهما مر الزمن.

أغمضت داليا عينيها، وظلت تردد كلماته بهمسٍ ضاع في سكون الليـل: القسـوة.. والجـرح.. عمـرهم مـا بيتنسـوا. كأنهـا تخاطـب جروحًا تخصها هي الأخرى.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

ـــ تاراس!

صرخ بها أندريا حين وجد شقيقه غارقًا في شرودٍ تام بالشرفة. أجاب تاراس بانزعاج:

ـــ ماذا هناك أيها المزعج؟

ـــ بماذا تفكر؟

ـــ لا شيء.

جلس أندريا بمرح وسأله بجدية:

ـــ لا، أنت تشغل بالك بشيء ما.. أخبرني حقًّا ما بك؟

ـــ قلت لا شيء يا أندريا.. أين جدي؟

قطع حوارهم صوتٌ أجش لرجلٍ عجوز يفيض بالوقار:

ـــ أنا هنا يا بني.

تمتم تاراس بأدب:

ـــ مرحبًا جدي دانيلو.

جلس الجد معهم بمرح وسأل:

___ ما بالكم تجلسون هكذا؟

وقبل أن يجيب أندريا، ظهر الصغير ليو فجأة، ليعلِّق أندريا بضحكة:

___ ها قد وصل مسبب الإزعاج الثاني بعد تاراس!

ضحك الجميع، لكن ليو اقترب بملامح براءة مصطنعة أتقنها تمامًا وقال:

___ أبي.. المعلم الخاص بي يقف مع أمي الآن.. ويتغزل بها!

في لحظة، تحولت ملامح أندريا إلى نيرانٍ مشتعلة، نهض سريعًا واتجه للخارج كالإعصار. همس تاراس لليو بشك:

___ هل أنت جاد أم هذا مجرد هراء؟

ابتسم ليو بخبث طفولي:

___ أنا جاد تمامًا!

نهض تاراس بفضول ومشاكسة:

___ إذن هيا بنا نلحق بهذا المعلم المسكين!

وصلوا ليجدوا "ميرا" تقف بهلع وهي تشاهد أندريا ينهال بالضرب العنيف على المعلم حتى غطت الدماء وجهه. حاول تاراس إبعاده لكنه تلقى ضربةً طائشة، فصرخ بصوتٍ جهوري:

___ كفى يا أندريا! ميرا تبكي!

ترك أندريا المعلم بعنف، ونظر لميرا التي كانت تضم ليو وتبكي بصمتٍ مرعب. جذبها من يدها بقسوة واتجه بها لغرفته تحت نظرات تاراس الذي اقترب من ليو الباكي:

ـــ لا تقلق يا صغيري..

شهق ليو بخفة وقال باعتراف:

ـــ لم أكن أقصد يا تاراس.. كنت أريد فقط التخلص من هذا المعلم اللعين، فهو يغرقني بالواجبات!

انطلقت ضحكة قصيرة من تاراس وهو يضمه:

ـــ أنت خبيثٌ مثلي تمامًا!

داخل الغرفة، أغلق أندريا الباب بعنف، وساد صمتٌ مخيف. كانت ميرا ترتجف، فهي رقيقة لا تحتمل هذه الصدمات، وانفجرت في البكاء وهي تقول بتردد:

ـــ أ.. أندريا، أنا لم أفعل شيئًا صدقني.. هو...

لم تكمل كلماتها، فقد اقترب منها فجأة والشرر يتطاير من عينيه، كأنه يوشك على تفجير بركان غضبه في وجهها.

ودوى صراخه في أرجاء الغرفة وهو يرمقها بنظراتٍ تشتعل غضبًا:

ـــ هل بدرَ مني ما يؤذيكِ يا ميرا؟

هزَّت رأسها نفيًا وهي ترتجف، ليجذبها إليه بقوةٍ ممزوجة بالحرص:

ـــ إذن.. لماذا تنظرين إليَّ بهذه الطريقة؟

ـــ أنا.. أنا لم أقصد يا أندريا.. صدقني..

ولم تستطع إكمال كلماتها، حيث انفجرت في بكاءٍ مريرٍ مزق نياط قلبه. في تلك اللحظة، تبخر غضبه كأنه لم يكن، وحلَّ مكانه حنانٌ جارف. ربت على رأسها بهدوء وهو يهمس:

ـــ كفى يا عزيزتي.. كفى بكاءً.

ارتمت في أحضانه فور أن شعرت بسكون ثورته، وقالت بين شهقاتها المتتالية:

ـــ أنا.. أنا آسفة.. صدقني يا أندريا لم أكن أقصد.. لم أفعل شيئًا.

احتضن رأسها بيديه كأنها طفلة صغيرة يخشى عليها من نسمة الهواء، وقال بنبرةٍ رخيمة:

ـــ لماذا تعتذرين يا ميرا؟ أنتِ لم تفعلي أيَّ خطأ.. لمَ كل هذا الأسف؟

شهقت بصوتٍ عالٍ وهي تخفي وجهها في صدره:

ـــ لا.. لا أعلم.. أنا فقط خائفة.

ابتسم بهدوء، فهو يحفظ تفاصيل شخصيتها الرقيقة عن ظهر قلب، وهمس بجانب أذنها:

ـــ حسنًا يا جميلة.. انظري إليَّ، وتنفسي بهدوء.

رفعت عينيها المبللتين إليه، ونفذت ما طلبه ببطء، ليبتسم بحبٍ غامر ويقول:

— أجل.. هكذا.

سألته بهدوءٍ حذر:

— أنت لستَ غاضبًا مني.. أليس كذلك؟

ارتسمت على شفتيه بسمة مرحة وهو يمسح دموعها بيده:

— لا، لستُ غاضبًا.. والآن أريد رؤية تلك الابتسامة التي تنير حياتي.

ابتسمت له بحبٍ صادق وهمست:

— أحبك..

أجابها بلهفةٍ وعشق:

— وأنا.. أنا لا أحبكِ فقط بل أعشقكِ.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

— ريم..

همس بها جاسر وهو يراقبها بصمت، بينما كانت ترتشف قهوتها في الشرفة بعد عودتهم من ذلك الاجتماع المرهق. سألت بهدوءٍ لا يشي بما يدور في خلدها:

— خير؟

— بتعملي إيه؟

ابتسمت بسخرية لاذعة:

ـــ شايف إيه؟ بلعب باليه.

أفلتت ضحكة صغيرة منه وجلس بجانبها، فاستنكرت جلوسه:

ـــ إيه اللي مقعدك جنبي؟ قوم من هنا وبلاش غلاسة يا جاسر.

ـــ بقى أنا غلس يا ريم؟

ـــ آه.

اقترب منها وهمس بعينين تملؤهما الحيرة:

ـــ مالك يا ريم؟

خرجت منها تنهيدة محملة بالألم، ورسمت بسمة باهتة على ثغرها:

ـــ أنا زي الفل وكويسة جدًّا.

ـــ ويا ترى دي الحقيقة؟

انهمرت دموعها الدافئة فجأة، وقالت بصوتٍ مبحوح وهادئ:

ـــ دي الكدبة اللي الكل عايز يسمعها يا جاسر.

ـــ طيب والحقيقة؟

نظرت في عينيه مباشرة وهمست بقوة مباغتة:

ـــ اعترف أنت الأول بمشاعرك الحقيقية.. وبعدين ابقى اسأل عني.

تركته غارقًا في صمته ودلفت لغرفتها. وقف جاسر لثوانٍ قبل أن يلحق بها، ليجدها تقف أمام المرآة تتأمل ملامحها الشاحبة بمرارة قائلة بسخرية:

— شكلي بقى زي الستات العواجيز!

ثم انفجرت في ضحكٍ هيستيري ممزوج بالشهقات:

__ ويرجعوا يسألوا إنتِ عاملة كدة ليه؟ ما هو من الهم!

كانت ضحكاتها المختلطة بالدموع تحرق روحه. اقترب منها بوجل:

— ريم.. اهدي عشان خاطري.

صرخت فيه بقلبٍ يقطر وجعًا:

__ أهدى إزاي يا جاسر؟ ها؟ قولي أهدى إزاااااي؟

وبدأت بالصراخ والانهيار ومحاولة تحطيم أي شيء يأتي أمامها.

تشتتت نظرات جاسر، وفي لحظة تذكر فيها حلم طفولته القديم بالاحتواء، جذبها إلى أحضانه بقوة. حاولت المقاومة في البداية، لكنها سرعان ما استسلمت وتشبثت بقميصه وهي تبكي بحرقة وتناجي ربها:

— يا رب.. يا رب أنت الوحيد اللي عالم باللي جوايا.. يا رب.

وفجأة، سكن جسدها بين يديه وسقطت مغشيًا عليها. حملها بهدوء ووضعها على الفراش كأنها قطعة من الماس يخشى كسرها، قبَّل جبينها وهمس بحنان:

ـــ مش عارف إيه اللي وصلك للمرحلة دي بس أنا جنبك.

قطع تلك اللحظة رنين هاتفه.. كان سيف يسأله بكلمة واحدة:

ـــ ها.. هتخرج؟

نظر جاسر إلى ريم المتشبثة بيده حتى وهي غائبة عن الوعي، وربت على رأسها بحب وهو يجيب باختصار:

ـــ لا.

أغلق الهاتف، واستسلم للنوم بجانبها، باحثًا عن سلامٍ افتقده كلاهما طويلًا.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

ـــ ألكسندر..

تردد هذا الصوت الأنثوي العذب في أذنه بهدوءٍ غريب. ظلَّ يلتفت يمينًا ويسارًا يبحث عن مصدره، حتى شعر بيدٍ ناعمة تربت على كتفه. التفت بسرعة، لتوقف نبضات قلبه لحظة صدمة.. كانت هي! إيفا بعينيها الملونتين الساحرتين، وشعرها الأسود الطويل الذي ينساب كالحرير، ونظراتها الحنونة التي لم يمحها الزمن.

قال ألكسندر والدموع تلمع في عينيه بفرحةٍ عارمة:

ـــ إيفا! عزيزتي.. اشتقتُ إليكِ.

أجابته بابتسامةٍ هادئة:

ـــ وأنا أيضًا اشتقتُ إليك كثيرًا يا ألكسندر.

سألها بوجعٍ دفين:

ـــ لماذا تركتِني وحيدًا؟

حاوطت وجهه بكفيها الدافئتين وقالت برقة:

ـــ هذا أمرُ الله يا حبيبي.. لا تقلق، أنا بخير، وفي مكانٍ أفضل.

ـــ لكني لستُ بخيرٍ من دونك يا إيفا.. الروح غادرتني معكِ.

همست بحبٍ مشوبٍ بالحذر:

ـــ لا.. أنت قوي، وأنا أثق بك.. أخبرني، هل تيا بخير؟

تعجب من سؤالها المفاجئ وأجاب:

ـــ نعم.. هي بخير، لا تقلقي.

هنا، غامت ملامح إيفا بحزنٍ مفاجئ وابتعدت عنه قائلة بكلماتٍ وقعت كالصاعقة:

ـــ هذا مؤقت يا ألكسندر.. كل هذا الهدوء مؤقت!

ارتسم الهلع على وجهه وصاح بذعر:

ـــ لماذا تقولين هذا يا إيفا؟ انتظري!

لكنها كانت تتلاشى أمام عينيه وهو يصرخ باسمها: إيفاااا.

انتفض ألكسندر من فراشه والغلظ يكسو جبينه، والقلب يقرع بعنف. تمتم بصوتٍ لاهث:

ـــ إيفا..

تذكر كلماتها التحذيرية، فلم يبالِ بالوقت المتأخر، وأمسك هاتفه فورًا ليتصل بتيا. وبعد لحظات، جاءه صوتها الناعس والمتحير:

ـــ ألو.. في إيه يا جدو؟ حصل حاجة؟

سألها بصوتٍ يحاول جعله ثابتًا:

ـــ هل أنتِ بخير يا تيا؟

ـــ آه الحمد لله.. في حاجة ولا إيه؟ حضرتك قلقتني.

تنفس الصعداء وقال بهدوء:

ـــ لا يا عزيزتي.. كنتُ أريد الاطمئنان عليكِ فقط.. عودي لنومك.

ابتسمت تيا بحب:

ـــ لا تقلق يا جدي، أنا بخير.. تصبح على خير.

أغلق ألكسندر الاتصال وحاول استعادة هدوئه، لكن صدى كلمات إيفا ظلَّ يتردد في أرجاء الغرفة..

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

بعد أن أغلقت تيا الخط، نظرت إلى آسر بهدوءٍ يفيض بالامتنان، وهي تحمد الله في سرها على وجود هذا الرجل في حياتها. نهضت ببطء حتى لا توقظه، ودلفت إلى الحمام لتتوضأ، ثم

اتجهت إلى الركن المخصص للصلاة في غرفتهما. أدت ركعاتها بسكينة، ثم جلست تمسك بمصحفها، تغرق في تلاوة القرآن والدعاء والتسبيح.

فجأة، شهقت بخفة حين وجدته يجلس أمامها بابتسامةٍ هادئة، وهو يداعب رأسها بخفة قائلًا:

— بتقومي تصلي من غيري ليه؟

ضحكت برقة واستندت إلى كتفه:

— الفجر لسه مأذنش يا حبيبي.. قولت أصلي ركعتين قيام.

ضمها إليه بهدوء، وأمسك كفها الصغير ليبدأ بالتسبيح على أناملها في لحظةٍ يملأها الوقار، وبعد أن انتهى سألها:

— ألكسندر كلمك ليه في الوقت ده؟

— يعني كنت صاحي وسامع؟

— مش أوي.. بس كنت حاسس بيكي. كان ماله؟

— بيطمن عليا بس.. شكل صوته كان قلقان شوية.

سند رأسه على رأسها وسألها باهتمام:

— كنتِ بتقرئي سورة إيه؟

— سورة الأنبياء.

— مش ملاحظة إن بقالنا كتير معملناش تحدي تسميع؟

ابتسمت بحماس طفولي:

___ أنا هسمَّع لك الأول!

___ لا أنا!

ضحكت وقالت بفضول:

___ صحيح يا آسر.. هو إحنا ليه بنسمع لبعض بما إننا خاتمين المصحف أصلًا؟

أجابها بوعي وحنان:

___ القرآن لو مراجعتيش عليه باستمرار هتنسيه.. هاتي المصحف بقى وسمعي الأنبياء.

بدأت تيا في التسميع بصوتٍ عذب، وبعد أن انتهت أخذت منه المصحف وقالت بمشاكسة:

___ دورك.. سمع لي سورة النمل.

___ ماشي.. بسم الله الرحمن الرحيم

بدأ آسر يرتل الآيات بخشوع حتى انتهى، ثم أراد اختبار ذكائها فسأل:

___ إيه السورة اللي مش بتبدأ بالبسملة؟

أجابت سريعًا:

_التوبة طبعًا!

___ شاطرة.. بقيتي بتردي بسرعة.

ـــ أكيد.

ابتسم آسر بحبٍ عميق وقال بشرود:

ـــ عارفة يا تيا؟ ساعات بستغرب أوي إني اتجوزتك.. فرق السن بيننا مش قليل.

اعتدلت في جلستها وقالت بحكمة تفوق سنوات عمرها:

ـــ السن مش مهم يا آسر.. الفكرة في العقل والتفاهم. وأنا لما بشوفك في شغلك وهيبتك بحس إنك شخص تاني غير اللي معايا.. ربنا زرع حبي في قلبك عشان إحنا نصيب بعض.

ضمها بقوة وهو يهمس:

ـــ إنتِ العوض الحلو يا تيا.. وحياتي من غيرك ولا حاجة.

ردَّت بعشقٍ مماثل:

_ وتيا من غير آسر.. ملهاش وجود أصلًا.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في تلك الغرفة التي تفوح منها رائحة الذكريات، كانت كاترينا تجلس بين مقتنيات ابنتها الراحلة جيسيكا. حدَّقت إلى صورتها بملامح يكسوها الوجع، وهمست بصوتٍ مخنوق:

ـــ جيسيكا.. اشتقتُ إليكِ يا ابنتي.

انهمرت دموعها بغزارة وهي تكمل مناجاتها للصورة:

ـــ هل تشعرين بقلبي الذي يتمزق غيابًا؟ هل تدركين حجم الفراغ الذي تركتِه خلفكِ؟

ضمت الصورة إلى صدرها بقوة، وتابعت بنبرةٍ يملأها التسليم:

ـــ لكني أعلم أنَّك سعيدة الآن.. أليس كذلك؟ لقد ذهبتِ أخيرًا إلى معشوقكِ الذي لم تحتملي الحياة من دونه.

اقترب منها زوجها دانيلو الذي كان يراقبها بأسى، ووضع يده على كتفها مربتًا بحنان:

ـــ هي سعيدة الآن يا كاترينا.. لِما كل هذا البكاء يا جميلتي؟

التفتت إليه وعيناها تفيضان بالدموع:

ـــ اشتقتُ إليها يا دانيلو..

جلس بجانبها بوقاره المعهود وقال بصوتٍ هادئ:

ـــ وأنا أيضًا.. فهي ابنتي المدللة، لكنني أشعر بالراحة لأجلها.. لقد نالت السلام الذي كانت تبحث عنه.

مسح دانيلو دموعها برفق، فنظرت إليه كاترينا بعاطفةٍ لم تطفئها السنون وسألته:

ـــ ما زلتَ تعشقني يا دانيلو؟

ابتسم برقة وأجابها:

ـــ بالتأكيد.. وهل تشكين في ذلك؟ رغم أننا أصبحنا جدًّا وجَدة، إلا أنَّك في عيني لا تزالين تلك الفتاة التي خطفت قلبي.

ابتسمت بحب وعادت تنظر لصورة ابنتها، ليقطع دانيلو الصمت متسائلًا بلطف:

ـــ أتُريدين كوبًا من الشاي؟

ضحكت كاترينا بخفة، فقد أعادتها هذه الجملة لسنواتٍ خلت، حين كانت "جيسيكا" تنطقها بنفس الطريقة لترضي والدتها وتخرجها من حزنها، فأومأت برأسها قائلة:

ـــ أجل.. أريد.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في قصر عائلة كورولينكو، وتحديدًا في غرفة ماكس، كان الأخير يجلس على فراشه بشرود، بينما احتلَّ "إيفان" و"ديم" مقاعد المكتب. ساد الصمت للحظات قبل أن يقطعه إيفان قائلًا بضجر:

ـــ ماكس..

ـــ ماذا؟

ـــ أشعر بملٍل قاتل.

نظر إليه ماكس لثوانٍ ببرود قبل أن يعود لشاشة هاتفه:

ـــ وماذا أفعل لك؟ هل أبدو كمهرجٍ في نظرك؟

تمتم ديم بنبرةٍ تحمل مغزىً خفيًّا:

ـــ لو كانت لمار هي من تطلب، لكنت تحولت لمهرجٍ بارع فقط لترى ضحكاتها و...

ولم يكمل جملته، فقد استقرت زجاجة مياه في وجهه بدقة، ليهتف ماكس بضيق:

ـــ إذا نطقت بحرفٍ آخر سأقتلك!

ضحك إيفان وهو يتدخل بمشاكسة:

___ لا تزعجه يا ديم، فهو يحترق شوقًا لمعشوقته و...

ـــ تبًا لك يا ماكس! إنها تؤلم!

صرخ بها إيفان وهو يتلقى زجاجة أخرى، بينما قال ماكس ببروده المعتاد:

___ اصمت.

تنهد إيفان وهمس:

___ غبي.

لكنه تراجع واعتذر فورًا حين رأى نظرات ماكس التي توعدته بالهلاك. قطعه ديم بسؤالٍ جديٍّ هذه المرة:

ـــ دعنا نتحدث بصدق يا ماكس.. هل تحبها حقًّا؟

هبط الحزن على ملامح ماكس، وقال بصوتٍ خافت يملأه الشجن:

___ أنا لا أحبها فقط.. أنا أعشقها.

ابتسم إيفان بتشجيع:

_ إذن أخبرها بما تشعر.

لمعت أعين ماكس باليأس وأجاب بصوتٍ مرتعش:

___ لن أستطيع.. هي لا تحبني.

هتف ديم بصدمة:

ـــ لماذا؟ لماذا تفترض السوء دائمًا؟ قد تكون هي أيضًا...

لكن قبل أن يتم جملته، شقَّ سكون القصر صرخةٌ عالية ومروعة، جعلت الدماء تتجمد في عروقهم وانتفض الثلاثة بفعل تلك الصرخة المدوية، لكن ديم كان الأكثر فزعًا؛ فصوت تلك الصرخة اخترق قلبه قبل أذنيه. تمتم بهلع:

ـــ ليلا!

وهرول إلى الأسفل كالمجنون، وقلبه يقرع بعنفٍ يكاد يوقفه من فرط القلق. حين وصل أخيرًا، وجدها تقف وسط الردهة، تمسك يدها بدموعٍ تنهمر على وجنتيها، بينما تحاول "لينا" ضمها وتهدئتها، وفيكتور يحدِّق إلى يدها بقلقٍ بالغ.

صاح ديم بلهفةٍ وهلع:

ـــ ليلا! ماذا حدث؟

أجابت بين شهقاتها:

ـــ كنتُ أشاهد التلفاز ولم أنتبه لكوب الشاي.. فسقط على يدي.

نظر ديم إلى يدها، وكان يتوق لضمها واحتوائها، لكنه تذكر أنَّها لا تحل له؛ فكبح مشاعره بصعوبة وقال بهدوءٍ مصطنع:

ـــ انتظري لحظة.

اختفى لثوانٍ وعاد يحمل عبوةً طبية:

ـــ هذا مرهمٌ مخفف للحروق.

تناول فيكتور العبوة وبدأ يدهن يد ابنته برقةٍ بالغة وهو يهمس لها:

ـــ لا تقلقي يا عزيزتي..

في تلك الأثناء، كان ماكس وإيفان يتابعان الموقف من بعيد بابتساماتٍ ذات مغزى. مال ماكس على أذن إيفان وهمس:

ـــ أنا واثقٌ أننا جميعًا ندرك مدى عشق ديم لليلا.. ما عدا هي!

كتم إيفان ضحكته وهمس بموافقة:

ـــ معك كل الحق.

شعر ديم بنظراتهما الساخرة، فرمقهما بنظرةٍ غاضبة كادت تحرقهما، ليصمتا فورًا تجنبًا لانفجار بركانه.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في قلب القاهرة، وتحديدًا داخل أروقة جامعة الطب، كانت ضحكات تيا ولمار والعميدة نورا تملأ المكتب رقةً وبهجة. التفتت العميدة نورا نحو طالبة أخرى تُدعى يمنى قائلة بمودة:

ـــ مبروك يا روحي، تقومي أنتِ والبيبي بألف سلامة.

أجابت يمنى بتوترٍ ظاهر:

ـــ الله يبارك فيكِ.. بس الحقيقة أنا مرعوبة من موضوع الولادة ده.

انفجرت لمار ضاحكة وهي تنظر لتيا: يالهوي! نفس جملة تيا بالضبط وهي لسه في الشهر الأول!

سألت يمنى بفضول:

___ بس تيا مكنتش صغيرة أوي لما خلفت.. صح؟

أومأت تيا بابتسامةٍ هادئة:

___ لا يا بنتي، خلفت وأنا عندي ١٨ سنة.

طال كلامهم بمزاح وبسمة ثم خرجت تيا ولمار من المكتب، فشعرت تيا بغيرة صديقة عمرها لأنها تشعر بالضيق لو اقترب أي شخص منها غيرها فجذبتها من يدها قائلة:

ـــ تعالي نجيب قهوة ونلف في الجامعة شوية قبل المحاضرة.

ابتسمت لمار حين أدركت أنَّ تيا تضعها دائمًا في المقام الأول، وسألتها باهتمام:

ـــ كايلا وأدهم عاملين إيه؟

ـــ زي الفل.. بس النهاردة أدهم سألني ماما هو إحنا هنعرف ليث على بابا إمتى؟

ساد الحزن وجه لمار:

___ وقولتي إيه؟

ـــ سكت يا لمار.. هقول إيه؟ لولا إنهم في مدرسة إنترناشيونال كان الموضوع اتعرف من زمان، لأنهم هناك متسجلين باسم تيا عاصم، وبطاقتي المصرية باسم عاصم.

فلاش باك...

كانت الأوراق مبعثرة حول تيا في كل مكان، والتوتر ينهش ملامحها، بينما كان آسر يراقبها بهدوء.

صاحت تيا بانفعال:

___ أنا هسجل الولاد في المدرسة إزاي يا آسر؟ إحنا مش عايزين حد يعرف إنك أبوهم!

ضحك آسر ببساطة استفزتها:

___ بسيطة يا روحي.. المدارس دي بتسمح بحاجة لو فيه مشاكل عائلية. أنتِ عندك باسبور مصري باسم تيا عاصم وباسبور أمريكي باسم تيا فيكتور.. هتروحي بالباسبور المصري وتقولي إن فيه مشاكل بينك وبيني ومش حابة تسجليهم باسمي، وده بيحصل عادي جدًّا.

وضعت تيا وجهها بين كفيها والدموع تترقرق في عينيها:

___ خايفة يا آسر.. حاسة إن كل حاجة هتتكشف ولسه بدري على ده.

اقترب منها وضمها بحنانٍ يفيض أمانًا:

___ مفيش حاجة هتتكشف، اهدي وكل حاجة هتمشي زي ما خططنا.. خدي لمار معاكِ وأنتِ بتسجليهم.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

أمام باب مكتب المديرة، كانت تيا تضرب الأرض بقدميها في توترٍ لا يهدأ، ولسانها لا يكف عن الترديد بنبرةٍ خافتة:

___ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

أمسكت لمار يديها محاولةً تهدئتها:

___ اهدي يا تيا.. آسر متابع معاكِ الخطوات كلها، مفيش داعي للقلق ده.

ـــ خايفة يا لمار.. خايفة يرفضوا والأوراق متتقبلش.

ـــ وليه نفرض السوء؟ خليكي متفائلة، وبإذن الله كل حاجة هتتم.

جاء دورهم أخيرًا، فدخلتا وجلستا بثباتٍ أمام المديرة. وبعد سلسلة من الإجراءات والأسئلة الروتينية، رفعت المديرة نظرها لتسأل:

ـــ اسم والد الأطفال؟

تنهدت تيا بثباتٍ يخفي ارتجاف أعماقها وأجابت بصوتٍ واثق:

ـــ للأسف فيه مشاكل ونزاع قانوني بيني وبين والدهم، وأنا حابة إنهم ميتسجلوش باسمه حاليًا في ملفات المدرسة.

صمتت المديرة لثوانٍ قبل أن تسأل:

___ طيب، تحبي تسجليهم باسم والد الزوج أم والد حضرتك؟

ـــ باسم والدي.. عاصم.

ـــ تمام.. ممكن البطاقة؟ أو جواز السفر؟

ـــ الباسبور المصري ينفع؟

ـــ أكيد ينفع.

وعندما طلبت المديرة شهادات الميلاد، شعرت لمار بالارتباك، لكن تيا أخرجت الأوراق بهدوء وثقة قائلة:

ـــ دي شهادات ميلادهم الأوكرانية، ومعاها الترجمة المعتمدة من الخارجية المصرية. وزي ما حضرتك شايفة، أنا مسجلاهم باسم والدي عاصم في الأوراق الرسمية المستخرجة من القنصلية، وده إجراء مؤقت لحين انتهاء النزاع القانوني القائم.

تفحصت المديرة الأختام الرسمية والترجمة بدقة، ثم قالت بإعجاب:

ـــ أوراقك مستوفاة تمامًا يا مدام تيا. إحنا هنا بنهتم براحة الأطفال النفسية بعيدًا عن أي نزاعات أسرية. أهلًا بـ أدهم وكايلا في مدرستنا.

تنفست تيا الصعداء، وشعرت بضغطة لمار على يدها بانتصار. وبمجرد خروجهم من المكتب، جذبتها لمار بذهول:

ـــ يخرب بيت كدة! عملتي كدة إزاي.

غمزت لها تيا بابتسامةٍ عريضة وقالت:

ـــ آسر طبعًا..

باك...

ـــ افتكرت ده إنتِ وجوزك عليكم حاجات.

ضحكت تيا بمرارة وهي تشارك لمار همومها:

___ أنا وجوزي تقريبًا كدة، والله أعلم، هنطلق!

انتفضت لمار بفزع وصاحت:

___ بعد الشر يا تيا! ليه بتقولي كدة؟

— بهزر يا ستي.. هو أنا مليش نفس أهزر كمان؟

ردَّت لمار بجدية:

___ هزري براحتك، بس يا ريت تروحي تهزري الهزار ده مع آسر.. شوفي هيعمل فيكي إيه.

ضحكت تيا بمزاح:

___ عشان يموتني مش كدة؟ مكنتش أعرف إنك مستغنية عني أوي كدة!

ضمتها لمار بحنان وقالت بصوتٍ مرتعش قليلًا:

___ تيتو.. الطلاق مش حاجة سهلة عشان تهزري فيها أنا بس بخاف.

أغمضت تيا عينيها، وهي تدرك تمامًا أنَّ صديقتها تعاني من عقدة الفقد، فطمأنتها بهدوء:

___ متقلقيش يا لمار.. آسر عارف إن هرموناتي ملخبطة ومستحملني، وزي ما قُلتي.. لو قُلت كدة قصاده، مش بعيد يرميني من الشباك.

قطع حديثهما رنين هاتف تيا.. وكالعادة، كان هو خاطف قلبها وعقلها.

ذهبت بعيدًا لتجيب، لينساب صوته الرجولي الحنون:

ـــ عاملة إيه؟

ـــ كويسة.. غريبة إنك روحت الشغل النهاردة من غير ما تصحيني.

ـــ لقيتك نايمة وصعبتِ عليا.. قولت أسيبك ترتاحي.

سألته بنبرةٍ شعرت بداخلها بضيقها:

ـــ مالك يا آسر؟ صوتك مش عاجبني.

ـــ ضغط شغل مش أكتر.

سألت تيا بصوتٍ حاولت أن تجعله هادئًا، لكن غيرتها غلبتها:

ـــ قابلت رهف النهاردة؟

زفر آسر بضيقٍ وصرخ بغضب مكتوم:

ـــ هتستفيدي إيه يا تيا؟ قابلتها أو مقابليتهاش مش هتفرق!

ـــ أنا قولت إيه يعني؟ بسأل عادي!

ـــ وامبارح كان عادي، وقبله كان عادي؟ إحنا مش هنخلص؟

صاحت تيا بدفاع:

ـــ في إيه يا آسر؟ أنت بتكلمني كدة ليه؟ أنت متصل عشان تتخانق؟

ـــ مش بتخانق، بس كل ما أكلمك تجيبي سيرتها، وأنا بكلمك عشان أهرب من ضغطهم أصلًا!

ببرودٍ وعناد، أجابت تيا:

ـــ كل ده عشان سألت سؤال؟ أنا غلطانة يا عم، مش هجيب سيرتها تاني.. تؤمر بحاجة تانية؟

ـــ سلام يا تيا.

ـــ سلام.. مع ألف سلامة!

أغلقت الهاتف بعنف دون انتظار رده، ولم تدرِ أنَّها بهذا البرود قد ألقت بشعلة نارٍ في عقله وقلبه.

عادت لمار لتجد تيا بملامح غاضبة، فقصت عليها ما حدث. تنهدت لمار بحكمة وقالت:

ـــ أنتوا الاتنين غلطانين يا تيا.. مينفعش كل كلامك يبقى عن رهف. الراجل بييجي بالحنية، مش بالشد والجذب طول الوقت.. شدي مرة وارخي مرة ثانية.

جزَّت تيا على أسنانها بضيق:

ـــ هو عصبي و...

ـــ وأنتِ عصبية وعنيدة! آسر قبل الجواز كان بيحتويكِ كأب وأخ، لكن دلوقتي هو جوزك.. محتاج هدوء واحتواء مش تحقيق.

ساد الصمت، وبدأت تيا تفكر في كلمات صديقتها. شعرت بوخزة ضمير، لكن كبرياؤها وعنادها حسموا الموقف بداخلها: لن أعتذر.. وهذا قرار نهائي!

في غرفة تيا، كانت تقف أمام المرآة ببيجامة سوداء أنيقة، ترفع شعرها بعفوية، وتهمس لنفسها بنبرةٍ متدربة:

ـــ أنا آسفة يا آسر.. بجد مكنتش أقصد.

عبست ملامحها وهي تتخيل ردَّ فعله البارد، فالتفتت لابنتها كايلا التي كانت تجلس بجانبها تضع سماعاتها وتعبث بهاتفها قائلة:

ـــ كوكي.. لو إنتِ زعلتي حد، بتتأسفي له إزاي؟

نزعت كايلا السماعات وقالت بعنادٍ طفولي مألوف:

ـــ أنا مش بغلط أصلًا عشان أتأسف!

ضربت تيا كفًّا بكف وتمتمت:

ـــ حقيقي آسر مكدبش لما قال إنك بنت أمك بصحيح! يا روحي مفيش حد مبيغلطش، كلنا بشر.

فكرت كايلا لثوانٍ ثم قالت ببراءة مسمومة:

ـــ ممم.. لو حد زعلان مني، بروح أقوله بطل رخامة بقى ومتكبرش الموضوع! وبعدين بابي طيب وبيتصالح بسرعة.

صعقت تيا وهمست لنفسها:

ـــ أنا لو قولت له كدة، مش بعيد يحدفني من الشباك.

فعلًا!. ثم نظرت لابنتها بشك:

ـــ وبعدين إنتِ عرفتِ منين إني عايزة أصالح بابي؟

ابتسمت كايلا بذكاء طفولي:

___ عشان مش بتبقي محتارة كدة غير لما تكوني مزعلة بابي.. وبعدين أنا زعلانة منك إنتِ كمان، قولتِ مش هنروح المدرسة ولا الجامعة والكل راح في الآخر!

ضحكت تيا وضمتها:

___ والله كنت ناوية أغيب، بس لمار قالت فيه محاضرة مهمة..

قطع مرحهم صوت سيارة آسر في الخارج. انتفض قلب تيا توترًا، وهبطت مع كايلا لتجد أدهم يتابع التلفاز. فُتح الباب، فهرع الصغار لآسر الذي ضمهم بحنانٍ بالغ، لكنه تعمد تجاهل النظر لتيا تمامًا.

بينما كان يضم كايلا، همست في أذنه بخبث:

ـــ بابي.. مامي قاعدة من بدري بتفكر هتصالحك إزاي على فكرة.

كتم آسر ضحكته وهمس لها:

___ مش أنا قولت لك الفتنة حرام؟

ـــ عارفة.. بس مامي صعبت عليا، صالحها بسرعة بليز.

قبَّل وجنتها وقال بهدوء:

___ حاضر يا روحي.

تركهم وصعد لغرفته، لتتبعه تيا كظله. أغلقت الباب خلفها ونادت بصوتٍ خفيض يملأه الرجاء:

— آسر..أنا...أنا آسفة.

استدار إليها ببرودٍ غامض ونظر في عينيها طويلًا قبل أن يقول بنبرةٍ جافة:

— على إيه بالظبط.

سألها آسر بنبرةٍ جافة، فاقتربت منه تيا ببطء، مطأطئة رأسها وقد كسا الندم ملامحها:

— على اللي حصل الصبح..

ابتسم ببرودٍ ماكر، وضيق عينيه وهو يسأل:

— اللي هو إيه؟ طريقة كلامك معايا؟ ولا قفلتك للمكالمة في وشي؟

تعثرت الكلمات على لسانها فقالت بارتباك:

— هو.. هو مينفعش الاتنين مع بعض؟

اقترب منها فجأة حتى لفح أنفاسه وجهها، لكنها لم تتراجع شبرًا؛ فهي تحفظ أمانه وتدرك أنَّه لن يؤذيها أبدًا. كان آسر يبتسم بداخله لثباتها، لكنه قال بوقار:

— طبعًا لا.. دي حاجة، ودي حاجة تانية خالص.

— أنا آسفة على الاتنين يا آسر..

تنهد بعمق وأجاب بنبرةٍ أهدأ:

___ أنـا كمـان آسـف علـى عصـبيتي.. بـس لازم تعرفـي إن فيـه عقاب على موضوع قفلة السكة ده.

نظرت له بضيق ممتزج بالدهشة:

___ ما كنت ماشي كويس! ليه القلبة دي بقى؟

ـــ عشـان تتعلمـي وتعرفـي إن طـول مـا أنـا بحترمـك، لازم تحترميني إنتِ كمان.. الاحترام مبيتجزأش يا تيا.

لمعت الدموع في عينيها وهمست بوجع:

___ يعني أنا مش بحترمك يا آسر؟

سألها بهدوء:

___ هل أنا في يوم قفلت السكة في وشك مهما كان خلافي معاكِ؟

هزَّت رأسها نفيًا، فأردف:

___ يبقى إنتِ شايفة إيه؟

ـــ آسفة.. بجد آسفة.

ـــ تمام.. وعقابي إني مش هكلمك لمدة يومين.

انفجرت بانفعال:

___ آسر! أنـا مـش صـغيرة عشـان تعـاقبني كـدة، أنـا مراتـك مـش بنتك!

قرص وجنتها بخفةٍ لم تخلُ من حنانٍ مستتر وقال: إنتِ مراتي وبنتي.. الاتنين سوا، ودلوقتي ابعدي بقى.

تركها ودلف إلى الحمام، لتنساب دموعها بحرقة؛ فهي تدرك تمامًا أنَّه بمجرد خروجه، سيتحول إلى تمثال يتجاهل وجودها تمامًا.. فهل سيصمد قلب آسر أمام سيل دموعها، أم لا؟

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في فيلا فخمة، تزدان بجمالٍ راقٍ يعكس ذوقًا رفيعًا، لكن قاطنيها ليسوا سوى سراب لبشرٍ انتزعت الرحمة من قلوبهم، أو ربما لم يطرق هذا المصطلح أسماعهم يومًا.

كان "عامر" يجلس بملامحه الصارمة في الستينات من عمره، وبجانبه زوجته "هند" التي كانت تصرخ في هاتفها بغلٍّ:

ـــ بقى كدة يا ريم؟ طبعًا.. هستنى منها إيه؟ ما هي صدقت نفسها من ساعة ما اتجوزت!

أضاف عامر بغضبٍ يضاهي غضبها:

ـــ سألت جاسر النهاردة ولقيته بيقولي بكل برود:

"معلش مش بتشوف التليفون" فاكرني أهبل عشان أصدقه؟ بنتك خلاص يا هند، داست على كل اللي عملناه عشانها.

ـــ واللي يحرق الدم يا عامر إنها لما بتشوفني في اجتماع أو حفلة، بتتعمد تعمل نفسها مش عارفاني!

تدخل ابنهما رائف بسخرية لاذعة وهو يراقبهما:

ـــ وهي شافت منكم حاجة عدلة أصلًا عشان تفتكركم؟

صاحت هند بضيق:

___ وأنا عملت إيه يعني؟ خليك في مذاكرتك يا رائف وما تتدخلش في اللي ملكش فيه!

زفر رائف بضيق ونهض متجهًا لغرفته وهو يتمتم:

___ أنا مالي فعلًا.. الله يكون في عونها.

التفتت هند لزوجها والشرر يتطاير من عينيها:

___ شوفت ولادك؟

ـــ حقيقي مش عارف هلاقيها منين ولا منين.. كنت فاكر إن جوازها من جاسر هيكبر شركتنا ونبقى في حتة تانية، بس كل ده طلع سراب.

هتفت هند بحقد:

___ أشوفها بس تقع تحت إيدي تاني وأنا...

قاطعها عامر بقلقٍ واندفاع:

___ بس! اسكتي أنتِ فاكرة إنك هتقدري تعملي لها حاجة؟ ده جاسر كان يولع فينا كلنا من غير تردد.. دي بقت حرم جاسر الطنطاوي على سن ورمح! يعني خلاص يا هند.. اللعبة خلصت.

صرخت برفضٍ قاطع وابتسامةٍ خبيثة بدأت ترتسم على ثغرها:

ـــ لا يا عامر.. مش خلاص! أنا عارفة كويس هعمل فيها إيه.. وأنت كمان عارف.

قالتها بغموضٍ مرعب، كأنها لا تتحدث عن ابنتها التي حملتها وهنًا على وهن، بل عن عدوٍ لدود تخطط لسحقه.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

___ رايحة فين يا فاطمة؟

سألها جلال الطنطاوي وهو يراقب زوجته التي كانت تجلس أمام المرآة، منهمكة في وضع مساحيق تجميل صاخبة لا تتناسب مع سنها أو ملامحها، بل تكاد تخفيها تمامًا تحت طبقاتٍ من الزيف.

التفتت إليه بابتسامةٍ تلونت بسخريةٍ مريرة وقالت:

ـــ غريبة يعني يا جلال اهتمامك بخروجي دا من امتى يعني؟

أجابها جلال ببرودٍ يقتل أي مشاعر، كأنه يبرر سؤاله كي لا تفهمه خطأ:

ـــ مش اهتمام أنا بتكلم إن خروجك زاد.

ارتسمت السخرية بوضوح أكبر على ثغرها، وأنهت وضع لمساتها الأخيرة وهي تقول بلامبالاة:

ـــ مش هتأخر.

هزَّ كتفيه بلا اكتراث وتمتم وهو يتجه نحو الشرفة:

ـــ مش مهم.

تركها وحيدة في غرفتها، تواجه مرآتها وقلبها المثقل بالوحدة، بينما هو فضَّل الهروب إلى شرفته، كأنهما غريبان جمعتهما الجدران وفرقهما كل شيء آخر.

ـــ هو أنا مش قُلت لك ألف مرة قبل كدة الفستان ده ميتلبسش؟!

هكذا صرخ جاسر حين وقعت عيناه على ذلك الفستان اللعين، الذي كان يزيدها جمالًا فوق جمالها الفتَّان، كأنه خُلق ليبرز فتنتها لا ليسترها.

رفعت ريم نظرها إليه، وقالت بضيقٍ دفين يملأ صدرها:

ـــ جاسر.. بالله عليك بلاش تبيّن إنك غيران، عشان أنا فيا اللي مكفيني.

ابتسم ببرودٍ استفزازي، واتجه نحو باب الغرفة ليغلقه بإحكام، ثم وضع المفتاح في جيبه وقال بتحدٍ:

ـــ طيب أهو اتقفل.. وريني بقى هتخرجي إزاي بالفستان ده؟

ـــ بلاش جنان يا جاسر!

ـــ والله أنا عن نفسي بموت في الجنان يا روحي.. والباب مش هيتفتح غير لما تروحي كدة زي الشاطرة تغيري الزفت ده.

ضربت ريم الأرض بقدميها غيظًا، ودلفت إلى غرفة تبديل الملابس. وبعد فترة، خرجت وهي ترتدي كنزة سوداء واسعة ومحتشمة، وبنطالًا أسود، وقد رفعت خصلات شعرها السوداء بإهمال.

نظر إليها جاسر وقال بمزاحٍ ثقيل:

ـــ إيه السواد ده؟ أنتِ رايحة جنازة ولا إيه؟

رمقته بنظرةٍ حادة وقالت بنبرةٍ متوعدة:

ـــ بقولك إيه.. امشي من وشي بدل ما أنكد عليك وأخليه يوم أسود زي اللبس اللي أنا لابساه ده!

اتجهت للباب وحاولت فتحه، لكنه كان لا يزال مغلقًا، فصرخت:

ـــ البااااب!

ـــ صوتك..

قالها وهو يقترب منها بهدوءٍ مريب، مدَّ يده كأنه يعطيها المفتاح، وحين مدت يدها لتأخذه، سحبها إليه بقوة وهمس عند أذنها:

ـــ متتأخريش.. عشان إحنا بالليل.

سألت بتحدٍ:

ـــ وأنت مالك؟

ارتسمت بسمة ساخرة على شفتيه وقال ببرود يكسره اليقين:

ـــ أنا جوزك.. ومش هفضل أفكرك كتير بالموضوع ده.

خطفت المفتاح من يده، ونظرت إليه بوجهٍ يكسوه الضيق والنفور، وهمست بكلماتٍ جعلت الدهشة ترتسم على وجهه:

ـــ متفرحش كتير بكلمة جوزك دي..

غادرت الغرفة وتركت خلفها صمتًا ثقيلًا وتساؤلاتٍ بدأت تنهش في عقل جاسر حول معنى كلماتها الأخيرة.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

ـــ داليا.. هو أنتِ مفكرتيش فين تيا.

وقع هذا السؤال على مسامعها كصاعقةٍ شقَّت سكون الغرفة. رفعت عيناها عن هاتفها مستنكرة، وأزاحت خصلات شعرها التي تمردت على عينيها وقالت بصوتٍ مبحوح:

ـــ تيا مين يا سيف؟

ابتسم بسخريةٍ مريرة:

ـــ متحسسنيش إنك نسيتيها.

نظرت أمامها بشرودٍ وحاولت التماسك:

ـــ لا معرفش حد بالاسم ده غير اللي شوفناها في الجامعة.

أجابها بجمودٍ صدم كيانها:

ـــ لا أنا أقصد أختك.

تركت هاتفها ونظرت في عينيه مباشرة بتحدٍ يائس:

ـــ مليش أخوات وياريت تقفل على الحوار ده.

نهض سيف من فراشه وجلس بجانبها على الأريكة، رفع وجهها بيده وهمس بقوة:

ـــ مهما عملتي مش هتنسيها بأمارة صورتها اللي في دولابك.

ـــ اسكت يا سيف!

ـــ مش هسكت، إنتِ سيبتي أختك وأنا كنت بسمع آسر بينادي عليا ومش بروح للدرجادي كنا وحشين!

حدَّقت إلى عينيه بضعفٍ بدأ يتسلل لحصونها:

___ كفاية يا سيف.. كفاية.

ـــ "إيه اللي وصلنا لكدة؟ إحنا بنكرر نفس الغلط مع ليث دلوقتي.. إحنا مسجونين جوه دايرة، زي عصفور في قفص من دهب، متوفر له الأكل والشرب.. بس حريته مش موجودة.

همست أمام وجهه بصوتٍ مرتعش:

___ إيه لازمة الكلام ده دلوقتي؟

ـــ مش عارف..

ابتسمت بسخرية موجعة:

___ عايز توجعني وخلاص؟

ـــ أنا برده؟ تمام.. دايمًا أنا الشخص السيء في نظرك، مفيش جديد.

شعرت داليا بتمزقٍ داخلي؛ فهي ليست آلة صماء، بل إنسانة تصرخ من الداخل طلبًا للحب والاهتمام، لكنها في هذا البيت لم تجد سوى الجفاء. نهضت بصمت، واتجهت للفراش تدثرت بغطائها تمامًا وأغلقت عينيها، لتترك العنان لدموعها التي حبستها لسنوات، هاربةً من واقعٍ لا يرحم.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

"الفِراق ليس غياب الوجوه، بل حضور الذكريات حين لا نجد لها مكانًا نضعه فيه».

ألم الفراق الحقيقي لا يكمن فقط في ابتعاد الأشخاص عن حياتنا، بل في بقاء ذكرياتهم عالقة داخلنا بلا موضع آمن. فالإنسان يستطيع التكيف مع الغياب الجسدي، لكنه يعاني حين تظل الذكريات حاضرة، تزاحم القلب والعقل دون أن تجد طريقًا للنسيان أو للسكينة، فتتحول إلى عبءٍ صامت يؤلم أكثر من الفراق نفسه.

وهذا هو حال سارة.. الذكريات ما زالت تدور في عقلها، تؤلمها بنفس القدر. اللعنة على الفراق الذي يأتي ليدمر كلَّ شيء! تتذكر يوم زفافها، نظرات فيكتور العاشقة، وابتسامته الدافئة التي كانت تحتضن روحها. أغمضت عينيها والدموع تنساب بغزارة وهي تقارن بين معشوقها الذي كان يود الصراخ فرحًا، وبين شقيقها "جلال" الذي كان الجمود يكسو ملامحه يوم زفافه.. والمفارقة المريرة أنَّ جلال هو من استمرت حياته، وهي من بقيت تبكي على الأطلال.

ضحكت فجأة وسط دموعها حين تذكرت يوم ولادتها بـ داليا.

فلاش باك...

كانت نائمة بعمق وهو بجانبها، حتى بدأت تشعر بتقلصاتٍ عنيفة. فتحت عينيها وأمسكت بطنها المتعبة وهي تئن:

ـــ فيكتور.. فيكتور اصحى.. آآآآه.

انتفض من نومه بهلع:

ـــ في إيه يا سارة؟

ـــ بطني بتوجعني أوي مش قادرة!

ـــ طيب اهدي.. أعمل إيه؟

صرخت فيه بوجع:

ـــ تعمل إيه في إيه؟ بقولك بولد يا بني آدم.. منك لله!

أمسك هاتفه بتوتر واتصل بـ فيرين التي أجابت وسط صراخ سارة:

ـــ فيكتور؟ ما هذا الصراخ؟

ـــ إنها سارة.. تصرخ بشدة!

ـــ هذا المخاض يا فيكتور! أسرع بها للمشفى!

بينما كان فيكتور يتحدث، سمع صوت ضحكات "ستيفان" في الخلفية، فقال فيكتور بضيق:

ـــ هل تضحك يا ستيفان؟

ـــ نعم، فالأمر مضحك حقًّا.. لو علم والدنا أننا نتحدث الآن لقطعنا جميعًا!

انتفض فيكتور على صرخة فيرين العصبية وهي تأمره بالتحرك، فحمل سارة بين ذراعيه بحنانٍ بالغ. كانت تتشبث به وتبكي:

ـــ مش قادرة يا فيكتور.. هموت!

وهو يخرج بها من الغرفة، سمع صرخات متقطعة تأتي من غرفة جلال، فهمس لسارة بابتسامة متوترة:

ـــ شكلك مش أنتِ بس اللي بتولدي!

في المشفى، وقف فيكتور بقلق بجانب عثمان وجلال وعماد. كان جلال يقف ببرودٍ كالعادة، حتى شقَّ سكون المكان صوت بكاء طفل. خرجت الممرضة تحمل طفلة رضيعة وقالت لفيكتور:

— بنت زي القمر.

احتواها فيكتور بين ذراعيه، تأمل ملامحها التي تشبه سارة، وعينيها الزرقاوين اللتين ورثتهما عنه. همس في أذنها بالأذان والدموع تزين وجهه. في تلك الأثناء، خرجت ممرضة أخرى من غرفة العمليات الخاصة بزوجة جلال وقالت:

— ولد زي القمر.. يتربى في عزك.

حمل جلال ابنه ببرودٍ يخلو من أي مشاعر، فقال عثمان بسعادة:

— سيف.. هسميه سيف.

لم يعترض جلال، فهو لم يكن يملك قرارًا من الأساس. بينما قال فيكتور بهدوء:

— داليا.. أنا وسارة متفقين إنها داليا.

اكتفى عثمان بالصمت، كأن الأقدار قد كتبت لـ "سيف وداليا" أن يبدآ الحياة معًا في نفس اللحظة.

عادت سارة من شرودها على صوت طرقات خفيفة. فتحت الباب لتجد والدها عثمان يقف أمامها ببروده المعتاد.

سألت بتوجس:

بابا.. في حاجة؟

نظر إليها ببرودٍ وقال:

اتكلمتي مع آسر في موضوع رهف؟

ابتعدت خطوة عن الباب ثم قالت:

_ اتفضل.

دلف إلى الداخل، يسبقه جبروته وتحيط به هيبته المعتادة، وجلس على الأريكة الموجودة في الغرفة وقال:

_ قعدت ها اتكلمي.

جلست أمامه، وأطرقت برهة ثم قالت بصوت هادئ:

_ رفض.

أغمض عينيه كمن يكبح غضبه، وقال بصوت منخفض:

_ تعبت من عناده يا سارة.

_ سيبه براحته يا بابا.

_ أسيبه براحته عشان يبقى زيك!

وقعت كلماته عليها كالماء البارد، فنظرت إليه والدموع تترقرق في عينيها:

_ بقى كده يا بابا؟

أجابها ببرودٍ مُرهِق:

_ أيوه كده... أنا مش عايز أخسر آسر.

صرخت فيه والدموع الحارقة تنهمر على محياها:

_ إنت مش خايف تخسر آسر، إنت خايف تخسر دماغه في الشغل! خايف تخسره علشان اسمه ومكانته، مش علشان حفيدك!

قال ببرود:

_ وأنا قولت غير كده؟

ارتسمت الصدمة على وجهها، وقالت بصوتٍ مرتجف:

_ يعني ده فعلًا آسر بالنسبالك يبقى...

قاطعها بقسوة:

_ مجرد راجل هيبته وشخصيته ودماغه رافعين اسم الشركة واسمي. بس لو خسرته، مش هتأثر... عارفة ليه؟

نظرت إليه بدهشة، فأكمل:

_ لأن سيف وجاسر دماغهم تِوزن بلد، أذكياء وليهم هيبتهم برده. آسر بس الضلع التالت في المثلث يا سارة، والمثلث ده بالنسبالي شبه مثلث برمودا... اللي يدخل جواه ما بيطلعش منه تاني.

شعرت بالريبة من نظراته، لكنها آثرت الصمت، على عكس الحرب الضارية التي كانت تدور بداخلها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في الصباح...

تململت في نومها ببطء، وفتحت عينيها على استحياء، لكنها ما لبثت أن أغمضتهما سريعًا حين باغتتها أشعة الشمس. عاودت

فتحهما من جديد، والتفتت إلى جوارها تبحث عنه، فلم تجده. تنهدت بضيق، وانسابت كلماتها مثقلة بالعتاب:

— هِي بقت كده يعني يا آسر؟ ماشي...

سالت دموعها على وجنتيها بصمت، لكنها سرعان ما مسحتها بهدوء، ونهضت متجهة إلى الحمَّام، تحاول أن تخفي ما تبقى من وجع الصباح.

أدَّت فرضها بهدوء، ثم وقفت أمام ملابسها لحظات، قبل أن تمتد يدها إلى الأسود؛ لونٌ يشبه مزاجها، ويترجم ما يسكن قلبها بصمت.

ثم لفَّت حجابها ببطء، تخفي خصلات شعرها ورقبتها بإحكام، كما تفعل كل يوم، كأنها لا تخفي ملامحها فقط... بل تُحكم إغلاق ما تبقَّى من ضعفٍ في داخلها.

واتجهت بعدها إلى غرفة أطفالها، أيقظتهم برفق وأعدَّتهم للمدرسة، ثم أمسكت بأيديهم وهبطت إلى الأسفل. اتجهت نحو سيارتها، جلسوا بداخلها في صمتٍ ثقيل، وقالت وهي تدير محرّك السيارة...:

_ حبايب قلبي ساكتين لية مش عوايدكم يعني؟

تمتم أدهم بصوتٍ مثقل بالنعاس:

_ أنا عن نفسي هموت وأنام.

ضحكت تيا ضحكةً خافتة، وقالت بمزاح صادق:

— ومين سمعك يا بني والله؟

قالت كايلا بضيق طفولي:

_ نفسي أشوف اللي اخترع المدرسة.

_ ليه؟

وضعت يديها على وجنتيها بملل وقالت:

_ كنت هموته.

انفجرت بالضحك وقالت وهي تضمها:

_ أعمل فيكي إيه؟

_ روحيني البيت وبلاش مدرسة.

نظرت لعيناها الملونة وقالت بأسف:

_ حقيقي مش هينفع يا كوكي.

تمتم أدهم بنبرة أشبه بالبكاء:

_ أنا نفسي أعرف إحنا بيحصل فينا كدة ليه؟

ثم صمت لثوانٍ وأكمل:

_ ماما هو إحنا مش هنسافر أوكرانيا؟

_ لا هنسافر يا حبيبي.

_طب أنا عايزة أسافر دلوقتي.

_ اشمعنا؟

_ جدو وحشني.

ابتسمت بهدوء وداعبت خصلاته برقة وقالت:

_ حاضر بجد أوعدك في أقرب فرصة هتروح.

لمعت عيناه بحب وضمَّ والدته وقال:

_ بحبك أووووي بجد.

_ وأنا بحبك أكتر بكتير.

وعند وصولهم إلى مدرستهم، ودَّعتهم بحب وحنان، ثم اتجهت إلى جامعتها، متجاوزةً تعب الطريق وهموم اليوم.

وعندما وصلت إلى وجهتها، أوقفت سيارتها برفق، ثم توجَّهت نحو مكان صديقتها.

_ تيا أنا هنا.

التفتت سريعًا لتجدها تقف وهي تلوح لها بيدها فاتجهت إليها ومن دون سابق إنذار ضمتها بهدوء فهمست لمار لها وهي تشدد من احتضانها:

_ مالك يا تيتو؟

_ مخنوقة يا لمار.

جذبتها بهدوء نحو كافتيريا الجامعة، وعندما وقع اختيارها على زاوية بعيدة عن الأنظار، جلستا سويًا:

_ ها مالك بقى يا ستي؟

قصت عليها ما حدث وترقرقت الدموع في عينيها فقالت لمار برفق:

_ طيب ممكن تهدي، أولًا يا تيتو هو حقه لأن اللي أنتِ عملتيه تقليل احترام ليه وفي نفس الوقت إنتِ مراته، حقيقي أنا مهما حاولت أصلح بينكم أو أفهمكم مش بعرف.

ضحكت تيا بخفة وهي تنهض وتقول:

_ ولا هتعرفي قومي بقى عشان المحاضرة.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في مكان آخر...

هي شخصية متوهِّجة بالأسئلة أكثر من الإجابات، كأنها تمشي في متاهة بلا خريطة. تفقد نفسها بين أفكار متناقضة ومشاعر متشابكة، تبحث عن هويتها في انعكاسات الآخرين وفي صدى الماضي، لكنها لا تجد إلا فراغًا صامتًا. كل قرار يبدو معركة، وكل لحظة هدوء تزداد فيها حيرتها. قلبها متردد، وعقلها مشتت، وروحها تتأرجح بين رغبة في الاستقرار وخوف من الانكشاف. إنها في رحلة مستمرة لفهم ذاتها، لكنها تشعر أنَّ الطريق دائمًا يبتعد عنها أكثر مما تقربه منها.

هي... رهف.

كانت تدندن مقطوعة موسيقية أجنبية وهي تنظر لانعكاسها في المرآة ببطء عينيها المرهقة من كثرة البكاء الذي لا يعلمه أحد

غيرها، الكل يرى أنها مجرد فتاة مستهترة لا تتحمل المسؤولية، ولكنها عكس ذلك.

أصبحت تكره الصمت الذي ينتشر حولها عندما تكون وحدها؛ فهذا الصمت يجعلها تواجه حقيقتها المترددة والخائفة، تواجه نفسها الحقيقية التي تبحث عن الأمان...

الأمان الذي افتقدته، والدها توفى عندما كانت صغيرة وهو الابن الرابع لعثمان الطنطاوي <<ماهر عثمان الطنطاوي>>.

لقد نسيه الجميع وذهبت ذكرياته من الأذهان إلى درجة أنَّه لم يعد أحد يذكر اسمه.

حتى والدتها ميسون التي كانت ترى أنه ضعيف الشخصية، لم ترى أنه حنون ولين القلب.

أغمضت عيناها وقالت بحزن:

_ بابا، وحشتني أوي، ربنا يرحمك يا حبيبي، عارفة إنك زعلان مني لأسباب كتير.

بس إنت عارف أنا بعمل كدة ليه.

نهضت من مكانها بتثاقل ونظرت لهاتفها وأمسكته بهدوء وبدأت بكتابة كلمات تعبر عن الألم التي تشعر به في مذكراتها:

"أبي الحبيب، كم أشتاق إليك... كم أتمنى لو كنت هنا لتحتويني وتخفف عني ثقل الأيام.

أعلم أنني أخطأت مرات كثيرة، وأنك قد حزنت لأجلي، لكن أعلم أنَّ كل ما فعلته لم يكن إلا محاولةً مني لأجد طريقي في عالم خالٍ

من أمانك ودفئك. رحيلك ترك فراغًا لم يملأه أحد، وذكراك عالقة في قلبي بين ألم الفقد وحنين لا يزول.

كنت أحتاجك أكثر من أيّ وقت مضى، لكنني أعدك أن أحاول أن أكون كما كنت تتمنى أن أكون، وأن أعيش بروحك الحنونة في داخلي".

وتركت هاتفها ودموعها الغزيرة تنهمر على محياها وأخذت المنوم التي اعتادت عليه في فتراتها الأخيرة،

ثم ذهبت في نوم عميق.

النوم الذي يظهر للجميع إنه بسبب سهرها في الأمس ولكنه بسبب إرهاق روحها...

أغلقت عينيها وهي تتمنى أن ترى أحلامًا هادئة وليست بشعة كعادتها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في شركة نوريس...

كان يجلس ألكسندر وهو ينظر لأدريان بهدوء:

_ أجل يا أدريان هذا ما كنت أقصده أنا، أريدك أن تتابع العاملين وتحدد من يعمل بجد لكي يأخذ مكافأة مع راتبه.

_ ولكن لماذا؟

_ لأن هذا حق إرهاقهم يا بني.

ابتسم أدريان واتجه لوالده وقبَّل يده باحترام:

_ أتمنى أن أصبح مثلك في يومٍ من الأيام أبي.

ربت على رأسه بدعم وحب:

_ ستصبح أفضل، أنا أعلم ذلك.

شعر بالسعادة تغزو قلبه، فهو يشعر بأنه ما زال طفل صغير مع والده يريد الدعم دائمًا..

وصل لأذنهم صوت طرقات خفيفة فأذن ألكسندر لمَن بالخارج بالدخول، وكان ديم:

_ أبي هل أنت هنا؟

قال أدريان بسخرية مازحة:

_ لا فأنا في الخارج.

ضحك ألكسندر بشدة على ملامح حفيده الممتعضة:

_ ماذا تريد يا ديم؟

_ جدي هل أنت تحبني؟

تعجب وقال بحنان:

_ بالطبع يا عزيزي.

_ إذًا فهل ستوافق على زواجي من ليلا؟

قالها سريعًا وهو يغمض عيناه بقلق فضحك الجد بشدة وقال بصوت متقطع:

_ هل هذا... ما تريده؟

ثم صمت لثوان وقال:

_ أنا لن أجد لها أحد يحبها مثلك فأنا كنت أرى العشق في عيناك بني.

اتسعت ابتسامته وتسارعت دقات قلبه ولكن قال ألكسندر فجأة:

_ ولكن إذا شعرت بمشاعر الحب تجاهك.

لمع التحدي في عينيه وقال:

_ أعدك أنها ستحبني.

_ سنرى.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في المساء...

— لا، كده كتير بجد يا لمار!

تفوهت بها تيا بنبرة غاضبة، وهي تضغط على هاتفها كأنها تفرغ فيه ضيقها كله.

جاءها صوت لمار ساخرًا:

— كتير على إيه بالظبط؟ على الامتحان اللي جه فجأة؟ ولا على تجاهل آسر؟

— على الاتنين.

— طب نعمل إيه يعني؟ ننتحر؟

— والله أنا شايفة إن دي أنسب حاجة.

ضحكت لمار بخفة تحاول أن تخفي بها تعبها:

— اقفلي بقى.

وبالفعل أنهت المكالمة، وألقت الهاتف بعيدًا، ثم حدَّقت إلى الأوراق المبعثرة أمامها بعشوائية قاتلة. لم تستطع المقاومة أكثر... فانخرطت في بكاءٍ هيستيري، كأن كل ما كتمته الأيام الماضية قرر أن يخرج دفعة واحدة.

أما هو، فكان يجلس في مكتبه بالطابق السفلي، يتمتم كأنه يقنع نفسه:

— حاسس إن كده كفاية... يوم حلو أوي.

لكن عقله كان يرفض هذا الادعاء.

بل لِنكن أدق... العقل لم يكن له سلطة من الأساس أمام قلبه.

نهض من مكانه متجهًا إلى غرفته، وما إن فتح الباب حتى انتفض قلبه بين ضلوعه، حين داهم سمعه صوت بكائها.

أغلق الباب خلفه بهدوء، واتجه إليها دون كلمة واحدة، ضمَّها فقط.

تشبثت به بقوة، كأنها وجدت ملاذها الوحيد، وقالت وسط دموعها:

— مش عارفة أذاكر أي حاجة... الامتحان شامل يا آسر.

— طب ممكن تهدي شوية وتبطلي عياط؟

قالها وهو يمسح دموعها برفق، ثم تابع بصوت هادئ مطمئن:

— أولًا، إنتِ مستحيل تذاكري والدنيا قدامك ملخبطة كده.

ثانيًا، مذاكرة إيه دي اللي على السرير؟ أمال أنا عملت لك المكتب ده ليه؟

ثالثًا... وده الأهم، بلاش تشاؤم. قومي اتوضي وصلي ركعتين، وأنا أعمل حاجة سريعة وأرجع لك.

نهضت بصمت، واتجهت إلى الحمام. وبعد قليل خرجت وقطرات الماء تزيّن وجهها، واتجهت إلى ركن الصلاة، ارتدت عباءة فضفاضة وحجابًا، ورفعت يديها بخشوع:

— الله أكبر.

في الأسفل، دخل آسر المطبخ وهو يتمتم:

— هو فين الشاي؟

حتى وقعت عيناه عليه أخيرًا. أمسكه وبدأ في إعداد مشروبها المفضل.

وبعد أن انتهى، صعد مرة أخرى، ليجدها واقفة أمام أوراقها، واليأس يحتلُّ ملامحها.

— واقفة كده ليه؟

التفتت سريعًا، فوجدته يقف بابتسامته الدافئة:

— شاي بلبن؟ والله جه في وقته.

اقترب من المكتب ووضع الكوب بهدوء، ثم اتجه إلى الفراش، وجمع الأوراق وبدأ في ترتيبها. أشار لها أن تجلس، فقالت بمزاح خفيف:

— هتشرحلي ولا إيه؟

— لا طبعًا، أنا خريج هندسة... مليش في الطب.

— أمال إيه كل ده؟

— أصلي ساعات كنت ببقى زيك كده، حاسس إني مش قادر أعمل حاجة. وبعد ما أصلي، وأعمل حاجة دافية، وأرتب مكاني... فجأة بعرف أذاكر.

لمع القلق في عينيها وقالت:

— بس ده امتحان شامل على كل اللي خدناه قبل ما نبدأ الجديد... متخيل هلم ده كله إزاي؟

— هتعرفي، واحدة واحدة وبالراحة. يلا، سمي الله وصلي على النبي وابدأي.

وبالفعل، بدأت الأفكار تتضح، والتركيز يعود تدريجيًّا، بينما كان هو يجلس أمامها يراقبها بصمت، كأن وجوده وحده كافٍ.

وعندما دقت الساعة الثالثة مساءً، قالت بدهشة:

— يااه... أنا بقالي حوالي ٨ ساعات بذاكر!

— وخلصتي ولا لسه؟

— لا الحمد لله... خلصت.

اقتربت منه بكرسيها، واحتضنته وهمست:

— شكرًا أوي بجد.

ابتسم بلطف، وطبع قبلة حنونة على رأسها:

— بتشكريني على إيه يا بت؟ دلوقتي بقى لازم تنامي.

وقبل أن ينهض، نظرت إليه بحزن وقالت:

— آسر... أنا آسفة على اللي حصل بجد.

كان أمامه اختياران:

إما أن يعاتب... أو يسامح.

وكعادته، اختار قلبه.

ضمَّها إليه ومسَّد على خصلاتها:

— مش زعلان والله... خلاص قومي نامي. وأنا كمان لازم أنزل الشغل عشان متأخرش.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في منزل لمار...

كانت تجلس بعد انتهائها من مذاكرتها وتتصفح وسائل التواصل الاجتماعي وفجأة ضحكت بشدة وهي تقول:

_ يااه تحفة النكت دي والله هقولهم لتيا، هتموتني بس مش مهم.

نظرت إلى منشور آخر وقالت باشمئزاز:

_ كتكوتك ياه يا زمن تخيل كدة يبقى راجل طول بعرض بهيبة وتقوله كتكوتي، حقيقي الهيبة راحت في الأرض، لا ولا اللي تقولك إيه بابا قاعد مع بابا، على أساس إن كلمة بابا دي بتتقال لأي حد والسلام، عيال ملزقة.

وكادت أن تغلق هاتفها ولكنها صُدمت برسالة منه...

خاطف قلبها، وكانت مضمونها:

_ عاملة إية؟

اعتلت ملامحَها دهشةٌ مباغتة، فارتجفت أصابعها فوق شاشة الهاتف قبل أن تخطَّ بلهجةٍ لا تخلو من الارتباك:

ـــ لأ العنوان غلط.. شات تيا في الدور اللي فوق!

تجمَّد بصره عند رسالتها لثوانٍ، ساد فيها صمتٌ لم يقطعه سوى ضجيج أفكاره وهو يتمتم في سره بضيقٍ ممزوج بسخرية:

ـــ غبية.. أقسم بالله غبية!

ثم ضغط على أزرار هاتفه بحزم، مُرسلًا جوابًا يحمل نبرةً واثقة:

ـــ أنا مش أعمى يعني.. ما أنا عارف إني داخل الشات بتاعك إنتِ.

سكنت حركتها للحظات وهي تعيد قراءة كلماته، قبل أن تومض عيناها بلمحة إدراك مفاجئة، فكتبت بتعجب:

ـــ هو إنت بتكتب مصري؟ مش إنجليزي يعني؟

ردَّ باقتضابٍ هادئ:

ـــ عادي يعني.. بحسه أسهل.

_ ماشي بس خير يعني؟

ارتجفت الشاشة بين يديها برسالةٍ جديدة منه، وما إن قرأت كلماته حتى فلتت ضحكةٌ عفوية من بين شفتيها،

كان قد كتب لها بنبرةٍ يملأها العتاب الساخر:

ـــ في إيه يا لمار؟ كأنك بتقوليلي غور من وشي بس بشياكة!

تأملت حروفه لثوانٍ، وهي لا تزال تبتسم، ليتحول ذلك التوتر الذي ساد بينهما منذ قليل إلى حالةٍ من الألفة الخفية التي لا يفهمها سواهما.

_ أنا يا ابني؟ أبدًا والله.. بس مستغربة يعني، عايز إيه؟

تبدلت ملامحه في الحال. تيبست أصابعه فوق لوحة المفاتيح، ودارت الكلمات في رأسه؛ فهو في الحقيقة لا يملك إجابةً واضحة، أو ربما يملك إجابة يخشى حتى أن يهمس بها لنفسه. ظلَّ يحدِّق إلى الشاشة، فقال محاولًا الهروب:

_ لقيتك أون لاين فقولت اسأل عليكي فيها حاجة دي؟

_ لا مفيهاش يا أخويا.

توقفت أصابع ماكس عن الحركة تمامًا، وحبس أنفاسه لثوانٍ، ثم انفجر يكتب بغيظٍ:

ـــ أخوكي؟! طب غوري بقى من وشي كدة.. جتك نيلة!

ألقى بالهاتف بجانبه على الفراش وهو يتأفف بضيق، لكن عينه ظلت معلقة بالشاشة، ينتظر بتوتر أن يرى علامة "typing" تظهر من جديد.

كان ينتظر منها اعتذار، أو ربما مشاكسة تطيل الحديث، لكنها باغتته ببرود لم يحسب له حسابًا:

ـــ تصبح على خير يا ماكس.. عشان حقيقي الواحد هيموت وينام.

تسمر ماكس في مكانه، وشعر بصعقة أخرى تضرب كيانه؛ فبعد كل هذا الشد والجذب، قررت هي ببساطة أن تنهي الحديث وتخلد للنوم. ظل يحدِّق إلى الشاشة بذهول وزفر بضيقٍ:

_ بتموت وتنام؟ ماشي يا لمار.. نامي، نامت عليكِ حيطة يا بعيدة.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

ومع إشراقة صباح جديد، تسللت أشعة الشمس عبر نافذتها كاللص الذي يحاول سرقة المال بخفة؛ فهي الأخرى كانت تحاول سرقة ما تبقى من نعاسٍ في عيني تلك الفاتنة.

تململت داليا في فراشها، وبدأت ملامح الضيق ترتسم على وجهها، وسط هذا الصراع الهادئ مع الاستيقاظ، اخترق مسامعها صوتٌ جعلها تفتح عينيها ببطء وسكون:

ـــ صباح الخير يا داليا.

أجابت بصوت لا يزال يحمل بحة النوم الرقيقة، ونبرة هادئة:

ـــ صباح النور.

تأملها لثوانٍ وقال:

_ إيه النوم دا كله مش ناوية تروحي الشغل انهاردة ولا إيه؟ لو مش عايزة عادي كملي نوم.

نهضت ببطء من الفراش وقالت:

_ لا..هروح.

خطت خطواتها الأولى نحو الحمام وهي لا تزال في حالة من الشتات، وكادت أن تدلف للداخل، ولكن يديه كانت الأسرع؛ إذ قبض على معصمها بخفة وحزم منعها من التقدم. تيبست داليا في مكانها واستدارت إليه ببطء فقال:

___ آسف لو ضايقتك في كلامي بخصوص موضوع ت...

___ سيف لو سمحت أنا مش عايزة أي كلمة في الموضوع دا، تيا بالنسبالي صفحة مقفولة ومش ناوية أفتحها.

ونظرت لعينيه بنظرة غموض وأردفت:

___ لأنها لو اتفتحت هيتفتح معاها أسرار وبلاوي وحاجات في الماضي فالأحسن إنها تفضل مقفولة، صدقني دا أحسن لينا كلنا.

جذبها له وقال وهو يمسد على خصلاتها بحنان:

___ أنا مش بفتح الموضوع بس مش عايزك تزعلي مني.

ستظل الأنثى أنثى مهما مثَّلت القوة وتظاهرت بالكبرياء؛ فهي في جوهرها كائنٌ يبحث عن الاهتمام، ويحتاجُ إلى سكنٍ من الحنان.

لم تجد داليا كلماتٍ تعبّر عما يجول بخاطرها فقالت:

___ حصل خير يا سيف.

قال بهمس رقيق:

_ بحبك.

نظرت لعينيه نظرة مطولة وابتسمت بحب:

_ وأنا كمان بحبك.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في مكان آخر...

كانت مستسلمةً لنومها بملامح هادئة للغاية. ولكن هدوء ملامحها كان كذبةً كبرى، وعكسًا تمامًا لذلك الإعصار الذي كان يعبث برأسها؛ حيث بدأ عقلها الباطن يعيد شريط ذكرياتها بقسوة، يجسد لها أحداثًا لم تكن من وحي الخيال.. بل كانت واقعًا مريرًا عاشته بكل تفاصيله، واقعًا يرفض أن يموت أو يغادر مخيلتها.

فلاش باك...

مرَّ عامٌ كامل على مجيء طفلها سيف إلى الدنيا، ومع انقضاء ذلك العام، وجدت نفسها تقف أمام الحقيقة ذاتها من جديد: هي الآن تحمل طفلًا آخر في أحشائها. استقبلت الخبر ببرودٍ غريب، ولم تهتز ملامحها بذرة انفعال.

وعلى النقيض تمامًا من هدوئها المنطفئ، كان عثمان الطنطاوي يعيش حالةً من السعادة التي لا توصف. لم تكن سعادته نابعةً من عاطفة الجد الذي ينتظر حفيدًا يملأ عليه حياته، بل كانت سعادةً من نوعٍ آخر.

كان ينظر إلى فاطمة وجنينها كأنهما مجرد صفقة رابحة ستُضاف إلى رصيده، أو طبقة جديدة في جدار سلطته.

أما جلال... فكان حضوره مجرد ظلٍ باهتٍ لا يسمن ولا يغني من جوع.

كان يقف خلف والده تاركًا فاطمة تواجه قدرها وحيدة.

وها هو اليوم المنتظر..

كانت جدران المستشفى البيضاء الباردة تشهد على مأساة صامتة؛ فرائحة المعقمات الممزوجة بالخوف كانت تملأ المكان. تعالت صرخات فاطمة التي زلزلت أركان الغرفة، وأضلاعها تتحطم واحدًا تلو الآخر تحت وطأة مخاضٍ لا يرحم.

يقف في الخارج، وعثمان يراقب الساعة ببرود.

ومع آخر صرخةٍ مزَّقت سكون الممر الطبي، انشقَّ الصمت عن صوت بكاءٍ حاد وجديد؛ لقد أتى الجنين إلى الحياة، صرخ صرخته الأولى داخل أسوار تلك المستشفى الباردة.

خرجت الدكتورة وهي تحمل طفلًا وقالت لعثمان:

_ ولد زي القمر.

حمله بفرحة فهو يشعر بسعادة لا مثيل لها وقال:

_ آسر عثمان الطنطاوي.

لم تمر سنوات قليلة حتى بدأت ملامح آسر تتضح، كان طفلًا لا يعرف القيود، يعشق الركض والمشاكسة، وفي تلك الأثناء، وضعت شقيقتها سهر طفلها جاسر، سهر التي تزوجت عماد الطنطاوي أخو زوجها.

كان تفكير عثمان عقيمًا لدرجة مرعبة؛ فلم يرَ في شقاوة آسر طفولةً، بل رآه مشروع خروج عن الحكم، وفي ذلك اليوم الذي لن يبرح ذاكرة فاطمة ما حييت، قرر عثمان أن يضع حدًّا لهذه الحرية.

اندفع نحو الطفل الصغير الذي لم يتجاوز سنواته الأولى، وبدأ يوجه له ضربًا مبرحًا وقاسيًا، كانت فاطمة تسمع صوت اصطدام يده بجسد طفلها الضعيف، وصراخ آسر الذي كان يمزّق قلبها، بينما عثمان يزمجر بصوتٍ رخيم:

_ اللي مبيجيش بالذوق.. ييجي بالعافية، وأنا حاولت معاك بالذوق وبرده مفيش فايدة يبقى أنت حر بقى.

في ذلك اليوم، لم يُجرح جسد آسر فقط، بل وُلد داخل فاطمة كرهٌ لهذا البيت لا تطفئه السنين.

وموقف آخر..

كان آسر ابن السبع سنوات يركض بمرحٍ خلف ابن الخادمة، ضحكاتهما الصافية كانت الشيء الوحيد الذي يكسر برود ذلك القصر. لم يكن آسر يرى فروقًا طبقية، كان يرى فقط صديقًا يشاركه اللعب والركض. ولكن تلك الضحكات كانت تستفز شيطان عثمان الطنطاوي الكامن في صدره.

فجأة، انقطع حبل المرح بصوتٍ يشبه فحيح الأفاعي، صوت ذلك العجوز الذي انتفض له جسد الصغير ذعرًا:

ـــ آسر! هو أنا مش قولتلك ميت مرة متلعبش معاه؟ أنت بتكسر كلامي؟

ارتجف قلب آسر، وبغريزة الطفل المذعور حاول الركض نحو أمانه الوحيد، نحو أمه. لكن كف عثمان الغليظة كانت الأسرع، فقبض على ذراعه بعنفٍ كاد يخلع كتفه من مكانه، وقبل أن ينطق الصغير بكلمة، هوت صفعةٌ مدوية على وجهه الرقيق.

كانت الصفعة قاسية لدرجة أنَّها أطاحت بكيانه الصغير، لم تكن صفعة تأديب، بل كانت صفعة إذلال أمام صديقه الذي كان يلعب معه.

لم يكتفِ عثمان بتلك الصفعة المهينة أمام الجميع، بل سحله من ذراعه وأخذه إلى تلك الغرفة المظلمة. ألقاه فيها بعنفٍ جعل جسده الهزيل يصطدم بالأرض الصلبة، ضاربًا إيَّاه بكل وحشية،

والطفل ينكمش على نفسه محاولًا حماية رأسه الصغير بذراعيه المرتجفتين.

كان "عثمان" يلهث مع كل ضربة، وفي عقله المريض كان يظن أنَّ هذا هو الأسلوب القويم للتربية، وأنه بهذا يحميه من الضعف ويصنع منه رجلًا يليق بإمبراطوريته.

خلف الباب الموصد، وفي الممر البارد، كان سيف يرتجف، واضعًا يديه الصغيرتين فوق أذنيه ليحجب صدى صرخات شقيقه التي كانت تمزق جدران الغرفة المظلمة. لم يتحمل قلبه الصغير كل هذا الوجع، فانفجر بالبكاء وهو يصرخ بأسماء من يفترض بهم حمايتهم:

— باباااا.. ماماااا! آسر.. آسر بيعيط ويصرخ.. لاااا!

ارتمى سيف في أحضان أمه فاطمة التي كانت جثةً هامدة من الصدمة، وهو يتشبث بثيابها ويترجاها بكلماتٍ ممزوجة بالشهقات:

— أنا عايز أخويا آسر.. مش عايز حد غيره، هو مش هيعمل كدا تاني والله.. أرجوكِ يا ماما خليه يسيبه، هو هيموت وهيبعد عني.

كانت كلمات سيف البريئة كخناجر تُغرس في قلب فاطمة؛ فالطفل الصغير أدرك بفطرته أنَّ ما يحدث لآسر ليس تربية.

ضمت فاطمة سيف إلى صدرها بقوة ولكن فجأة، قُطع نحيبهما بصوت جاسر المتعثر الذي وصل إليهم والخوف يملأ ملامحه الصغيرة:

— سيف.. في إيه؟ هو في إيه اللي بيحصل؟

في تلك اللحظة، تعالت صرخات آسر من خلف الباب الموصد، انهار سيف تمامًا، وصرخ ببكاء طفلٍ يذوق طعم القهر لأول مرة في حياته:

— آسر يا جاااسر.. آسر بيمووووت!

ثم فلت من أحضان أمه، ووقف أمام الغرفة المظلمة يضرب الباب بقبضتيه الصغيرتين، وصرخ بأعلى صوتٍ يملكه:

— سيبه بقى حراااام عليك! اضربني أنا مكانه.. طيب بلاش هو.. اضربني أناااااااا.

فُتح الباب ببطءٍ أصاب القلوب بالسكتة، وفي تلك اللحظة، أغمضت فاطمة عينيها بقوة؛ فهي تحفظ هذا السيناريو اللعين عن ظهر قلب وتدرك بشاعة ما ستراه.

خرج عثمان ونزل لمستوى سيف، ولكن سيف ولأول مرة في حياته استجمع شجاعةً لا يملكها الرجال؛ دفعه بكلتا يديه الصغيرتين وركض بجنون نحو الداخل.

توقف الزمن عند سيف وهو يرى آسر ملقًى على الأرض، ارتمى عليه، ضمه إلى صدره بكل ما أوتي من قوة:

— أنا بكررررهك! ليييييه تعمل كدة؟

ثم عاد ينوح فوق رأس أخيه:

ـــ آسر.. عشان خاطري اصحى، متسيبنيش يا آسر!

أغلق عثمان الباب خلفه ببرودٍ مخيف لم يتراجع سيف، وصرخ بغضبٍ وقهرٍ طفولي فاق عمره:

ـــ ابعد عنه! سيبه.. هو معملش حاجة!

ردَّ عثمان بصوتٍ أجش وخالٍ من الرحمة:

ـــ لا.. عمل.

قال بكذبةٍ بيضاء نابعة من حبٍ خالص:

ـــ أنا اللي قولتله يلعب معاه بدالي.. اضربني أنا!

لمعت عين عثمان بشرٍ غريب، فصرخ قائلًا:

_هي بقت كدا؟ طيب..

وما هي إلا لحظات حتى هوت الضربة الأولى على جسد سيف.

شعر آسر بحركة أخيه، وبصوتٍ واهنٍ يملأه الوجع همس:

ـــ سيف..

لم يتركه سيف، بل انحنى وضمه بقوة، وربت على ظهره بيدٍ ترتجف، وهمس في أذنه بدعمٍ طفولي:

ـــ متقلقش.. أنا كويس، أنا جنبك.

اقترب عثمان منهما كالوحش الكاسر، وظلَّ ينهال بضرباته عليهما معًا، لكن سيف كان يتلوى بجسده ليجعل ظهره حائط سدٍ يحمي آسر، متلقيًا الضربات الواحدة تلو الأخرى.

خرج عثمان من الغرفة ولم ينظر لدموع فاطمة، بل وجَّه نظره نحو ابنه جلال الذي كان يقف كتمثالٍ من رخام، لم تهزه صرخات أطفاله ولم تحركه فطرة الأبوة، فقال عثمان بلهجةٍ آمرة:

— تعالى ورايا المكتب.. في حاجات لازم نراجعها.

تحرك جلال خلف والده.

نهضت فاطمة ببطء، واتجهت نحو الغرفة المظلمة. تجمدت في مكانها وهي ترى سيف لا يزال يتشبث بآسر، يهمس في أذنه بنحيبٍ مزَّق صمت المكان:

— بس.. اهدى.. أنا هنا يا آسر، متقلقش.

حاولت الاقتراب، حاولت ملامسة جروحهم، لكن سيف انتفض بجسده المرتجف:

— لاا.. ابعدوا عنه! سيبوني جنبه!

قالت بجمودٍ مخيف، وهي تخرج حقيبة الإسعافات التي صارت رفيقتها الدائمة:

— هعالجه.. سيبني يا سيف.

فجأة، شعرت بلمسةٍ على كتفها لتجد شقيقتها سهر تقف بجانبها، والدموع تنهمر على وجنتيها:

ـــ فاطمة أنت كويسة؟

لم تجبها بل ظلَّت صامتة.

في مساء ذلك اليوم الحزين، كان "سيف" يجلس بجانب شقيقه، قطعت تلك اللحظة الدافئة صرخة والده جلال التي دخلت الغرفة:

ـــ سيييف! تعالى ورايا على أوضتك.

تمسك سيف بطرف فراش أخيه وهمس بوهن:

ـــ بس.. بس آسر..

ـــ أنا قولت إيييه؟..

قبَّل سيف جبين آسر، وتبع والده بقلبٍ مثقل. ما إن أُغلق باب الغرفة حتى انفجر جلال بضيقٍ وغضبٍ مكبوت:

ـــ عجبك الضرب اللي في وشك ده؟ أنت إيه اللي دخلك؟ بسببك سمعت كلام زي الزفت من جدك!

رفع سيف رأسه بشموخٍ منكسر وقال:

ـــ أنا مش ندمان.. كان بيضرب آسر، مكنتش هسكت.

هنا، اقترب منه جلال، وانحنى لمستوى أذنه هامسًا بفحيحٍ مخيف:

ـــ آسر يتضرب.. ولا يموت خالص يا سيف؟

انتفض سيف، وصرخ بصدمة:

ـــ لا.. لا! آسر مش هيسيبني..

ثبَّته جلال بنظرةٍ قاطعة وأكمل تهديده البشع:

ـــ لا هيسيبك لو اتدخلت تاني.

انهار سيف، وظلَّ يومئ برأسه مرارًا وتكرارًا بالموافقة، والدموع تنهمر على وجنتيه المحمرتين من أثر الضرب.

باك...

انتفضت فاطمة من فراشها وجسدها يرتجف بعنف، لم يكد وعيها يستقر في الحاضر حتى صرخت بفزعٍ حين وجدت جلال يقف أمامها، يراقبها بنظراتٍ غامضة غير مفهومة.

تراجعت للخلف وهي تلهث، وعيناها تدوران في أركان الغرفة لتتأكد أنَّها في الحاضر، ثم سألت بصوتٍ يرتجف:

ـــ أنت بتعمل إيه هنا؟ مش المفروض تكون في شغلك دلوقتي؟

ظلَّ جلال على ثباته البارد، وقال بنبرةٍ تخلو من أيِّ مودة:

ـــ عادي يعني.. رجعت بدري. بس أنتِ اللي مالك؟ لقيتك بتعرقي وبتصرخي.. في إيه؟

حاولت استجماع شتات نفسها، مسحت حبات العرق التي تجمعت على جبينها بيدٍ مرتعشة، وحاولت جاهدةً أن ترسم قناع القوة الزائف فوق وجهها وهي تتهرب من عينيه:

ـــ ها؟.. لا، مفيش.. مجرد كابوس عادي.

لم يكن عاديًّا أبدًا، بل كان الحقيقة الوحيدة التي تعيشها، بينما حياتها مع جلال الآن هي الكذبة التي تحاول إتقانها كل يوم.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

___ ريم.. بت يا ريم، فينك؟

دلف جاسر إلى الغرفة بخطواتٍ يملأها المرح، والابتسامة لا تفارق وجهه كعادته. لم يجدها، لكن صوت المياه القادم من الحمام أخبره بمكانها. كاد أن يناديها مجددًا، إلا أنَّ عينه التقطت شيئًا غريبًا.. علبة دواء لم يرها من قبل، موضوعة بإهمال.

انحنى جاسر والتقطها بخفة، تفحَّص الحروف الغامضة المطبوعة عليها بعدم فهم، ثم قاده فضوله القاتل إلى هاتفه. بسرعة، كتب اسم الدواء وانتظر ثوانٍ.. وما إن ظهرت النتائج أمام عينيه، حتى تيبست الدماء في عروقه، واتسعت عيناه بصدمةٍ.

في تلك اللحظة، فُتح باب الحمام وخرجت ريم وهي تجفف وجهها، وقالت بعفوية:

___ خير يا جـ...

بُترت الكلمة في حلقها، وتجمدت مكانها حين رأته. تبادلا نظراتٍ طويلة؛ هو بعينين يملأهما الذهول والانكسار، وهي بدموعٍ بدأت تتلألأ فوق وجنتيها كإعلان اعترافٍ صامت، فقال هو بهدوء يسبق العاصفة:

ممكن أفهم.. إيه ده؟

تلعثمت، وحاولت استجماع بقايا كبريائها الجريح وهي ترتد للخلف:

ـــ ملكش دعوة.. دي.. دي حاجة ماتخصكش يا جاسر!

في لمح البصر، كان أمامها، قبض على ذراعيها بعنفٍ جعلها تئن، ورفع عبوة الدواء أمام عينيها وصرخ بصوتٍ زلزل أركان الغرفة:

ـــ هو إيه اللي ماليش دعوة؟ علاج الإدمان ده بيعمل إيه عندك؟ انطقي!

حاولت التملص منه وهي تصرخ برعبٍ هستيري:

ـــ معرفش.. سيبني.. معرفش حاجة!

زمجر بشراسة وهو يشدد قبضته عليها، وعروق وجهه تكاد تنفجر:

ـــ انطقي.. انطقي بدل ما وأقسم بالله لـ...

هنا، انفجرت ريم بصرخةٍ مزَّقت سكون المكان، صرخة خرجت من أعماق وجعها السجين:

ـــ إيه؟ ها؟ هتمد إيدك عليا صح؟ هتبقى زيهم وتضربني مش كدا؟ ما ترددد!

شعر جاسر بارتجافةٍ خفيفة تسري في جسده، وتجمدت يده المعلقة في الهواء. تلك الكلمة وقعت عليه كالصاعقة؛ ففي عيني ريم لم يعد يرى جاسر المرح بل رأى في عينيها طيف "عثمان الطنطاوي" وقسوته التي هربوا منها جميعًا.

تراجع عنها خطواتٍ متخبطة. كان عقله يدور في دوامةٍ من الذهول، وجسده يتحرك بلا وعي، حتى ارتطم بطاولةٍ قريبة. في لحظةٍ واحدة، سقط طبق الفاكهة أرضًا، وتحطم لقطعٍ صغيرة متناثرة، بينما انتشرت محتوياته في كل اتجاه.

وقف جاسر يحدِّق إلى الحطام تحت قدميه، وأنفاسه مسموعة في سكون الغرفة القاتل. كان صوت تكسر الزجاج هو الرد الوحيد على سؤالها المرير. نظر إلى يده التي كانت تقبض عليها منذ ثوانٍ، ثم نظر إليها بضياع، لم يعد يعرف هل يلملم حطام الطبق، أم يلملم حطام قلبه، أم يلملم شتات ريم التي تقف أمامه كعصفورٍ ذبيح ينتظر الضربة القاضية.

قال بصوتٍ مبحوح، خرج بصعوبةٍ:

ـــ أنتِ بتشربي مخدرات؟

حاولت أن تلملم شتات كرامتها، وارتجفت شفتيها وهي تحاول الدفاع عن نفسها بصوتٍ يخنقه الندم:

ـــ لا.. لا والله، أنا.. أنا كنت...

قاطعها جاسر كأنَّ صاعقةً ضربت رأسه، ولمعت عيناه بصدمةٍ تضاعفت مئات المرات، وردد الكلمة بذهولٍ مرير:

ـــ كنتِ؟! يعني إنتِ كنتِ مدمنة فعلًا؟!

أخفضت ريم عينيها للأرض، وقالت بصوتٍ يكاد لا يُسمع، ممزوجًا بشهقات دموعها الحارقة:

ـــ آه...

ساد الصمت من جديد، بينما كان جاسر يقف أمامها مشتتًا، ابتعد عنها جاسر خطوات أخرى. نظر إليها بنظرةٍ لم تكن غضبًا فقط، بل كانت مزيجًا من الشفقة والحرقة، وقال بنبرةٍ قوية:

ـــ عارفة يعني إيه؟ يعني كنتِ بترمِي نفسك في النار بإيديكِ يا ريم! اللي عملتيه ده مش بس غلط في حقي لإني كنت فاكر إني أعرفك.. ده غلط في حق نفسك، وحرام قبل أي حاجة.

اقترب من الحطام مرة أخرى وأشار للعبوة بيده التي كانت ترتجف من فرط التأثر:

ـــ كنتِ بتغضبي ربنا؟ بتهربي من وجع الدنيا لسم يغيب عقلك؟ إزاي يا ريم ازاااي؟

طأطأت ريم رأسها أكثر، وشهقاتها تعلو، فتابع هو بمرارة:

ـــ الحرام عمره ما كان حل للوجع يا ريم.. اللي بيحرق روحه بالسم ده مبيستريحش، ده بيخسر نفسه.

انهارت قواها تمامًا، فهوت إلى الأرض بين حطام الزجاج والفاكهة المتناثرة، ضمت جسدها المرتجف بكلتا يديها، وانفجرت في بكاءٍ مرير، وقالت بصوتٍ متقطع يمزقه الندم:

ـــ والله العظيم يا جاسر.. والله أنا بطلت من زمان، من قبل ما ندخل البيت ده أصلًا!

رفعت وجهها الغارق بالدموع إليه، وعيناها تلمعان بتحدٍّ مكسور، وتابعت بضعف:

ـــ العلاج ده.. العلاج ده باخده بس لما بحس بخنقة بتموتني، لما بحس إني ضعيفة وعايزة أرجع للسواد ده تاني.. باخده عشان يثبتني، عشان مش عايزة أكون ضعيفة تاني ولا عايزة أضيع في السكة دي من جديد!

سكتت لحظة وهي بتنهج، وكملت بصوت مبحوح:

ـــ أنا مش ببرر لك.. أنا بس بقولك الحقيقة، أنا حاربت لوحدي كتير عشان مكنش غلط في نظر حد، وعشان مكنش نسخة من القرف اللي شوفته في حياتي.

أخذت نفسًا عميقًا وهي تحاول منع دموعها من الانهمار مجددًا، وقالت بصوتٍ متهدج:

ـــ كل الحكاية بدأت مع مايا.. كانت أقرب واحدة ليا وقتها، كنت فاكرة إنها بتخاف عليا وبتحبني. هي اللي بدأت تاخدني معاها لأماكن مكنتش أعرفها، سهرات وناس غريبة، شرب وضحك.

ارتجفت شفتيها وهي تكمل، محاولةً إخفاء حقيقة أنَّ ضياعها في ذلك البيت هو ما جعلها فريسة سهلة:

ـــ مايا عرفتني على ناس تانية.. ناس كل همهم يغيبوا عن الدنيا. في الأول كنت برفض، كنت بخاف، والله العظيم يا جاسر مكنتش عايزة أكون زيهم أبدًا! بس هما فضلوا ورايا، وزن مايا مكنش بيبطل، لحد ما لقيت نفسي ماشية في السكة دي وأنا مش

حاسة، بقيت واحدة منهم وأنا بكره نفسي مع كل مرة بغيب فيها عن الوعي.

نظرت إليه بكسرة وهي تنهي حديثها:

ـــ كنت غبية.. كنت ضعيفة، قول اللي تقوله.

ملامحه لم تعد تحمل غضبًا، بل برودًا أصعب بمراحل. نظر إليها نظرةً أخيرة، وقال بهدوءٍ يذبح الروح:

ـــ المفروض إنك من أول مرة حسيتي إنهم مش كويسين تبعدي.. مفيش حاجة اسمها مكنتش عايزة، ومفيش حاجة اسمها مش هبقى زيهم.

صمت للحظة، ثم أردف بكلماتٍ سقطت فوق رأسها كالجمر:

ـــ إنتِ لو حطيتي تفاحة كويسة وحلوة جنب تفاحة بايظة ومش نضيفة، التفاحة اللي مش نضيفة هي اللي هتعدي النضيفة وتخليها زيها.. وزي ما بيقولوا الصاحب ساحب. إنتِ كان في إيدك تبعدي يا ريم، كان في إيدك تختاري طريق النور، بس إنتِ اخترتي تعصي ربنا.

لم ينتظر منها ردًّا، ولم ينظر خلفه ليرى انهيارها، بل استدار وخرج من الغرفة بخطواتٍ ثقيلة.

ظلت ريم غارقة في بكاءٍ يمزق أحشاءها، وجعٌ لم تكن الدموع كافية لإطفائه. وفي لحظة يأسٍ مظلمة، زاغت عيناها في أركان الغرفة، حتى وقعت على آلة حادة تلمع ببرود.. مدت يدها المرتجفة نحوها، وهي تشعر أنَّ الموت قد يكون أرحم من نظرة الخذلان التي رأتها في عيني جاسر. و.....

ـــ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين..

كانت هذه الكلمات تتردد برقة على لسان تيا وهي تبحث بانهماك بين رفوف التوابل، بينما تراقبها ابنتها الصغيرة كايلا بفضول طفولي، فقالت الصغيرة ببراءة:

ـــ ماما.. هو أنتِ ليه بتقولي كدة دايمًا؟

توقفت تيا عن البحث، والتفتت لتعطي ابنتها ابتسامة دافئة، ثم قبَّلت وجنتيها بحنان وقالت:

ـــ ثانية بس يا كوكي أشوف الملح فين وأقولك يا قلب ماما.

كان المطبخ يعج بالحياة والسكينة؛ لمار تجلس على مقعدها المعتاد، وقد تركت العنان لخصلات شعرها تنسدل بحرية بعد أن تأكدت من غياب آسر. أما تيا، فكانت تبدو كفراشة زرقاء بفستانها المنزلي الطويل الذي يبرز جمالها الهادئ رغم بعثرة شعرها العفوية. وعلى رخامة المطبخ، جلست كايلا كنسخة مصغرة من أمها، ترتدي فستانًا مشابهًا وتترك خصلاتها تنساب بجمال طفولي.

وجدت تيا أخيرًا عبوة الملح، فاقتربت من الوعاء الذي يتصاعد منه بخار الطعام الشهي فوق النار، نثرت منه مقدارًا كافيًا، ثم أمسكت بملعقتها الخشبية وقلبت الخليط جيدًا بحركات هادئة ومتزنة. وضعت الملعقة جانبًا، ثم عادت وجلست أمام كايلا ولمار، وقالت بنبرة حانية وحماسية:

_ ها جاهزين؟

أومأت كايلا بحماس، ابتسمت تيا وهي ترى نظرات الفضول في عينيها وسكينة لمار الظاهرة، فقررت أن تجعل من هذه اللحظة درسًا لا يُنسى. سحبت مقعدًا وجلست قبالتهما، وقالت بحماسٍ هادئ:

— عارفة يا كوكي، الدعاء ده وراه قصة بطل عظيم.. نبي من أنبياء ربنا، الدنيا ضاقت بيه لدرجة ميتخيلهاش بشر، لدرجة إنه لقى نفسه في قاع البحر، وجوه بطن حوت كبيييييير أووووي!

اتسعت عينا كايلا بذهول، بينما مالت تيا برأسها نحو لمار وقالت بمداعبة:

— ها يا لولو.. تفتكري مين هو النبي ده أوعي تكوني متعرفيش؟

ابتسمت لمار بهدوء، وأجابت بصوتٍ رقيق:

— ده نبي الله يونس عليه السلام يا كايلا.. لما ساب قومه وهو غضبان وركب السفينة، ولما حصلت القرعة تلات مرات، رماه الركاب في البحر عشان السفينة متغرقش، فربنا أمر الحوت إنه يبلعه من غير ما يأذيه.

أكملت تيا وعيناها تلمعان:

— بالظبط كدا.. وفي الضلمة دي، ملقاش منجي غير ربنا، ففضل يسبح ويقول لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فربنا استجاب له وخرجه من الضيق ده للفرج. ومن يومها والدعاء ده هو طوق النجاة لكل واحد حاسس إن الدنيا بلعته ومحتاج لرحمة ربنا.

نظرت كايلا بانبهار وقالت:

ـــ يعني أنا لو قلتها يا ماما ربنا هيسمعني ويحل لي مشاكلي؟

فأجابتها تيا وهي تضمها:

ـــ طبعًا يا حبيبتي، ربنا قريب جدًّا وبيسمع كل كلمة تقوليها.

ركضت كايلا تبتعد عن المطبخ وهي تتمتم بهذا الذِكر وتغرق في عالم ألعابها، فخيَّم هدوء غريب على المكان. التفتت لمار لتتحدث مع تيا، لكنها توقفت والفضول يلمع في عينيها.

كانت تيا تمسك بالملعقة الخشبية، لكنها توقفت عن التقليب تمامًا؛ يدها معلقة فوق الوعاء، وعيناها مثبتتان على البخار المتصاعد كأنها ترى فيه وجهًا تحبه. لم تكن مجرد ابتسامة عابرة، بل كانت ابتسامة عاشقة، حالمة، جعلت وجهها يشرق بطريقة لافتة.

مالت لمار بجسدها للأمام وهي تبتسم بخبث، وقالت بصوت منخفض:

ـــ لاا.. ده الموضوع كبير أوي! تيا، أنتِ مش معايا خالص.. الابتسامة دي وراها حد، اعترفي.. بتفكري في مين؟

انتفضت تيا فجأة، وحاولت إخفاء ارتباكها وهي تعود لتقليب الطعام بسرعة، لكن حمرة الخجل التي صبغت وجنتيها فضحتها، وقالت بصوت مرتبك ممتزج بالضحك:

ـــ إيه؟ مفيش.. كنت بفكر في حاجة حصلت زمان بس، وبعدين لمي شعرك اللي سايباه ده بدل ما يقع في الأكل!

ضحكت لمار وقالت بإصرار:

— تؤ.. مش عليا الكلام ده.. اعترفي يا بت، هو حبيب القلب اللي واخد عقلك بالشكل ده صح؟

ابتسمت تيا بخجل وردت بصوت منخفض يحمل كل معاني الرضا:

— وهو في غيره يعني؟

صمتت لثوانٍ وهي تداعب خصلة من خصلات شعرها برقة، والابتسامة لا تفارق وجهها، ثم تابعت وهي تنظر للمار:

— الحمد لله اتصالحنا.. عارفة يا لمار، فرحتي مش بس عشان رجعنا لبعض، فرحتي إنه كان واقف جنبي وبيشجعني في المذاكرة بكل طاقته، لولاه مكنتش هعرف أنجز حاجة.

ردَّت لمار وهي تشعر بصدق فرحة تيا:

— باين عليكي يا تيتو، وفعلًا مفيش أجمل من إن الواحد يلاقي اللي يسنده ويشجعه في الوقت اللي هو محتاج فيه.

بمجرد ذكر سيرة الحب والدعم، شردت لمار هي الأخرى، وتاهت أفكارها في ماكس الذي يحتلُّ جزءًا كبيرًا من تفكيرها هذه الفترة، وساد صمت قصير وهي غارقة في ذكراه، حتى فاقت على يد تيا التي حركتها أمام وجهها بمشاكسة ومرح قائلة:

— واضح إني مش أنا بس اللي بفكر في حبيب القلب.. سرحتي فين يا لولو؟

ارتبكت لمار وحاولت مداراة خجلها وهي تعود للواقع بسرعة، بينما ضحكت تيا وهي سعيدة لأنها كشفت شرود صديقتها.

ـــ ها لا...لا مسرحتش.

ضحكت تيا بنبرة صافية هزَّت أركان المطبخ الهادئ، وقالت وهي تحاول التقاط أنفاسها وسط ضحكاتها:

ـــ لا في إيه والله؟ ده أنتِ توهتي خالص؟

ارتبكت لمار أكثر، وحاولت جاهدة أن تستعيد وقارها وهي تصلح من وضعية جلستها، وقالت بنبرة حاولت جعلها جادة لكنها فشلت:

ـــ يا بنتي والله أبدًا، أنا بس كنت بفكر في شوية حاجات كدة.. وبعدين ركزي في الأكل اللي هيتحرق ده!

لم تقتنع تيا، بل مالت بجسدها قليلًا نحو لمار، وقالت بنبرة منخفضة ومفعمة بالود والمشاكسة:

ـــ ما تخبيش عليا يا لمار.. أنا أكتر واحدة حاسة بيكي. الحب مش عيب على فكرة، فا لخصي وانجزي وقولي.

تنهدت لمار بهدوء وقالت:

ـــ مش عارفة يا تيا.. بحس إن قلبي هيخرج من مكانه لمجرد إني سمعت اسمه، ببقى نفسي أشوفه لو حتى صدفة.. حقيقي مش عارفة إيه اللي بيحصلي.

ابتسمت لها تيا بحنان بالغ، ومدَّت يدها لتمسد على خصلات شعر لمار قائلة:

ـــ أنتِ بتحبي يا لمار.. أو بتعشقي، بس الفكرة إنك مش عارفة تتخلصي من الماضي.

لمعت عين لمار بمرارة واعتراض:

ـــ ومش هعرف.. أصل هتخلص من إيه؟ من المشاكل اللي كنت بشوفها؟ ولا التكسير والضرب اللي كنت بشوفه؟ أنا شفت أسوأ تجربة جواز في حياتي، والكارثة إنهم أبويا وأمي.

رفعت تيا شعرها على هيئة كحكة فوضوية، وجلست أمامها بتركيز:

ـــ طب ما أنا شفت اللي أنتِ شفتيه ويمكن أكتر، وفي الآخر اتجوزت وخلفت.. هل ده معناه إن أنا وآسر مش بنتخانق؟ بالعكس، اللي بتشوفيه ده مجرد قشور، إحنا لو حصل بينا شد في موضوع كبير، أقسم بالله ما هتعرفي إحنا بنعمل إيه.. الحياة مش وردي، بس هي محاولة.

قاطعتها لمار بتوضيح:

ـــ تمام، بس أنتِ كنتِ عارفة آسر، شفتي طباعه، أسلوبه، حتى الأكل اللي بيحبه.. أنا معرفش ماكس.

ردَّت تيا ببساطة مستفزة:

ـــ إعرفيه.

حدَّقت إليها لمار بضيق مكتوم:

ـــ أعرفه إزاي يا تيا متجننيش! ده في بلد وأنا في بلد تانية خالص.

تيا بابتسامة واثقة:

ـــ ولا يهمك.. ينزل مصر عشانك.

انفجرت لمار ضاحكة فجأة:

ـــ أقول عليكي إيه يا تيا! عايزة أفهم دماغك دي ماشية إزاي؟

ابتسمت تيا وضمتها بحب، كأنها تمنحها القوة التي تفتقدها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

"في شركة الطنطاوي"

كان آسر يغرق في أوراقه بتركيزٍ حاد، يهرب من واقعه إلى العمل، حتى قطع صمته طرقات سيف الذي دخل بابتسامة قلقة.

نظر إليه آسر باقتضاب:

ـــ خير؟

سيف بمحاولة للمرح:

ـــ عادي يعني، أخويا وحشني قلت أجي أشوفه.

سند آسر ظهره للكرسي بشك:

ـــ إوعى تكون جاي تفتح حوار رهف.. حقيقي هتقفل منك.

سيف بصوت خفيض:

ـــ لا مش رهف.. تيا.

تجمدت ملامح آسر وحدَّق إليه بحدة:

ـــ مالها؟

سيف بتردد:

ـــ سألت داليا عليها امبارح واتخانقنا.. بس أنا لازم أعرف إحنا ليه مبندورش؟

آسر بغضب مكتوم:

ـــ وأنت مالك ومالها؟

سيف بصدق:

ـــ مش عشاني.. عشان داليا وسارة وعشانك.. أنت لسه بتحبها، بأمارة صورتها اللي معاك لحد دلوقتي.

تصاعد الدم في وجه آسر كالإعصار:

ـــ هو أنت دخلت أوضتي؟

سيف باندفاع:

ـــ كانت صدفة والله.. احكيلي يا آسر وفضفض، أنا أخوك ومفيش كلمة هتطلع لمخلوق، والله العظيم ما هقول لحد.

تنهد آسر تنهيدة طويلة كأنها أنين روح متعبة:

ـــ زهقت يا سيف.. تعبت من التحكمات، وتعبت من وش المبسوط اللي لابسينه عشان إحنا عيلة وليها اسمها.. كلنا بنمثل على بعض حتى أنت! حتى ليث ابنك مش مبسوط، دايمًا وحيد ومكتئب.. خايف يجي يوم ونسمعه بيصرخ ومش عارفين نلحقه.. خايف من بكرة يا سيف، خايف من كل حاجة.

لم يتردد سيف، اقترب منه وضمَّه بحنان أخوي لم يعهده آسر من قبل، وهمس:

ـــ أنا جنبك ومش هسيبك أبدًا، هفضل في ضهرك.

ظلت يد آسر معلقة في الهواء لثوانٍ من الصدمة، قبل أن يستسلم لتلك المشاعر ويشدد من ضمة أخيه قائلًا بصدق خرج أخيرًا:

ـــ عارف يا سيف إنك جنبي.. عارف.

ابتعد سيف بصدمة وفرحة:

ـــ أنت قلت إيه؟

كررها آسر بابتسامة نادرة:

ـــ بقولك عارف إنك جنبي يا أخويا.

لمعت الدموع في عيني سيف، وكان على وشك قول شيء ما، لكن الباب انفتح بعنف ليدخل جلال وعثمان معًا.

داهم القلق قلب سيف فورًا، وشعر فجأة ببرودة الماضي تخترق الدفء الذي كان بينه وبين أخيه.

دخل جلال وعثمان بخطواتهما الواثقة التي تحمل دائمًا نذير شؤم، فتبدلت أجواء الغرفة في لحظة من الدفء الأخوي إلى البرودة القاتلة. شعر سيف بانقباض في قلبه ووقف آسر بجمود، واستعاد قناعه البارد في ثوانٍ، بينما كانت عينا عثمان تتفحصان ملامحهما بشك، وقال بصوته الأجش:

— خير؟ شايفكم متجمعين يعني.

ابتلع سيف غصته، لكنه لم يترك كتف آسر، بل زاد من ثباته وهو ينظر لجلال الذي كان يراقب المشهد بصمتٍ مخيف، صمتٍ يوحي بأنه يعرف أكثر مما ينبغي، أو أنَّه يخطط لما هو أسوأ.

ابتسم آسر ببرودٍ جليدي وهو ينهض ببطء، محاولًا إخفاء العاصفة التي ثارت بداخله فور رؤيتهما، وقال بنبرة هادئة ومستفزة:

— نورتوا والله.. خير انتو؟

جلس عثمان على المقعد، وتبعه جلال الذي ألقى بجسده في صمتٍ مريب، قبل أن يجيب بجبروتٍ اعتاد عليه:

— عادي يعني.. كنا حابين نشوفكم، ولا الشركة بقت ممنوعة علينا؟

في هذه اللحظة، شعر سيف بقلقٍ ينهش صدره، وتزايدت ضربات قلبه وهو يرى نظراتهما المتفحصة.. لكن، وفجأة، شعر بشيءٍ جعله يتجمد في مكانه. شعر بآسر يضغط على كفه بهدوءٍ وثبات.

تلك الضغطة البسيطة كانت بمثابة آلة زمن؛ أعادت لسيف صورًا من طفولتهما، حين كان يختبئ آسر خلف ظهره خوفًا من غضب والدهما، وحين كانا يتبادلان تلك الضغطة سرًّا ليخبرا بعضهما أنَّ "كل شيء سيكون بخير".

ارتسمت على شفتي سيف ابتسامة حبٍّ دافئة، وتلاشى خوفه ليحلَّ محله فخرٌ بأخيه الذي نضج وأصبح درعًا. لم يتردد، بل ردَّ الضغطة بضغطةٍ أقوى مفعمة بالاطمئنان، كأنهما يبرمان عهدًا صامتًا أمام أعدائهما: "نحن معًا الآن، ولن يستطيع أحد كسرنا".

قال عثمان بنبرة هادئة لا تخلو من مكر، وهو يراقب ردود أفعالهما بدقة:

— حسن المنياوي كلمني وقالي إنه عايز يعمل شراكة معانا.

لم يمضِ جزء من الثانية حتى خرج الرد كطلقة واحدة من حنجرتي الأخوين في اللحظة نفسها:

— لا طبعًا!

رفع عثمان حاجبيه بتعجبٍ مصطنع، وتبادل نظرة سريعة مع جلال الصامت، ثم تساءل ببرود:

— ليه بقى؟

التفت آسر برأسه نحو سيف، تاركًا له حق الحديث بصفته الأخ الأكبر، فتنحنح سيف واستجمع ثباته قائلًا:

— الراجل ده سمعته سبقاه، وكمان شركته بتقع.. إحنا مش هندخل كياننا في مغامرة خسرانة مع حد مشبوه، فـ طبعًا.. لا.

انطلقت ضحكة ساخرة من فم عثمان، ضحكة لم تصل لعينيه الباردتين، وقال وهو يهز رأسه:

ـــ والله مكنتش أعرف إن الشركة غالية عليكم للدرجادي!

هنا، ارتسمت على وجه آسر ابتسامة باردة... مستفزة، وسند ظهره إلى مقعده بكل ثقة، وقال وهو يضغط على كل حرف:

ـــ غالية علينا عشان تعبنا فيها لحد ما كبرت.. مش عشان أي حاجة تانية.

كانت جملة آسر تحمل رسالة مبطنة؛ فهو يذكرهما أنَّ النجاح الحالي هو ثمرة مجهوده هو وسيف وجاسر، وليس بفضل التحكمات أو الأوامر التي اعتادوا عليها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

"في أوكرانيا"

تعالت ضحكات ديم ويوهان وإيفان حتى ملأت المكان، بينما كان ماكس يجلس بينهم كقنبلة موقوتة، ينظر إليهم بغيظٍ شديد وهو يحاول كتم غضبه.

مسح إيفان دموع ضحكه وهو يحاول التحدث بصعوبة:

ـــ حقيقةً لا أستطيع السيطرة على نفسي.. بعد كل ما فعلته لأجلها يا ماكس، في النهاية تقول عنك شقيقها؟ يا للهول!

أضاف يوهان وهو يغمز له بمداعبة:

ـــ أهلًا بك في نادي الإخوة يا أخي، يبدو أنَّك حصلت على لقب لم تكن تحلم به قط.

زفر ماكس بضيق وهو يرمقهم بنظرات حادة، وقال بصوتٍ متهدج من الغيظ:

ـــ انتهوا من هذا الهراء! الكلمة خرجت منها بعفوية، وهي لا تدرك معناها الحقيقي بعد.

ضحك ديم وقال ببرود مستفز:

ـــ بل تدرك تمامًا يا ماكس، الفتيات لا يقلن هذه الكلمة عبثًا.. لقد وضعتك في تلك المنطقة الآمنة لأنها ببساطة.. لا تراك حبيبًا.

اشتعل وجه ماكس غضبًا وضيقًا، وقام من مكانه فجأة وهو يقول:

ـــ سنرى إن كانت ستظل تراني شقيقًا لها حين أقف أمامها في مصر.. استمروا في الضحك، فالنهاية ستكون لي أنا.

قاطع جولة مزاحهم صوت أدريان الرزين وهو يقترب منهم بوقار، قائلًا بنبرة آمرة لا تخلو من حنان:

ـــ هيا يا شباب، فقد انتهى أذان العصر.. الصلاة أولى.

تأفف ماكس الذي كان لا يزال يحاول استيعاب سخرية أصدقائه، وقال برجاء:

ـــ خمس دقائق فقط يا عمي.. سننهي هذا الحديث ونلحق بها.

ردَّ أدريان بحزم وهو يشير بيده نحو المسجد:

ـــ لا.. ولا دقيقة واحدة، خاصةً في هذه الصلاة.

عقد ماكس حاجبيه بتساؤل وقال:

ـــ ولماذا صلاة العصر تحديدًا؟

هدأت ملامح أدريان وبدأ يشرح لهم بأسلوبٍ هادئ:

ـــ تيا قالت لي من قبل معلومة.. قالت إن من تأخرت صلاته للعصر حتى تغرب الشمس، فكأنه يقف بين قرني الشيطان.. هي صلاة وسطى وعظيمة، وبشكل عام يا شباب، إنَّ أحب الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها.. فلا تجعلوا الدنيا تسرق منكم وقوفكم بين يدي الخالق.

ساد صمتٌ قصير بعد كلمات أدريان المؤثرة، وسرعان ما تبدلت ملامح الغيظ والمزاح بملامح الجد، فنهضوا جميعًا خلفه، يتقدمهم ماكس الذي شعر أنَّ كلمات تيا كانت بمثابة رسالة خاصة له ليعيد ترتيب حساباته.

اصطفوا جميعًا كالبنيان المرصوص، يدًا واحدة وقلبًا واحدًا، وكان ألكسندر يتقدمهم بوقار كإمامٍ لهم في هذه الوقفة المقدسة. ساد الصمت والسكينة المكان، ولم يعد يُسمع سوى صوت التكبير وخشوع الأنفاس.

وعندما هوى ماكس ساجدًا، لامست جبهته الأرض، وشعر فجأة ببرودة هادئة تسري في جسده، كأن كل هموم الدنيا وكلمات السخرية التي سمعها قد تلاشت تمامًا. وجد نفسه، ولأول مرة، يترك لقلبه العنان بعيدًا عن كبريائه، وهمس بصوتٍ خفيض لا يسمعه أحد سواه، صوتٍ ممتزج بالرجاء:

ـــ يا الله...

كانت تلك الكلمة وحدها تحمل كلَّ ما عجز عن قوله؛ تحمل حبه للمار، خوفه من فقدانها، رغبته في أن يكون جديرًا بها، وتوسله

بأن يجد طريقه إليها مهما كانت المسافات. في تلك السجدة، لم يعد ماكس الشاب القوي أو صاحب النفوذ، بل كان مجرد عبدٍ محب، يرجو من رب القلوب أن يجمع شتات قلبه بقلب من يحب.

بعد أن سُلِّم الأمان وانتهت الصلاة، انصرف الجميع وبقيت العائلة؛ دائرة الأمان التي لا يخترقها غريب. وقف ماكس وسط جده ألكسندر، وأعمامه الثلاثة، وأبيه، كأنهم جدرانٌ تحيط بقلبه المثقل.

لاحظ الجد ألكسندر صمت حفيده ونظرته التائهة، فاقترب منه وسأله بنبرة حانية:

ـــ ما بك يا ماكس؟

نظر ماكس إليهم جميعًا بهدوء، ثم في لحظة صدقٍ نادرة، انهار ذلك القناع الصلب الذي يرتديه أمام العالم. وبدأ يسكب ما في قلبه، قصَّ عليهم حبه للمار، حيرته، خوفه. تحدث بكل عفوية، كأنه طفلٌ صغير ضلَّ طريقه وعاد أخيرًا لحضن عائلته، طالبًا منهم العون والمشورة في معركته الكبرى.. معركة الوصول لقلبها.

ساد الصمت لثوانٍ وهم يستمعون إليه بقلوبهم قبل آذانهم، ففي هذه العائلة، وجعُ الواحد منهم هو وجعُ الجميع.

ابتسم ألكسندر بوقار، ونظر إلى حفيده بنظرة تحمل في طياتها سنوات من الخبرة والحب، وقال بصوتٍ هادئ يدعمه:

ـــ أنا أشعر بك يا ماكس، فما تمر به الآن هو ذاته ما مررتُ به من قبل.. إيفا كانت تقول لي الكلمة ذاتها دائمًا.

اتسعت عينا ماكس بصدمة، وارتسمت على وجهه علامات الأمل الممتزج بالدهشة وهو يسأل:

ـــ كيف هذا يا جدي؟

تنقلت نظرات ألكسندر بحنان بين أحفاده وأبنائه، ثم غرق في ذكرياته قائلًا:

ـــ عندما تعرفتُ على إيفا، كانت فتاةً تخطف الأنفاس بمرحها وبهجتها، عيناها الملونتان سحبتاني إلى عالمٍ آخر، وضحكتها كانت بالنسبة لي كمقطوعة موسيقية دافئة.. كنتُ وما زلتُ أعشقها بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

صمت لثانية كأن وجعه القديم مرَّ أمام عينيه، ثم تابع:

ـــ ولكنني صُدمت في أحد الأيام عندما قالت لي ببرود أنني مثل أخيها.. شعرتُ حينها بالضياع، كيف لمعشوقتي التي يسكن حبها قلبي أن تراني هكذا؟ ظللت أيامًا وليالي في قهرٍ ودموع لا تنتهي.. لكن القدر كان له رأيٌ آخر.

وضع ألكسندر يده على كتف ماكس وأكمل بصدق:

ـــ كنتُ أبكي وأشكو إلى الله همي وحزني، تمامًا كما تفعل أنت الآن.. والله لم يردَّني، ولم يخذلني أبدًا.. أهداني إيفا، وأهداني قبلها قلبها يا ماكس.

تنهد ماكس بعمق، وشعر كأن جبلًا قد انزاح عن صدره، وقال بيقين:

ـــ معك كل الحق يا جدي.. لقد تجدد لي الأمل.

في تلك اللحظة، اقترب منه والده ستيفان وضمه بحبٍ أبوي، لكنه لم يترك اللحظة تمر من دون أن يضفي عليها روحه المرحة، فقال ضاحكًا:

ـــ لكن نصيحة لك.. والدتك إذا علمت أنَّك تحب أنثى غيرها، فستضربك ضربًا مبرحًا!

انفجرت العائلة كلها في ضحكٍ عالٍ، وتلاشت غيوم الحزن تمامًا، وحلَّت مكانها روح التفاؤل في قلب ماكس الذي بدأ يرى لمار في الأفق من جديد.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

دلف جاسر إلى الغرفة والوجع يسبقه. كان يتوقع أن يراها في حالة منكسرة، لكنه توقف بجسدٍ مرتجف عندما رآها ساجدة بين يدي الله، تطلب العون من صاحب القوة.

انتظر حتى فرغت من صلاتها، ثم اقترب منها بخطواتٍ مهزوزة وجلس أمامها على الأرض، تمامًا حيث كانت تسجد.

أمسك يديها الرقيقتين بلطف، نظرت إليه بذهول، وهمست بصوتٍ يرتجف من عدم التصديق:

ـــ جاسر؟!

ثبَّت نظراته في عينيها، وبنبرة قوية وهادئة كأنها عهدٌ أبدي، قال:

ـــ أنا معاكي ومش هسيبك يا ريم.

تجمعت الدموع في عينيها بغزارة، حاولت أن تنطق، أن تعترف، أن تخبره بمدى بشاعة الحقيقة التي تظنها ستكسر صورته عنها، فقالت بتقطع:

— بس.. بس أنا..

قاطعها بحنانٍ جارف قبل أن تكتمل كلماتها، وقال بابتسامة مطمئنة:

— بس ممكن تهدي؟ أنا مش فارق معايا أي حاجة.

ساد صمتٌ ثقيل لم يقطعه سوى شهقاتها المكتومة، ثم رفعت عينيها الغارقتين بالدموع وقالت بمرارة:

— أنا كنت ناوية أنتحر..

شعر جاسر بالرعب ولكنه حاول التماسك؛ واعتصر الألم روحه لمجرد تخيله لثانية واحدة أنَّ عالمها كان سينتهي بهذه الطريقة اللعينة. لكنها تابعت بصوتٍ واهن وهي تتشبث بقميصه:

— بس قلت أنا مش هصلح ذنب بذنب تاني.. ربنا هيسامحني يا جاسر.. صح؟

همس بصوتٍ مخنوق بالدموع:

— باب التوبة مفتوح دايمًا يا ريم.. ربنا مش بيسيب اللي بيخبط على بابه، وأنا جنبك.. مش هسيبك لحد ما نعدي لبر الأمان.

كادت ريم أن تتحدث، لكنه باغتها بكلمة واحدة زلزلت كيانها:

— بحبك يا ريم.

توقفت الكلمات في حنجرتها، ونظرت إليه بصدمة وقلبٍ يتلهف لسماعها مجددًا:

— أنت.. أنت قلت إيه؟

أجابها بعينين تلمعان بالصدق:

— بحبك.. وأنتِ؟

صمتت لثوانٍ، والتردد ينهشها، لكنه حثها بحنان:

— قوليها يا ريم.

همست بخوف:

— خايفة.

ابتسم بحزن وكاد أن يطمئنها، لكنها قاطعته باندفاعٍ أذاب جليد السنين:

— بحبك.. ومش من دلوقتي، من زمان.. من أول مرة شوفتك وأنت جاي تتقدملي، ولما عرفت إن عندي مشاكل في الخلفة ومسيبتنيش، ووقفتك جنبي دلوقتي.. كل ده يخليني أقولها من دون خوف يا جاسر.. أنا بحبك، ودلوقتي فعلًا حسيت معنى جملة الدار أصبحت أمان.

لمعت عيناه بعشقٍ جارف، قطع صمتهما صوتها الخجول:

— جاسر.. صحيح، مش أنا صوتي حلو أوي في القرآن؟

ابتسم بسعادة:

— بجد؟ طب سمعيني.

بدأت ترتل آيات الله بصوتٍ عذب، لكن ذهولها كان أكبر حين وجدته يرتل معها، ويصحح لها بعض مخارج الحروف بدقة.
سألته بدهشة بعد انتهائها:

ـــ هو أنت حافظ السورة دي؟

ابتسم وهو يسترجع ذكرياتٍ غالية:

ـــ أنا وآسر وسيف كان الحاجة الوحيدة اللي بتجمعنا هي حفظ القرآن، كان لو حد فينا كسل التاني يشجعه لحد ما ختمناه.. بس أنا وسيف ختمناه مرة، وآسر مرتين.

نظرت له بتعجب:

ـــ اشمعنا آسر؟

ـــ مش قولتلك قبل كدة إن آسر سافر وهو عنده 18 سنة يدرس برة؟ هو بقى لما رجع قرر يحفظه تاني عشان يثبت الحفظ.

ضحكت ريم فجأة وهمست بدلال:

ـــ أقولك سر؟

ـــ قولي.

ـــ لما جيت هنا وعرفت إنك أنت وسيف بتصلوا كانت صدمة بالنسبة لي.

نظر لها بغيظٍ مصطنع:

ـــ ليه؟ شايفانا كفار؟

ردَّت بسرعة:

ـــ وأيه علاقة الصلاة بالكفر! أنا قصدي إني متوقعتش بصراحة.

اعتدل جاسر في جلسته وقال بجدية:

ـــ بصي.. أولًا كدة، فيه علماء كتير قالوا إن تارك الصلاة كافر، يعني الصلاة ليها علاقة بالكفر فعلًا.. ثانيًا، أومال إحنا جايلنا البركة والراحة دي منين؟ ما هي من الصلاة.

شهقت بفزع:

ـــ يعني أنا كنت كافرة؟ أنا كنت بقطع في الصلاة!

طمأنها بابتسامة حانية:

ـــ لا، من النهاردة مفيش كدة، انسي اللي فات.. ويلا قومي ظبطي البلكونة وأنا هعمل كيسين أندومي ونتفرج على أي فيلم.

ابتسمت بفرحة طفولية:

ـــ عيوني.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

"في مول ضخم"

كانت سيرين تتجول في المول بزهوٍ وغرور بين الماركات العالمية، ولم تكن تعلم أنَّ القدر وضع لمار وتيا في نفس المكان.

قالت تيا وهي تتفحص واجهة أحد المحلات:

ـــ أنا عايزة دريس أسود يا لمار، مش عايزة ألوان فاتحة.

تنهدت لمار بضيق:

ـــ بقالنا ساعتين بنلف ومفيش!

تيا برجاء:

ـــ طب تعالي ندخل المحل ده.

لمار بغلب:

ـــ لاا بقى، ده أنا لفيت المول كله!

نظرت لها تيا بحزنٍ مصطنع، فضحكت لمار وقالت:

ـــ خلاص خلاص، جاية معاكي.

ضمتها تيا بمزاح:

ـــ حبيبتي اللي مش بيهون عليها زعلي.

دخلتا المحل، لكن فجأة تجمدت ملامح لمار وقالت بضيق:

ـــ سيرين هنا!

تيا بلا مبالاة:

ـــ واحنا مالنا بيها؟ دوري بس معايا على الدريس.

قالت لمار:

_ هو دا؟

نظرت تيا للفستان الأسود الذي أشارت إليه لمار بتدقيق:

ـــ مش عارفة، أنتِ شايفة إيه؟

لمار بإعجاب:

ـــ شايفة إنه تحفة بجد.

تيا بابتسامة:

ـــ أوك، هاتيه أشوفه في البيت وبعدين أقرر، بس هو فعلًا ذوقه عالي.

بينما كانت تيا تتفحص الفستان، اخترق هدوء المكان صوت سيرين المستفز وهي تقترب منهما بخطوات واثقة:

ـــ إيه ده! أنتم هنا؟ غريبة.. مكنتش أعرف إنكم بتيجوا الأماكن دي!

رفعت تيا رأسها ببرودٍ قاتل، ورسمت على وجهها ابتسامة جليدية وهي ترد:

ـــ ليه يعني إن شاء الله؟ هو المول اتكتب باسمك وإحنا مانعرفش؟

ارتبكت سيرين لثانية لكنها حافظت على تعالِيها وقالت باختصار:

ـــ لا.. مش قصدي.

ردَّت تيا وهي تعود للاهتمام بالفستان بلا مبالاة تامة:

ـــ يبقى نيجي عادي جدًّا.

نظرت إليهما سيرين بنظرة احتقار، ثم لوت فمها بضيق وتركت المكان وغادرت بغرور، لكنها في زحمة غضبها لم تلاحظ أنَّها تركت هاتفها فوق أحد المقاعد القريبة.

نظرت لمار إلى الهاتف بضيق وقالت:

— تيا.. سيرين نسيت تليفونها هنا، هنعمل إيه؟ نفتحه؟

مدت تيا يدها وأخذت الهاتف بهدوء، ثم وضعته في حقيبتها وقالت برزانة:

— هاتيه يا لمار.. نفتح إيه أنت كمان حرام طبعا دي أمانة.

نظرت لها لمار بإعجاب قائلة:

— عندك حق يا تيتو، رغم إنها مستفزة بس فعلًا الأمانة أمانة.

أومأت تيا برأسها وهي تغلق حقيبتها:

— بالظبط.. يلا بينا نكمل اللي ورانا، مش عايزين يومنا يبوظ بسببها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في أجواء سادها هدوءٌ ثقيل.. أو ربما كان سكونًا مخيفًا يسبق العاصفة، كانت رائحة البخور تفوح في المكان بشكلٍ خانق، يتصاعد دخانها ليدور حول عين زرقاء ضخمة معلقة على الحائط، وسط هذا الضباب الكثيف، كانت تجلس ميسون بجمود، تمسك كأسًا يمتلئ بقهوة سوداء شديدة المرارة، وتحركها ببطءٍ رتيب. كانت نظراتها شاردة في عمق الفنجان، مرارة القهوة التي تذوقتها ميسون في تلك اللحظة لم تكن تشبه سوى مرارة الأفكار التي تدور في رأسها، بينما كان صمت الغرفة يطبق على الأنفاس.

دخلت رهف الغرفة فجأة، ولكنها ما إن استنشقت الهواء حتى بدأت تسعل بشدة. لوحت بيدها أمام وجهها لتحرك الغمام المحيط بها، وقالت بنبرة يملأها الاعتراض:

ـــ ماما! هو أنتِ لسة بتعملي الجو ده؟ وبعدين العين الزرقا اللي معلقاها دي فيه ناس كتير قالوا إنها بدعة وحرام، ولا بتمنع حسد ولا بتجيب حظ!

لم ترفع ميسون عينيها عن فنجانها، ولم تتأثر بسعال ابنتها أو اعتراضها، بل ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة وباردة وهي تقول بنبرة تقطر سمًا:

ـــ غريبة.. يعني أنتِ اللي بتتكلمي في الحلال والحرام يا رهف؟

توقفت رهف عن السعال فجأة، وتجمدت الكلمات في حلقها، بينما تابعت ميسون وهي ترتشف رشفة بطيئة من قهوتها المرة:

ـــ خليكي في حالك وسيبيني في حالي أنت ملكيش إنك تتكلمي معايا بالأسلوب ده.

ساد صمت مشحون في الغرفة، واختلطت رائحة البخور بنظرات التحدي بينهم.

أغمضت رهف عينيها للحظات، زفرت نفسًا حارًا تحاول به كبح جماح غضبها من ردِّ والدتها، ثم ابتسمت بسخرية لاذعة وهي تقول:

ـــ سيرين ضيعت تليفونها.

لم تهتز ميسون، ولم ترفع نظرها عن سواد فنجانها، بل قالت بفتورٍ تام:

— مش مهم.. تبقى تقول لجدك يجيبلها غيره.

هنا انفجر بركان الغضب داخل رهف، فصرخت بعنفٍ هزَّ أركان الغرفة المعبأة بالبخور:

— وهي ليه متبقاش مسؤولة؟! ها.. ليه؟! هي مبقتش صغيرة يا ماما عشان كل ما تغلط أو تضيع حاجة نصلح وراها!

في تلك اللحظة، رفعت ميسون عينيها ببطء شديد، نظراتها كانت حادة، باردة. نهضت من مقعدها بوقارٍ مخيف، وبدأت تلتف حول رهف بخطوات واثقة...

كانت رائحة البخور الخانقة تتبعها مع كل حركة، بينما رهف متسمرة في مكانها، تشعر بأنفاس والدتها تقترب منها. توقفت ميسون خلف أذن رهف تمامًا، وهمست بصوتٍ رخيم يحمل تهديدًا مستترًا:

— المسؤولية اللي بتتكلمي عنها دي أنت عمرك ما اتحملتيها يبقى متقوليش مين يتحمل إيه؟ خليكي في حالك عشان متزعليش.

رغم الرعشة التي سرت في أوصال رهف من نظرات والدتها، فإنَّها استجمعت شتات قوتها، وربعت يديها أمام صدرها بتحدٍّ صارخ، وقالت بنبرة حادة:

— ده تهديد؟.. لو تهديد فأنا مش بتهدد، أنا بنت ماهر الطنطاوي يا ميسون هانم.. يعني بكلمة مني أقدر أعمل كل اللي أنا عايزاه.

لم تكتفِ رهف بذلك، بل خطت خطوة واحدة للأمام، واقتربت من أذن ميسون لتهمس لها بفحيحٍ كسر جبروت الأم:

ـــ أنتِ هنا عشاني أنا وسيرين.. عشان لو مكناش موجودين، كان زمانك لسه في شقتك اللي في الحارة فاكراها؟!

تصلبت ميسون في مكانها، واتسعت عيناها بذهول وغضب مكتوم. ساد صمتٌ قاتل في الغرفة.

فقدت ميسون أعصابها تمامًا، وبحركة وحشية كسرت سكون الغرفة، مدَّت يدها لتجذب رهف من خصلات شعرها بعنف، وهي تصرخ في وجهها والشرر يتطاير من عينيها:

ـــ أنتِ عارفة لو قولتي كدة تاني هعمل فيكي إيه؟!

لم تعد رهف تلك الفتاة المغرورة؛ بل انفجرت بقهرٍ دفين، ودموعها بدأت تشق طريقها فوق وجنتيها، وصرخت بصوتٍ يحمل مرارة السنين:

ـــ هتعملي إيه ها؟ هتقتليني؟! زي ما قتلتِ ماهر الطنطاوي مش كدة؟ هتقتليني زي ما قتلتِ أبويا اللي المفروض إنه جوزك!

تجمدت يد ميسون فوق خصلات شعر رهف، وشحب وجهها حتى صار بلون الرماد المتساقط من بخورها. ساد صمتٌ مرعب، لم يقطعه سوى شهقات رهف المكتومة، تراجعت ميسون خطوة للخلف، وقد ارتجفت يدها التي كانت تقبض على شعر ابنتها، وهمست بنبرة مهزوزة ممزوجة بالإنكار:

ـــ أنتِ.. أنتِ بتقولي إيه؟ أنتِ أكيد اتجننتي!

لكن رهف لم تمنحها فرصة لالتقاط أنفاسها، بل دفعتها بقوة وهي تصرخ بغضبٍ جارف زلزل كيان الأم:

— لا.. متجننتش! وتعرفي كمان؟ أنا عارفة مين اللي قالك تعملي كدة.. وعارفة مين اللي ساعدك، بس مش هقول دلوقتي؟!

في تلك اللحظة، شحب وجه ميسون. لم تكن الصدمة من اتهام رهف لها بالقتل فقط، بل من حقيقة أنَّ ابنتها تعرف الرأس المدبر لهذا المخطط. ساد الغرفة صمتٌ مسموم، ولم تعد رائحة البخور هي الخانقة، بل أصبحت الحقيقة هي التي تخنق الأنفاس وتكتم الصدور.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في قلب شركة الطنطاوي، داخل مكتبٍ يفوح برائحة النقاء، كانت تجلس سارة. لم يكن جمالها عاديًّا، بل كان مزيجًا من الرقة الطاغية والجاذبية التي تأسر القلوب قبل الأعين. كانت تجلس بهدوءٍ ملكي على كرسيها الفخم، مرتديةً من الثياب ما يبرز رقيَّ ذوقها، كأنها خُلقت لتكون جزءًا من هذا الرخاء.

المكتب حولها كان سيمفونية من الأبيض الناصع المخلوط بلمسات سوداء.

وسط ذلك السكون، قطعت سارة صمتها وأمسكت بهاتفها برقة، وطلبت رقم سيرين. طال الانتظار قليلًا قبل أن يأتيه الرد، لكن الصوت لم يكن صوت سيرين، بل كان صوتًا غريبًا ورقيقًا أجاب بـ:

— آلو..

رفعت سارة حاجبها بتعجبٍ طفيف، وسألت بنبرة يملأها الرقي:

ـــ مين معايا؟

أتاها الرد من الطرف الآخر، صوت لمار الذي يحمل صدقًا:

ـــ أنا لمار.. بنت حضرتك نسيت تليفونها معايا في المول.

لم تزد سارة في الحديث أو تسأل عن التفاصيل، بل اكتفت بتلك الابتسامة الهادئة التي ارتسمت على ثغرها، وقالت بامتنان:

ـــ طب ممكن تجيبيه على العنوان ده؟ ومتشكرة جدًّا لذوقك.

أغلقت الخط وابتسامتها لم تفارق وجهها.

بعد مرور دقائق من الانتظار المشوب بالهدوء، اهتزَّ هاتفها باتصالٍ آخر، فتحت الخط لتسمع نفس الصوت الرقيق الذي أجابها قبل قليل:

ـــ أنا تحت، قدام مكتب الاستقبال.

أجابتها سارة بصوتٍ ناعم كالحرير:

ـــ طيب.. ثانية واحدة وأكون عندك.

وقفت سارة أمام المرآة لثوانٍ، أخذت حقيبتها الجلدية البيضاء الصغيرة، وعدلت فستانها الأبيض الطويل والمحتشم، الذي كان يحيط بجسدها برقيّ. كانت خصلات شعرها تنساب خلفها كشلالٍ من الحرير الطبيعي، يفوح منها عطر الياسمين الممزوج برائحة والمسك الأبيض.

هبطت إلى الأسفل، كانت تمشي في طرقة الشركة الرخامية الواسعة بخطواتٍ هادئة، وقعت عيناها على فتاة تقف وتمسك بهاتف سيرين، فاتجهت نحوها والابتسامة تسبقها، مدت يدها الرقيقة وأخذت الهاتف قائلة بامتنان صادق:

ـــ متشكرة جدًّا يا لمار.. بجد تعبتك معايا، مش عارفة أقولك إيه.

أجابتها لمار بهدوء:

ـــ لا شكر على واجب، ده حقك.

نظرت سارة حولها، لاحظت أنَّ الفتاة ما زالت واقفة، فسألتها بلطف:

ـــ شكلك مستنية حد؟

أجابت لمار:

ـــ آه، صاحبتي دخلت الحمام هنا وهتطلع حالًا.

ابتسمت سارة لها مرة أخرى، وشكرتها برقيّها المعهود، ثم استدارت لتعود إلى الداخل. كانت عيناها شاردتين في ممر الشركة، ولم تلمح تلك الفتاة التي كانت تخرج لتوها مسرعة، فحدث الاصطدام.

اختل توازن سارة تمامًا، وشعرت بجسدها يميل للخلف كأنها ستهوي على الأرض، لكن قبل أن تسقط، كانت هناك يدٌ أسرع، يدٌ أحكمت قبضتها على ذراع سارة وسندتها. استنشقت سارة في

تلك اللحظة رائحةً غريبة ومألوفة.. رائحة تشبه الأرض بعد المطر، رائحة أثارت في أعماقها رجفة لم تفهم سببها.

قالت سارة بصوتٍ رقيق ومحرج وهي لا تزال مغمضة العينين من أثر الخضة:

ـــ أنا آسفة بجد.. مخدتش بالي..

رفعت سارة عينيها ببسمة بشوشة لترى من أنقذها، لكن تلك البسمة لم تكتمل، بل تجمدت على شفتيها لتتحول إلى ذهولٍ مطلق. كانت أمام فتاة بارعة الجمال، ملامحها هي مرآة لملامح ابنتها التي تركتها، نفس تقاسيم الوجه، نفس الرقة، ولكن.. بعينين سوداوين بهما بريق جعل شيء ما يهتز بداخلها.

كانت تيا تقف متصلبة، يدها لا تزال تمسك بذراع والدتها، وقلبها يقرع طبول الحرب داخل صدرها. هي لم تكن بحاجة لتعريف، هي تعرف هذا الوجه جيدًا، تعرف تلك الرائحة، وتعرف هذا الضعف الساكن في عينيها. هي والدتها.. المرأة التي تركتها وراءها ومضت.

ساد صمتٌ خانق في الطرقة، لم يقطعه سوى أنفاس سارة المتسارعة وهي ترفع كفها وتحاوط وجهها وتتفحص وجهها بدقةٍ شديدة، شعرت سارة ببرودةٍ تغزو أطرافها، وبأنَّ الأرض تهتز تحت قدميها، وهمست بصوتٍ يرتجف بوجعٍ لا يُوصف:

ـــ ت... تيا؟

أغمضت تيا عينيها بقوة. شعرت ببرودة كف سارة فوق بشرتها المشتعلة، وبحرارة دمعتها التي امتزجت بجلدها، فاهتز كيانها من الداخل.

فتحت عينيها السوداوين ببطء، كانت نظرتها غائمة وبحركة هادئة وقاتلة، أمالت رأسها لتتخلص من لمسة يد سارة، نظرت في عيني سارة الغارقتين بالدموع، وقالت بنبرة رخامية، خالية من أي اهتزاز، رغم أنَّ قلبها كان يصرخ خلف أضلعها:

ـــ أنا فعلًا تيا.. تيا عاصم.. بس حضرتك.. حضرتك تعرفيني منين؟

وبمجرد أن نطق لسان تيا بذلك الاسم الثنائي، شعرت سارة بزلزالٍ صامت يضرب أعماق روحها.

سحبت يدها عن وجه تيا بسرعة.

تراجعت سارة خطوة، ثم خطوتين، وعيناها تجولان في وجه تيا ببحثٍ يائس، لكن الحقيقة كانت أمرَّ من أن تُحتمل.

شحب وجه سارة حتى كاد يختفي نوره لقد خانها الشبه، وخانها قلبها الملهوف، واكتشفت في لحظةٍ قاسية أنَّها كانت تعانق سرابًا.

قالت سارة بصوتٍ خافت، يكاد يكون مسموعًا، وهي تهز رأسها بإنكار مرير:

ـــ أنا.. أنا أسفة.. افتكرتك حد تاني..

صمتت تيا لثوانٍ وهي تراقب انكسار السيدة أمامها، ثم قالت ببرود:

— ولا يهمك.. حصل خير.

استدارت لترحل، لكن صوت سارة المرتفع استوقفها، نداء يحمل نبرة استجداء غريبة:

— ا.. استني!

عادت تيا ووقفت أمامها بملامح جامدة ونظرة استفهام، لتقول سارة بارتباك:

— ت.. تعالي اشربي حاجة.. أنتِ وصاحبتك، في المكتب فوق.

كادت تيا أن ترفض وتنهي هذه اللعبة، لكن سارة قطعت عليها الطريق بإصرارٍ وقالت:

— لو سمحتِ.. وافقي.

أومأت تيا برأسها موافقةً بهدوءٍ حذر، وأشارت للمار التي كانت تقف بجانبها وتراقب الموقف بصمتٍ ثقيل.

بينما كانت سارة تقودهما نحو المصعد الخاص، كانت أنظار تيا تتجول في أرجاء الشركة بذهولٍ مكتوم. لم تكن مجرد شركة، بل كانت إمبراطورية ضخمة تنطق بالفخامة والسطوة، صرحًا طالما سمعت عن جبروته في الخارج.

دخلوا ثلاثتهم إلى المكتب، مكانٌ يطغى عليه اللون الأبيض الملكي، بلمسات ذهبية وفضية خافتة تمنح المكان فخامة هادئة غير صاخبة، تمامًا كصاحبته.

جلست تيا وبجانبها لمار، بينما اتخذت سارة مجلسها خلف مكتبها العريض.

ساد صمتٌ ثقيل، لم يقطعه سوى تلك النظرات المتفحصة التي كانت سارة تطلقها نحو تيا.

أما تيا، فقد كانت تشعر بتلك النظرات تخترقها كالأشعة، لكنها حافظت على ثباتها الذي استمدته من آسر، بينما كانت لمار تتبادل النظرات القلقة مع تيا، وهي تلاحظ كيف أنَّ سارة تكاد تنطق بقلبها قبل لسانها.

بصوتها الرقيق الذي يحاول استعادة ثباته، كسرت سارة الصمت المطبق قائلة بهدوء:

— تشربوا إيه؟

أجابت تيا بسرعة، وببسمة هادئة وواثقة كما اعتادت:

— نسكافيه.

في الخارج، كانت الممرات الرخامية الطويلة تشهد على وقع خطواتٍ مختلفة.. خطوات كانت "ترنُّ" بقوة فوق السيراميك المصقول، وقعُ كعب عالي وجاف.

كانت رهف تسير بجانب سيرين، وقد استحضرت تلك النسخة اللزجة والمتعالية من نفسها. كانت روحها منكسرة، تنزف وجعًا بعد مواجهتها البشعة مع أمها ميسون، تلك المواجهة كانت تنوي في الأصل التوجه إلى مكتب آسر لتمارس دورها المفروض عليها في مطاردته، لكنها فجأة تسمرت في مكانها.. شعرت ببرودةٍ تغزو أطرافها وهي تدرك أنَّها ليست مستعدة.

دلفت إلى المكتب من دون استئذان، وبمجرد دخولها، وقعت عيناها على تيا. تجمدت سيرين مكانها وصاحت بحدة:

ـــ أنتِ؟! بتعملي إيه هنا؟

أما رهف، فقد وقفت بصلابةٍ زائفة، وذقنٍ مرفوعٍ بغرورٍ مستعار، وقالت بصوتٍ حاد وهي تنظر لعمتها:

ـــ في إيه يا عمتو؟ ومين دول اللي شاغلينك عن الشغل؟

ارتبكت سارة، ونظرت لرهف بأسف، فهي تعرف أنَّ ابنة أخيها تمر بحالة نفسية سيئة، لكنها لم تتوقع هذه القسوة، فقالت بهدوء:

ـــ دي تيا ولمار يا رهف.. اللي لقوا تليفون سيرين.

لوت رهف فمها بسخرية مريرة، ورمقت تيا بنظرة متعالية من خلف قناعها الكريه، وقالت بنبرة تقطر سمًا:

ـــ أه... كتر خيرهم. بس أعتقد إن المكتب هنا له احترامه، والزيارات دي مكانها مش المكاتب.. ولا إيه؟

أما تيا، التي كانت تراقب هذا العرض المسرحي ببرود، فقد وقفت وأشارت للمار، ثم نظرت لرهف نظرة ثاقبة جعلت رهف تشعر بالعري للحظة، وقالت تيا بهدوء رخامي:

ـــ فعلًا.. المكان له احترامه ميرسي يا سارة هانم.. يلا يا لمار.

اشتعلت الأجواء داخل المكتب بمجرد أن أُغلق الباب خلف تيا ولمار. الصمت الذي تركه رحيلهما لم يدم طويلًا، فقد قطعه صوت سارة الذي خرج حادًا وقويًّا على غير العادة.

نظرت سارة لرهف بغضبٍ لم تستطع كبحه، وقالت بنبرة هزَّت أركان المكتب الأبيض:

— رهف! أنتِ جاية ليه؟ وإزاي أصلًا تتعاملي مع ناس عندي في مكتبي بالطريقة دي؟ أنتِ نسيتي نفسك ولا إيه؟

تصلبت رهف في مكانها، بينما تابعت سارة وهي تقترب منها وتقول:

— ولا يكون دلع جدك عثمان فيكي هو اللي خلاكي ماتفرقيش بين حد وتدخلي تفرضي أسلوبك في مكاني؟

كان ذكر اسم "عثمان" بمثابة الملح فوق جرح رهف، ليس من سارة فحسب، بل من العالم أجمع.

لم تنطق رهف بكلمة في البداية، بل كانت تنظر لعمتها بنظراتٍ مسمومة، كأنها تتساءل في سرها: "حتى أنتِ يا عمتو؟ حتى أنتِ شايفة إني مجرد مستهترة؟".

رنين خطواتها الذي كان يملأ الممر قبل قليل، تحول الآن إلى وقفةٍ متجمدة، كأن السيراميك الذي كان يشهد على كبريائها قد أصبح تحت قدميها جمرًا مشتعلًا.

خرجت تيا من المكتب والضيق ينهش أعصابها، كانت تمشي بخطواتٍ سريعة.

كانت تيا تعلم يقينًا أنَّ هذه الفتاة <<رهف>>هي التي تحاول الاقتراب من زوجها، هي التي تسعى بكل الطرق لنيل رضا "آسر".

أحكمت تيا قبضتها على حقيبتها، ونظرت أمامها بجمودٍ غريب، وهي تبتلع مرارة الموقف.

قالت لمار بهدوء وهي تبتعد قليلًا:

— تيا هدخل الحمام استني.

أجابتها تيا بشرود:

— ماشي.

ظلت تيا واقفة وحدها لعدة دقائق وفجأة، انقطع سكون تفكيرها بحركة مباغتة؛ حيث شعرت بيد تجذبها بسرعة نحو إحدى الغرف الجانبية، وكادت أن تطلق شهقة ذعر تملأ المكان، لكن يدًا حازمة وضعت فوق فمها لتكتم صرختها، بينما أُغلق الباب خلفهما في لمح البصر.

انحنى نحو أذنها، وبنبرة هادئة تحمل من الأمان ما يكفي لتهدئة روعها، همس بكلماتٍ قليلة:

— بس اهدي.. أنا آسر.

سكنت نبضاتها المضطربة، ورفعت عينيها سريعًا لتتقابل مع عينيه تلاشت غيوم الغضب، وابتسمت له بفيضٍ من الحب والارتياح، وارتمت في أحضانه.

ابتعد عنها قليلًا وهو يطالع ملامحها المجهدة بنظراتٍ يمتزج فيها القلق بالعتاب، وقال بنبرة هادئة تحمل في طياتها تساؤلًا لم يجد له إجابة:

— إيه اللي جابك هنا يا تيا؟

تنهدت بعمق، وبدأت تقص عليه تفاصيل تلك الرحلة غير المتوقعة، من الهاتف المفقود في المول وصولًا إلى تلك المواجهة التي لم تكن تحلم بها. وفي لحظة، خانتها قوتها فترقرقت الدموع في عينيها وقالت بنبرة مرتجفة:

— شوفتها يا آسر.. شوفت سارة الطنطاوي بعد كل السنين دي.. مش مستوعبة إني كنت واقفة قصاد أمي!

لم يجد آسر كلمات توفي حق ذلك الوجع الذي لمسه في صوتها، فمد يده وربت على رأسها بخفةٍ، في حركةٍ تحمل كل معاني الاحتواء، وقال بصوتٍ يفيض بالحنان:

— عارف إن كل ده كتير عليكي والله.

ساد صمتٌ قصير، صمتٌ كان يضجُّ بكل المشاعر التي عجزت ألسنتهم عن نطقها، قبل أن يقترب منها أكثر ويهمس بعهدٍ لم يقطعه لغيرها:

— تيا.. أنا هفضل جنبك.

يا الله! كانت تلك الجملة بمثابة صكِّ أمان نزل على قلبها المضطرب ليُخرسه عن الأنين. لم تكن مجرد حروفٍ عابرة، بل كانت يدًا خفية انتشلتها من قاع بئر ذكرياتها الأليمة مع والدتها التي أنكرتها.

نظرت تيا لعينيه بقوة، نظرة كانت تفيض باليقين الذي استوطن قلبها بعد كلماته، همست والابتسامة ترتسم على ثغرها كفجرٍ أضاء عتمة قهرها:

— عارفة إنك جنبي... صدقني الحاجة الوحيدة اللي واثقة منها إنك جنبي ومعايا دايمًا يا آسر.. عمر إيدك ما هتسيب إيدي أبدًا.. صح؟

لم يتكلم آسر في البداية، بل كانت عيناه تجيبها بآلاف الوعود التي لم تُنطق بعد. رفع يدها الرقيقة التي كانت تلامس وجهه، وقربها من شفتيه ليطبع عليها قبلةً حانية وطويلة، قبلةً ختم بها على قلبها عهد الأمان، وقال بصوتٍ هادئ كالحقيقة المطلقة:

— صح.

قالت له بنبرةٍ يملأها الحب، وقد استعادت هدوءها بفضله:

— لازم أمشي بقى قبل ما حد ياخد باله.. سلام.

نهض آسر من مكانه، لكنه يعلم ضرورة الرحيل؛ فضمها إليه في لحظة وداعٍ خاطفة، ثم أمسك يدها وضغط عليها بقوةٍ، وقال بصوتٍ منخفض يقطر عشقًا:

— سلام يا روح آسر.

تركت تلك الكلمة رجفةً عذبة في أوصالها؛ فابتسمت له برقةٍ بالغة، تلك الابتسامة التي لا تظهر إلا له وحده، ثم أفلتت يده ببطء وخرجت، تاركةً خلفها رائحة حبهما في المكان، بينما ظلت أصداؤه تتردد في قلبها وهي تسير في الممر.

كانت ريم تقف شامخة، تتوسط حلمها الذي بات ملموسًا، تجاور إحدى الموظفات العاملات لديها وتشاركها.

استدارت ريم بوقار، تاركةً خلفها صخب الحديث، واتجهت بخطواتٍ واثقة نحو ركنها الخاص.

بينما كانت ريم غارقة في عالمها الخاص، تعزلها ريشتها عن ضجيج البشر، شعرت فجأة بنورٍ من نوعٍ آخر يحجب عنها الرؤية؛ كفان دافئان استقرا برفق فوق عينيها، يمنعانها من إبصار لوحتها ليصبح هو بصيرتها الوحيدة، وهمس في أذنها بصوتٍ رخيم يداعب دقات قلبها:

ـــ أنا مين؟

تعالت ضحكاتها الرقيقة، نغماتٌ عذبة ترددت في أرجاء مرسمها، وأجابت بنبرةٍ تفيض رقةً ودلالًا:

ـــ جاسر... حبيبي.

أزاح يديه ببطء، وجلس قبالتها يطالع وجهها بهيامٍ مفرط:

ـــ والله أنتِ اللي حبيبي.

أمالت رأسها قليلًا، وتأملت في سكونٍ سحر عينيه الرماديتين اللتين طالما كانتا بوصلتها نحو الطمأنينة، ثم همست بنبرةٍ يمتزج فيها العتاب الرقيق بمشاعر جارفة:

ـــ اممم.. ممكن أعرف بقى حبيبي اللي مش بيكلمني من الصبح جه ليه؟

لم يجبها بكلماتٍ في البداية، بل انحنى يطبع قبلة حانية فوق يدها، قبلة حملت كلَّ اعتذارات العالم، ثم قال بصوته الدافئ:

— آسف والله.. بس كنت مشغول عشان ده.

ومع آخر كلمة، رفع أمام عينيها بوكيه من الزهور النادرة، يتوسطه تنسيقٌ بديع لأنواع الشوكولاتة المفضلة لقلبها.

ارتسمت على وجهها بسمة سعيدة أضاءت ملامحها بالكامل، والتقطت منه الهدية بلهفة وقالت:

— أحبك أكتر من كدة إيه بس؟

أجابها بمزاحه المعهود، وعيناه تلمعان بمشاكسة محببة:

— لا.. حبيني كمان شوية.

في تلك اللحظة، لم تستطع ريم تمالك نفسها، فانفجرت ضاحكة من قلبها، لكنها سرعان ما حاولت إخفاض صوتها حين رأت نظرة عينيه التي تحذرها بمحبة، وهمس لها برقة:

— صوتك يا سكر.. الناس هتسمعك.

توقفت فجأة، والتفتت حولها كأنها استيقظت من غيبوبةٍ لذيذة، ثم قالت بذهول وصدمة حقيقية:

— تصدق بالله.. أنا لسة واخدة بالي إن لسة في ناس!

عدَّل جاسر وضعيته بزهوٍ، وقال بغرور مصطنع وهو يرفع رأسه للأعلى:

— طبعًا.. لازم تنسي الدنيا في وجودي.

لـم تجادلـه، ولـم تحـاول كسـر غـروره، بـل نظـرت إليـه بعينـين يملأهما الإعجاب والصدق، وقالت بهدوءٍ لامس روحه:

ـــ دي حقيقة على فكرة.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

"في أوكرانيا"

كان تاراس يجلس في سكونٍ تامٍ وسط حديقة عامة.

وفجأة، اخترق سكونه صوتٌ لم يكن غريبًا عن مسامعه قط، وهو يدندن بمقطوعة أوكرانية، كان للسحر الكامن في تلك النبرة قوة غاشمة سحبته من مكانه، ليجد نفسه يقتفي أثر الصوت بجوارحه قبل قدميه، حتى وقعت عيناه عليها.. نعم، هي بذاتها، الحورية التي استوطنت أحلامه واستعمرت نبضه طويلًا.

<<لينا فيكتور ألكسندر كورولينكو>>

توقف الزمن في تلك اللحظة، وتلاشت ملامح الحديقة من حوله، فلم يعد يرى سوى طيفها الماثل أمامه. همس باسمها ببطءٍ شديد، كأنه يتذوق الحروف أو يتلذذ باستعادة ملكيته لذاك الاسم الذي حُفر في وجدانه:

ـــ لينا..

التفتت إليه، فكانت عيناها الزرقاوان كبحرٍ هادئ تحت سماءٍ صافية، تلمعان بدهشةٍ لم تستطع إخفاءها، وهمست باسمه بنبرةٍ خافتة:

ـــ تاراس؟

ولم تكد تمر لحظة حتى تبدد ذهولها، وانطلقت منها صرخة حماسية مفعمة بالحياة، وهي تندفع نحوه ببهجةٍ لا تعرف القيود دون تلامس به لأنه غريب عنها ولا يحل لها:

ـــ تاراس! أهلًا بك يا ابن الخال.. اشتقت لرؤيتك حقًّا!

حاول تاراس أن يستجمع شتات نفسه، وأن يلملم بعثرة نبضه التي فضحتها نظراته، وقال بنبرةٍ جاهد لتكون رصينة رغم الاضطراب الكامن في صدره:

ـــ وأنا أيضًا.. اشتقتُ إلى رؤيتكِ.

كانت لينا تهمُّ بنطق شيءٍ آخر، ربما لتكمل ترحيبها، ولكن، وفي لمح البصر، تبدل المشهد تمامًا؛ انطلقت منها صرخة عنيفة، صرخة ذعرٍ مزقت سكون الحديقة وبددت رقة اللقاء، ولكن فجأة قفزت لينا من مكانها وهي تصرخ برعب، وعيناها الزرقاوان تتسعان من الفزع عندما لمحت ذلك الكائن الانسيابي الغادر يزحف على الأرض بالقرب منهما.. ثعبان!

تجمدت الدماء في عروقها وهي ترى حركته الباردة، لكن "تاراس" لم يتحرك من مكانه بحركة عشوائية، بل ظل يراقب الثعبان بنظرات حادة ومتفحصة. زفر بضيقٍ شديد، وظهرت معالم الحنق على وجهه وهو ينادي بصوتٍ أجش اخترق سكون الحديقة:

ـــ إيفاااان!

بينما كانت "لينا" ترتجف من أثر الصدمة، انشق صمت المكان عن ضحكاتٍ مجلجلة ومستفزة، ليظهر إيفان من خلف الأشجار

وهو يكاد يسقط أرضًا من شدة الضحك على ملامح الرعب التي ارتسمت على وجه لينا.

خطى بخطواتٍ واثقة ومرحة نحو تاراس، وضمه بقوةٍ ثم قال بنبرةٍ تملؤها المشاكسة وهو ينظر لتاراس بخبث:

ـــ أين أنت يا صديقي؟ اختفيت فجأة.. كنت أظنها وحدها!

وما إن أنهى جملته حتى انفجر ضاحكًا مرة أخرى.

رمقه تاراس بنظرةٍ حادة كادت أن تخترق جسده، ثم قال بصوتٍ خفيض:

ـــ لا تفزعها مرة أخرى.. لكي لا أقتلك.

قال إيفان بنبرةٍ حاول فيها استعادة توازنه:

ـــ أعدك أن لا أفعلها مرة أخرى.. سأذهب الآن لأرى ديم.

انسحب بهدوء تاركًا خلفه صمتًا ثقيلًا. حوَّل تاراس نظراته نحو "لينا" التي غابت في شرودٍ طويل، واقترب منها، وبالنبرة الحنونة ذاتها التي لا يظهرها إلا لها، قاطع شرودها قائلًا:

ـــ ما زلتِ تكرهين الثعابين والقوارض؟

ارتسمت على شفتيها ابتسامة خافتة، لكنها كانت كافية لتضيء ملامحها مجددًا، وأجابت بصدق:

ـــ أجل.. فهي كائنات مخيفة ومقرفة حقًّا.

ابتسم لها بلطف، ثم اتجه إلى صمتٍ عميق لثوانٍ، مكتفيًا بتأمل ملامحها التي لم يمحُها غبار السنين من ذاكرته. قطعت هي هذا السكون قائلة:

— وأنتَ.. ما زلتَ تحب الهدوء والصمت يا تاراس.

في تلك اللحظة، لمعت عيناه ببريقٍ خاص؛ فمجرد إدراكها لما يفضله، واحتفاظ ذاكرتها بتلك التفاصيل الصغيرة عنه.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

"وعند إيفان وديم"

اتجه إيفان إلى المكان الذي يجلس فيه "ديم"، فوجده غارقًا في صفحات كتابٍ يقرؤه بتركيزٍ شديد. رمق إيفان غلاف الكتاب بتعجب، وسأل بنبرة استنكارية:

— هذه رواية مصرية، أليس كذلك؟

أجابه ديم باقتضاب دون أن يرفع عينه عن الأسطر:

— أجل.

اتسعت عينا إيفان دهشةً، وابتسم بذهول وهو يسأله:

— ومنذ متى وأنت تحب الروايات المصرية؟ بل توقف لحظة.. منذ متى وأنت تحب الروايات من الأساس!

أجاب ديم بنبرةٍ هادئة، وهو ما زال يطالع الأسطر باهتمام، كأنه يكتشف عالمًا جديدًا:

ـــ ليلا تحب هذه الرواية كثيرًا، وجدي قال إنَّ من يُحب، يجب عليه الاهتمام بأدق تفاصيل من يحب.

ساد صمتٌ قصير بعد كلماته، فقد كانت صراحته صادمة ومباغتة؛ فديم الذي لم يكن يلقي بالًا للكتب، أصبح الآن يتتبع الكلمات والسطور فقط لأنها تلامس قلب معشوقته.

ضحك إيفان وهو يلقي بجسده بجانبه، وقال بنبرةٍ متهكمة:

ـــ الحبُّ مشقة!

لم يكد ينهي جملته حتى ضربه ديم بخفة، ليعاقبه عن إفساد تلك الحالة الوجدانية التي يعيشها، ثم همس بيقينٍ يفيض بالسكينة:

ـــ الحبُّ حياة.. وما أجمل الحياة مع من تُحب!

كانت نبرة ديم تحمل عمقًا لم يعهده إيفان فيه من قبل.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

"في قصر عائلة كورولينكو"

شرفته المطلة على أفقٍ واسع. وضع أمامه كوبًا من القهوة الساخنة، التي كان دخانها يتصاعد في حلقاتٍ انسيابية، ليغمر الهواء برائحةٍ غنية ومنعشة تبعث على التركيز والهدوء في آنٍ واحد.

كان المشهد يجسد لحظة اعتزالٍ مؤقتة، حيث يتداخل دفء القهوة مع برودة الأفكار التي تجول في خاطره.

بينما كان يراقب تصاعد الأبخرة، لاحت على ذاكرته مواقف ومشاهد محفورة في الوجدان، صورٌ لا تمحيها الأيام ولا يطويها النسيان.

فلاش باك...

مرَّ على زواجه بمعشوقته أكثر من ثلاثة عشر عامًا، كانت سنواتٍ يغلفها الحب والسكينة. ولكن، تلك السعادة لم تكن تصفو له دائمًا؛ فقد كان يشوبها بعض القلق والمشاكل التي بدأت تتسلل إلى حياتهما، خاصةً بعد إصرار عثمان الطنطاوي على المكوث معهم في القصر.

كان وجود عثمان في القصر بمثابة فرض سلطةٍ غير معلنة، مما خلق توترًا صامتًا في الأرجاء، وفي خضم هذا التوتر، جاء الخبر الذي لم يتوقعه؛ لقد علم أنَّها تحمل في أحشائها قطعةً منه، وذلك بعد رفضٍ قاطعٍ منها لفكرة الإنجاب استمر لاثني عشر عامًا منذ ولادة طفلتهما الأولى.

كان فيكتور يشعر بسعادة عارمة لا تسعها الجدران، ولم تكن هي أقل منه بهجة؛ فقد انتصرت عاطفة الأمومة بداخلها أخيرًا، وغلب حنينها لضم طفل جديد كل مشاعر الرفض التي تمسكت بها لسنوات.

مرت شهور الحمل في أجواء متباينة؛ فبينما كان فيكتور يغمر زوجته باهتمامٍ فائق، كانت داليا تقفز فرحًا بانتظار شقيقةٍ تقاسمها الحكايات. و آسر، ذلك الطفل الذي سُحقت براءته على يد هذه العائلة.

استقبل آسر خبر القادم الجديد ببرودٍ تام.

كان آسر دائمًا ما يتجنب التجمعات، ينسحب إلى عالمه الخاص ليحمي ما تبقى من روحه. وحتى عندما أصبح في عامه الثاني عشر من عمره، كانت نظراته تسبق سنه بعقود؛ نظراتٌ حادة، مثقلة بالخيبات، وخالية من أي لمعة للشباب، كأنها مرآة لروحٍ هرمت قبل أوانها.

بذل فيكتور قصارى جهده لانتشال آسر من تلك العزلة القاتلة، محاولًا مرارًا وتكرارًا كسر حاجز الصمت الذي يحيط به. وفي إحدى المرات، وتحت وطأة القلق، اقترح فيكتور بجدية أن يُعرض آسر على طبيب نفسي لمساعدته في تخطي تلك الندوب غير المرئية.

لكن ردُّ عثمان جاء قاطعًا وحاسمًا؛ فقد رفض الفكرة.

شقَّت صرخات سارة سكون القصر، معلنةً عن اللحظة التي طال انتظارها. انتفض الجميع من مرقدهم، ودبَّت الحركة في الأرجاء؛ انطلق فيكتور مع سارة مسرعين نحو المشفى، بينما بدأ بقية أفراد العائلة في تجهيز أنفسهم للحاق بهم والمشاركة في هذا الحدث الكبير.

في تلك الأثناء، دلف سيف، الصبي ذو الثلاثة عشر عامًا، وعيناه تبحثان عن شقيقه الأصغر. وجد آسر واقفًا في مكانه، يغلفه برودٌ غريب وهدوءٌ لا يتناسب مع صخب الموقف. اقترب سيف منه، وربت على كتفه بعفوية الصغار متسائلًا:

— آسر.. مش هتيجي معانا؟

جاء ردُّ آسر بنبرةٍ خاوية من أيِّ انفعال:

— لا.. مش عايز أروح في حتة.

— ليه ده؟ حتى النهاردة هتيجي البنت اللي الكل مستنيها.. يلا تعالى بقى!

هكذا حاول سيف استمالة قلب شقيقه، قبل أن تقتحم داليا الغرفة بمرحها المعتاد وفرحتها التي تملأ المكان، وهي تهتف بحماس:

— يلا يا جماعة!

لكن صخب بهجتهم انكسر فجأة حين اخترق الأجواء صوت عثمان الصارم وهو يأمر:

— آسر.. سيف.. داليا.. يلا.

بمجرد أن وقع نداء جده على مسامعه، تحرك آسر فورًا؛ لم يعترض، لم يناقش، ولم ينطق بكلمة واحدة. سار خلفهم، يتحرك فقط لأن عثمان أعطى الأمر، وليس لأن قلبه يرغب في الذهاب.

في المشفى..

كانت الأجواء مشحونة بخليط غريب من المشاعر، كان فيكتور يذرع الممرات ذهابًا وإيابًا، ينهشه القلق والخوف على معشوقته "سارة" التي تملأ صرخاتها المكان.

بينما يجلس عثمان في ترقبٍ شديد، كقائد ينتظر وصول سلاحه الجديد.

وجلال حاضرٌ بجسده فقط، ليس له لازمة كالعادة، مجرد رقم في سجل العائلة.

نظرات عماد لابنه توحي بحسابات أخرى، بينما جاسر يقف بهدوء بجانب سيف.

وسيف ينظر لداليا بحب طفولي بريء، بينما هي تكاد تقفز من فرط السعادة بقدوم شقيقتها.

وآسر.. يقف في ركنه الخاص، شارد الذهن، لا يبدي ذرة اهتمام بكل ما يحدث حوله.

والغريب أنَّ الصحافة كانت تنتشر بشكل غريب في الأرجاء.

اختلطت صرخات سارة بصرخات الطفلة الرضيعة ليعلن ذلك الصوت عن قدوم حياة جديدة قلبت موازين القصر. ابتسم فيكتور بسعادة غامرة امتزجت بدموع الفرح، واتسعت بسمته حين خرجت الطبيبة تحمل الصغيرة بهدوء، ثم ناولته إياها قائلة:

— بسم الله ما شاء الله.. زي القمر.

تأمل فيكتور ملامحها بحب، لكن الصدمة جعلت قلبه يخفق بشدة؛ فعيناها كانتا ملونتين تمامًا كعيني أمه إيفا. ضمها إلى صدره بحنان وانهمرت دموعه بغزارة.

تنقلت الطفلة بين أيدي الجميع، حتى اقترب فيكتور من آسر وأشار له بأن يحملها. تردد آسر للحظات، ونظر إليها بنظراته التائهة، لكنه في النهاية مدَّ يديه ببطء وحملها بين ذراعيه.

تأمل آسر عينيها طويلًا، وبشرتها التي كانت تشبه القطن الطري في ملمسها. تجولت عيناه في تفاصيل وجهها الصغير، وفجأة، أضاء شيء ما بداخله بسعادة غريبة لم يعهدها من قبل. قربها منه

ببطء، وطبع قبلة هادئة وخفيفة على وجنتها؛ فانزعجت الصغيرة وتحركت بين يديه وبدأت بالبكاء.

سارع فيكتور ليحملها عنه خشية أن يزداد بكاؤها، لكن آسر أشار له بيده أن يتركها للحظات أخرى بين ذراعيه. ابتسم آسر بخفة وهي ابتسامة نادرة جدًّا وقال فجأة:

— تيا.. سميها تيا.

تبادل فيكتور النظرات مع طفلته الصغيرة التي بين يدي آسر. هزَّ رأسه ببطء، وقال بهدوء وثقة:

— هي فعلًا.. تيا.

أعلنت هذه الكلمات عن اعتماد الاسم رسميًّا، ليكون أول رابط حقيقي يجمع بين آسر وهذه الصغيرة.

كانت تلك الأيام تمر ببطء، لكنها حملت معها تحولًا جذريًّا في روح آسر؛ فقد انكسر ذلك الجمود الذي فرضه عليه عثمان وحلَّت مكانه ابتسامة صادقة لا تظهر إلا في حضرة تيا. كان فيكتور يراقب بذهول كيف سحبت تلك الطفلة بضحكاتها البريئة آسر إلى جنتها الصغيرة، وكيف أصبح يضحك بعفوية غابت عنه لسنوات، بل والأهم من ذلك، كيف بدأ تمرده الصامت ضد سلطة جده يتحول إلى نظرات كره دفينة ومواقف حاسمة.

"موقف آخر"...

حين كانت تيا في الثالثة من عمرها، وكان آسر مراهقًا في الخامسة عشرة يكافح مع امتحانات الشهادة الإعدادية.

كان القصر يعجُّ بالدراسة؛ سيف ودواليا في أولى ثانوي، وجاسر في أولى إعدادي. اجتمعوا جميعًا في الحديقة تحت رعاية الدادة، بينما كانت تيا تغط في نوم عميق على الأريكة بجانبهم. وبينما كان الضيق يتسرب إلى جاسر وسيف ودواليا من ضغط المذاكرة، كان آسر كعادته غارقًا في صفحات كتابه بتركيز قوي، رافضًا الانشغال بأي حديث جانبي.

فجأة، انشق سكون الليل بصرخة مريرة من تيا. انتفض الجميع، وكان فيكتور يراقب من شرفته، وقبل أن تتحرك الدادة، كان آسر قد سبق الجميع. حملها بلطف هزَّ كيان فيكتور، وبنبرة لم يعهدها أحد منه، سألها:

— بس.. في إيه؟

نظرت إليه تيا بأعينها الملونة الباكية، وقالت بكلمات متقطعة:

— وحش.. هياخد تيا!

همس لها وهو يضمها:

— مافيش وحش هياخد تيا ولا حاجة.. اهدي خالص، تيا مع آسر أهو، حتى شوفي داليا وسيف وجاسر.

تمسكت به تيا بشدة، ثم غفت على كتفه مرة أخرى. وحين حاولت الدادة أخذها ليرتاح، ابتعد آسر بها هامسًا:

— سيبيها.. هي أصلًا مخضوضة.

عاد آسر لمذاكرته وهو يحملها بيده الأخرى، بتركيز عجيب يجمع بين الدراسة والحنان. لم يمنعه بكاؤها من الإنجاز، ولم تمنعه المذاكرة من احتضانها. وحين حاول سيف مداعبته قائلًا:

ـــ يا ريت تعاملنا بحنية زي ما بتعامل الأستاذة.

ردَّ آسر بسخرية وهو لا يرفع عينه عن كتابه:

ـــ ده لو أنتم هي!

باك...

أغمض فيكتور عينيه في شرفته، وهو يتذكر كيف كانت تلك اللحظات هي بذور الصراع الحالي. آسر لم يعد آلة عثمان الطنطاوي، لقد أصبح "وطن" تيا، وهذا هو بالضبط ما كان عثمان يخشاه.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في المساء، داخل فيلا آسر وتيا الهادئة في مصر، كانت تيا تقف أمام طفليها وتحاول إقناعهم بشرب الأكواب التي أمامهم وهي تقول بضيق واضح:

ـــ اشربوا العصير حالًا يالا، مش ده العصير اللي بتحبوه؟

ردَّت كايلا بضيق طفولي وهي تشيح بوجهها:

ـــ يا مامي مش عايزين.

ليدعمها أدهم سريعًا بقوله:

ـــ أيوة مش عايزين سيبينا بقى.

كـادت تيـا أن تنفجـر فيهمـا لـولا تـدخل آسـر الـذي كـان يراقـب الموقف بتعجب وقال:

___ في إيه يا تيا؟ سيبيهم براحتهم يا ماما.

التفتت إليه تيا بغيظ وقالت:

___ آسر لو سمحت متتكلمش عشان أنت اللي مدلعهم أصلًا.

جلس آسر بجانبها على الأريكة وقال بتأفف ومرح:

___ أيوة يالا قولي نفس الأسطوانة، أنت اللي مدلعهم، وبعدين إيه دخل الدلع بعصير؟

زفرت تيا بضيق وهي تضع الكوب على الطاولة وقالت:

___ أنا مش هعمل عصير تاني يا آسر، أنا مفيش فيا حيل والله.

هنا حدَّق آسر إلى الكأس التي كانت تمسكها، وفجأة اتسعت عينـاه بصدمة واستيعاب وقال:

___ تيا!!!! مش ده كيس الفراولة اللي لقيته في الفريزر وأنـا بطلع العيش انهاردة؟ لحظة بس، أنا قولتلك إنه تقريبًا قرب يبوظ و...

لم يكمل جملته لأن تيا قفزت من مكانها ووضعت يدها علـى فمـه بسرعة وهي تهمس له بحدة:

___ بس اسكت! أنت بتقول إيه؟ وبعدين ما أنـا بشـربوا أهو وزي الفل.

ثم التفتت لأطفالها وقالت بصوت عالٍ مصطنع وهي تحاول إنقاذ الموقف:

___ بابا بيهزر، مش كدة يا بابي؟

ونظرت له نظرة تحذيرية، لكن آسر هزَّ رأسه برفض وقال:

___ لا مش هكدب أنا.

ضربت تيا على وجهها بقلة حيلة، بينما بدأ أدهم يمثل دور الضحية ببراعة وقال:

___ بقى كدة يا ماما؟ عايزة تشربينا عصير بايظ؟ ليه كدة ها ليه؟

نظرت له تيا باشمئزاز وقالت:

___ تمثيلك يقرف، وأقولك على حاجة، أنت وأبوك اشبعوا ببعض، أنا قايمة عنكم ما شربتوا.

انفجر آسر ضاحكًا من قلبه وجذبها من يدها لتجلس مكانها مرة أخرى وقال وسط ضحكاته:

___ حاسس إنك بقيتي زي الأمهات المصرية سِنَّة بس ومعنديش دليل.

ضحكت كايلا وأشارت على كوب العصير وقالت:

___ ده أقوى دليل يا بابي أساسًا.

ضم آسر ابنته إليه وكذلك ابنه، وابتسمت تيا بحب لم تستطع إخفاءه طويلًا، لكنها حاولت استعادة وقارها حين نظروا إليها فقالت:

___ مالك..

وقبل أن تكمل قاطعها آسر وهو يضمها إليهم بقوة لتصبح وسط حضنهم جميعًا، فنظرت لأطفالها وقالت بمشاكسة:

___ كان الحضن ده ليا لوحدي قبلكم يا شوية جزم.

ردَّت كايلا وهي تقبّل والدها بحب:

___ وحضننا كلنا على فكرة.

ولكن قبل أن تتفوه بحرف انتفضت من مرقدها، وتلاشت ضحكتها فجأة وحلَّ محلها وجومٌ حذر، التفتت نحو آسر بعينين تترقبان المجهول وهمست بنبرةٍ يملأها الارتياب:

___ حسيت إن في حاجة اتحركت.. ولا أنا اللي بيتهيألي؟

رمقها آسر بنظرةٍ مغلفة بالسكينة، متصنِّعًا ثباتًا لا يتزعزع ليحتوي رعبها الكامن، ثم أجابها بصوتٍ هادئٍ رصين:

___ تلاقيه الهوا يا تيا..متاخديش في بالك.

حاول آسر أن يبدد غيوم القلق التي تلبدت في الأجواء، فارتسمت على شفتيه ابتسامة مراوغة، وقال بنبرة تملؤها المداعبة:

___ أنا شامم ريحة أكل.. بس مش عارف إيه هي بالظبط؟

انفرجت أسارير تيا وغلبت فرحتها هواجسها، فابتسمت باتساع وقالت بحماس:

___ بص.. هي حاجة أنا وأنت بنموت فيها.

ثم التفتت إلى أطفالها بلمحة من المشاكسة وأردفت:

___ وأنتم مش بتحبوها.

ساد صمتٌ قصير شابه التعجب على وجوه الصغار، بينما لمعت عينا آسر بذكاء وصاح فجأة بصوتٍ ضاحك:

___ شوربة عدس!

انفجر آسر في الضحك حين أومأت تيا برأسها مؤكدةً، ارتسم الضيق على وجه أدهم الصغير، وزمَّ شفتيه باعتراض طفولي وهو يوجه حديثه لوالده:

___ طب إحنا ناكل إيه طيب؟

لم ينتظر آسر كثيرًا، بل انحنى وحمله بخفة ومرح، واتجه به نحو المطبخ وهو يقول بنبرة ضاحكة:

___ تعالى بس.. ده أمك بتعمل شوية شوربة عدس تحفة، وغصب عنك هتاكل.

تعالت ضحكات تيا وهي تتبعهم، محاولةً تناسي ذلك الشعور الغريب الذي داهمها منذ قليل، بينما كان آسر في أعماقه يصارع شعورين متناقضين؛ لذة الاستمتاع بدفء عائلته، واليقظة التامة لعدوٍ قد يفسد هذا الصفو في أي لحظة.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

فجأة، تجمَّد الزمان وتلاشت ملامح الدفء حين اقتحم هذا الصوت أرجاء المكان، التفتت ريم لتجد نفسها وجهًا لوجه أمام تلك المرأة التي كانت يومًا سببًا في ندوب روحها.

___ ريم! أنتِ هنا؟ مش تقولي وحشتيني يا قلب ماما؟

قالتها هند بنبرة تفيض بحب وحنان مصطنع، بينما كانت عيناها تلمعان بخبثٍ لا تخطئه العين. شعرت ريم ببرودة تسري في أطرافها، لكنها استجمعت شتات نفسها ووقفت بجانب جاسر بقوة، وتمسكت بيده، ونظرت لعينيه بخوفٍ دفين تتوسل إليه ألا يتركها أمام هذه السيدة.

شعر جاسر بارتجاف كفها الصغير بين يديه، ورغم جهله التام بالسبب الذي قد يلقي بكل هذا الرعب في قلبها من مجرد كلمات بدت أموية، إلا أنَّ غريزة الاحتواء لديه كانت أسرع من أيِّ تساؤل.

ضغط على كفها بلطفٍ شديد ونظر إلى هند بنظرةٍ هادئة لكنها ثاقبة، بينما ظل متمسكًا بيد ريم بقوة وقال ببرودٍ متعمَّد:

— خير يا هند هانم؟

رفعت عينيها إليه بتوترٍ لم تستطع إخفاءه، وتلعثمت وهي تجيب:

— لا... عادي، بس بسأل على بنتي اللي مش بتسأل.

في تلك اللحظة، استجمعت ريم شجاعتها أخيرًا، وخرج صوتها ثابتًا على غير عادته:

— مش فاضية والله... يلا يا جاسر.

أمسكت بذراعه برفق، محاولة أن تجذبه بعيدًا، لكن هند اعترضت طريقها بسرعة:

— لا إزاي؟! لازم تيجوا عندنا وتشربوا حاجة... ولا إيه يا جاسر بيه؟

التفت جاسر إلى ريم، سألها بعينيه قبل لسانه، فوجد فيهما رفضًا قاطعًا لا يقبل النقاش. اعتدل في وقفته وقال برسمية باردة:

ـــ متأسفين، مش هنعرف. عندنا مشاوير تانية.

أنهى كلماته بابتسامة صفراء لم تصل إلى عينيه، ثم استدار وتركها واقفة في مكانها، يغلي صدرها بغلٍ مكتوم.

اتجه هو وريم إلى السيارة، وانطلقا نحو وجهتهما، تاركين خلفهما صمتًا مثقلًا بالحقد.

ـــ إحنا رايحين فين؟

قالتها ريم بتعجب، وعيناها معلَّقتان بالطريق الممتد أمامهما، فابتسم جاسر ابتسامة هادئة، وفي صوته دفءٌ خفيٌّ:

ـــ البحر.

اتسعت عيناها بصدمة خفيفة، والتفتت إليه سريعًا:

ـــ البحر؟! هو في حد طبيعي يروح البحر في الوقت الليل ده؟

ارتسم المرح على ملامحه، ولمعت عيناه وهو يقول بنبرة مازحة:

ـــ إنتِ قولتيها بلسانك... لو حد طبيعي.

ثم أضاف ضاحكًا وهو يهزُّ كتفيه بخفة:

ـــ أنا بقى بعيد تمامًا عن الطبيعة أصلًا.

وبعد مدة، كانت تقف أمام البحر، تحدِّق إلى الأمواج وهي تتلاحق أمامها، قالت بصوتٍ هادئ، ممتزج بنسمة البحر:

— تعرف يا جاسر... أنا بعشق ريحة البحر.

وقف إلى جوارها، وعقد حاجبيه بتعجبٍ صادق:

— هو البحر له ريحة؟

ابتسمت بخفة، ومالت برأسها قليلًا قائلة:

— طبعًا، بس اللي بيعشق البحر هو اللي هيعرف أنا قصدي إيه.

تسللت ابتسامة مشاغبة إلى شفتيها، فاقترب بنظره منها، وغاص في عينيها وهو يقول بصوتٍ دافئ:

— بس أنا بعشق عيونك أكتر من البحر... لدرجة إني بقيت بعرف أقرأها.

ضحكت بلطف، تلك الضحكة التي خرجت صافية كنسمة البحر، ثم مالت برأسها واستندت على كتفه في هدوء.

قالت بنبرة مازحة، تخفي خلفها دفئًا واضحًا:

— بقيت بكَّاش على فكرة.

ابتسم وهو يثبت كتفه أكتر وقال بهدوءٍ عميق، وهو ينظر أمامه:

— عارف إن في حاجات لسه ما قولتيش عليها بخصوص أهلك، بس لازم تعرفي إني موجود دايمًا... وسامعك.

ثم التفت إليها بنظرة صادقة وأكمل:

— أول ما تحسي إنك عايزة تتكلمي، تعالي ليَّا.

تسللت الطمأنينة إلى قلبها قبل أن ترد.

صمتت لوقت، ثم لمعت عيناها بدموع القهر، كأن كل كلمة خرجت من قلبها المجروح:

— كان في زمان طفلة صغيرة اتولدت... كانت لسه طالعة عشان تشوف الدنيا، بس مكنتش تعرف إن الدنيا وحشة أوي كده. كبرت ولقت نفسها في عيلة كبيرة، غنية ومعروفة...

كل حاجة متوفرة، فلوس موجودة زي الرز، لبس شيك، مظاهر غالية.

بس كل ده فاضي.

ناس فارغة، مفيش أي حاجة حقيقية، كل حاجة كدب في كدب.

صمتت لثوانٍ ودموعها انهمرت وأردفت:

— أم مش مهتمة لدرجة إن بنتها وابنها مش بيشوفوها... وأب كل همه المظهر والصفقات، ويارِيتهم عشان عيالهم لأ، عشان نفسهم وبريستيجهم. حياتنا مكنش فيها حاكم مكنش فيها حد يقول ده صح أو غلط.

لحد ما بنتهم اتلمت على شلة سوء فضلت معاهم لحد ما بقت مدمنة، كانت بتهرب من البيت للمخدرات، كانت فاكرة إنه ملجأ لكن....

صمتت ريم للحظة، ثم انفجرت في بكاء هستيري هزَّ كيانها، فلم يجد جاسر بدًا من أن يضمها إلى صدره بقوة، محاولًا ترميم حطامها وهو يهمس في أذنها:

___ خلاص يا ريم.. كفاية لو مش قادرة.

رفعت رأسها والدموع تحفر مجاريها على وجنتيها، وقالت بنبرة محترقة:

___ لا، لازم أكمل عشان تبقى عارف أنت اتجوزت مين.. كنت فاكرة إني ماشية صح ومبسوطة، لحد ما صاحبتي ماتت بجرعة زيادة قدام عيني.. شفتهم وهما بياخدوها ويرموها في صندوق الزبالة، متخيل إن دي كانت نهايتها؟

شهقت بقوة وأكملت بصوت يرتجف:

___ لما اتمسكنا ورحنا القسم، بابا وماما مكنش فارق معاهم روحي اللي بتتسحب، كان فارق معاهم مظهرهم قدام الناس.. طلعوني بنفوذهم وفضلوا يضربوا فيا لحد ما كنت بقطع النفس، كنت بصرخ من الوجع وهما ولا هنا.. رموني في مصحة، وهناك شفت الويل، لا أكل زي الناس ولا شرب، والي يفتح بقه أو يتمرد يترمي في أوضة ضلمة.. الأوضة دي كنت دايمًا فيها، كنت بحس إن الحيطان بتاكل فيا.

حبست أنفاسها وهي تداري غصة ذل قديمة:

___ قعدت سنتين هناك، والوجع مكنش في العلاج، الوجع إنهم حبسوني عشان قالوا للناس إني بدرس في ألمانيا، وكان لازم أقضي المدة عشان التمثيلية تكتمل.. ولما طلعت، محدش فيهم فكر حتى يلمس إيدي أو يحضني، رائف أخويا هو الوحيد اللي سندني، وبعدها قرروا يخلصوا من ذنبي وجوزوني ليك.

بعد أن فتحت صندوقها الأسود أمامه، وألقت بكل أسرارها المحترقة دفعة واحدة، دفنت وجهها بين كفيها وانخرطت في بكاءٍ قهر غسل مرارة السنين، لم ينطق جاسر بكلمة، بل جذبها نحوه بهدوءٍ، تركها تخرج كل ما في قلبها حتى هدأت أنفاسها تمامًا.

رفعت نظرها إليه بعينين ذابلتين من أثر البكاء، ففوجئت به يبتسم لها بحنانٍ لم تعهده من قبل، وهمس بصوتٍ دافئ اخترق حصون يأسها:

___ كل حاجة هتبقى كويسة.. أنا موجود يا ريم، ومش همشي.

كانت تلك الكلمات القليلة بمثابة ترياقٍ سحري، رممت روحها المنكسرة وأعادت إليها الحياة، كأن كل الوجع الذي عاشته كان مجرد تمهيد لتصل إلى هذا الأمان في رحابه.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

انزوت ميسون في ركن غرفتها، والظلام يلف المكان إلا من صدى كلمات رهف الذي كان يتردد في رأسها كالمطارق. لم تكن الصدمة في المعرفة، بل في المواجهة؛ فالحقيقة التي ظنت ميسون أنَّها دفنتها مع جثة زوجها، نُبشت الآن بدم بارد.

كانت ميسون تسترجع المشهد في مخيلتها، معترفةً أمام نفسها بكل لحظة.. نعم، هي من فعلتها، هي من أزهقت روحه، والعجيب أنَّها لا تجد في جوفها ذرة ندم واحدة، ولا حتى وخزة تأنيب، بل كان يسكنها برودٌ مرعب يضاهي برود القبر.

قالت ميسون لنفسها وهي تحدِّق إلى الفراغ بنظرات جامدة:

___ أيوة قتلته.. ومش ندمانة، كان لازم ينتهي عشان أنا أعيش.

لكن نظرات رهف وكلماتها كانت النذير الذي أخبرها أنَّ سرها لم يعد ملكًا لها وحدها، وأنَّ القادم قد يكون أقسى من الجريمة نفسها.

رغم البرود الذي ادَّعته، إلا أنَّ طيفه اقتحم خلوتها فجأة؛ عادت بها الذاكرة إلى تلك الليلة المشؤومة، ليلة النهاية.

استحضرت ميسون نظراته التي كانت تلاحقها بذهول، تذكرت بريق الدموع الذي لمع في عينيه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكيف كانت يده تمتد نحوها لا لينتقم، بل ليتشبث بآخر خيط يربطه بها.

تردد صدى صوته الواهن في أركان الغرفة وهو يهمس لها باعترافه الأخير، ذلك العشق الذي لم يقتله الغدر:

___ أنا مسامحك يا ميسون.. مسامحك عشان بحبك.

تلك الكلمات كانت أشد قسوة من طعنات الندم؛ فكيف لم يلعنها؟ وكيف منحها الغفران وهو يرى الموت في عينيها؟ صراعه مع الموت لم يكن ليحيى، بل ليوصل لها رسالة حب أخيرة، رسالة تجعل من قتلها له ذنبًا لا يمحوه زمن.

ترقرقت عينيها بدموعٍ أبت أن تسقط، فمسحتها بعنفٍ، وقفت أمام المرآة، ترمق انعكاس صورتها بنظراتٍ حادة كالسكاكين الحادة، وصاحت بنبرةٍ يملأها الجبروت:

___ أنا ميسون هانم.. مش البت اللي كانت بتعيط من أقل حاجة.

شددت قامتها، محاولةً طمس صورة ذلك الرجل الذي سامحها، وصورة الفتاة الضعيفة التي كانتها يومًا. لقد اختارت ميسون أن

تدفن قلبها مع جثته، لتولد من جديد امرأة لا تكسرها الذكريات ولا تهزمها الدموع.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كانت لينا تتمايل في أرجاء الغرفة، ممسكةً بين أناملها بوردة يانعة تستنشق عبيرها بسعادة، بينما كانت تدندن بكلمات أغنية رومانسية بنبرة هادئة وبطيئة تفيض بالعشق.

قطعت ليلا هذا المشهد الحالم بنظرة شابتها الحيرة، وقالت بتعجب:

___ ما بكِ؟ أشعر أنكِ في قصة حب ولكن ليس لدي دليل.

لم تعر لينا كلمات ليلا أي اهتمام، وظلت غارقة في عالمها الخاص، تتأمل الوردة بذهول. استسلمت ليلا لإعراض لينا، وقالت وهي تضغط على زر الاتصال بعبث:

___ حسنًا، ستقول لي تيا ما بكِ.

لم تمر سوى لحظات حتى جاءها صوت تيا المفعم بالحيوية:

___ ليلو.. وحشتيني موووت!

اتسعت ابتسامة ليلا تلقائيًّا، وغمرتها موجة من الاشتياق الجارف بمجرد سماع نبرة صوت تيا، لدرجة أنَّها نسيت وجود لينا بجانبها تمامًا.

___ وأنتِ أيضًا عزيزتي، كيف حالكِ؟

ابتسمت تيا بمرح وقالت:

___ زي الفل، بس اتكلمي مصري.. ده أنا علمتك مصري بالعافية عشان الحوار ده!

ضحكت ليلا وقالت:

___ طيب يا ستي، دلوقتي معاكي النسخة المصرية.. صحيح، متعرفيش لينا مالها؟

تعجبت تيا وقالت:

___ مالها؟

وجهت ليلا الكاميرا فجأة نحو شقيقتها وقالت:

___ شوفي بنفسك.

تعالت ضحكات تيا ما إن رأت حالة الهيام التي تعيشها لينا، وقالت:

___ أكيد قابلت تاراس!

ارتسم الذهول على ملامح ليلا وقالت بصدمة:

___ هي لينا بتحب تاراس؟ اللي هو ابن خالنا ده؟

ردَّت تيا بتأكيد وهي ما زالت تضحك:

___ اممم.. هو بشحمه ولحمه!

نظرت ليلا لشقيقتها بغضب مصطنع وهي تلوح بيدها:

___ الجزمة.. أنا وهي في نفس الأوضة ومعرفتش!

ثم صمتت لثوانٍ، وصرخت فجأة بحماس:

___ تيا صحيح.. في حاجة أهم مني أنا شخصيًّا!

ضحكت تيا بهدوء ورفعت كوب الكاكاو إلى شفتيها لترتشف منه، وقالت بفضول:

___ إيه هو؟

استدارت ليلا بسرعة وأمسكت بكتاب كان بجانبها، وضمته إلى صدرها وهمست بسعادة عارمة:

___ عرفت أجيب كتاب حتى لا أصاب بالجنون لمريم الحيسي.. الجزء الثاني نزل!

اتسعت عينا تيا بصدمة حقيقية وكادت أن تسكب الكاكاو:

___ نعم؟! هو نزل عندكم ومنزلش عندنا؟ إيه الصدمة دي! لاا بتهزري.. طب أعمل إيه؟ لازم أجيبه.. قرأتيه؟

ردَّت ليلا بتباهٍ:

___ لا، ديم هو اللي جابه مخصوص ليا شحن من دولة تانية، وشخصية ويليام لسه زي ما هي.. باااارد! بس في صدمة استنتجتها عمومًا اقرئيه وشوفي.. تيا، هو في حد جنبك؟

انفجرت تيا ضاحكة حتى دمعت عيناها وقالت:

___ القطيع كلهم جنبي!

ابتسمت ليلا وقالت:

___ سلميلي عليهم.

___ عيوني.

صباح يومٍ جديد في أروقة شركة "طنطاوي". كان آسر يجلس في مكتبه الخاص، عالمٌ معزولٌ عن صخب الممرات بالخارج، يتحدث مع تيا بنبرةٍ هادئة ودافئة، بينما كانت هناك ضحكة خافتة على شفتيه، وعيناه تبرق بصدقٍ لا يظهر إلا في حضرة صوتها. لكن، وفي لحظةٍ خاطفة، سكنت حركته تمامًا. انقبضت أساريره وهو يلمح ظلًّا يقطع الضوء المنساب من أسفل الباب، خيالًا ساكنًا يشي بوجود متلصصٍ يترقب في صمت.

أغلق الهاتف بهدوء، ونهض ببطءٍ يحمل هيبةً فطرية. خطا نحو الباب بخطواتٍ موزونة لا تكاد تُسمع، كأنما يطوي الأرض تحت قدميه. وحين صار بمحاذاته، مد يده وبحركةٍ مباغتة اندفع البابُ فجأةً وبعنف، لكنَّ آسر لم يجد أثرًا لأي دليل يثبت وجود شخص كان يقف هنا منذ لحظات بسيطة. كانت عيناه تدوران في الممر بشكٍّ حاول أن يخفيه لكنه لم يستطع، أغلق الباب مرة أخرى واستدار ليعود إلى مكتبه، ولكن فُتح البابُ فجأة مرة أخرى!

انتفض آسر ونظر خلفه سريعًا، لِيجد ابن عمه المشاكس جاسر يقتحم المكان ببروده المعتاد. صرخ آسر به بغضبٍ مكتوم:

___ أنت مش بتخبط ليه؟

ردَّ جاسر بلا مبالاة وهو يتخطاه للداخل:

___ عادي يا عم أنا حر، مكتب أخويا، المهم كنت عايزك في حوار كدة.

اتجه آسر نحو ماكينة القهوة، وقال بنبرةٍ جادة وهو يراقب ردَّ فعل جاسر:

___ قبل ما تقول أي حاجة، هو أنت كنت واقف من شوية عند الباب؟

توقف جاسر لثوانٍ يستوعب وقع الكلمات، ثم قال بصدمة مضحكة:

___ أنت تقصد إني بتصنت عليك؟ مكنش العشم يا آسر!

___ اخلص من غير دراما.

ضحك جاسر بخفة وهزَّ رأسه نافيًا:

___ لا أنا لسه جاي حالًا أصلًا.

صمت آسر وهو يثبت بصره على فوهة ماكينة القهوة، يراقب قطراتها السوداء وهي تسقط ببطءٍ رتيب في قعر الكوب. كان سواد القهوة يعكس قتامة الأفكار التي بدأت تغزو عقله؛ مَن الذي يجرؤ على ملاحقة خطاه؟ ومَن الذي يملك الجرأة ليتنصت على أسراره خلف الأبواب؟ كان يشعر يقينًا أنَّ وقع تلك الخطوات التي سمعها، هي ذاتها الصدى الذي طارد هدوءه بالأمس، لغزٌ يتحرك في الظل ولا يترك خلفه إلا رائحة الشك.

فجأة، فُتح الباب مرة أخرى ودخل المشاكس الثاني "سيف" وهو يهتف بمرحه المعتاد:

___ مسا مسا.

ضحك جاسر وردَّ بحب لشقيقه الروحي:

___ مسا مسا!

نظر سيف بتعجب لآسر الذي بدا غارقًا في هذا الشرود المريب، فسأله باستغراب:

___ مالك يا آسر سرحان في إيه كدة؟

نظر له آسر بتساؤلٍ مباشر وعينين ثاقبتين:

___ هو أنت جيت مكتبي من شوية؟

نظر له سيف بعدم فهم ورد بتلقائية:

___ لا أنا كنت مع داليا بنراجع الملفات اللي عثمان بيه قال عليها، بس ليه؟

أشاح آسر بنظره وهو يقبض على كوب قهوته ببرود، وقال محاولًا وأد شكوكه مؤقتًا:

___ لا.. ولا حاجة.

صرخ جاسر بغضبٍ بات طفوليًّا وهو يلوح بيده في الهواء، كأن صبره قد نفد تمامًا:

___ لا اسمعوني كدة، عشان والله لو تجاهلتوا كلامي هسيبكم وأمشي!

ضحك سيف وهو يحاول تهدئة الأجواء قليلًا وقال بمرح:

___ قول يا جاسر.. سامعينك يا سيدي.

اعتدل جاسر في وقفته، وبدت الجدية فجأة على ملامحه وهو ينطق بالاسم:

___ عامر المالك.

توقف آسر عن رشف قهوته، واستدار له ببطء، وعيناه تحملان نظرة فاحصة:

___ مش ده حماك برده؟

أومأ جاسر برأسه، والشرر يتطاير من عينيه:

___ أيوه هو.. الراجل ده مضايقني أوي وعايز أوقعه بأي طريقة.

تعجب سيف من نبرة الكره الواضحة في صوت جاسر وسأله:

___ ليه؟ عمل لك إيه لكل ده؟

نظر له جاسر لثوانٍ، ساد فيها صمتٌ ثقيل، كأنه يصارع رغبةً في البوح بوجعٍ يخص ريم وحدها، ثم قال باقتضاب:

___ حاجة تخصني.. بس المهم، معايا ولا لأ؟

كاد سيف أن ينطق بكلمات التأييد ويعلن انضمامه لصف جاسر، ولكن قاطعه آسر بصوته الرزين الذي يحمل هيبة الحكمة:

___ طب ما تسيب الكلام ده لربنا المنتقم الجبار.. ليه تدخل في حاجات وتجيب لنفسك وجع الدماغ؟ وده راجل بيحب الرغي والقيل والقال، فمن رأيي بلاش أحسن.

ساد الصمتُ أرجاء المكتب، وظلَّ جاسر يفكر في كلمات آسر بمنطقيةٍ غريبة عليه؛ فقد كانت نبرة آسر ليست مجرد نصيحة، بل كانت تحذيرًا مبطنًا من الدخول في نفقٍ مظلم قد لا يخرجون

منه بسهولة، خاصةً مع رجلٍ مثل عامر المالك الذي لا يترك شاردة ولا واردة إلا وجعل منها قصةً تلوكها الألسن.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

___ تيا يعني إيه حب؟

كان هذا السؤال الذي ألقته لمار على تيا، فارتسمت على وجه الأخرى بسمةٌ دافئة تنمُّ عن خبرةٍ صقلتها الأيام، وقالت:

___ أمان.. الحب أمان يا لمار. إنك تحسي إنك مش شايلة هم وهو موجود، بتضحكي من دون سبب لما بتفتكريه.. الحب حلو أوي.

سكتت لمار قليلًا، ثم سألت بنبرةٍ خافتة يملأها التردد:

___ طب هو حرام؟

التفتت إليها تيا، ومنحتها نظرةً عقلانية هادئة، وقالت:

___ بصي، هو مش حرام.. بس امتى يبقى حرام؟

نظرت لمار أمامها بشرود، كأنها تراجع حسابات قلبها، وقالت بصوتٍ مرتعش:

___ لو في كلام واختلاط.. يعني أنا وماكس كلامنا غلط دلوقتي؟

تنهدت تيا بصدقٍ لم يعهده أحد، وقررت أن تكون المرآة التي ترى فيها لمار الحقيقة بلا تزييف:

___ آه.. وكلامي أنا وآسر قبل جوازنا كان غلط، أنا مش هجمل الكلام ولا هكدب عليكي.

ساد صمتٌ قصير بينهما، كأن لمار تستوعب مرارة الحقيقة، ثم عادت لتلقي سؤالًا آخر:

___ طب هل هو مرتبط بجمال الشكل؟

ردَّت تيا بيقينٍ يلمع في عينيها:

___ لا، مرتبط بجمال الروح.. الروح الحلوة هي اللي بتجذب يا لمار، والشكل مهما كان جميل، مش بيفرق، لكن الروح هي اللي بتفضل تخلِّي القلب يدق.

نظرت لمار لتيا مرة أخرى، وفي عينيها لمعت دموعٌ كادت أن تفيض، وقالت بصوتٍ مخنوق:

___ طب أنا حلوة؟

تأملت تيا ملامح صديقتها بهدوءٍ يبعث السكينة في النفس، وردت بنبرةٍ صادقة:

___ ملامحك جميلة لدرجة إن لو حد شافها هيقول سبحان الله، وخصوصًا النمش اللي عندك ده.. بس اشمعنا سألتي دلوقتي؟

خرجت من صدر لمار تنهيدةٌ مثقلة بالهموم والجروح، كأنها تزيح صخرةً عن قلبها، ثم قالت بصدقٍ مؤلم:

___ حلمت حلم وحش أوي.. كانت ماما فيه بتبصلي وبتقولي إن محدش هيحبني أبدًا!

لم تنتظر تيا لتسمع المزيد، بل اقتربت منها دون كلمة واحدة، وضمتها إليها بحنانٍ أخويٍّ دافئ، وهمست في أذنها وهي تمسح على شعرها:

___ أكيد كنتِ بتفكري فيها قبل ما تنامي، دي مجرد خيالات من عقلك الباطن يا لمار.. أنتِ جميلة أكتر مما تتخيلي. تعرفي؟ أنا بحب ملامحك أوي لأنها مصرية ناعمة، هادية، ومريحة.. والأهم من كل ده، إن بيبان عليها طيبة قلبك، ونقاء روحك.

وصل إلى مسامع تيا صوت شهقات لمار المتقطعة، فأدركت أنَّ جرحها أعمق مما تظن. شددت تيا من ضمتها بهدوء محاولةً امتصاص ألمها، ولكن فجأة، ومن دون سابق إنذار، شعرت كأنَّ الأرض تميد بها. وضعت يدها على رأسها وهي تشعر بدوارٍ عنيف سلبها توازنها، وكادت أن تسقط لولا أنَّ لمار تداركتها سريعًا وأمسكت بكفها وهي تسأل بتعجب وقلق:

___ في إيه؟ مالك يا تيا؟

استسلمت تيا لثقل جسدها وجلست بجانبها بتعبٍ ظاهر، وهي تضع يدها الأخرى على قلبها الذي بدأت دقاته تتسارع، وقالت بصوتٍ واهن:

___ مش عارفة.. دايخة أوي، الدنيا بتلف بيا.

ساد صمتٌ قصير، بينما كانت لمار تحدِّق إلى وجه تيا الشاحب بشكٍّ غريب. كانت هناك فكرةٌ تقفز في رأسها، فكرة جعلت نبضاتها تضطرب هي الأخرى، لكنها حاولت استبعادها لعدم منطقيتها في هذا التوقيت، ومع ذلك ظلَّ السؤال يلحُّ عليها: هل يمكن أن تكون تيا حاملًا؟

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في مكتبٍ يجمع بين الرقة المتناهية والفخامة الطاغية، مكتبٍ يشبه صاحبتَه في كل تفصيلة، كانت داليا تقف أمام النافذة الزجاجية الكبيرة. كانت القهوة في يدها قد بردت تمامًا، بينما كانت عيناها غارقتين في تأمل المدى البعيد.

لم تكن ترى الشوارع ولا البنايات، بل كانت ترى ملامح طفلها "ليث".. ذلك الصغير الذي ينهشها الإحساس بالذنب كلما تذكرت أنَّها تقصر في حقه، وأنَّ طموحاتها وصراعاتها سرقت منها لحظاتٍ لن تعود من طفولته.

وفجأة، تلاشت ملامح ليث من خيالها، ولاحت على ذاكرتها صورٌ مشوشة من الماضي.. صورٌ كانت تظن أنَّها دفنتها تحت ركام السنوات، لكنها الآن تعود لتطفو على السطح بقوة، محملةً بأصواتٍ ووجوهٍ جعلت يدها ترتجف فوق كوب القهوة.

فلاش باك...

كانت حينها مجرد فتاة تراقب الجميع بهدوء، لكن عينيها كانت تفضح عشقها لسيف، الذي كان يبادلها الشعور بذات القوة. وفي ذلك الوقت، بدأت ميسون تتسلل إلى عقلها كالأفعى، تزرع فيه أفكارًا مسمومة:

___ اهتمي بشغلك ودراستك وبس.. عيلتك مش هتنفعك.

___ القوة في الجبروت مش في الحنان، والحب ده تفاهة بتقلل منك.

استغلت ميسون انشغال "سارة" بمشاكلها مع "فيكتور"، وهي المشاكل التي صنعتها ميسون بنفسها حين أقنعت سارة بأنَّ زوجها يحاول السيطرة عليها وتقييد حريتها.

تدريجيًّا، انسلخت داليا عن براءتها، وأصبحت نسخة كربونية من ميسون في الشخصية والجفاء، وبينما كانت ميسون تزرع السم، كانت تراقب ضحيتها داليا وهي تتحول إلى امرأةٍ أنانية لا ترى سوى مصلحتها.

وتيا.. تلك الفتاة التي كانت بمثابة الضوء في ردهات القصر المظلمة، كانت تخطف الأنظار برقتها الفطرية، وتسرق القلوب بضحكة بريئة ترنُّ كالأجراس، ضحكة تعكس صفاء روحها التي لم تتلوث بعد بضغائن الكبار. كانت تلك الصغيرة المشاكسة تتعلق بابن عمها "آسر" تعلقًا شديدًا، تراه بطلها الوحيد وسندها الذي لا يميل. أما آسر، فكان يكرس كل ذرة من كيانه لحمايتها، يربيها في معزلٍ عن خبث ميسون وقسوة عثمان، يغرس فيها بحب أصول دينها وقواعده.

تتذكر داليا ذلك اليوم المشؤوم بكل تفاصيله المريرة، حين كانت تيا تتشبث بقميص آسر بقبضتها الصغيرة وهي تبكي بحرقة:

___ عايزة أجي معااك.

جثا آسر على ركبتيه أمامها، وبدأ يرتب خصلات شعرها المبعثرة بأصابع حانية وقلبٍ يتفطر لرؤية دموعها:

___ مش هينفع يا تيتو، ده درس مهم أوي والله، ومستقبلي هيضيع كدة.

انفجرت في بكاء هستيري، وأدارت وجهها وهي تغطي عينيها بكفيها الصغيرتين وكادت أن تركض لغرفتها، لكنه أحكم قبضته على يدها وجذبها نحوه برقة قائلًا:

___ مش هعرف أمشي وأنتِ بتعيطي.. وهسقط، يرضيكي آسر يسقط؟

توقفت للحظة، وأومأت برأسها نفيًا وهي تمسح دموعها بظهر يدها، فضمها إلى صدره بقوة وهمس في أذنها بوعوده المعتادة:

___ هجيبلك شوكولاتة كتير، وكل اللي نفسك فيه.

ردَّت بشهقات متقطعة مزَّقت سكون المكان ونبضات قلبه:

___ مش.. مش.. عايزة.. عايزة آسر بس.

استمرت في نوبة بكائها التي لا تنتهي، فهمس لها محاولًا استرضاء روحها القلقة:

___ طب آسر ساعتين بالظبط وهيجي لتيا.. وعد من آسر.

نظرت في عينيه طويلًا، كأنها تقرأ صدق وعوده، ثم أومأت بالموافقة أخيرًا. لكنها لم تكن تعلم ولا هو أنَّ قلبها الصغير كان يتنبأ بفاجعة، فغصة الفراق كانت تلوح في الأفق. قبل أن يغادر، التفت آسر لداليا بنظرة حادة وحازمة:

___ داليا.. خلي بالك منها، متسيبيهاش لحظة.

غادر آسر والهدوء يسبق العاصفة، وبعد ساعتين بالتمام، اخترق مسامع داليا صراخٌ حاد ومروع هزَّ أركان القصر. نظرت لتيا المذعورة وقالت بسرعة:

___ خليكي هنا، إياكي تتحركي.

هبطت داليا الدرج ركضًا، لتجد فيكتور وسارة في مواجهة دموية، وجوههما محتقنة بالغضب وصراخهما يملأ المكان، بينما كان عثمان يقف بعيدًا، يضع يدًا فوق الأخرى ويتابع المشهد ببرود وتشفٍّ مقزز. صرخت سارة بجنون وهي تلوح بيديها:

___ هو إيه ده؟ أنا ليا الحق أعمل اللي أنا عايزاه، ملكش إنك تتعامل معايا كدة أصلًا.. بتاع إيه؟ وبعدين أنا قولت إني عايزة أطلق، مش هعيش معاك ثانية واحدة!

ردَّ فيكتور بصوتٍ منخفض، لكنه كان كفحيح الأفعى، يخفي خلفه بركانًا أوشك على تدمير كل شيء:

___ أنتِ طالق يا سارة.. طالق.

ألقى الكلمة كأنها قذيفة حطمت صمودها، ثم صعد للأعلى بخطواتٍ ثقيلة وبدأ بجمع ملابسه وكل ما يخصه في حقائب عشوائية. وقفت سارة مكانها بصدمة، كانت تراهن على حبه الذي سيجعله يتمسك بها رغم كل شيء، فكيف نطقها بهذه القسوة؟ في تلك اللحظة، اقتربت منها ميسون بخطوات حاقدة وهمست بخبث يقطر سمًا:

___ شفتي؟ كنتِ بتحبيه وهو طلع بايع من أول كلمة.. أول ما ضغطي عليه رماكي كدة وباع العشرة.

في الأعلى، كان فيكتور قد انتهى من لم شتات كرامته، نظر لداليا الواقفة عند الباب وقال بهدوء حزين:

___ يلا.

تعجبت وهي تنظر للحقائب:

___ يلا إيه؟

___ يلا نمشي من القصر ده.

ردَّت بجفاء زرعته فيها ميسون:

___ نمشي إزاي؟ لا أنا مش همشي، أنا هفضل هنا مع جدو وماما.. مش هسيب حياتي عشانك.

وقعت كلماتها كالصاعقة على قلبه المنكسر، فسألها بذهول وهو لا يكاد يصدق:

___ طب وأنا يا داليا؟

لم تجبه، بل شاحت بنظرها عنه ببرود. حينها، وقعت عيناه على صغيرته تيا التي كانت تجلس في زاوية الغرفة تلعب بعرائسها في عالمها الخاص، فاقترب منها ليأخذها، لكن داليا صرخت محذرة:

___ آسر!

صرخ فيكتور بصوت رعدي هزَّ جدران الغرفة:

___ دي بنتي أنا، سامعة؟ ومن اليوم ده أنا معنديش غير بنت واحدة.. هي تيا!

حمل الصغيرة التي بدأت تصرخ برعب وتبكي وتنادي على آسر، وهبط بها الدرج، فاعترضت سارة طريقه بشراسة:

___ مش هتاخدها يا فيكتور.. تيا مش هتمشي معاك!

دفعها بعيدًا بيده الحرة وقال بقسوة:

___ لا هاخدها، وأنتِ خلاص مبقاش ليكي صلة بينا.

تدخلت ميسون ببرودها القاتل وهي تبتعد لإفساح الطريق:

___ خليه ياخدها.. مش عايزينها، القصر مش ناقص دوشة من الأساس كدة هتبقى ريحتنا.

نظر فيكتور لسارة، فوجدها قد استسلمت لكلمات ميسون وصمتت، فأدرك في تلك اللحظة أنَّها تخلَّت عن أمومتها مقابل كبريائها. التفت أخيرًا لعثمان، الذي كان يبتسم بانتصار شيطاني، وقال له بكلماتٍ ستبقى محفورة في ذاكرة داليا للأبد:

___ ليه؟ دمرت حياتنا ليه؟ أنت شيطان بشري يا عثمان.. وموتك هو الحاجة الوحيدة اللي هترجع كل حاجة، سامعني؟ موتك نجاة لينا كلنا.

وخرج يجر خلفه ذيول الخيبة، حاملًا الصغيرة التي لم تتوقف عن النداء: "آسر.. آسر!"، تاركًا وراءه قصرًا تحوَّل إلى مقبرة للذكريات الجميلة.

وبعد ساعات، وصل آسر أخيرًا إلى القصر، وكان التعب ينهش جسده لكن لهفته لرؤية صغيرته كانت أقوى من أيِّ إرهاق. دلف من الباب وهو ينادي بصوته الذي يحمل نبرة حنان خاصة لا تظهر إلا لها:

___ تيتو.. تيا، أنتِ فين يا بت؟

ساد صمتٌ غريب لم يعتده، فالعادة أن تهرول إليه وترتمي في أحضانه قبل أن يتجاوز الردهة. تعجب من هذا السكون، وألقى نظرة سريعة على الصالة الكبيرة، ليجد العائلة مجتمعة؛ الحزن يرتسم على ملامح الجميع، ما عدا عثمان وميسون اللذين كانا يجلسان ببرود مريب. كاد أن يتجاهل نظراتهم المريبة ويخطو أول خطوة نحو الأعلى باحثًا عنها في غرفتها، لكنه تسمَّر في مكانه على أثر كلمات عثمان الجافة:

___ مش هتلاقيها يا آسر.

استدار آسر ببطء، وقلبه بدأ يقرع طبول القلق، سأله بنبرة مرتعشة حاول لجمها:

___ يعني إيه مش هلاقيها؟ أنت عملت فيها حاجة؟

رسم عثمان على وجهه ملامح الحزن المصطنع، وبدأ يقص عليه ما حدث، مدعيًا أنَّ فيكتور أخذها عنوة ورحل. في تلك اللحظة، فلتت ضحكة سخرية مريرة من بين شفتي آسر، ضحكة وجع لم يستطع استيعابها، فكيف يتركه الجميع يأخذ روحه ويرحل في غيابه؟

ساد صمتٌ مخيف لثوانٍ، صعد خلالها آسر إلى غرفته بخطواتٍ ثقيلة، ولم تمر سوى لحظات حتى اهتزت أركان القصر بصرخةٍ مدوية شقَّت سكون المكان؛ كانت صرخته هو، صرخة قهرٍ خرجت من أعماق قلبه الجريح. لقد انتزعوا منه طفلته، حياته، وروحه التي يتنفس بها.

جاء بعد صرخته صوتُ تحطيمٍ عنيف، ضجيجُ زجاجٍ يتناثر وأثاثٍ يُهشم. هرول سيف وجاسر إلى الطابق العلوي بقلوبٍ مرتجفة، ليجدوا منظرًا يمزق النفس؛ غرفته تحولت إلى حطام، وهو لم يعد هناك، بل وجدوه جالسًا في غرفتها الصغيرة. كان يضم دميتها المفضلة إلى صدره بقوة، وينظر أمامه بشرودٍ مخيف.

قال سيف بنبرةٍ يملأها الحزن والعجز:

___ أكيد خدها وسافر أمريكا يا آسر.

خرج صوت آسر شاردًا، ثابتًا على نحوٍ يثير الرعب، كهدوء ما قبل العاصفة:

___ فيكتور مش غبي.. مش هيرجع أمريكا، بس أنا هدور عليه فين وإزاي؟

باك...

تسربت دمعةٌ وحيدة شقَّت طريقها فوق وجنتها، حاملةً معها غصة سنين من القهر؛ فقد أدركت الآن أنَّها لم تفقد شقيقتها فحسب، بل فقدت معها براءتها التي وُئدت في ذلك القصر. وضعت يدها فوق قلبها الذي أخذ يئنُّ تحت وطأة الذكريات، لكنها سرعان ما استعادت قناع الجمود ومسحت أثر دمعتها بعجالة حين فُتح البابُ فجأة لِيطل منه سيف.

حدَّق سيف إلى ملامحها بوجل، واقترب منها بخطواتٍ تملؤها الحنان، ثم سألها بصوتٍ خفيض:

___ مالك يا داليا.. في إيه؟

خرج صوتها مبحوحًا، يصارع لِيخرج من حنجرةٍ جافة أرهقها الصمت:

___ لا.. مفيش، أنا كويسة، متقلقش.

مدَّ يده برفق، وأزاح بعض الخصلات التي تمردت وسقطت فوق عينيها بانسيابية، ثم همس وهو يمعن النظر في ارتعاشة جفونها:

___ متأكدة؟

ابتسمت بجهدٍ، واضعةً ثقل همومها خلف تلك الابتسامة الشاحبة، وأومأت برأسها:

___ متأكدة.. في إيه بقى؟ كنت عايز حاجة؟

أجابها بنبرةٍ دافئة، وهو يحيطها بنظراته التي كانت دائمًا ملاذها الآمن:

___ لا يا حبيبتي.. كنت جاي أطمن عليكي بس.

ربتت على كتفه بامتنانٍ صامت، وقالت كأنها تغلق باب الماضي مؤقتًا:

___ الحمد لله.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كانت سارة تجلس في ركنها المفضل بالنادي، يحيط بها هدوءٌ أرستقراطي لم يقطعه سوى صوت تقليب صفحات مجلة الموضة التي بين يديها. كانت عيناها تتحركان بتركيز شديد فوق صور الفساتين الفخمة وقطع المجوهرات النادرة، كأنها في مهمة رسمية لاقتناء الأفضل دائمًا.

وفجأة، حجب ظلٌّ أضواء الشمس عن صفحة المجلة، فشعرت بوجود شخصٍ ما اخترق خصوصيتها وجلس في المقعد المقابل لها بكل ثقة. رفعت عينيها ببطء، لتجد أمامها "حسن المنياوي"، ذلك الرجل الذي كانت نظراته تلاحقها في كل مكان منذ سنوات ولم يمل يومًا من محاولة لفت انتباهها.

أغلقت المجلة ببرود وهدوء، وقالت بنبرة رسمية تخلو من أي ترحيب:

___ أهلًا بحضرتك.. خير؟

ابتسم حسن ابتسامة جانبية غامضة، وقال وهو يضع نظارته الشمسية على الطاولة:

___ الخير موجود يا سارة هانم.. قولت عيب أكون موجود في نفس المكان ومسلمش على أكبر سيدة أعمال في العالم.

لم تتحرك سارة، بل ظلت ملامحها جامدة وهي ترد عليه:

___ لو في حاجة مهمة تقدر تقولها لو مفيش يبقى...

قاطعها حسن فجأة بنبرة هادئة ولكنها تحمل إصرارًا غريبًا:

___ اللي عايزه طلبته من زمان يا سارة.. بس لسه مستني الرضا.

أغمضت سارة عينيها للحظة، وهي تحاول استجماع صبرها أمام محاولاته المستمرة التي لا تنتهي، ثم فتحتهما وقالت بحسم:

___ ومش هتنوله يا حسن بيه.. أنا رفضت وقولت قبل كدة إني مستكفية بحياتي، فلو سمحت بلاش ندخل في حاجات أنا مش عايزاها ولا حابة أفتح كلام فيها.

___ أنا عايز أعرف عيبي فين؟

___ مش لازم يكون فيك عيب بس أنا مش حابة أتجوز، لو سمحت كفاية محاولات.

نهضت سارة بكبرياءٍ معهود، دون أن تمنحه حتى نظرة وداع واحدة. سحبت حقيبتها ومجلتها في حركة رشيقة، وابتعدت بخطواتٍ واثقة فوق العشب الأخضر، تاركةً خلفها عطرها الفواح الذي يملأ المكان.

أما حسن المنياوي، فقد ظلَّ جالسًا في مكانه، يتابع طيفها بعينين تشتعلان غضبًا. قبض يده فوق الطاولة حتى ابيضت مفاصله، وغرق في حقده وضيقه؛ فكل ثروته ونفوذه لم يشفعا له عند هذه المرأة التي ما زالت تراه أقل من مستواها، رغم كل ما مرت به.

همس لنفسه بنبرة تحمل وعيدًا مكتومًا:

___ ماشي يا سارة.. مسيرك توافقي.

نظرت لمار بتمعن لملامح تيا الشاحبة، وقالت بنبرة يملأها القلق الحقيقي:

___ تيا، أنا قلقانة عليكي.. الدوخة دي مش طبيعية.

حاولت تيا استجماع قوتها وهي تستند بظهرها على أحد حوائط الجامعة الباردة، وأجابت بمحاولة بائسة لتريح قلب صديقتها:

___ تلاقيني بس عشان مكلتش من الصبح يا لمار، الموضوع بسيط.

هنا لمعت عينا لمار بمرح، وابتسمت باتساع وهي تهمس:

___ أو يمكن.. يمكن تكوني حامل؟

شهقت تيا بذعر، ونظرت لها بضيق حقيقي وهي تضربها بحقيبتها خبطة خفيفة:

___ في حد يقول في وش حد كدة؟ منك لله يا شيخة! وبعدين هو أنا فيا حيل أدخل عمليات تاني وأحس بوجع الولادة؟ أنا وآسر متفقين إن آخرنا طفلين، وربنا كان مقدر إني أجيبهم في بطن واحدة مرة واحدة، وكمان ولد وبنت.. يعني من النوعين، فالحمد لله أوي كدة.

انفجرت لمار في ضحك هيستيري وهي ترى ارتباك صديقتها، وقالت بإصرار:

___ طب والله العظيم حاسة إنك حامل!

ردَّت تيا بنفاذ صبر وهي تحاول السيطرة على توازنها:

___ اخرسي! ينفع تخرسي؟ دا أنا محتاسة أصلًا في تربية اللي عندي، لما أربي أدهم وكايلا الأول نبقى نشوف الموضوع ده.. فنقطينا بسكاتك الله يسترك.

هدأت لمار قليلًا وقالت وهي تلملم أغراضها:

___ طيب، أنا هروح أحضر آخر محاضرة وهبقى أجيبلك المحاضرة اللي فاتتك، روحي أنتِ عشان شكلك دايخة أوي.. بس قوليلي، هتعرفي تسوقي وأنتِ في الحالة دي؟

أومأت تيا برأسها وهي تحاول رسم ابتسامة شاحبة:

___ آه، متقلقيش.. هكون كويسة.

اتجهت تيا إلى سيارتها بخطوات متثاقلة، وما إن جلست خلف المقود حتى شعرت بثقل العالم فوق كاهلها. وضعت يدها على رأسها تضغط عليه بقوة، محاولةً تخفيف ذلك الوجع النابض والضغط غير الطبيعي الذي كاد أن يفجِّر رأسها.

تنفست بعمق، ونظرت في المرآة لتعدل حجابها وتستعد للحركة، ولكن في تلك اللحظة تجمدت كل ذرة في جسدها.

يدها التي كانت ممتدة نحو مفتاح التشغيل توقفت في الهواء بصدمة شُلت حركتها؛ رأت في المرآة خيطًا أحمر قانيًا ينزلق من أنفها ببطء شديد، ليرسم خطًّا من الرعب فوق شفتيها الشاحبتين.

تجمدت الدماء في عروقها، واحتل الشحوب وجهها بالكامل، ساد صمتٌ خانق داخل السيارة لم يقطعه سوى دقات قلبها المتسارعة.

لمست قطرات الدم بأصابع ترتجف، ونظرت إليها بذهول، لكن عقلها أبى أن يصدق الحقيقة المرة، فهست بمواساة كاذبة لنفسها:

___ ممكن.. ممكن يكون ضغطي عالي شوية من الشمس والتعب.. أيوه، أكيد ضغط.

حاولت استعادة ثباتها وهي تمسح الدم بمنديل ورقي، لكن يدها لم تتوقف عن الارتجاف، وصورة الخيط الأحمر في المرآة ظلت محفورة في ذاكرتها، كإنذار أول لعاصفة لن ترحم أحدًا.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في ردهات تلك العيادة التي استوطنها بياضٌ موحش، جلست تيا تفرك كفيها بعنفٍ كاد أن يمزّق جلدها، حتى تحول لونهما إلى أحمرٍ قانٍ يعكس اضطراب روحها. كانت رائحة الدواء النفاذة تغزو أنفاسها، تخنقها وتذكرها في كل شهيق أنَّها هنا في حضرة الألم المتربص. الناس من حولها يتحركون كأشباحٍ في ضباب، وجوهٌ بلا ملامح وأصواتٌ بلا صدى، حتى اخترق سكونها صوت موظفة الاستقبال الرتيب:

___ مدام تيا عاصم.

نهضت بجسدٍ خاوٍ، وتحركت بخطواتٍ آلية نحو الداخل، حيث البرودة تزداد والقلق يتجذر. جلست أمام الطبيبة التي لاحظت ارتعاش أناملها، فحاولت بابتسامة هادئة أن تكسر حدة الصمت:

___ بس شكلك صغيرة أوي، مش باين عليكي إنك متجوزة.. عندك أولاد بقى؟

رسمت تيا ابتسامة باهتة، واستحضرت ملامح صغارها لتستمد منها رمق الحياة الأخير:

___ آه.. ولد وبنت.

___ ربنا يباركلك فيهم يا رب.. ممكن تقومي معايا عشان الفحص؟

نهضت تيا، وشعرت أنَّ الأرض تحت قدميها تحولت إلى رمالٍ متحركة تبتلع ثباتها وتجعل خطواتها ثقيلة، تابعت الطبيبة حديثها بنبرة حاولت جعلها مرحة وهي تجري الفحص البدني:

___ أنا بقى عندي ولدين بس مطلعين عيني.

ضحكت تيا ضحكةً خافتة، غصةٌ مكتومة لم تتجاوز حدود شفتيها وهمست:

___ ربنا يحفظهم يا رب.

انتهى الفحص، وعادت الجدية لتغلف ملامح الطبيبة وهي تدوّن بعض الرموز المبهمة فوق الأوراق:

___ هتعملي بس التحليل ده والأشعة دي وتجيلي دلوقتي، قسم الأشعة والتحاليل تحت.

خرجت تيا، وبدأت رحلة الانتظار المريرة وسط ممراتٍ تفوح منها رائحة الموت المغلَّف بالتعقيم. ثلاث ساعات مرت كأنها دهرٌ كامل، تلاشت فيها حدود الزمان والمكان، حتى عادت لتجلس مرة أخرى في تلك المواجهة التي يرتجف لها الوجدان. سألت بصوتٍ يتهدج وجسدٍ يرتجف:

___ النتيجة ظهرت؟

أجابت الطبيبة بنبرة خلت من أيِّ بريق، وعيناها مصوبتان نحو الشاشة بجمود:

___ أكيد، ده فات ساعات.

تسمرت عينا الطبيبة على شاشة الكمبيوتر، وطال صمتها حتى شعرت تيا أنَّ العالم توقف عن الدوران، وأنَّ الهواء قد نَفد من الغرفة. فجأة، ارتحل الحزن إلى ملامح الطبيبة، ورفعت عينيها لتستقر في عيني تيا بنظرةٍ يملأها الأسف المر:

___ حضرتك عارفة إن كل شيء قدر ونصيب، وبإذن الله ربنا هيكون معاكي.

سكن الكون فجأة، وجفَّت الكلمات في الحناجر، قبل أن تنطق الطبيبة بالحقيقة التي هوت كالصاعقة فوق رأسها:

___ للأسف.. عندك كانسر في الدم.

نظرت لها بصدمة وغرقت الغرفة في صمتٍ موحش، لم يقطعه سوا أنفاس تيا.

كانت عيناها معلقتين بوجه الطبيبة بذهولٍ شلَّ حواسها، بينما راحت شفتاها ترتجفان بكلماتٍ واهنة:

___ ك... كانسر؟ وفي الدم كمان! أنتِ بتهزري صح؟ لا مستحيل.. مستحيل ربنا يختبرني الاختبار ده.. طيب ولادي؟ وجوزي.. جوزي اللي ملوش غيري، هيعمل إيه؟

تحاملت على جسدها. لكن فجأة، شعرت بإعصارٍ من الدوار يضرب رأسها، تلاشت الألوان من أمام عينيها لِيحلَّ محلها سوادٌ كثيف، وانهار جسدها ليرتطم بالأرض بوقعٍ هزَّ أركان المكان. فزعت الطبيبة من مكانها وهرولت نحوها وهي تصرخ بجنون:

___ تيا! تيا ردي عليا.. يا سلمى تعالي بسرعة!

اقتحمت المساعدة الغرفة بذعر، وتعاونتا على رفع جسدها الذي فقد حرارته فجأة، ووضعتها فوق المقعد. بدأت الطبيبة تنثر قطرات الماء البارد فوق وجهها الشاحب كالشمع، وهي تتمتم بكلماتٍ لم تصل لمسامع تيا الغائبة في غيابة الجب.

ثوانٍ، وبدأت تيا تستعيد وعيها ببطءٍ مرير، رمشت بعينيها المجهدتين لتجد الوجوه تطل عليها كأطيافٍ بعيدة، وقالت بصوتٍ يكاد لا يخرج:

___ إيه اللي حصل؟

أجابتها الطبيبة وهي تشد على كفها المرتجف:

___ إغماء بسيط من أثر الصدمة.. تيا، اسمعيني، لازم تجمدي، الضعف ده هو أول عدو ليكي في المعركة دي.

ضحكت تيا بسخرية مريرة، ضحكةٍ جافة هزَّت كيانها المنكسر:

___ وأجمد ليه؟ أنا شفت النهاية دي قبل كدة.. جدتي ماتت بنفس الطريقة دي، والظاهر إن القدر كان دقيق أوي وهو بيختار نصيبي؛ ورثت منها الملامح، وورثت منها المرض!

نهضت واليأس يكسو ملامحها وغادرت حتى وجدت نفسها داخل سيارتها. أغلقت النوافذ واستندت برأسها فوق المقود وهي تستحضر صورة جدتها في أيامها الأخيرة..

انفجر حصن صمودها أخيرًا، وانهمرت دموعها بغزارةٍ حرقت وجنتيها، بينما كان قلبها يصرخ بأسماءٍ هي كل عالمها: "آسر.. أدهم.. كايلا". شهقت بنحيبٍ مزَّق صمت السيارة وهي تهمس:

___ يا رب.. أنا مش خايفة من الموت، أنا خايفة على وجعهم بعدي.. خايفة على آسر اللي مبيعرفش يعمل حاجة من غيري هيعمل إيه لو عرف؟

أمسكت هاتفها بيدٍ مرتجفة، اتصلت بصديقتها "لمار" لتزيح عن كاهلها ولو جزءًا بسيطًا من همٍّ لا يُحتمل، وما هي إلا دقائق حتى أتاها الرد:

___ إيه يا تيتو؟

قالت بصوتٍ حاولت جاهدةً أن تشدَّ أوتاره كي لا ينقطع أمامها:

___ لمار.. معلش، ابقي هاتي الولاد وخليهم عندك النهاردة.. معلش.

ضحكت لمار بسعادة عارمة، لم تدرك خلفها مأساة صديقتها:

___ معلش إيه يا بت؟ دي أحلى حاجة والله، بدل ما أقعد لوحدي.. هعدي عليهم حالًا.

___ ماشي يا لمار.. سلام.

أغلقت الخط، وشعرت أنَّ العالم من حولها بدأ يضيق أكثر. قادت سيارتها كالمغيبة، حتى وصلت أخيرًا إلى القصر. دلفت إلى الداخل بجسدٍ منهك، فرأته.. كان يجلس هناك كعادته، "آسر" معشوقها وملاذها الأوحد. كان يرتدي قميصًا أبيض وبنطالًا أسود، رافعًا أكمامه بتلك الأناقة التي طالما أسرتها، وعيناه مسمرتان على هاتفه بقلقٍ ينهشه. وما إن وقع نظره عليها، حتى انتفض من مكانه وهرع نحوها متسائلًا بلهفة:

___ في إيه؟ بعتي الرسالة وقولتي إنك عايزاني وسكتي.. وبقالي ساعة برن عليكي ومفيش رد!

لم تنطق بكلمة، ولم تجد في قاموس الوجع حرفًا يسعفها؛ بل ارتمت في أحضانه بقوة، وانفجرت في بكاءٍ مرير هزَّ كيانها، متمسكة به كغريق يتمسك بآخر لوح نجاة. خرجت منها صرخةٌ مكتومة، صرخةُ قهرٍ جعلت قلب آسر يهوي بين ضلوعه، فضمها إلى صدره بكل ما أوتي من قوة، وهمس في أذنها بنبرةٍ تفيض حنانًا وخوفًا:

___ اهدي.. خلاص، أنا معاكي أهو.. في إيه طيب؟ حصل إيه لكل ده؟

بكت "تيا" بحرقةٍ مزقت نياط قلبه، كلماتُها كانت تخرج متقطعة، مغسولةً بدموعٍ انهمرت كالشلال فوق صدره، وهي تتشبث بقميصه بقبضةٍ مرتعشة. صرخت بقلبٍ مقهور:

___ أنا أسفة.... أسفة يا آسر، أسفة أوي بجد.. سامحني عشان خاطري.

كانت تعتذر بيقينِ مَن يودع، تعتذرُ لأن جسدها خانهما معًا، لأنها ستتركه يواجه وحشة الحياة وحيدًا.

تصلَّب جسد آسر؛ فاعتذارها لم يكن عاديًا، ونبرتها كانت تفيض بوجعٍ أكبر من مجرد نوبة بكاء عابرة. رفع وجهها بيدين ترتجفان، وحاول أن يلتقي بعينيها التائهتين وهو يسأل بقلبٍ يكاد يتوقف:

___ تتأسفي على إيه يا تيا؟ أنتِ بتعتذري ليه يا روحي؟ بصيلي.. قوليلي في إيه؟ حد عملك حاجة؟ ولادنا فيهم حاجة؟!

لكنها لم تجب، بل ضمته أكثر واستسلمت لشهقاتها التي كانت تخبره بكل شيء.. دون أن تنطق بكلمة واحدة عن ذلك المرض الذي بدأ ينهش في حكايتهما.

كان أمامه خياران؛ إما أن ينتزعها من أحضانه ويضغط عليها لتجيب، أو أن يحتويها حتى يهدأ روعها.. وبالطبع، كان قلبُه هو مَن اختار، فمال للخيار الثاني ليكون الفائز. أخذها بهدوء، وجلسا معًا على الأريكة، فضمها إليه أكثر، ومسد على خصلات شعرها برفق، وهو يصارع في صدره آلاف الأفكار السوداء التي بدأت تنهش عقله، لكنه استجمع كل ثباته وقال بهمسٍ مثقل بالرجاء:

___ يا صبر أيوب..

رفعت رأسها بتعجب، وقد علقت دمعةٌ حائرة على أهدابها، وقالت بصوتٍ واهن:

___ اشمعنى أيوب يا آسر؟ ليه دايمًا بنقول صبر أيوب؟

ابتسم بهدوء، وضمها أكثر، وقال بحنانٍ يقطر سكينة:

___ عشان مفيش حد في الدنيا دي اتجرب في الصبر زيه يا تيا. سيدنا أيوب كان عنده كل حاجة؛ الصحة، والمال، والأولاد، والأرض، في لحظة واحدة، كل ده راح. خسر ماله كله، وولاده ماتوا، وتعب بمرض شديد لدرجة إن الناس بدأت تبعد عنه وما بقاش جنبه غير مراته.

سكت آسر للحظة وهو يمرر يده على وجهها، كأنه يقرأ ملامحها، ثم أكمل:

___ قعد سنين طويلة في الابتلاء ده، لا اشتكى ولا كفر، كان دايمًا لسانه رطب بذكر الله. ولما وصل لأقصى درجات الوجع، عارفة قال إيه؟ مقالش يا رب اشفيني ولا أنا تعبت، قال بس: "أَنِّي مسني الضر وأنْت أَرحم الراحمين". نادى ربه بأدب، بيوصف حاله بس، وهو سايب التدبير للي خلقه.

هزَّ رأسه ببطء وهو ينظر في عينيها بعمق:

___ وفي لحظة، ربنا أمر الأرض تطلع مايه باردة، اغتسل منها وشرب، ورجعتله صحته أحسن من الأول، ورجعله ماله وولاده.. ربنا عوضه عن كل لحظة وجع بصبره. عشان كدة يا تيتو، لما الدنيا تضيق بينا، بنفتكر أيوب، عشان نعرف إن اللي قدر يرفع البلاء عن أيوب بعد كل السنين دي، قادر يرفع غمتنا في ثانية.. بس المهم نصبر ونقول يا رب.

نظرت له تيا بذهول، كأن قصته كانت السكين التي ذبحت بقايا صمودها، فهل كانت تخشى أن يكون دورها قد حان في اختبار الصبر.

شعرت في تلك اللحظة برغبةٍ عارمة في الصراخ، في أن تفرغ ما في جوفها من قهر، لكنها أدركت أنَّ إخباره بالحقيقة الآن هو بمثابة رصاصةٍ تطلقها على قلبه؛ وكيف لها أن تغتال روح من أحياها؟ لذا، قررت أن تمنحه العشق بدلًا من الفجيعة، فنظرت في عينيه وقالت بنبرةٍ متهدجة:

___ آسر.. أنا بحبك أوي، بحبك أوي بجد. أنت حب طفولتي، ومراهقتي، وشبابي، وهتفضل حبيبي لما أبقى عجوزة كمان.

توقفت لتستجمع أنفاسها المتهالكة، ثم تابعت بصوتٍ يملأه الشجن:

___ كنت بحبك أوي ومع كل سنة كنت بكبرها مكنتش بشوف راجل غيرك، كنت دايمًا شايفة خوفك عليا وحبك اللي كنت بتداريه عشان متشغلنيش عن دراستي ومستقبلي.. عيونك كانت فضحاك يابن الطنطاوي على فكرة، بس أنا كنت ببقى مبسوطة بده.. لمعة عيونك لما كنت بتبصلي كانت كاشفة كل حاجة. أنا بعشقك على فكرة.

نظر آسر لعينيها بعشقٍ لم ولن ينتهي، وضمها إليه بعنفٍ، ثم قال بصوتٍ خفيض يملأه الحنان:

___ وأنا بموت فيكي، بموت في روحك وشخصيتك اللي مجنناني دي. أنتِ حياتي كلها يا تيا، ومفيش حد في الدنيا بيقدر يستغنى

عن روحه وحياته.. بس قوليلي، إيه اللي كان مخليكي واصلة للحالة دي؟

نظرت له بهدوءٍ حاول اكتساء الثبات، وهمست بخفوتٍ هربًا من عينيه الثاقبتين اللتين تخترقان روحها:

___ حاجة مش مهمة.. ممكن تقول هرمونات، أو.. أو تعب نفسي من الدراسة. أسفة لو قلقتك.

قاطعها فجأة حين وضع يده فوق فمها برفق، مانعًا تلك الاعتذارات من الاستمرار، وقال بنبرةٍ يغلفها الخوف المستتر:

___ أنا معاكي في أي وقت، يولع أي حاجة تانية طول ما أنا مطمن عليكي.. يبقى كل حاجة هتبقى كويسة.

ثم صمت قليلًا، وضاقت عيناه بشكٍ لم يقتنع بتبريرها المبتور، وأكمل بلهجة حملت تحذيرًا مُحببًا:

___ بس في إيه؟ أنا مش مقتنع، ولو عرفت إنك مخبية حاجة.. هنزعل سوا يا تيا.

ابتسمت بوهن، وأسندت رأسها فوق كتفه، بينما كانت دموعها الصامتة تبلل قميصه الأبيض في خفاء، وهمست بصوتٍ يكاد لا يُسمع:

___ مفيش حاجة.. خليني كدة بس.

انحنى يطبع قبلة حانية فوق رأسها وضمها إليه أكثر، محاولًا حمايتها من عالمٍ لا يعرف عنه سوى أنَّها تتألم فيه، ولكن القلق لم

يكن يرحمه؛ فكان يشعر أنَّ تلك الدموع التي تسيل في صمت، ما هي إلا مقدمة لعاصفةٍ ستقتلع جذور استقرارهما.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

دلفت لمار إلى شقتها وهي تنظر لأطفال شقيقتها الروحية بفرحةٍ عارمة؛ فهي تعشقهم حقًّا وتعتبرهم قطعةً من روحها. انحنت لتقبلهم بلطفٍ وحنان، وقالت بصوتٍ يملأه المرح:

___ يلا ادخلوا بقى، وأنا هروح أحضر الأكل وناكل كلنا سوا.

جلست "كايلا" بمرحها المعهود وقالت بعفوية:

___ عايزة أشغل التلفزيون يا خالتو.

ضمتها لمار وهي تقول بحب:

___ عيوني يا قلب خالتو.. من عنيا.

ثم التفتت نحو "أدهم" وسألته بلطف وهي تراه يجلس بهدوء:

___ وأنت يا دومي، لو عايز تعمل حاجة أو تلعب بحاجة قوم اعملها، البيت بيتك يا بطل.

أجابها ببسمةٍ هادئة، وببراءة طفل لا يدرك من غدر الدنيا شيئًا:

___ لا يا خالتو، مش عايز حاجة.. أنا مرتاح كدة.

___ طيب يا روح خالتو، ثواني ويكون الأكل جاهز.

دخلت لمار المطبخ وهي تبتسم لشقاوة كايلا وهدوء أدهم، كانت تظن أنَّها مجرد خروجة عادية للأولاد عندها، ولم تكن تعلم أنَّ صديقتها في هذه اللحظة تصارع الموت بمفردها، وأنَّ هؤلاء

الصغار قد يقضون أيامًا قادمة بعيدًا عن حضن أمهم الذي اعتادوا عليه.

أمسكت لمار هاتفها بقلقٍ لا تعرف له سببًا، واتصلت بتيا، وما إن جاءها الرد حتى قالت باندفاعٍ يسبقه نبض قلبها:

___ تيا، أنتِ كويسة؟ قلبي اتقبض فجأة!

ابتسمت تيا بوهنٍ وهي تنظر لآسر، الذي كان لا يزال يضمها بحنان ويمسح على خصلات شعرها بحبٍ يفيض من عينيه، وأجابت بصوتٍ أرهقه البكاء:

___ كويسة.

___ أمال صوتك ماله كدة؟ تيا أنتِ كنتِ بتعيطي؟ طب ليه؟ آسر عملك حاجة؟ طب...

قاطعتها تيا بهدوء وهي ترمق آسر بابتسامةٍ حزينة كأنها تودع ملامحه:

___ بس.. اهدي، مفيش حاجة أنا كويسة أهو، ليه القلق ده؟

___ مش عارفة..

قالت تيا بصوتٍ خافت، يحمل بين طياته وصيةً مستترة:

___ متقلقيش عليا، بس خلي بالك من الولاد يا لمار.

صمتت لثوانٍ، ثم همست بوهنٍ كأنَّ روحها هي التي تتحدث:

___ هما بيحبوكي أوي.

أغلقت الاتصال قبل أن تفضحها شهقةٌ أخرى، تاركةً لمار في حيرةٍ تنهش صدرها، وآسر في صمتٍ يملأه الترقب والخوف من المجهول.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

___ ماذا يشغلُ عقلك يا أبي؟

سأل فيكتور بتعجبٍ وهو يراقب ملامح ألكسندر التي غلَّفها شرودٌ غريب، كأنه يرى خلف الأفق ما لا تراه أعين البشر. تنهد ألكسندر بعمق، وردَّ بنبرةٍ مثقلة بالذكرى:

___ لا شيء.. كنتُ أفكرُ في إيفا.. وفي تيا.

انقبض قلب فيكتور، وسأله بقلقٍ لم يستطع مواراته:

___ ما بها تيا؟ هل أصابها مكروه؟

رسم ألكسندر على ثغره ابتسامةً ذابلة يشوبها توجسٌ دفين:

___ لا.. هي بخير.

ثم أردف بهمسٍ يكاد لا يُسمع:

___ وأتمنى من الله أن تظلَّ بخير.

أشاح فيكتور بنظره نحو بعض الأوراق التي تزدحم بها طاولته، وقال بنبرةٍ اعتراها الندم:

___ أظننا قصرنا في حق لمار.. لم نسأل عنها منذ زمن.

ضحك ألكسندر بنفورٍ وضيق، فالحقيقة لا تحتاج لتجميل، وقال بحدةٍ هادئة:

___ تحدث عن نفسك يا فيكتور؛ فأنا لم ولن أقصر في حق حفيدتي. أنا أحادثها يوميًّا، أما أنت.. فغارقٌ في صمتك وشرودك الدائم، حتى فاتك الكثير.

شعر فيكتور بلسعة الأسف، فأمسك هاتفه على الفور واتصل بلمار، التي أتاه ردها دافئًا كشمس الصباح:

___ بابا.. عامل إيه؟

ابتسم فيكتور برقة، فكلمة بابا التي تنطقها تمنحه صك الغفران عن غيابه الطويل، أجابها بحنانٍ بلغة مصرية استدعاها من ذاكرة قلبه:

___ الحمد لله يا حبيبتي.. أنتِ عاملة إيه؟

___ كويسة والله.

فجأة، اخترق مسامع فيكتور صوتُ كايلا بمرحها الذي يضج بالحياة، فسألها:

___ هي تيا عندك ولا إيه؟

___ لا.. ده أدهم وكايلا بس.

___ سلميلي عليهم.

ضحكت لمار بعفوية وقالت:

___ هما أصلًا واقفين بقالهم ساعة عايزين يكلموك.. خدهم معاك أهو.

ارتفع صراخ كايلا المبهج:

___ جدو.. وحشتني أوي!

ابتسم فيكتور باشتياقٍ صادق:

___ وأنتِ كمان وحشتيني يا قلب جدو.. فين أدهم؟

___ أنا هنا أهو يا جدو.

كاد فيكتور أن يفيض في مشاعره معهما، لولا أنَّ الهاتف سُحب منه بغتة.. ولم يكن الفاعل سوى ألكسندر الذي لم يعد يطيق صبرًا على سماع أصواتهم. قال ألكسندر بصوتٍ يرتعش حبًّا واشتياقًا:

___ أدهم.. كايلا.. اشتقتُ إليكم كثيرًا.

تعالت ضحكات الصغيرين وصرخا سويًا ببهجةٍ أنعشت روح الجد:

___ وأنت كمان وحشتنا أوي يا جدو.. عامل إيه؟

أجابهم وهو يضحك بصدقٍ افتقده منذ زمن طويل، ضحكةٍ أضاءت ملامحه العجوز. وما إن أطبق الهاتف بعد وداعٍ طويل، حتى وجد فيكتور يحدِّق إليه بتعجبٍ وذهول؛ كأنه يرى والده لأول مرة في ثياب الجد الحنون، لا الرجل الصارم الذي يعرفه.

ـــ أشعرُ أنَّك تفضلهم دائمًا.. وتفضلُ تيا وكلَّ ما يخصها بشكلٍ يثير فضولي.

قالها فيكتور بابتسامةٍ هادئة وعينين تلتمعان بالفضول، ارتسمت بسمةٌ عميقة على شفتي ألكسندر، كأنه كان ينتظر هذا السؤال منذ زمن، وقال بوقار:

ـــ أنا أحبُّ أحفادي بالتساوي يا فيكتور، ولكنَّ تيا تملكُ جزءًا خاصًا في روحي، هي وأطفالها.. لا أعلم لماذا ينجذبُ قلبي لجهتها بضعفٍ غريب، ربما لأنها كانت النور الذي أضاء أيامي حين أظلمت، أو لأنها تملكُ من روح إيفا ما يجعلني أراها في كل لفتةٍ منها.

صمتَ لبرهة، ثم تابع وعيناه تشعانِ بحنانٍ أبويٍّ طمأن به فضول ابنه:

ـــ ولكنَّ هذا لا يعني أبدًا أنني أحب باقي أحفادي أقل، فأنا أحبُّ يوهان وفخورٌ به، وأنتظرُ طفلهُ القادم بشوقٍ لا يوصف، ذلك الصغير الذي سينيرُ حياتنا ويصبحُ لأدهم وكايلا شقيقًا وسندًا.. عائلتنا هي قوتنا الوحيدة يا بني.

ضحك فيكتور بهدوء ونظر لوالده نظرة فخر؛ فقد أدرك أنَّ سر مكانة تيا ليس تقليلًا من شأن البقية، بل هو كيمياء خاصة تربط الجد بحفيدته، كيمياء لا تُفسر ولكنها تُحس.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

ـــ مؤتمر إيه؟

خرجت الكلمات في آنٍ واحد من أفواه سيف وداليا وجاسر، وهم يحدِّقون إلى "عثمان" بذهولٍ تام. رمقهم عثمان بهدوءٍ حذر، ثم أجاب بنبرةٍ باردة:

— مؤتمر هيحصل هنا في مصر، بس يعتبر عالمي.. هيجي فيه رجال أعمال من جميع البلاد ولازم نحضر.

سأله جاسر والشك يغزو ملامحه:

— زي مين؟

أمسك عثمان بالملف المقابل له، وبدأ يقرأ بتمهل كأنه يستعرض قائمة أعداء:

— عائلات كتير.. زي الفلكي، والشماع، وبهجت الألفي.. ومن برة زافادسكي، وهولاند، وكورولينكو، وكوفالينكو و...

قاطعه جاسر بصدمة وهو ينتفض من مكانه:

— إيه السلطة دي؟ أنا عايز أفهم إنت جايب من الشرق والغرب والشمال والجنوب.. في إيه بالظبط؟

تدخل سيف متسائلًا وعقله يربط الخيوط ببعضها:

— وبعدين مش صاحب شركة "كورولينكو" أصلًا يبقى ألكسندر كورولينكو برده.. صح؟

نظر عثمان أمامه، واشتعلت في عينيه نيران غلٍ دفين وهو يتمتم بكلمة واحدة:

— هو.

تابع جاسر بفضول:

— وصاحب شركة كوفالينكو صاحبه برضه.. وبنته تبقى جيسيكا كوفالينكو على سن ورمح، دي كانت عاملة قلبان في عالم الاقتصاد قبل ما تموت بجد.

علَّقت داليا وهي تسترجع ما سمعته عن تلك الإمبراطورية:

ـــ واللي أعرفه برضه عن عيلة كورولينكو إن عندهم واحدة كملت مسيرة جيسيكا.. هي تقريبًا ملهاش في المجال ده أو مدرستش عنه، بس بيقولوا اتعلمت وبقت بتمشي صفقات كبيرة وهي في مكانها، بس عمري ما شوفتها مش عارفة ليه.. بس شوفت الباقي، يعني شوفت ألكسندر وستيفان ابنه وسيرجي وأدريان.

صمتت قليلًا ثم تابعت بحيرة:

ـــ بيقولوا عنده ابن رابع بس في ناس بتقول إنه توفى أو سافر، مش عارفة بصراحة.. بس العيلة دي طالع عليها شوية إشاعات، بس بصراحة يستاهلوا، أصل الإنجازات بتاعتهم مش سهلة، دي بتسمع في العالم كله.

أكمل سيف حديثها بابتسامة تذكر فيها تجاربه السابقة:

ـــ أنا نفسي اتعاملت قبل كدة مع ماكس وإيفان... حقيقي كان أحلى شغل معاهم، ناس ملهاش في وجع الدماغ ورايقة كدة.. وإيفان كان بيفكرني بجاسر مش عارف ليه!

انفجر سيف ضاحكًا، ليرد جاسر بغرورٍ مصطنع أضحك الجميع:

ـــ لا.. أنا مفيش حد زيي.

في تلك اللحظة، لم يعد عثمان يطيق صبرًا؛ فالغل والحقد كانا ينهشان قلبه وهو يرى إعجابهم بخصومه، فصرخ بصوتٍ هزَّ أركان المكتب:

ـــ ما خلاص بقى!

ساد صمتٌ مفاجئ ووجوم، وكاد عثمان أن يفرغ غضبه فيهم، ولكنَّ الباب فُتح بعنفٍ جامح كاد يقتلعه من مفصلاته، ودلف شخصٌ بملامح مضطربة، استدار عثمان نحو الموظف الذي اقتحم خلوتهم، وقد تملكه ضيقٌ شديد جعل عروق جبهته تنفر بوضوح، فصاح فيه بنبرةٍ حادة كادت تخترق صمت الغرفة:

ـــ إيه في إيه؟ إنت إزاي تدخل كدة؟

ابتلع الموظف ريقه بصعوبة، وبدا الارتباك جليًّا في ارتعاشة يديه وهو يجيب بصوتٍ متهدج:

ـــ حضرتك قولتلي أشوف آسر بيه.. ولما روحت المكتب عشان أبلغه، عرفت إنه مش موجود، ومحدش شافه من الصبح.

في تلك اللحظة، تحولت أنظار عثمان كالسهم نحو سيف، الذي كان يجلس ببرودٍ لا يتناسب مع حرارة الموقف، وسأله بنبرةٍ تقطر تساؤلًا وشكًا:

ـــ أخوك فين يا سيف؟

أجابه سيف وهو يرفع كتفيه بلا مبالاةٍ مصطنعة، محافظًا على برود أعصابه الذي يغلي عثمان من الداخل:

ـــ معرفش.. هرن عليه أشوفه فين.

أخرج سيف هاتفه تحت نظرات عثمان المترقبة. ضغط على الأرقام بتمهلٍ مستفز، ثم وضعه على أذنه بانتظار الرد، بينما

ساد المكتب صمتٌ ثقيل، لا يقطعه إلا أنفاس عثمان المتلاحقة وصوت رنين الهاتف.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

أما ذلك العاشق، فكان غارقًا في ملكوتٍ آخر؛ حيث جلس يتأمل صغيرته التي استسلمت لسلطان النعاس. ابتسم بخفةٍ وهو يطالع ملامحها الهادئة التي تُعيد ترتيب فوضى العالم بداخله، ثم حملها برفقٍ شديد.

وتوجه بها إلى غرفتهم. وضعها على الفراش، ثم هبط إلى الأسفل ودلف إلى المطبخ، ليبدأ بهدوءٍ غريب في تجهيز بعض أصناف الطعام.

وفي تلك اللحظة، اخترق سكون المكان رنين هاتفه، فأخذه بلا مبالاة وأجاب:

ـــ خير يا سيف؟

ـــ أنت فين؟

جاء ردُّ آسر مقتضبًا وهو يتابع ما يفعله:

ـــ مش مهم.. عايز إيه بس؟

ـــ جدك كان بيتكلم عن مؤتمر كدة جاي، فيه رجال أعمال تقال يعني، فكنا بنتناقش عليه.

توقف آسر عما يفعله، وقطب جبينه باستفسار:

ـــ رجال أعمال زي مين؟

— هـي عـائلات كبيـرة زي الشـماع، والفلكـي، وكورولينكـو، وكوفالينكو و...

لم يترك آسر له فرصة الإكمال، بل قاطعه بنبرةٍ تحولت فجأة من الهدوء إلى حدةٍ تشبه نصل السيف:

— المؤتمر ده إمتى؟

— كمان شهر ونص.

سـاد الصـمت لثـوانٍ، ثـوانٍ كانـت كافيـة ليرسـم آسـر فيهـا ألـف سيناريو، بينما كانت قبضـة يده تشتد على الهاتف حتى ابيضت مفاصـله. شـهر ونصـف فقـط تفصـله عـن مواجهـة التـاريخ الـذي حـاول الهـرب منـه، وعـن لقـاء العائلـة التـي لا يعلـم أحدٌ فـي هـذا البيت سر ارتباك ملامحه عند ذكر اسمها.

— تمام.

نطقها بجفاءٍ غريب ثم ألقى هاتفه جانبًا، عائدًا لانشغاله.

وفي الأعلى، وبعد مرور ساعتين من الغيـاب عن الـوعي، بدأت تيـا تتململ فـوق فراشـها. نهضـت بـبطءٍ شـديد، وجلسـت تُلملـم خصـلاتها الشـاردة بيـدين ترتعشـان، ثـم دلفت إلـى الحمـام. مـا إن رفعت بصرها نحو المرآة حتى شحب وجهها أكثر؛ رأت خيطًا من الدماء ينحدر من أنفها ببطءٍ لزج. انتفضت بذعر، وفتحت صنبور المياه لتمسح أثره بجنون، وهي تحاول تكذيب ما تراه عيناها.

خرجت من الحمام، وعيناها تائهتان تبحثان في أركان الغرفة عن ملاذها الأول والأخير. هبطت الدرج بخطواتٍ هادئة لتجده يقف

في المطبخ، ابتسمت رغمًا عن وجعها، واقتربت منه برقةٍ، ثم همست بصوتٍ خافت يشوبه النعاس:

— صباح الخير.

التفت إليها بقلبٍ يفيض حبًّا، وقبَّل يديها بحنانٍ هو يرد:

— صباح الفل.

قالت بنبرةٍ امتزج فيها الحب بالمرح:

— كنت فاكرة إنك هتروح شغلك.

تاه في عينيها اللاتين كانتا بالنسبة له المرفأ الوحيد وسط عواصف حياته، وهمس وهو يزيح تلك الخصلة المتمردة التي سقطت لتداعب جفونها:

— مقدرش أسيبك.

كانت تلك الكلمة كفيلة بأن تزلزل كيانها؛ ففي الوقت الذي يقرر فيه هو ألا يتركها، تشعر هي بأنَّ المرض يشدُّها بعيدًا عنه رغمًا عنها.

قال وهو ينظر لها ببسمةٍ واسعة أضاءت وجهه المتعب، بسمةٍ تحمل فخر المحارب الذي أوشك على نيل جائزته الكبرى:

— في حاجة حلوة أوي.

بفضولٍ حاولت أن تجعل نبرته طبيعية، سألت بلهفة:

— إيه هي؟

قصَّ عليها ما قاله سيف، وحماسه يتصاعد مع كل كلمة، ثم أردف بسعادةٍ غامرة لم تستطع قضبان كبريائه أن تحبسها:

ـــ المقابلة اللي ياما انتظرناها يا تيا.. وأخيرًا الناس هتعرف مين اللي سرقت قلبي.

في تلك اللحظة، اتسعت ابتسامتها لتمحو شحوب وجهها، وسرى شعورٌ بالفخر في عروقها جعلها تنسى للحظات ذلك الخيط الأحمر اللعين وكلمات الطبيبة القاسية؛ فحب آسر وفرحته كانا أقوى من أي مرض، كأنَّ قلبه ضخَّ في جسدها حياةً جديدة كانت بأمسِّ الحاجة إليها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

ـــ ماذا تقول يا جدي؟ سنذهب إلى مصر بعد شهر ونصف من الآن؟ كيف؟!

خرجت الكلمات من فم ماكس مشوبةً بذهولٍ تام وعدم استيعاب. تبادَل النظرات مع شقيقه الذي لم يكن حاله بأفضل منه، ليردف يوهان بنبرةٍ حاول أن يجعلها هادئة رغم اضطرابه:

ـــ ماكس محق يا جدي.. نحن لم نستعدَّ لهذا الأمر بعد، والرحيل بهذه السرعة يحتاج لترتيباتٍ كثيرة.

ساد الصمتُ الغرفة، صمتٌ لم يقطعه سوى نظرات الجد الحادة التي كانت تحمل وراءها أسرارًا لا يعلمها الصغار، كأنَّ سفره لمصر ليس مجرد رحلة، بل هو عودة لفتح دفاتر قديمة ظنَّ الجميع أنَّها أُغلقت للأبد.

قال ستيفان بهدوءٍ وثقة وهو يوزع نظراته بين يوهان وماكس، محاولًا امتصاص ثورة قلقهما:

ـــ كل شيء جاهز يا شباب.. لا تقلقوا، ثم لدينا وقت كافي.

لكنَّ كلمات التهدئة تلك لم تجد صدًى في قلوبهما؛ إذ اتجهت أنظارهما تلقائيًّا نحو فيكتور، الذي كان يقف أمام الشرفة بظهرٍ مستقيم لا ينحني، يراقب الأفق ببرودٍ تقشعر له الأبدان. في تلك اللحظة، بدأ جبروته المعهود يطفو على السطح، ليقف هناك كتمثالٍ من الرخام الصلد، يخطط بصمتٍ لمعركةٍ لا يعرف أحدٌ أبعادها سواه.

وفي ظل شرودهم الذي قطعه توتر اللحظة، وصلت إليهم طرقاتٌ خفيفة، حذرة. أذن ألكسندر للطارق بالدخول، لتنفتح الأبواب وتكشف عن دانيلو كوفالينكو.

دخل دانيلو يجر خلفه سنواتٍ من الوجع، محاطًا بأحفاده الذين باتوا هم كل ما يملك من حُطام الدنيا؛ فالمقاعد التي كان من المفترض أن يشغلها أبناؤه ظلت خاوية، بعد أن اختطفهم الموت جميعًا، ليتركوا له إرثًا من الحزن وأحفادًا هم أغلى ما تبقى في قلبه المثقل بالخسارات.

نهض ألكسندر بوقاره المعهود، واقترب من صديق عمره بابتسامةٍ خففت من وطأة الأجواء، وقال بنبرةٍ غلبت عليها روح المزاح:

ـــ اشتقت إليك يا صديق الطفولة.

ضحك دانيلو ضحكةً خرجت من أعماق قلبه، وضمه بحبٍّ أخويٍّ صادق، ثم تراجع قليلًا وهو ينظر لوجهه بتمعن قائلًا:

ـــ وأنا أيضًا يا ألكسندر.. كيف حالك؟ لم نتقابل منذ رحيل جيسيكا.

بمجرد نطق الاسم، خيَّم الحزن على ملامحه وذبلت ابتسامته، لاحظ ذلك ألكسندر وقال بمزاح محاولا تغيير مجرى الحديث:

ـــ هل كبرتَ وعقلتَ بما يكفي.. أم ما زلتَ عنيدًا وطفوليًّا كما عهدتك؟

ضحك دانيلو بشدة وقال بغرورٍ مصطنع:

ـــ لا، فأنا أصبحتُ رجلًا عاقلًا تمامًا!

قال ذلك وعيناه ترقبان فيكتور الواقف كالجبل، ثم مال دانيلو برأسه نحو ألكسندر وهمس في أذنه بنبرةٍ يملأها الوجس:

ـــ هو من سيتأذى يا ألكسندر.. هو وحده من سيحترق بهذه النيران.

تنفس ألكسندر وردَّ بأسى:

ـــ أعلم يا دانيلو.. أعلم.

قطع دانيلو حيرة الصمت، واتجه بخطواتٍ مثقلة بالهموم نحو فيكتور الواقف أمام الشرفة، وسأله:

ـــ هل أخبرتَ تيا أننا سنكون في مصر بعد شهر ونصف؟

ببرودٍ لا يكسره حنين، وبكلمةٍ واحدة خرجت كطلقة رصاص صامتة، أجاب فيكتور دون أن يلتفت:

— لا.

— حسنًا، سأتصل بها.

أمسك "دانيلو" هاتفه بيدٍ مرتعشة قليلًا، وأجرى الاتصال تحت أنظار الجميع المترقبة. وبعد رنينٍ لم يطل، جاءه الرد يحمل معه نسماتِ حياةٍ بعيدة:

— ألو..

بصوتٍ حاول أن يغلِّفه بالحنان ليبعد عنه شبهة القلق، سأل:

— كيف حالكِ يا عزيزتي؟

انطلقت ضحكتها الرقيقة كاللحن، وقالت بنبرةٍ يفيض منها الحب:

— اشتقتُ إليك يا جدي، اشتقتُ إليك كثيرًا.

لمعت عينا دانيلو بدمعةٍ حبيسة وهو يردف:

— وأنا أيضًا يا جميلتي.. هل تعلمين أين أنا الآن؟

قبل أن تغرق في حيرتها، استطرد موضحًا وهو ينظر نحو "ألكسندر":

— نحن جميعًا هنا يا تيا.. لقد اجتمع شملنا اليوم.

ضحكت بحب، لكنَّ نبرتها لم تخلُ من دهشةٍ استنكارية بلهجتها الخاصة:

— ليه؟ غريبة يعني!

هنا، تبادل دانيلو وألكسندر نظرةً ذات مغزى، كأنَّ الكلماتِ قد وقفت غصةً في الحلق. أشار له ألكسندر بعينيه أن يتحدث هو، فتنحنح دانيلو وقال بصوتٍ يحمل وقار الصدق:

ـــ نحن نخطط لنزولنا إلى مصر.. وسنكون هناك بعد شهرٍ ونصف.

ساد صمتٌ مفاجئ عبر الأثير، لم يقطعه سوى شهقةٍ مرتفعة هزَّت أرجاء المكان، شهقةٌ اختصرت كل مشاعر الصدمة والذهول التي اجتاحت قلب "تيا" في تلك اللحظة.

ـــ إزاي؟ آه عشان المؤتمر يعني؟ طب وبابا جاهز لده؟!!!!!

توالت تساؤلاتها كطلقاتٍ من القلق الممزوج بالدهشة، والخوف على والدها يطغى على صوتها. في تلك اللحظة، ارتسمت ابتسامة خفيفة على ثغره؛ فابنته، رغم المسافات، لا تزال تحمل همَّه وتخشى عليه من مواجهة الماضي. اقترب فيكتور بخطواته المهيبة، والتقط الهاتف من يد دانيلو، ثم تحدث بنبرةٍ مصرية خالصة:

ـــ أنا لازم أواجه يا تيا.. مينفعش أهرب تاني، متقلقيش عليا يا حبيبتي.

تسللت كلماته إلى قلبها كبردٍ وسلام، فتبددت غيوم حيرتها وحلَّت مكانها فخرٌ بوالدها الذي قرر أخيرًا كسر حاجز الصمت. ابتسمت بحبٍ، وقالت بنبرةٍ تقطر دعمًا وثقة:

ـــ عارفة إنك قدها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كان "عثمان" يقبع خلف مكتبه الفاخر، الذي استمد قتامته من خشب الأبانوس العتيق، والشر يتطاير من عينيه كنصالٍ باردة؛ فقد اقتربت ساعة اللقاء مع الرجل الذي يكرهه حد اللعنة، ألكسندر كورولينكو. لم تكن مجرد كراهية عابرة، بل كان حقدًا يتغذى على تفوق ألكسندر الدائم.

كان يغيظه أنَّ ألكسندر يمتلك ذاك القبول الرباني، فكل من تعامل معه لم يملك إلا أن يثني على حسن خلقه واستقامة دينه، وهي خصال كانت في نظر عثمان كقيودٍ تذكره دائمًا بنقائصه، وماضيه فهو أيضًا يملك ماضي مجهول.

انشقَّ صمتُ المكتب بهجومٍ مباغت، حيث انفتح البابُ بعنفٍ ودلفت "ميسون" والشرُّ يتطاير من ملامحها المذعورة، وقبل أن تستقر في مكانها اندفعت بالقول:

ـــ رهف بدأت تزعجني يا عثمان بيه!

رمقها عثمان بنظرةٍ ضيقة، ونفث دخان سيجارته ببرودٍ وهو يحاول امتصاص توترها المستفز، ثم قال بنبرةٍ آمرة:

ـــ خدي نفسك بس في إيه؟ إيه اللي حصل لكل ده؟

ارتمت فوق المقعد الجلدي، والاضطراب ينهش ملامحها، ثم قالت بغضبٍ جارف:

ـــ زهقت.. قاعدة تنبش في الماضي وتفتش وتجيب في سيرة سارة، وأنا عندي الحل اللي يخلصنا من الصداع ده، بس محتاجة موافقتك.

اعتدل عثمان في جلسته، ومال بجسده للأمام بينما تلاقت نظراتهما خلف وهج المصباح المكتبي، وسألها بشكٍّ وريبة:

— ويا ترى إيه هو الحل ده؟

في تلك اللحظة، انحسرت ملامح الغضب لتحلَّ محلها ابتسامةٌ ملتوية، تحمل في طياتها جنونًا وخبثًا تقشعر له الأبدان، وقالت ببرودٍ قتَّال:

— اقتلها!

لم تظهر الصدمة على وجه عثمان، فقد اعتاد قلبه على قسوةٍ لا تعرف اللين، غير أنَّه نظر إليها بتعجبٍ كأنه يزن مقدار جنونها، فتمتم بنبرة هادئة:

— إنتي بتقولي إيه؟ هتقتلي بنتك؟!

هنا انفجر الغلُّ الكامن في أعماقها، وانتفضت واقفة وهي تصرخ بصوتٍ ممسوس جعل جدران المكتب تهتز:

— هقتل أي حد هيفكر يفتح أبواب الماضي.. أي حد، حتى لو كانت هي!

ساد صمتٌ ثقيل بينهما، بينما كان عثمان يراقبها بعينين تشبهان زجاج النافذة البارد، كأن تلك الكلمات أيقظت في أعماقه صدى لحدثٍ قديم لم يجرؤ أحدٌ على ذكره يومًا.. حدثٌ دُفن تحت تراب السنين بقرارٍ منه، وربما كانت تلك الصرخة مجرد تنبيهٍ بأنَّ الأرض لم تبتلع كل الحقيقة بعد.

أطبق الصمتُ على المكان بعد صرختها، فرمقها عثمان بنظرةٍ غامضة قبل أن يقول باقتضاب:

— سيبيني أفكر.

أومأت "ميسون" بموافقةٍ باردة، ثم استدارت وخرجت لتترك خلفها هواءً مسمومًا بالغل. تمدد عثمان في مقعده، وارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ تقطر شرًا، بينما كانت خيوط الذاكرة تسحبه بعيدًا.. إلى ذلك اليوم الذي بدأ فيه كل شيء.

فلاش باك...

كان يجلس في ذات المكتب، ينتظر دخولها بهدوءٍ يسبق العاصفة، وبعد لحظاتٍ دلفت ميسون وجلست أمامه بكل ثقة، وسألته بنبرةٍ جادة:

— حضرتك عايزني؟

أشاح بنظره عنها للحظة وهو يخطط لمصير عائلاتٍ بأكملها، ثم قال:

— آه يا ميسون.. عندي ليكي حاجة لازم تنفذيها.

رفعت حاجبها بفضول وسألت:

— اللي هي؟

ابتسم عثمان بجنونٍ بدأ يلمع في عينيه، وقال وهو يرسم ملامح المؤامرة:

— تدخلي بين سارة وفيكتور وتوقعي بينهم لحد ما يطلقوا، ودااليا تحاولي تقربي منها على قد ما تقدري.. هتعرفي تعملي دي؟

لم تتردد ميسون، بل ارتسم الخبثُ على وجهها كأنها كانت تنتظر هذه الفرصة، وقالت بتحدٍ:

— أكيد!

استطرد عثمان وعينه تلمع ببريقٍ خاص:

— وتيا..

قاطعته ميسون وهي تشرح له وجهة نظرها:

— مالها؟ لو إني أحاول أقرب منها فدي طفلة يعني مش هنستفاد منها في حاجة، وبعدين آسر دايما حواليها مش هنعرف نقرب منها.

أغمض عثمان عينيه كمن يطوي صفحةً مؤقتًا، وقال ببرود:

— خلاص مش مهم دي، بس الباقي لازم يتنفذ.

نهضت ميسون بكبرياءٍ زائف، وقالت وهي تهمُّ بالانصراف:

— متقلقش.

لكنَّ عثمان وميسون، في غمرة سعادتهما برسم خيوط المكيدة، لم يلحظا ذلك الظل الصغير القابع خلف عتبة الباب؛ حيث كانت الطفلة "رهف" تقف متجمدة، وأذناها تلتقطان كلماتٍ أكبر من عمرها، كلماتٍ كانت بمثابة صكِّ دمارٍ لعائلاتٍ بريئة، بينما سكنت ملامحها دهشةٌ لم تدرك حينها أنَّها ستتحول يومًا ما إلى قنبلة موقوتة.

باك...

انقشع ضباب الذاكرة، وعاد عثمان إلى واقعه، لتستقر الابتسامة ذاتها على ثغره؛ فطلاق سارة وفيكتور لم يكن مجرد صدفة أو نزوة قدر، بل كان عملًا هندسيًّا دقيقًا، كان هو عقله المدبر، وكانت ميسون هي الأداة الطيعة التي حركها ببراعة لتنفيذ مآربه وتفتيت شملهم.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

دلفت "داليا" إلى الغرفة بهدوءٍ مريب، كانت عيناها تجوبان الأركان بآليةٍ باردة، تبحث عن طفلها الذي غاب عن مخيلتها لساعات بينما كانت هي غارقة في عملها.

وحين لم تجده في سريره ولا بين ألعابه المبعثرة، كادت أن تستدير وتخرج بضيقٍ، ظنًّا منها أنَّه يلهو في مكانٍ آخر، لكنَّ بصرها وقع فجأة على جسدٍ صغيرٍ منكمشٍ في زاويةٍ معتمة خلف الستائر.

تقدمت نحوه بخطواتٍ غاضبة، كانت تنوي أن تصرخ فيه وتؤنبه على هذا الاختفاء الذي أزعج هدوئها، ولكن ما إن اقتربت وبانت لها ملامحه الساكنة تحت ضوء القمر الشاحب، حتى لُجم لسانها وتلاشت الكلمات القاسية. لم يكن يختبئ ليلهو، بل كان ملقًى هناك بوضعيةٍ جمدت الدماء في عروقها؛ سكونه لم يكن يشبه براءة النوم، بل كان صمتًا مرعبًا يصرخ في وجه إهمالها.

انكسر كبرياؤها في لحظة، وانفجرت من أعماقها صرخةٌ وحشية لم يعهدها القصر منها، صرخةٌ هزَّت الجدران وحملت نبرة الفجيعة:

— لييييييث!

على وقع صرختها التي بدت كطلقة رصاص، اندفع "سيف" كالمذعور، شقَّ الردهة في ثوانٍ ليجد داليا جاثية على ركبتيها، وهي تشير بيدٍ مرتعشة إلى جسد ابنهما الملقى في تلك الزاوية الباردة. تجمد سيف في مكانه، وخُطف لونه وهو يرى طفله في تلك الحالة، انفجرت صرختُها من جديد وهي ترى تلك البقع البيضاء العجيبة التي انتشرت على يده كوشمٍ غامضٍ ومريب، فجذبت جسده الضئيل إلى صدرها بقوة، وهي تهتف بذعر:

— لـ.. ليث! حبيبي فوق.. لييييث!

في لمح البصر، كان "سيف" قد اختطفه من بين يديها، وقلبه يقرع صدره بعنف كطبلِ حربٍ لا يهدأ. ركض به نحو السيارة، وداليا تتبعه بانهيارٍ تام. انطلقت السيارة تنهب الطريق نهبًا، بينما أمسك سيف هاتفه بيدٍ مرتعشة وضغط على رقم شقيقه، وما إن جاءه الرد حتى صرخ بقلبٍ مفطور:

— آسررر.. الحقني! ليث دخلنا عليه لقيناه مش بيرد، وفي حاجات بيضة غريبة في جسمه.. أعمل إيه بسرعة؟!

انتفض قلب "آسر" في الطرف الآخر، فصوت أخيه كان يحمل نبرة الموت، فقال محاولًا تماسك أعصابه:

— اهدى بس الأول.. انتو رايحين أنهي مستشفى؟

أجاب سيف بصوتٍ مخنوق، وعيناه لا تفارق وجه ابنه الشاحب الذي تحتضنه داليا بقوةٍ مفرطة، وتقبّله في كل إنشٍ من وجهه بدموعٍ تنهمر كالسيل، نادمةً على كل لحظة ابتعدت فيها عنه:

ـــ المستشفى اللي جنبنا.. بسرعة يا آسر!

بتر آسر المكالمة بكلمة واحدة كانت بمثابة وعد:

ـــ أنا جايلك حالًا!

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

نظرت "تيا" بتعجب وقلق لـ "آسر" الذي كان يصارع أنفاسه وقالت:

ـــ في إيه يا آسر؟

قصَّ عليها ما حدث مع "ليث" وسيف بسرعة البرق، فكأنما ألقى قنبلة في أرجاء المكان؛ انفجرت "كايلا" الصغيرة في بكاءٍ مرير، بينما انهمرت دموع "أدهم" بشدة وهو يصرخ بحرقة:

ـــ عايز أروحله يا ماما.. خليني أروح لليث!

أجابته تيا بنبرةٍ حادة لم تعهدها:

ـــ مش هينفع يا أدهم.. قولت مش هينفع!

نظر إليها أدهم بغضب طفولي ممتزج بالوجع وصرخ:

ـــ كل حاجة مش هتنفع.. أنا زهقت!

في لحظة غياب وعي غريبة، جذبت تيا طفلها من يده بعنف، وصرخت في وجهه بضيقٍ وغضبٍ عارم:

ـــ صوتك ميعلاش عليا.. أنا أمك فاهم ولا لا؟!

هنا تدخل آسر بسرعة، وجذب أدهم من بين يديها وهو ينظر إليها بذهول:

ـــ في إيه يا تيا؟ اهدي.. ده طفل!

التفتت إليه تيا وصاحت وهي تشير بيديها:

ـــ لا، ميتكلمش معايا كدة.. هو أنا شغالة عنده؟! وأنتِ خلاص بقى!

قالت كلمتها الأخيرة وهي ترمق "كايلا" بنظرة ضيق بسبب بكائها المستمر.

تبادل الصغيران نظرات الرعب، فأمسك أدهم يد شقيقته وركضا نحو غرفتهما، والدموع تغسل وجهيهما خوفًا من والدتهما التي تحولت لشخصٍ غريب.

اشتعل الغضب في عيني آسر، فجذب تيا من يدها ودلفا إلى غرفتهما ليغلق الباب خلفهما بعنف، ثم دفعها برفق وهو يهتف:

ـــ في إيه يا تيا؟ براحة دول أطفال.. مالك كدة حالك مش مظبوط؟

نظرت له بضيقٍ وتحدٍّ:

ـــ ماله حالي؟! كل ده عشان عايزة أربي ولادي يا آسر؟ أنا كدة غلطانة يعني؟

مسح آسر على وجهه محاولًا كتم غيظه وقال:

ـــ مش غلط، بس براحة.. ما أنتِ كنتِ كدة وأنتِ في سنهم، هل أنا جيت اتعاملت معاكي كدة؟

قالت بجمود:

ـــ قولت عايزة أربيهم!

هنا فقد آسر صبره وقال ببرودٍ لاذع:

ـــ ما هو لو أنتِ شايفة إن طريقتي في التربية غلط، يبقى أنتِ طلعتي مش متربية يا تيا.. لأنكِ اتربيتي كدة!

شحب وجهها وصدمتها الكلمة، فقالت بسخرية مريرة:

ـــ أنا مش متربية يا آسر؟! أنا!!!

ضغط آسر على رأسه بيده، فقد خرجت الكلمة في لحظة غضب لم يقصدها:

ـــ أنا مقولتش كدة..

لكنها لم تتركه يكمل:

ـــ لا قولت.. أنت بتحاسبني في تربيتي لولادي اللي أنت أصلًا مكنتش عايزهم!

أمسك آسر يدها بقوة، وعيناه تشتعلان:

ـــ قصدك إني أشيل إيدي من تربيتهم مش كدة؟ هو أنا مش أبوهم وليا الحق أتدخل؟ ولا تكونيش موتيني بالحيا يا تيا؟! وأيوة

مكنتش عايزهم في الأول عشانك أنتِ يا غبية، مش عشاني أنا.. أنا مش أناني، افهمي بقى!

تنفس بعمق وهو يتحرك في الغرفة كالأسد الجريح المحبوس في قفصه، ثم صرخ:

ـــ أنا عايز أعرف الثانية دي مالك؟ فيكي إيه؟!

اندفعت تيا نحوه بانهيار:

ـــ متصرخش فيا.. أنا مش متحملة! سيبني في حالي يا عم، وشيل إيدك مني خالص طالما مش عجباك.. وأنا هستنى منك إيه؟ واحد مخبيني عن العالم كله عشان مصلحته الشخصية! أنا بتعذب في حياتي بسببك، ولادي مش عارفين يخرجوا معاك كعيلة طبيعية بسببك.. وكل ده بتفهمني إنه عشاني، بس الحقيقة إنه عشانك أنت.. أنت أناني يا آسر سامعني؟ أنااااني!

تسمَّر آسر في مكانه، وقعت الكلمات عليه كالصواعق. وقف مذهولًا من كم الاتهامات التي جُلد بها في دقيقتين، وهمس بتعجبٍ مرير:

ـــ أنا أناني؟ بعد كل اللي بعمله عشانك بقيت أناني؟ بعد ما ضيعت مراهقتي كلها في إني بحاول أحميكي وأربيكي صح؟ أنا مكنتش بعمل حاجة لنفسي.. كل حاجة كانت ليكي، مكنش عندي صحاب عشان أفضل جنبك وميشغلنيش عنك حاجة!

قالت بعصبية وانفعال:

ـــ بتعايرني صح؟!

ارتسمت نظرة ذهول ووجع على ملامحه، وترك يدها ببطء كأنه يترك حياته كلها، وقال بصوتٍ ميت:

ـــ مفيش أب بيعاير بنته على حاجة عملها.. وبقول أب وبنته لأنك بنتي قبل ما تكوني مراتي، بس لأسف.. كبرت في واحدة متستاهلش أي حاجة عملتها عشانها!

خرج آسر وأغلق الباب خلفه بهدوءٍ قاتل، تاركًا إياها في منتصف الغرفة لا تعلم ما الذي أصابها. فجأة، انفجرت تيا بصرخةٍ هزَّت أرجاء الفيلا، وجثت على ركبتيها تضم نفسها ببكاءٍ هستيري على كلامها الجارح الذي ألقته في وجه الشخص الخطأ.

شعرت بيدٍ رقيقة على كتفها، رفعت عينيها سريعة وهي تأمل أن يكون هو قد عاد، لكنها وجدتهما طفليها.. ينظران إليها بقلقٍ وحنانٍ طفولي:

ـــ مامي.. أنتِ زعلانة مننا؟

اقترب أدهم منها وقبَّل رأسها بأدبٍ وحزن:

ـــ أنا آسف.. مش قصدي والله.

ضمتهم تيا وبكت بحرقة؛ هي لا تعلم كيف خرج هذا الكبت منها على هيئة رصاصاتٍ أصابت أغلى الناس. ابتعدت عنهم قليلًا وقبَّلت وجوههم وهمست بضعف:

ـــ متزعلوش مني.. أنا بس تعبانة الفترة دي أوي بجد.. ممكن تفضلوا جنبي وتستحملوني؟

تبادل الصغيران النظرات، ثم حاوطا والدتهما بحب. سأل أدهم ببراءة:

ـــ هو بابا زعلك يا ماما؟

انهمرت دموعها وقالت بقلبٍ محطم:

ـــ أنا اللي زعلته من دون قصد.. رميت كل حاجة كان بيعملها في الأرض.. قولت إنه أناني بس أنا اللي أنانية.. ياااا رب!

سحبتهم إلى أحضانها بقوة، وظلت تبكي حتى غفت في نومٍ عميق من أثر الإرهاق النفسي.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

وصل "آسر" أخيرًا إلى المشفى، والأنفاس تتسابق في صدره. سأل موظفة الاستقبال بخطواتٍ متعجلة حتى دلته على الغرفة. دلف إليها ليجد "سيف ودواليا" يقفان بجانب "ليث" بنظراتٍ يكسوها الأسف واللوم، فسأل باقتضاب:

ـــ في إيه؟ حصل إيه؟

أجابت داليا وهي تمسد على خصلات شعر صغيرها بحنانٍ نادم:

ـــ طلع عنده حساسية من اللبن، والدادة الجديدة مكنتش تعرف وشربتهوله.

عقد آسر حاجبيه بتعجب:

— طيب ما هو عارف إنه عنده حساسية وإحنا كمان عارفين.. شربتهوله عافية يعني؟

تبادل سيف ودااليا نظراتٍ صامتة، كأنَّ إدراكًا مفاجئًا قد صفع وجوههما. انحنت داليا على ليث، وضمت وجهه الصغير بين كفيها وقالت بحنانٍ بالغ:

— ممكن يا روح ماما تقولي إيه اللي حصل بالظبط؟

تنفس ليث الصعداء وهو ينعم بلحظات الدفء التي حُرم منها طويلًا في أحضان والدته، وقال بضيقٍ طفولي:

— هي مصدقتنيش.. قعدت أقولها عندي حساسية، قالت لي أنت بتتدلع، ومسكتني غصب وشربتهولي.. حاولت أتفه رفضت وضربتني على ضهري!

لمع الغضب في أعين الجميع، واشتعلت النيران في صدر داليا وهي تهتف:

— هي اتهبلت ولا إيه؟ وربنا لأعرفها مقامها بس تقع تحت إيدي!

ثم جذبته لأحضانها مرة أخرى، تشم رائحته بخوفٍ كأنها تخشى فقدانه للأبد. في تلك اللحظة، ظهر الألم في عيني آسر؛ تذكر "تيا"، معشوقته التي تركها منهارة، كان يشعر بقلبه أنَّ بها مكروهًا ما، لكنه لا يعلم ما بها.

قطع حبل أفكاره دخول "جاسر" بمرحه المعهود ومعه "ريم" التي اقتربت من داليا وضمتها بمواساة. مسد جاسر على خصلات ليث وقال بابتسامة واسعة:

ـــ حمد لله على السلامة يا قلب عمو.. قوم بقى وشد حيلك عشان تستنى البيبي.

ساد الذهول للحظة، قبل أن تقطع ريم الصمت بسعادةٍ غامرة:

ـــ بعد تعب وعلاج ونفسية متدمرة.. ربنا رزقني بالحمل، مش مصدقة يا جماعة!

غمرت السعادة الأجواء، وضمت داليا ريم بفرحةٍ حقيقية، بينما تبادل آسر وسيف العناق مع شقيقهما وابن عمهما جاسر. قال آسر بمزاحٍ وسط ذهوله:

ـــ هذا الأهطل سيصبح أبًا؟ لا أصدق!

ضحك سيف بشدة وعلَّق:

ـــ من كتر الصدمة قلبت لغة عربية فصحى! ألف مبروك يا مشاكس العيلة الأول.

ردَّ جاسر بصدق:

ـــ الله يبارك فيكم، أنا فرحان أوي بجد.

واجتمع أولاد العم في ضمةٍ واحدة تُجسِّد إخوتهم الصادقة.

في مكانٍ آخر.. بعيدًا عن صخب المشفى..

كانت "لمار" تجلس على الأريكة في غرفتها، تتحدث مع "ليلا" عبر الهاتف، فقالت ليلا بلهجتها المصرية المكتسبة:

ـــ عايزة روايات كتيييير أوي يا لمار.

ضحكت لمار:

ـــ يا بنتي ما تيجي تجيبيها بنفسك!

ـــ لازم يستقبلوني في المطار الأول.. وبعدين مش كفاية إنك هتشوفي حبيب القلب؟

شهقت لمار بفزع:

ـــ اخرسي.. حبيب قلب مين ياللي منك لله؟

تابعت ليلا بضحك:

ـــ هو في غيره أساسًا؟ "ماكس"!

انتفض قلب لمار بين ضلوعها لمجرد ذكر اسمه، وهمست باضطراب:

ـــ بلاش هبل.. حبيب قلب إيه؟

ـــ والله بتحبيه يا بطة.. والسكوت علامة الموافقة، مش كدة بيقولوا في مصر؟

ضحكت لمار وهي تصحح لها:

ـــ علامة الرضا، مش الموافقة يا فصيحة.

ـــ مش هتفرق، المهم إنك بتحبيه!

ـــ ده أنتِ عيلة رزلة!

أغلقت لمار الهاتف بقلبٍ يدقُّ بعنف، بينما التفتت ليلا لـ "ماكس" الذي كان يجلس بجانبها طوال الوقت يسترق السمع، وقالت بانتصار:

ـــ شوفت؟ أهي اعترفت إنها بتحبك!

ابتسم ماكس بسعادة عارمة، وتركها وهو يتوجه لغرفته بقلبٍ يرقص فرحًا.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

استيقظت "تيا" من نومها العميق بجسدٍ منهك وروحٍ مثقلة بالندم، كانت كلمات آسر لا تزال تتردد في أذنيها كصدى مؤلم. أمسكت هاتفها بيدٍ مرتعشة، وضغطت على رقم طبيبتها الخاصة. ما إن جاءها الرد حتى سألت بنبرةٍ يملأها الذهول والضياع:

ـــ يعني.. يعني كل اللي حصل ده طبيعي؟

أجابتها الطبيبة بهدوءٍ مهني يحمل طابع الطمأنة:

ـــ أيوة يا تيا.. في حالتك دي، إنك تكوني عصبية، ومضغوطة لدرجة الانفجار، وحتى إنك تهلوسي بكلام مش واقعي.. كل ده عادي جدًّا وأعراض جانبية متوقعة.

سكنت تيا مكانها، وشعرت ببرودةٍ تسري في أطرافها وهي تسترجع المجزرة الكلامية التي ارتكبتها في حق آسر وأطفالها. لم تكن هي من تتحدث، بل كان المرض أو تلك الحالة الغامضة التي تمر بها هي من كانت تقود لسانها. همست لنفسها بمرارة:

— عادي؟ بس العادي ده خسرني أغلى حاجة في حياتي.. خسرني حبيبي!!

وضعت تيا الهاتف من يدها، اتجهت بخطواتٍ مهتزة نحو المرآة لتتأمل وجهها الذي صار غريبًا عنها. سكنت ملامحها وهي تدقق في انعكاس صورتها، حتى وقع بصرها على كدمة زرقاء غامضة بدأت تظهر بوضوح عند طرف فمها.

رفعت أناملها المرتعشة ولمست لون الكدمة البارد، لم تتذكر أنَّها ارتطمت بشيء، ولم يلمسها أحد بسوء. في تلك اللحظة، هبطت عليها الحقيقة كالصاعقة؛ بدأت تستوعب أنَّ هذه العلامات ليست مجرد حادث عابر، بل هي النذر الأولى والأعراض القاسية لذلك "المرض اللعين" الذي بدأ ينهش جسدها وهدوءها النفسي.

انحبست الأنفاس في صدرها وهي تدرك أنَّ عصبيتها المفرطة، وهلوستها، وحتى هذه الكدمات، كلها خيوط في شبكة واحدة تحاول خنقها. همست بمرارة وهي تنظر لعينين غارقتين في الدموع:

— يعني مكنتش بهلوس بس.. ده بدأ يعلِّم على جسمي كمان.

شعرت بضعفٍ شديد يجتاح ركبتيها، فاستندت إلى الحوض وهي تفكر في "آسر". كيف ستواجهه؟ وكيف ستشرح له أنَّ تلك الوحشية التي ظهرت منها لم تكن إلا قناعًا للمرض؟ وهل سيصدقها أم أنَّ الوقت قد فات؟

بسرعةٍ فائقة وقلبٍ يخفقُ ذعرًا، لملمت تيا شتات نفسها عندما وصل لها صوت سيارته؛ لم تكن مستعدةً بعد للمواجهة أو لكشف

هذا الوجع. ببراعةٍ، استخدمت مساحيق التجميل لتخفي تلك الكدمة الزرقاء التي كانت تصرخ بالحقيقة، ثم هبطت إلى الطابق السفلي بخطواتٍ مثقلة بالندم فور سماعها صوت محرك سيارته.

توقفت أمام آسر الذي دخل والبرود يغلِّف ملامحه، والوجع يملأ عينيه. وقفت أمامه منكسرة، خفضت رأسها وهي تشعر بصغر حجمها أمام هيبته وجرحه، ثم همست بخفوتٍ وصوتٍ مرتعش:

ـــ آسر..

وقف آسر أمامها، صامتًا، ينظر إليها بنظرةٍ لم تستطع تفسيرها؛ هل هي بقايا غضب، أم شفقة، أم أنَّه بدأ يلاحظ أنَّ شيئًا ما خلف هذا القناع ليس على ما يرام؟

ـــ أنا أسفة.

مدت يدها المرتعشة، تحاول أن تلمس كفه بوهن لم يخذلها يومًا، ابتعد عنها خطوةً كاملة، فكانت تلك الخطوة كخندقٍ عميق فُصل بينهما فجأة.

أغلقت عيناها بقوة، كأنها ترفض رؤية هذا الجفاء، وانهمرت دموعها بغزارة غسلت وجهها وهي تشهق بنبرةٍ مكسورة:

ـــ مكنش قصدي.. أنا أسفة والله العظيم ما كان قصدي!

بمجرد أن رأى انهيارها، تلاشت حصونه التي بناها قبل دقائق؛ فآسر لا يستطيع الصمود أمام دموعها طويلًا. شعر بوجعٍ لا يُحتمل.

لم يستطع الاستمرار في ابتعاده؛ فغريزته كأب وزوج وحبيب كانت أقوى من كبريائه الجريح. في لمح البصر، تحرك نحوها واختطفها بين ذراعيه، ضمها بقوةٍ لدرجة أنَّها شعرت بنبضات قلبه المتسارعة التي تناديها. لم يكن يعلم سبب ألمها الحقيقي، ولا ما الذي يدور في عقلها، لكنه اعتاد منذ صغرها أن يكون هو جدارها المنيع، وأمانها الذي لا يخون.

قال بهدوء:

___ بس أنا هنا خلاص.

لم يكن بكاؤها على الشجار فقط، بل كان بكاءً على "تيا" التي تعرفها والتي بدأت تتسرب من بين أصابعها. بدأ شريط الرعب يمر أمام عينيها: جلسات العلاج القاسية، المستشفيات، نظرات الشفقة في أعين الناس، والأصعب من ذلك كله.. أن ترى خصلات شعرها، التي طالما عشقتها، وهي تتساقط خصلة تلو الأخرى لتتركها وحيدة أمام هذا المرض.

تمسكت به أكثر كأنها تختبئ بداخله من قدرها القادم، وقالت بصوت مكسور:

ـــ أنا خايفة..

كان يظن أنَّها تتحدث عن خوفها من فراقه أو غضبه، فشدد من ضمته وهو يقول بحنان يفيض من نبرته:

ـــ أنا مش همشي يا تيا.. مش هسيبك.

تلك الكلمة ربتت على قلبها المرتجف، فمسح دموعها بطرف إبهامه وتابع بهمس:

ـــ خلاص بقى متزعليش.. أنا معاكي أهو والله وجنبك، بلاش دموع بقى عشان خاطري.

ساد الصمت بينهما، هو يطمئنها ببقائه، وهي تبكي سرًّا على معركة لا يعلم عنها شيئًا، معركة بدأت ملامحها تظهر في تلك الكدمة المخفية تحت أصابعه.

ابتسمت بلطف رغم الغصة التي بداخلها، وسندت رأسها بهدوء على كتفه، مغمضة عينيها لتستشعر هذا الأمان الذي تخشى فقدانه. كان صوته الهادئ وهو يطمئنها كفيلًا بأن يهدئ عاصفتها مؤقتًا، فاختارت أن تعيش هذه اللحظة بسلام، بعيدًا عن هواجس المرض والعلاج.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كان ديم يجلس معهم والبهجة تملأ المكان، التفت نحو "ليلا" وقال بنبرة تحدٍ:

ـــ هيا، قولي حيوانًا يبدأ بحرف الباء.

صمتت ليلا لثوانٍ تدعي التفكير العميق، ثم أجابت بكل ثقة:

ـــ بَرْق!

انفجر ديم ضاحكًا وهو ينظر إليها بذهول وقال:

ـــ قلتُ حيوانًا يا ليلا!

في تلك اللحظة، قفز "يوهان" من مكانه وصرخ بحماسٍ شديد:

ـــ بطريق!

صفق ديم بيده وهو يقهقه، بينما تذمرت ليلا بمرح وهي تحاول تبرير إجابتها، وسط أجواء من الضحك والمداعبات التي أنستهم ولو قليلًا توتر الساعات الماضية، وذلك الخبر اللي قاله جدهم.

قالت لينا وهي تحاول استعادة تركيزها في اللعبة:

ـــ اسأل سؤالًا آخر.

وضع ديم يده على فمه بتفكيرٍ عميق، ثم قال بخبث:

ـــ حسنًا! قولي جمادًا يبدأ بحرف الياء.

صرخت ليلا بسرعة ودون تفكير:

ـــ يمامة!

نظر إليها ديم بتعجب وضحك ممزوج بالحيرة:

ـــ قلتُ جمادًا.. ما بكِ اليوم؟! اليمامة طائر يطير!

في هذه الأثناء، صرخت نتاليا بحماس وهي تقفز:

ـــ ياقوت! جوهرة ياقوت.

تدخل إيفان وماكس معًا في تصحيحٍ لغوي بارد:

ـــ هي الياقوتُ وليست ياقوت.

نظر لهما يوهان بضيقٍ طفولي لا يناسب سنه وأنه أصبح أبًّا مدافعًا عن نتاليا، فتراجعوا على الفور قائلين باستسلام:

ـــ حسنًا، أنتِ محقة.

لكن المرح انقطع فجأة حين وصل إليهم صوت صرخة "فيرين" والدة ماكس، وهي تنادي بنبرةٍ غريبة هزَّت أرجاء المكان، اتجهوا جميعًا إلى غرفة "فيرين" ركضًا، والقلوب تخفق من أثر تلك الصرخة، ليجدوها تقف بخوفٍ خلف "ستيفان" وهي تشير بيدٍ ترتجف نحو فأرٍ أسود صغير يقبع في زاوية الغرفة.

في لحظة، تحول المشهد إلى فوضى عارمة؛ انتفضت "ليلا" و"لينا" وضمتا بعضهما بذعر، بينما قفز "إيفان" ليحتمي خلف "ديم" من شدة الرعب، فما كان من ديم إلا أن ضربه بقوة وهو يصيح:

- لا تقف خلفي هكذا، لقد أفزعتني أكثر من الفأر!

وسط هذا الضجيج، كان "يوهان" الوحيد الذي لم يتحرك من مكانه، بل كان ينظر إلى "نتاليا" بغيظٍ شديد وعينين متسعتين، ثم قال بنبرة اتهام واضحة:

- أليس هذا الفأر هو حيوانك الأليف الذي أضعتِهِ صباحًا؟!

ساد صمت مفاجئ قطعه نظرات الجميع لنتاليا، بينما كانت فيرين لا تزال متمسكة بستيفان وانتظر الجميع ردَّ نتاليا التي بدا على وجهها براءة مصطنعة لا تنطلي على أحد.

قالت نتاليا بكل هدوء وثبات كأنها لا ترى جيش الرعب الواقف أمامها:

- نعم، هو حيواني الأليف.

خطت خطواتها الواثقة نحو الزاوية، ثم انحنت وحملته بين يديها بلطفٍ شديد، ومسحت على ظهره ثم التفتت نحو "يوهان" ونظرت له ببراءة ساحرة جعلت الكلمات تتبخر من فمه.

ضحك يوهان بخفة على شجاعتها المباغتة ومنظر البقية المذعورين، ثم نظر إلى فيرين التي كانت لا تزال ملتصقة بستيفان وقال مطمئنًا:

- لا تقلقي، فهو أليفٌ جدًّا ولا يؤذي.

تنفس الجميع الصعداء، بينما عاد "إيفان" للوقوف بعيدًا عن "ديم" وهو يحاول استعادة هيبته المفقودة، وظلت فيرين تنظر للفأر بوجل، غير مصدقة أنَّ هذا الكائن الصغير كان سبب تلك الدراما العائلية.

حاولت "فيرين" أن تتحلى بالشجاعة لدقيقة واحدة، فاقتربت بخطوات حذرة وقلبٍ يرتجف وهي ترمق ذاك الكائن الصغير بنظرةٍ مترقبة. وما إن وجدته يرفع رأسه وينظر إليها بعينيه السوداوين الصغيرتين، حتى تبخرت شجاعتها تمامًا.

انتفضت بفزعٍ شديد، وأطلقت صرخةً مكتومة وهي تقفز لتحتمي خلف زوجها "ستيفان" مرة أخرى، متشبثة بظهره بقوة متناسية تمامًا وقارها وسنها الذي شارف على أواخر الأربعينات.

ضحك ستيفان وهو يربت على يدها بحنان، بينما غرق الأبناء في نوبة ضحك صاخبة على منظر والدتهم، وقالت "ليلا" وهي تحاول التقاط أنفاسها:

- يـا إلهـي! انظـروا، لقـد تحولـت فيـرين العظيمـة إلـى طفلـة فـي الخامسة بمجرد نظرة من هذا الصغير!

ظلت نتاليا ممسكة بفأرها، تنظر إليهم بتعجب، بينما تمتمت فيرين من خلف ظهر زوجها:

- أخرجوه من هنا الآن.. وإلا سأنام في الفندق الليلة!

ضمها ستيفان بحنان ونظر ليوهان بضحكة مكتومة:

___ خذ هذا الأليف بعيدًا عن زوجتي.

وضـحك بشـدة حتـى دمعـت عينـاه مـن منظـر زوجتـه المـذعورة، وقال وهو يحاول تهدئتها:

- يا عزيزتي، إنه مجرد حيوان صغير، وربما هو الآخر متعجب من صراخك!

أمَّـا الأبنـاء، فلـم يسـتطيعوا تمالـك أنفسـهم، وانفجـروا فـي موجـة ضحك هستيرية، خاصة ديم الذي قال من بين ضحكاته:

- يبدو أنَّه أُعجب بكِ، أو ربما يطلب منكِ اللجوء في غرفتك!

صرخت فيرين مجددًا وهي تشدد قبضتها على قميص ستيفان:

- ستيفان! لستُ في حالة تسمح بالمزاح، أخبر نتاليا أن تأخذ هذا الكائن وتختفي من أمامي الآن!

نظرت نتاليا للفأر ثم لفيرين وقالت بهدوء:

- أمي، إنه فقط يريد أن يلقـي عليكِ التحيـة، انظـري كيف يحـرك شاربيه.. إنه لطيف.

فيرين بغيظ وصوت مرتجف:

- لطيف في عينكِ أنتِ! خذيه يا نتاليا وإلا سأتبرأ منكِ ومن فأركِ هذا في هذه اللحظة!

أخيرًا، انسحبت نتاليا وهي تضحك بخفوت حاملةً فأرها، بينما ظلَّ ستيفان يواسي فيرين التي رفضت التحرك من خلف ظهره حتى تأكدت أنَّ الغرفة أصبحت خالية تمامًا من "العدو الأسود".

بينما كانت جدران القصر في الأعلى ترتجف من ضحكات الأبناء ومداعباتهم، كان المكتب في الأسفل عالمًا آخر يسيطر عليه صمتٌ جنائزي.

هناك، جلس ألكسندر خلف مكتبه الضخم، غارقًا في كرسيّه الجلدي، لا يحيط به سوى ضوء خافت وذكريات تأبى أن ترحل. كانت عيناه مثبتتين على صورة زوجته الموضوعة أمامه؛ صورة تلخص كل ما فقده.

لم يكن مجرد اشتياق، بل كان شوقًا أشبه بنارٍ مستعرة تأكل في حطام قلبه ببطء. لمس بأطراف أصابعه ملامح وجهها في الصورة، كان يراها في كل ركن من أركان هذا البيت، يسمع صدى صوتها في ضجيج أحفاده، لكن غيابها ترك فجوة لم يستطع لا الوقت ولا المال ولا القوة أن يرممها.

تنهد بعمق، تنهيدة خرجت محملةً بوجع سنين، وتمتم بصوتٍ أثقله الحنين:

- لم يخبُ لهيبكِ في صدري يومًا.. الجميع يظنون أنني القوي، ولا يعلمون أنني من دونكِ مجرد حطام رجل.

انفتحت بوابة الذكريات على مصراعيها، لتأخذه إلى يومٍ لا يُمحى من ذاكرته، يومٌ تبدلت فيه ملامح حياتهم للأبد.

فلاش باك...

كان يجلس في تلك الصالة العريقة، يقرأ جريدته المعتادة بينما تجلس "إيفا" بجانبه تمارس هوايتها في المطالعة بهدوء غلَّف المكان بسلامٍ لم يدم طويلًا. قاطع هذا الصمت صوت الخادمة التي اقتربت وهي تقول بنبرة رقيقة وحذرة:

- سيد ألكسندر.. فيكتور ابنك يقف بالخارج، ومعه طفلة صغيرة.

ما إن وقعت الكلمة على مسامع "إيفا" حتى انتفض قلبها بين ضلوعها، لم تنتظر حتى تسمع ردَّ فعل ألكسندر أو موافقته، بل وقفت بسرعة وهي تقول بعتابٍ ممزوج باللهفة:

- بالطبع! كيف تتركينه يقف بالخارج من الأساس؟ أدخليه فورًا!

كانت إيفا هي الروح التي تذيب جليد صرامة ألكسندر، ركضت نحو الباب وهي لا تعلم أنَّ تلك الطفلة الصغيرة التي ترافق ابنها، ستكون بداية لفصل جديد من الوجع والحب في تاريخ عائلة ألكسندر.

وجدته هو ابنها وطفلها العزيز ينظر لها بدموع وارتمى في أحضانها وهو يقول:

___ أعتذر أمي، أعتذر حقًّا كنتِ محقة، أنت دائمًا محقة.

أخذته في أحضانها وضمَّته باشتياقٍ جارف، سنواتٌ عديدة مرت كأنها دهور. ابتعد عنها فيكتور قليلًا ونظر إلى وجهها، وجد أنَّ

التجاعيد قد زادت بشكلٍ ملحوظ، لكن ذلك لم يزدها إلا وقارًا، ولم يستطع الزمن أن يخفي جمالها الطاغي الذي طالما ميزها.

كان ألكسندر يراقب المشهد بصمتٍ وصرامة مهتزة، حتى وقع نظر إيفا على تلك الطفلة الصغيرة التي كانت تختبئ خلف قدم فيكتور وتبكي بشهقاتٍ تمزق القلب.

انحنت إيفا بمستواها، ثم رفعت نظرها إلى ابنها وسألته بدهشة ممزوجة بالقلق:

___ كيف وصلت إلينا يا بني؟

نطق فيكتور بكلمة واحدة فسرت كل شيء:

- ستيفان أخي.

ضحكت إيفا بلطف، فقلبها كان يهمس لها دائمًا أنَّ الأخوة مهما ابتعدوا، تظل خيوطهم متصلة. ثم سكنت ضحكتها وهي تنقل بصرها إلى تلك الصغيرة التي تحمل عينين غريبتين وجذابتين، وهمست بتساؤل:

- أهي ابنتك؟

أومأ فيكتور برأسه مؤكدًا، فاحتضنتها إيفا بحنان وهي تتأمل جمالها الأجنبي الطاغي الذي ورثته، وسألتها برقة:

- لماذا تبكي يا صغيرة؟

لكن الطفلة لم تجب بهدوء، بل انفجرت بصراخٍ مزَّق سكون المكان:

- عايزة آسر.. أنا عايزة آسر!

تحولت ملامح فيكتور إلى الغضب الشديد، وجذبها من يدها بعنف وهو يصرخ فيها باللهجة المصرية التي اكتسبها في غربته:

- بطلي عياط! مفيش آسر تاني.. اسكتي بقى!

ازداد صراخ الصغيرة رعبًا، وارتمت تحتمي بأحضان إيفا وهي ترتجف. نظرت إيفا لابنها بغضب عارم لتعنفه، لكن الصدمة الحقيقية التي لجمت لسان الجميع كانت في ردِّ فعل ألكسندر.

تقدم ألكسندر بخطواته المهيبة، وجذب الطفلة من بين أيديهم ليضمها إلى صدره بقوة، ثم وجه نظرة حادة كالنصل إلى فيكتور وصرخ فيه بغضبٍ زلزل أركان الغرفة:

- اصمت! صوتك لا يرتفع مرة أخرى عليها!

ساد الصمت التام في الأرجاء، وتجمدت "إيفا" في مكانها وهي تنظر لزوجها بذهول لا يوصف؛ لكن صدمتها الأكبر كانت عندما انحنى بجسده الضخم ليصبح بمستوى الطفلة، وقال بنبرة حانية وباللغة المصرية:

- اسمك إيه؟

توقفت الصغيرة عن الصراخ تدريجيًّا، ونظرت له بعينيها اللامعتين بالدموع، ثم مسحت وجهها بكفيها الصغيرتين وقالت بصوت متهدج:

- تيا.

ابتسم لها ألكسندر ابتسامة نادرة لم يمنحها حتى لأبنائه، وضمها بحنان غريب جعل "فيكتور" يقف مذهولًا، ثم همس لها وهو يربت على خصلات شعرها:

- مين آسر؟

عادت الدموع تترقرق في عينيها، وقالت بكلمات خرجت بصعوبة بالغة ولكن بصدق هزَّ كيان الموجودين:

- آسر.. حياة تيا.

شهقت إيفا بتأثر وضمتها هي الأخرى، بينما كانت تنظر لـ "فيكتور" بنظرات حادة ومليئة بالاستفهام؛ مَن هو آسر الذي تعتبره هذه الصغيرة حياتها؟ ولماذا يستميت فيكتور في إبعادها عنه؟

خيَّم الصمت الثقيل على ردهة القصر، بينما كان ألكسندر يرمق ابنه بنظرات ثاقبة، وسأل ببرودٍ جليدي:

- مين آسر؟

زفر فيكتور بضيقٍ واضح، وحاول جاهدًا كتم انفعاله وهو يجيب:

- ده ابن خالها، وهي متعلقة بيه زيادة عن اللزوم.. شغل عيال يعني.

تحول بصر ألكسندر نحو الطفلة المنكمشة على نفسها، وظهرت في عينيه لمعة حزن لم يعهدها أحد، ثم وجَّه حديثه لفيكتور متسائلًا بقسوة:

- وجاي ليه؟

وقعت الكلمات على مسامع فيكتور كالصاعقة، وشعر بإهانة بالغة جعلته يرد بنبرة مجروحة:

- لو مش حابب وجودي، ممكن آخد بنتي وأمشي دلوقتي.

بسرعةٍ مباغتة، جذب ألكسندر "تيا" الصغيرة إلى جانبه كأنه يفرض حمايته عليها، وقال بحسم:

- أنت لو مشيت، هتمشي لوحدك.. هي مش هتمشي من هنا.

اتسعت عينا فيكتور بذهولٍ تام، وصاح بصدمة:

- دي بنتي! أنت بتقول إيه؟

ارتبك ألكسندر لثانية، وظهر التوتر في صوته وهو يحاول تبرير تمسكه الغريب بالطفلة:

- مش مبرر.. كونها بنتك مش معناه إنك تبهدلها معاك.

ضمتها إيفا إلى صدرها بحنانٍ جارف، وهي تشعر بارتجاف جسدها الصغير الذي لم يتوقف، وهمست بحزنٍ يمزق القلب:

- يا روحي.. دي بتترعش في إيدي!

نظر فيكتور لابنته بنظرةٍ خطفتها ملامح الحزن للحظة، لكنه سرعان ما استعاد قسوته المصطنعة وقال ببرود:

- معلش.. بكرة تتعود.

ولكن، مرت الأسابيع ولم تتعود "تيا"؛ كانت كلمات فيكتور أبعد ما يكون عن الحقيقة. رفضت الطفلة الطعام، ورفضت كل

محاولات التهدئة، وظلت تبكي وتصرخ بكل ما أوتيت من قوة حتى ذبل جسدها الصغير.

دلف ألكسندر إلى الغرفة وخلفه فيكتور، وقال ألكسندر بغضبٍ عارم:

- بنتك لا راضية تاكل ولا تشرب.. أنت كدة بتموتها بالبطيء!

أجاب فيكتور باضطرابٍ وتلعثم، وهو يحاول إقناع نفسه:

- كدة صح.. لازم تنسى.

فقد ألكسندر صوابه، وجذبه من ملابسه بقوة وهو يصرخ في وجهه:

- لا مش صح! بنتك بتموت فعلًا يا غبي!

لمعت الدموع في عيني فيكتور، فخفف ألكسندر من حدة قبضته ونظر إليه بغموضٍ مريب، ثم قال بصوتٍ منخفض:

- عندي شرطين.. عشان أحل الموضوع ده.

نظر له فيكتور بتوترٍ وقلق، بانتظار تلك الشروط التي قد تغير مصير "تيا" للأبد، ولكن قبل أن ينطق ألكسندر بكلمة..

بـاك...

أفاق ألكسندر من شرود ذكرياته الثقيلة على صوت خبطٍ قوي ومتسارع على باب المكتب. أذن بالدخول بوقاره المعتاد، ليدلف "ديم" وهو ينهج كأنه في سباق، وصاح مستنجدًا:

- جدي!

كان يشير إلى "إيفان" الذي دخل خلفه والغضب يتطاير من عينيه، ليصرخ إيفان بانفعال:

- تبًا لك حقًّا! أنت من بدأ بالأمر!

نظر ألكسندر إلى حفيديه، ورغم غيوم الماضي التي كانت تغطي روحه قبل لحظات، لم يستطع منع نفسه من الابتسام، فضحك بـ "غُلب" وهو يهز رأسه من شقاوتهم التي لا تنتهي، وقال بنبرة متهكمة:

- حتى وأنا في مكتبي مش هخلص من صداعكم؟ في إيه تاني؟

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

ساد صمت مطبق في الصالة بعد كلمات رائف، قبل أن تنفجر "هند" كبركانٍ ثار فجأة، وصاحت بصدمة وعدم تصديق:

- ريم حامل؟!

أجابها رائف بنبرة حادة ومحذرة، وعيناه تلمعان بتحدٍ:

- أيوه عرفت.. وهي فرحانة جدًّا، ياريت محدش فيكم يكسر فرحتها بكلامه.

لم تلتفت هند لتحذيره، بل التفتت لزوجها "عامر" وهي تصرخ بجنون والغل يملأ ملامحها:

- بنتك حامل! وطبعًا مقالتش لحد.. خبت عشان تقلب الطرابيزة علينا، أكيد ناوية تاخد كل حاجة باللي في بطنها ده!

هنا لم يعد رائف قادرًا على ضبط أعصابه، فصرخ بوجهها صرخة هزَّت أرجاء المكان:

- كفاية بقى! كفاية سم! هي مش عايزة فلوسكم ولا طمعانة في ورثكم.. هي كل اللي عايزاه إنها تربي ابنها في هدوء وبعيد عنكم وعن قرفكم!

كان "عامر" يقف صامتًا، ينظر للأرض بملامح لا يمكن تفسيرها، بينما كانت هند تتنفس بسرعة كأنها تخطط لخطوتها القادمة، وسط توتر كاد أن يحرق الغرفة بمن فيها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

___ ماما عايزة أكل لانشون.

ارتسمت على وجه تيا علامات التعجب، ومالت برأسها وهي تنظر لصغيرتها "كايلا" بذهول لم تخلُ منه روح الدعابة، ثم سألتها بضحكة خافتة:

- ليه.. هو في فار عايش معانا في البيت وأنا مش واخدة بالي؟

اتسعت عينا كايلا بذهول طفولي، وفتحت فمها بدهشة وهي تشير بسبابتها الصغيرة إلى صدرها، وقالت بنبرة تجمع بين الصدمة والعتاب:

- أنا فار يا ماما؟

لم تتمالك تيا نفسها، وانفجرت ضاحكة من قلبها، تلك الضحكة التي غابت عنها وسط الهموم، فجذبت ابنتها بقوة وضمَّتها إلى صدرها وهي تقبّل وجنتيها بحماس:

- يا روحي، ده أنتِ أحلى وأرق فار في حياتي كلها!

انتفضت تيا من مكانها بذعر، وقطعت ضحكتها مع كايلا حين دوَّى في أرجاء المكان صوت تكسير عنيف وقادم من جهة المطبخ، صوت ارتطام الزجاج بالأرض كان كفيلًا بأن يجعل قلبها يسقط بين قدميها.

اتسعت عيناها وقالت بنبرة ملأها القلق والخوف:

- أدهم؟

لم تنتظر ردًّا، بل اندفعت نحو المطبخ والآلاف من السيناريوهات السيئة تطارد مخيلتها، وهي تدعو الله ألا يكون صغيرها قد أصيب بأذى، وجدت تيا "أدهم" يقف في منتصف الفوضى، كأنه تمثال من الذهول، بينما تحاصره أكوام من الأكواب المهشمة التي تناثرت شظاياها في كل زاوية من زوايا المطبخ.

اندفعت نحوه بقلبٍ يخفق بشدة، وسألته بصوتٍ يرتجف من القلق:

- أنت كويس؟ فيك حاجة بتوجعك؟

رفع أدهم يده وأشار لها بهدوء غريب ورثه عن أبيه.

إنَّه بخير ولم يمسه سوء، تنهدت تيا براحة عميقة وحمدت الله في سرها، ثم حملته سريعًا بعيدًا عن مكان الزجاج المهشم حتى لا تُجرح قدماه الصغيرتان.

أجلسته على المقعد في الخارج وعادت لتنظف تلك الفوضى بلمسات سريعة ومضطربة، ثم التفتت إليه مرة أخرى، وظلت

تتفحص يديه ووجهه بعينين قلقتين، حتى تأكدت تمامًا أنَّ جسده الصغير نجا من هذه الشظايا.

سكن قلق تيا فجأة، وحلَّ محله ذهول تام وهي تحاول استيعاب منطق طفلها الصغير، فسألته وهي ترفع حاجبيها:

- إيه اللي حصل يا أدهم؟

ردَّ أدهم بمنتهى البراءة، وبملامح جادة للغاية كأنه يشرح قضية كبرى:

- كنت بحاول أحط لنفسي عصير فراولة، بس تقريبًا الفراولة مالهاش مزاج تتشرب النهاردة!

لم تستطع تيا الصمود أمام هذا المنطق الطفولي العجيب، فانفجرت ضاحكة بشدة حتى دمعت عيناها، ونظرت له بذهول وهي تقول:

- مالهاش مزاج؟ يعني الفراولة هي اللي وقعت الكوبايات دي كلها من نفسها عشان مش عايزة تتشرب؟

هزَّ أدهم رأسه بتأكيد، مما جعل تيا تضمه وهي لا تزال تضحك على خياله الواسع وطريقته في الهروب من الخطأ بدم خفيف.

تلاشت ضحكة تيا تدريجيًّا وتحولت ملامحها للجمود حين سمعت جملة أدهم، سألها الصغير بتعجب وهو يشير بإصبعه نحو وجهها:

- ماما.. في دم على مناخيرك.

رفعت يدها المرتجفة ببطء ولمست قطرات الدماء التي انسابت فجأة، وقالت بأعين مرتبكة تحاول مداراة خوفها أمام براءة طفلها:

___ ها لا؟ دي.. دي تلاقيه جرح عادي.

قال بطفولة:

___ هنادي بابا يشوفها.

تمسكت في يده سريعًا وقالت:

___ بابا لسه مش هييجي دلوقتي، وبعدين بلاش تقوله دي حاجة عادية يعني، مش هتقوله مش كدة يا دومي؟

هزَّ رأسه بالموافقة فضمَّته بلهفة، ثم تركتهم وذهبت إلى غرفتها. نظرت في المرآة بدموع ولاحظت ظهور كدمة أخرى زرقاء على ذراعها؛ كانت تلك الكدمات اللعينة هي أثر الكانسر الذي يسكن دمها وينهش في جسدها بصمت.

نظرت لتلك الكدمات بقلق وتوتر، كيف ستخفيها عنهم؟ وآسر بذكائه سيلاحظ؟ وإذا تخطت آسر فكيف ستتخطى لمار؟

كانت تتمشى في الغرفة بخوف ينهش في قلبها وهمست بدموع:

___ أعمل إيه بس يا رب.

جلست على طرف الفراش ووضعت كفَّها بين يديها وظلت تبكي بحرقة وشهقاتها ترتفع، ولكن فجأة اهتز هاتفها. نظرت له وجدت رسالة من آسر فتحتها بهدوء ودموعها ما زالت تنهمر، ولكن ابتسمت بسمة هادئة على وجهها الذي يكسوه الوجع وهي تقرأ:

___ فاكرة وأنتِ صغيرة لما كنت بجيبلك الشوكولاتة دي؟ مصدقتش لما لقيتها بصراحة، صحيح بحبك ومتزعليش لو لسه زعلانة، أنا آسف يا ستي حقك عليا.

نظرت لتلك الصورة التي أرسلها واتسعت ابتسامتها عندما وجدت بوكيه ورد وبه الكثير من تلك الشوكولاتة. ضحكت بعشق مغلَّف بدموعها وقهرتها، وضمت الهاتف إليها بقوة كأنها تختبئ في حضن آسر من مرضها اللعين.

>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>

الكثير منا يواجه المشاكل والصدمات والعقبات في حياته، فتلك العقبات في جوهرها هي المطارق التي تصقل معدن الروح، لتجعلك تشعر بقوة لم تكن تدركها، فتخرج منها وقد تلقنت درسًا جديدًا يضيء عتمة سيرك في هذه الدنيا. فالدنيا تشبه المركب، وأنت القائد الذي يقود تلك المركبة وسط أمواج الأقدار المتلاطمة؛ وعندما تواجه عقبة وتتخطاها، تشعر أنَّك أصبحت محترفًا بالتحكم في شراعك.. ولكن، ماذا لو لم تكن العقبة صخرة في البحر، بل كانت المركب نفسه؟ ماذا لو كان العائق هو.. الأهل؟

في عيادة للطب النفسي، حيث اللون الأبيض يغلِّف الجدران بسكينة مصطنعة تخفي وراءها ضجيج الأرواح المعذبة، كانت "رهف" تجلس وعيناها تدوران في المكان بهدوء مريب. وأمامها فتاة ملامحها هادئة تمامًا، ترتسم على وجهها بسمة مهنية رقيقة، همست بوقار:

___ رهف، أنتِ بقالك ساعة ساكتة.

سندت رهف رأسها على الكرسي، وأغمضت عينيها كأنها تحاول الهروب من انعكاس صورتها في الفراغ وهمست:

___ تقدري تعيشي طول حياتك بوش وشخصية مش شخصيتك؟

ردَّت الطبيبة وهي تدوِّن شيئًا في دفترها، كأنها ترسم ملامح الوجع:

___ أكيد مش هقدر، لأن الإنسان بطبيعته يميل للفطرة اللي بتديه السلام، مش القيود اللي بتكتف، الروح يا رهف كائن حر، والتمثيل المستمر هو انتحار بطيء للذات.

نظرت لها رهف، وبداخلها أمواج من المشاعر المضطربة، فمبدأها الراسخ في الحياة هو ألا تمنح ثقتها لأحد، فالناس في نظرها مجرد عابرين خلف أسوار مصلحتهم. لكن الوجع اليوم كان أثقل من الكتمان، فقالت بمرارة وهي تمزق حجاب أسرارها:

___ أنا بقى قدرت.. بقيت شخصية تافهة، كيان بلا ظل، ولا قيمة. قللت من نفسي كتير في الجري ورا واحد عمري ما حبيته ولا شوفته غير أخ.

نحن أحيانًا نرتدي التفاهة كدرع، لنحمي أنفسنا من نصل الحقيقة.

تعجبت الطبيبة وقالت بنبرة استيضاح:

___ أنتِ مش بتحبي ابن عمك؟

أومأت برفض تام، كأنها تطرد فكرة غريبة عنها:

___ آسر بالنسبالي مش أكتر من أخ، زيه زي جاسر وسيف.. بس، كنت بغير لما تيا اتولدت.

عقدت الطبيبة حاجبيها وهمست بتعجب:

___ مين تيا؟

نظرت لها رهف لثوانٍ، وعيناها تلمعان بذكرى قديمة وقالت:

___ مش مهم تعرفي هي مين، بس أنا مكنتش بغير عليه هو، قد ما كنت بغير من "الحالة" اللي كانت هي فيها.

___ وإيه اللي يخليكي تغيري منها؟

___ هو.. اهتمامه بيها كان ملوش حدود، مكنش حد بيتجرأ إنه يزعلها في بيت الكل فيه بيخاف من جدنا، أفتكر إن أول مرة آسر زعق فيها قصاد جده، كانت عشانها.

ضحكت رهف وهي تسترجع ذلك المشهد الذي انطبع في ذاكرتها كوشم لا يمحى، وبدأت تقصُّ عليها ما حدث.

فلاش باك:

كانت تيا في الخامسة من عمرها، ولكن في لحظة هرولة سريعة، اصطدمت بقطعة أثاث فخمة، لترتطم بالأرض وتتهشم القطعة الأثرية معها صانعة دويًّا مرعبًا في صمت القصر.

صرخ عثمان بغضب زلزل المكان:

___ تياااااا!

انتفضت تلك الصغيرة، وظلت عيناها الملونتان تبحثان عن ملاذها الوحيد "آسر"، لكنه كان بالخارج. احتمت خلف والدتها سارة التي قالت بارتجاف:

___ معلش يا بابا، مش قصدها.

صرخ عثمان ووجهه يتصاعد فيه الغضب كبركان خامد انفجر فجأة:

___ ليه عامية؟

ثم تقدم بجمود نحو لعبتها المفضلة، تلك التي تمنحها السكينة، وأمسك بها وقذفها أرضًا لتتهشم أمام عينيها المذعورتين. بكت الصبية بصرخات مزَّقت نياط القلب، فصاح الجد بغلظة:

___ على أوضتك حالًا!

هرولت بدموعها إلى غرفتها، وقلبها الصغير ينزف حزنًا على "صديقتها" اللعبة التي تحطمت بدم بارد.

بعد ساعتين، عاد آسر ابن السبعة عشر عامًا ليجد القصر غارقًا في صمت ثقيل. كان يسأل نفسه: أين ضجيج الفرح؟ أين ضحكات فراشته؟

جذبه سيف بقلق، فقال آسر بضيق:

___ إيه يا عم، هو أنا خطيبتك عشان تمسكني المسكة دي؟

رمقه سيف باشمئزاز:

___ وأنا أخطبك ليه إن شاء الله!

___ لخص.. تيا فين؟ مش سامع صوتها، نامت ولا إيه؟

قالها آسر بحنين، فالحياة بالنسبة له كانت تبدأ بثرثرة تيا عن يومها. نظر له سيف بتوتر وقصَّ عليه ما حدث. لم يتكلم آسر،

بل تحول وجهه لكتلة من الصخر. صعد لغرفتها، فتح الباب برقة، فوجدها نائمة والدموع عالقة بين رموشها كحبات لؤلؤ مكسورة.

___ تيتو.. اصحي يا روحي، أنا آسر.

فتحت عينيها، وما إن رأته حتى ارتمت في أحضانه وانفجرت في نحيب مرير:

___ كسرها.. اللعبة باااظت!

ضمها آسر بقوة، في حضن يختصر كل معاني الأمان وهمس:

___ هجيبلك واحدة تانية والله.

أخذ يدها وهبط بها للأسفل، واقتحم مكتب الجد بعنف لم يألفه أحد، ودلف وهو يصرخ في وجه الكبرياء:

___ أنت كسرت حاجتها ليه؟

نظر له الجد بلا مبالاة:

___ عامية.. ماشية تخبط في أي حاجة.

صرخ آسر بذهول:

___ دي طفلة! فاهم يعني إيه طفلة؟ دي لسة بتكتشف الدنيا، والمفروض نفهمها مش نكسر قلبها..

قاطعه الجد بضحكة ساخرة جافة:

___ خليك ناشف يا آسر، مالك أنت ومال تربيتها؟

هنا اشتعل فتيل التمرد في روح آسر، صرخ بعنف:

___ زعلت عشان حتة أنتيكة ملهاش لازمة؟ طيب وريني بقى هتوقفني إزاي!

وبدأ آسر يحطم كل مقتنيات المكتب، قطعة تلو الأخرى، وتيا تنظر إليه بضحكات صافية، كأنها تستعيد كرامتها المسلوبة من خلال يدي بطلها. صرخ عثمان:

___ أنت اتجننت رسمي!

لم يعره آسر اهتمامًا، حتى صار المكتب ركامًا من الزجاج والذكريات المحطمة. حملها آسر برفق ومشى بها فوق الحطام لكي لا تدمى قدماها. خرج ليجد جاسر وسيف في حالة من الذهول.

همس جاسر:

___ يخرب بيت كدة، ده جدك هيعمل منك شاورما سوري!

ضحك سيف بتشفي:

___ وربنا آسر جدع، جدك يستاهل، هو فقد احترامه عندنا من زمان.

صعدوا جميعًا لغرفة تيا، وكان آسر يحاول ترميم بقايا لعبتها بيأس محبب. رفع نظره ليجدها تضحك بمكر وسعادة، فانفجر ضاحكًا وقرص وجنتها:

___ أنتِ بتضحكي يا تيا؟ مش كنتِ بتعيطي؟

هزَّت رأسها بالنفي، فقال سيف:

___ ده أنتِ سوسة!

ردَّ آسر بتحدٍ:

___ وأنت مالك؟ تعمل اللي هي عايزاه.. حد ليه شوق في حاجة؟

نظرت تيا لسيف وأخرجت لسانها بمشاكسة، فصرخ سيف:

___ يووووه، البت دي مش بتطيقني ليه؟ ما جاسر قاعد اهو! بقيتي نسخة من آسر على فكرة.

أومأت تيا ببسمة جميلة ونظرت لآسر، الذي مسد على شعرها وقال بيقين:

___ هتبقى أحسن مني كمان، مش كدة يا صغنن؟

باك...

ضحكت رهف بمرارة بعد انتهائها:

___ كانت دايمًا بتعمل اللي هي عايزاه ومحدش يعرف ينطق بحرف.. وأول واحدة كانت صاحبتها كان اسمها.. أه صح، لمار و.....

توقفت الكلمات في حنجرة رهف كأنها نصل حاد. الجامعة.. المشاجرة.. مكتب سارة.. تيا و.. لمار!

الأسماء تدافعت في عقلها كقطار سريع. هل يمكن؟ هل الصدفة تلعب هذه اللعبة القذرة؟

___ لا لا.. مستحيل، أكيد مجرد تشابه أسماء.. بس هي قالت "تيا عاصم"!

في تلك اللحظة، شعرت رهف أنَّ الزمان والمكان يتداخلان. أنَّ الماضي الذي حكت عنه منذ قليل، يقف الآن أمامها بملامح "تيا" الطالبة التي كانت تحتقرها. ولكن لم تكن تعلم أنَّ مهما أهلتِ عليها تراب النسيان، ستخرج يومًا لتطالب بحقها في الظهور.

ضغطت رهف على رأسها بشدة، وشعرت بجدران العيادة البيضاء تضيق عليها ككفن. نهضت كالمذعورة، خطفت حقيبتها وهرولت للخارج، تاركةً وراءها طبيبة مذهولة، وماضيًا بدأ يفتح أبواب الجحيم على الحاضر.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في أوكرانيا، داخل قصر عائلة "كوفالينكو" الذي تفوح منه رائحة العراقة والأصالة، كانت كاترينا ترقب تاراس بتعجب؛ فشروده العجيب لم يكن معتادًا، بينما كان أندريا يغرق في ملامح زوجته بنظرات تفيض عشقًا وشغفًا.

في تلك الأثناء، كان الصغير "ليو" يجلس بجانب جده، يدفعه فضوله الطفولي لسؤالٍ يحمله في عقله:

___ جدي، لماذا أُدعى ليو أندريا بترو كوفالينكو، وليس ليو أندريا دانيلو كوفالينكو؟

ضحك الجد ضحكةً وقورة حملت معها ذكريات سنواتٍ طوال وقال:

___ لأنني كنت أعشق والدي يا صغيري، والأسماء ليست مجرد حروف، بل هي أمانة نحملها لكي لا تموت ذكراهم، أردتُ لاسمه أن يظل حيًّا يتردد في أرجاء هذا البيت.

أومأ ليو ببسمة، ثم التفت لجدته بعينين تلمعان بالفضول:

___ جدتي كاترينا، كيف تعرفتِ على جدي؟

ارتسمت على وجه كاترينا حمرة خجلٍ لم يمحُها الزمن، وبدأت تسرد لهما حكايةً من زمنٍ كان الحب فيه يُكتب بماء الذهب:

___ كنت فتاة في التاسعة عشرة من عمري، كانت الحياة أمامي ككتابٍ لم يُفتح بعد. كنت أنا وإيفا صديقتين مقربتين بشدة -رحمة الله عليها- ومعنا فتاة ثالثة تدعى مريم. كانت مريم مصرية، وبالطبع إيفا كانت تحبها مثلي تمامًا، فقد كانت تعشق مصر وأهلها بقلبٍ صادق. وفي ذلك الوقت، انتقل ألكسندر ودانيلو إلى جامعتنا بعد عودتهما من أمريكا إلى أوكرانيا.

انتبه تاراس فجأة، وجذبته تفاصيل الحكاية فسأل بفضول:

___ ومريم؟ ماذا جاء بها إلى هنا؟

قالت كاترينا بهدوء وهي تسترجع ملامح صديقتها:

___ جاءت بمنحة دراسية، كانت ذكية ومختلفة. في اليوم الأول، تعرَّف ألكسندر على إيفا، كانت تتجاهله بكبرياء أنثوي، لكنه كان كالإعصار، لم يتركها حتى استسلمت تمامًا لوقع عشقه. أما أنا ودانيلو، فقد سقطنا في فخ العشق من النظرة الأولى؛ كان دانيلو رومانسيًّا ومرهف المشاعر، عكس ألكسندر تمامًا.. أو هكذا كنَّا نظن جميعًا، حتى أثبت لنا ألكسندر أنَّه معها يصبح شخصًا آخر تمامًا، كان يعشقها بكل ما يملك من قوة..

شرد تاراس مرة أخرى، كأن روحه غادرت القصر لتبحث عن طيفٍ بعيد، وهمس بصوتٍ كاد لا يُسمع:

___ إذن، هل من الممكن أن تحبني؟

في تلك اللحظة، ساد الصمت لثانية قبل أن تتوجه الأنظار إليه، سأله دانيلو بنبرة حملت الكثير من الخبث والحنان:

___ من هي؟

ارتبك تاراس وتلعثم، وقال محاولًا التبرير:

___ ها.. لا، لم أقصد.. أنا أعني.. أنا..

انفجر أندريا ضاحكًا وهو يشير إليه:

___ اتركوه، انظروا إليه.. لقد أصبح وجهه بلون الدماء!

استشاط تاراس غضبًا من إحراجه، فتناول وسادة قطنية كانت بجانبه وقذفها نحو أندريا بقوة وهو يتمتم:

___ تبًا لك حقًّا!

بينما استمر أندريا في موجة ضحكه، ينظر إليه بمشاكسة، كأنه يخبره أنَّ للقلب لغةً تفضحها الأعين مهما حاول اللسان الإنكار.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

وعلى الجانب الآخر، حيث الهدوء يلف المكان بنعومة..

___ تفتكر هنسميه إيه لو ولد؟

سألت ريم بفضول هادئ وهي تجلس أمام جاسر في ذلك الكافيه الذي بدا كأنه معزول عن صخب العالم. نظر إليها جاسر برقة وقال بصوتٍ دافئ:

___ ممكن راكان أو ريان.

نطقت ريم الأسماء بلسانٍ يقطر عذوبة، ثم قالت بإعجاب:

___ حلو أوي.. وهيبقى أحلى لو شبهك أصلًا.

ضحك جاسر وهمس بعشق:

___ أصلًا! بس أنا نفسي في بنت تكون نسخة منك على فكرة.

ابتسمت ريم برضا وقالت:

___ كل اللي ربنا يجيبه حلو.

ساد الصمت للحظات، قبل أن يقطعه صوت رجولي جهوري يفيض بالحماس:

___ جاسر! فينك يا ابني؟

رفعت ريم نظرها بعفوية، لكن الأرض كادت أن تميد بها.. تجمدت الدماء في عروقها وهي تحدِّق إلى ذلك الوجه؛ إنه هو، الضابط الذي حقق في قضيتها، الرجل الذي رأى انكسارها يومًا خلف أسوار التحقيقات. خفضت عينيها للأرض بسرعة، وشعرت ببرودة تسري في أطرافها، وخوفٍ ينهش صدرها من أن تسبب لجاسر حرجًا أمام صديقه.

نهض جاسر بترحيب حار وضمَّه بقوة، وظلا يتبادلان كلمات المودة، حتى التفت جاسر لريم وقال بفخر:

___ دي ريم.. مراتي.

وقع الاسم على مسامع يوسف، فنظر إليها بهدوء وثبات، ثم رسم بسمة مهذبة على وجهه وقال:

___ أهلًا مدام ريم.. أنا يوسف، صاحب جاسر الروح بالروح.

للوهلة الأولى، خُيِّل إليها أنَّه لا يتذكرها، أو ربما هي مجرد ملامح عابرة في آلاف القضايا التي تمر عليه. تنفست الصعداء قليلًا، وابتسمت بهدوء مصطنع وهي ترد السلام، لكن كفوفها كانت ترتعش تحت الطاولة، ترتعش بصدقٍ لا تملكه ملامح وجهها الثابتة.

وبعد تلك الجلسة، انصرف يوسف بهدوء، تاركًا خلفه دوامة من القلق تفتك بصدرها. نظرت إلى يدها التي لم تتوقف عن الاهتزاز، ثم همست بصوتٍ مرتعش كغصنٍ في مهب الريح:

___ هو... هو صاحبك ده ظابط.. صح؟

كان جاسر ممسكًا بكفها، يقودها نحو السيارة بانشغال، ورد بعفوية:

___ آه ظابط، ومشهور بكفاءته جدًّا.. بس ليه بتسألي؟

في تلك اللحظة، انتفض كفها بين يديه فجأة، ارتعاشة قوية ومباغتة جعلت جاسر يتوقف عن السير وينظر

إليها بتعجب وقلق:

___ مالك يا ريم؟ إيدك بتترعش كدة ليه؟

ابتلعت ريقها بصعوبة، وحاولت جاهدة لمشتتات روحها أن تجتمع، وقالت بتوتر لا تخطئه عين:

___ لا.. أصل يعني.. أنا..

تفرَّس جاسر في ملامحها، وقرأ خلف ارتباكها حكاية ترفض الخروج. أرخى قبضته على يدها ليمسد عليها بحنان، وقال بصوتٍ منخفض يبعث الطمأنينة في أركان قلبها:

___ مش اتفقنا نحكي لبعض كل حاجة؟ مخبية إيه يا ريم؟

أحنت رأسها، وقصَّت عليه الأمر بصوتٍ خفيض، تخبره أنَّ يوسف كان الشاهد على أسوأ أيام حياتها، الرجل الذي رآها وهي تُساق كضحية في أروقة التحقيق. ختمت حديثها بهمسٍ يملأه الانكسار:

___ أنا أسفة لو سببت لك إحراج.. خايفة شكلي قدام صاحبك يكون..

لم تكمل كلمتها، فقد أحاط وجهها بكفوفه الدافئة، رافعًا رأسها لتنظر في عينيه التي تلمع بالصدق، وهمس برقة بالغة:

___ إحراج إيه يا هبلة؟ أنا فخور بيكي لأنك قدرتي تطلعي من الضلمة اللي كنتِ فيها، ولأنك أقوى من أي ظرف مر عليكي.. ودة كفيل يخليني طاير بيكي أساسًا.

نظرت له وعيناها قد غرقتا في بحر من دموع العشق، دموعٍ لم تكن تعبيرًا عن الحزن، بل كانت تطهيرًا لكل مخاوفها السابقة، وهمست بصوتٍ خرج من أعماق روحها:

___ شكرًا إنك في حياتي بجد.

كانت كلماتها كبلسمٍ وضعته على قلب "جاسر"، فلم يجد ردًّا يوازي صدق ما شعرت به سوى أن يضمها بقوة، وهمس في أذنها بصوتٍ حمل ثقل الحب وصدق الوعد:

___ شكرًا إنك لسة معايا.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في شركة الطنطاوي، حيث الصمت يقطعه فقط صوت رنين الهواتف المكتوم، كان "سيف" يجلس خلف مكتبه بهيبته المعتادة، غارقًا في أوراقه، بينما كانت سكرتيرته تقف بجانبه محاولةً لفت انتباهه بشتى الطرق؛ من حركاتٍ متصنعة ونظراتٍ تظنها جذابة، لكنها كانت تخطئ الهدف تمامًا، فسيف كان في عالمٍ آخر لا يراه سوى من يملك مفتاح قلبه.

فجأة، وبلا مقدمات، فُتح الباب بعنفٍ أعلن عن قدوم عاصفة. دلفت داليا بخطواتٍ واثقة تحمل في طياتها بركانًا يوشك على الانفجار. كادت أن تتحدث، لكن عيناها سقطت على السكرتيرة التي تحوم حول سيف، فتبدلت ملامحها في ثانية واحدة إلى برودٍ جليدي ونظراتٍ حارقة كفيلة بصهر الحديد.

اقتربت داليا بخطى ثابتة، وهمست بصوتٍ رخيم يحمل نبرة الآمر الناهي:

___ اطلعي برة.. ولما أخلص كلام، هبقى أقولك.

خرجت السكرتيرة بالفعل، يجرجرها الخزي ووجهها يشتعل كجمرة من الغيظ، بمجرد أن أُغلق الباب، انفجر بركان داليا بصراخٍ حاولت فيه تغليف غيرتها برداء المنطق:

___ هو سيادتك سايبها مقربة ليك عادي كدة؟ ومستني إيه كمان؟

اتسعت ابتسامة سيف، تلك الابتسامة التي تدرك تمامًا مواطن ضعفها، ونهض ببرودٍ مستفز محبب، وهو يهمس بنبرة رخيمة تفيض بالثقة:

___ غيرانة؟

شاحت بوجهها بعيدًا وهي تزم شفاهها بغطرسة أنثوية وهمست:

___ مش غيرانة على فكرة!

اتسعت ابتسامة سيف وهو يتأمل تقاسيم وجهها التي ارتسمت عليها خريطة الغضب الجميل، وهمس بنبرة تقطر سخريةً محببة:

___ واضح فعلًا إنك مش غيرانة.. نهاااائي!

لم تحتمل داليا بروده الذي يغذي نيرانها، فصرخت بغيظٍ طفولي وهي تدفعه بعيدًا:

___ رخممم!

لم يزدها صراخها إلا جاذبية في عينيه، فانفجر ضاحكًا بصدق، تلك الضحكة التي لا تخرج إلا لها:

___ خلاص.. مش هضايقك تاني. ها.. قوليلي بقى، كنتِ عايزة إيه؟

رفعت حاجبها بتحدٍ، ونظرت إليه بعينين تلمعان بالعتاب والتمرد، وقالت بنبرة حادة:

___ ليه.. هو سيادتك متضايق إني جيت؟ ولا قطعت عليك الشغل المهم؟

ضحك سيف ضحكةً صافية، ثم انحنى وقبَّل رأسها برقةٍ متناهية، كأنه يراضي طفلته التي أفسد غضبها جمال يومه، وهمس لها بعذوبة:

___ لا والله ما قصدي.. خلاص بقى، افردي وشك ده، الدنيا مابتنورش غير لما بتضحكي.

حاولت داليا جاهدة أن تحافظ على قناع الجدية، فكتمت ابتسامتها التي أبت إلا أن تظهر على طرفي شفتيها، لكن سيف لمح بريق الرضا في عينيها؛ فقرر أن يكسر آخر حصون كبريائها، وبدأ يداعبها بمشاكسة يزغزغها كما يفعل الصغار. لم تستطع المقاومة أكثر، فانفجرت في نوبة ضحكٍ رنانة، ضحكةٍ أزاحت كل توتر المكتب، وقالت وهي تحاول التقاط أنفاسها وسط ضحكاتها:

___ سيف.. بس! إحنا في الشغل، الموظفين هيقولوا علينا عيال والله!

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

وفي مكانٍ آخر، حيث السكون يسبق العاصفة..

كانت "تيا" تجلس على الأريكة، يلفها هدوءٌ كانت تظنه سلامًا، لكن صوتًا مفاجئًا لضرباتٍ متسارعة على باب الفيلا اخترق ذلك الصمت. خفق قلبها بخفة، وظنت للوهلة الأولى أنَّها "لمار" قد عادت لسببٍ ما. اتجهت نحو الباب بخطواتٍ واثقة، ويدها تمتد لفتح القفل، والابتسامة كانت تتهيأ للارتسام على وجهها..

ولكن، ما إن فُتح الباب سقطت الابتسامة في بئر الذهول؛ فالصدمة كانت أكبر من أن يستوعبها عقلها حين وجدت أمامها...

في هدوء غرفتها، كانت "لمار" تجلس، وضوء هاتفها ينعكس على ملامحها المندمجة فيما تشاهده. كانت تقلب في صفحات التواصل الاجتماعي هربًا من ضجيج أفكارها، حتى استوقفها مقطع فيديو لامرأة تتحدث بهدوء وثقة، قالت المرأة بنبرة حكيمة:

"في بنات كتير فاكرة إن لما الراجل يخليها هي أول أولوياته، إن كدة هيكملوا وحياتهم هتبقى سمنة على عسل.. بس لا! الرجل لازم يكون ليه حياة تانية؛ شغل، أهل، وحتى طموح بيجري وراه. الرجل اللي بيتخلى عن أحلامه بسهولة عشان يرضيكي، هتحسي بعد شوية إنه فقد بريقه، وبقى شخص روتيني ملوش كيان يشدك ليه".

شردت "لمار" بعيدًا عن شاشة الهاتف، وقفزت إلى مخيلتها صورة تيا وآسر. نعم، لقد كان هذا الفيديو يصفهما بدقة؛ فآسر الذي يذوب عشقًا في أدق تفاصيل فراشته، هو نفسه الرجل الذي لم يتنازل يومًا عن هيبته أو شغفه بعمله الذي كبر معه منذ نعومة أظفاره.

تذكرت كيف أنَّ قراراته نابعة من رؤيته الخاصة، وكيف أنَّ عمله يمثل له محرابًا لا يجرؤ أحد على المساس به.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

تسمَّرت "تيا" في مكانها، وشعرت. تلاشت ملامح العالم من حولها ولم تبقَ سوى رهف الطنطاوي التي تقف أمامها بنظراتٍ مضطربة تشتعل فيها نيران الحيرة واليقين معًا. تفوهت رهف بهدوءٍ اخترق سكون الفيلا:

___ تيا.. أنتِ تيا.. صح؟

في تلك اللحظة، تمنت تيا لو أنَّ الأرض تنشق وتبتلعها، أو أن يكون هذا مجرد كابوسٍ عابر، لكن نبرة رهف الواثقة كانت كفيلة بتحطيم كل جدران الإنكار. ردَّت تيا ببرودٍ مصطنع يحاول حماية ما تبقى من سرها:

___ أيوه أنا تيا عاصم.. خير، عايزة حاجة؟

لم تبالِ رهف ببرودها، بل صرخت بصوتٍ يملأه اليقين الممزوج بالألم:

___ لا! أنتِ تيا.. بنت عمتي سارة!

وقعت الكلمات على مسامع تيا كالسكاكين التي تمزق الستار عن ماضٍ حاولت جاهدة دفنه. ارتعشت أوصالها وهي تحاول المقاومة بهمسٍ متقطع:

___ لا.. أكيد بيتهيألك.. أو..

لم تدعها رهف تكمل؛ ففي حركة مفاجئة، اندفعت نحوها وضمتها بقوةٍ زلزلت كيان تيا. ضمةٌ لم تكن للعناق بقدر ما كانت صرخة استنجاد، خرجت معها كل أحزان رهف وانكساراتها التي كتمتها طويلًا. همست رهف وسط شهقاتها:

___ لا.. بلاش كذب.. أنا واثقة إنها أنتِ!

ظلَّت تيا متجمدة، يداها معلقتان في الهواء وصدرها يضيق من وطأة المفاجأة. كيف لرهف، التي لم تكن يومًا قريبة منها، أن تمنحها هذا الدفء؟ ببطءٍ شديد، وبدافعٍ من فطرة الرحمة والقرابة

التي لا تموت، بدأت تيا ترفع كفها المرتعش، وضمتها. ضمتها وهي لا تزال تحت تأثير الصدمة، متسائلةً في سرها: "كيف انفرط عقد السر بهذه البساطة؟".

ابتعدت رهف عنها ببطء، ودموعها ترسم مساراتٍ من الوجع على وجهها، وهمست بنبرة عتابٍ يمزق القلب:

___ مقولتيش ليه إنك هي؟ ليه يا تيا خبيتي؟ لـ...

لم تكمل جملتها؛ فقد ساد صمتٌ مفاجئ وثقيل حين وقعت عيناها على ما خلف تيا. تخطتها بخطواتٍ مهتزة ودلفت إلى عمق الصالة، لتتسمر أمام صورةٍ كبيرة معلقة بعناية؛ صورة تجمع تيا وآسر في كادرٍ واحد يفيض بالحب، وبينهما أطفالٌ يحملون ملامح الاثنين. همست رهف بصوتٍ يكاد لا يُسمع، كأن عقلها يرفض تصديق ما تراه عيناها:

___ آ... آسر؟ طب.. طب إزاي؟ آسر وتيا؟!

كان السؤال معلقًا في الهواء، ينتظر إجابة تبرر هذا التداخل العجيب في الأقدار، ولكن الرد لم يأتِ من تيا المتجمدة مكانها، ولا من آسر الذي غاب عن المشهد، بل جاء الصوت من خلفهما، صوتًا جعل كيان تيا ينتفض ورهف تلتفت بذهول.. صوتًا لشخصٍ لم يكن من المفترض وجوده هنا الآن!

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كانت ليلا تجلس في الحديقة، يلفها سكون المساء الفاخر، وبين يديها روايةٌ تبدو كأنها كُتبت لتقرأ روحها، فتعثرت عيناها بجملةٍ جعلتها تتوقف عن التنفس للحظة، جملة تقول:

الحبُّ أمانةٌ في عُنق الساعين، لا يكتملُ بالذوبان بل بالتوازي، فالقلبُ الذي يخشى الله في حُبِّه لا يرضى لمحبوبهِ إلا الرفعة والمقامَ السامي. هو توازنٌ بين مودةٍ تملأُ الروح طمأنينة، وطموحٍ يُعمر الأرض ويُعلي الدرجات، ليكون كلُّ طرفٍ لصاحبهِ سبيلًا نحو الجنة ودافعًا للنجاح.

شردت ليلا، وجاء خلف أجفانها طيف "ديم"؛ ذاك المعشوق الذي حبست حبه في زنزانة قلبها، ولم تفتح بابه إلا لشقيقتها تيا. استحضرت كلمات كوكب الشرق، فأغمضت عينيها وبدأت تدندن بصوتٍ خفيض، صوتٌ لم يكن يطمح للكمال الغنائي، بل كان يبحث عن "الأمان".

لم تكن تعلم أنَّ ديم يقف خلفها، يتجرَّع كل نبرة من صوتها كأنها ترياقٌ لروحه المتعبة، حتى همس باسمها كنسمةٍ باردة في هجير الصيف:

___ ليلا..

التفتت إليه ببطء، لتصطدم بعينيه البنيتين اللتين تشتعلان عشقًا وهيامًا، فقالت بشرودٍ سلَبَها ثباتها:

___ ماذا؟

اقترب ولكن قبضة القدر كانت أسرع؛ حين شعر بلمسة "فيكتور" القوية والغيورة على كتفه، تلك الربتة الأبوية التي تحمل في طياتها تحذيرًا صامتًا، وسأله بنبرة حادة:

___ ماذا تريد؟

لم يهتز ديم، بل نظر إليه بثباتٍ يليق برجلٍ يعرف قيمة ما يطلب، وقال بكلماتٍ واضحة:

___ أنتَ تعلم يا فيكتور..

ردَّ فيكتور ببرودٍ جليدي، وهو يضيق الخناق بنظراته:

___ لا.. أنا لا أعلم شيئًا، ولن أعلم ما دمتُ واقفًا هنا.

ضاق صدر "ديم" من مراوغة فيكتور، فاقترب منه خطوة واحدة، تلك الخطوة التي تختصر المسافة بين التحدي والاحترام، وهمس بنبرةٍ خفيضة لكنها حادة كالشفرة، اخترقت هدوء الحديقة:

___ لقد كنتَ تحب في شبابك، وتعرف تمامًا كيف يشتعل القلب.. فلماذا تقف الآن في طريقنا كالسكين؟ ها.. أخبرني يا فيكتور، لماذا تُحرّم علينا ما استبحتَه لنفسك يومًا؟

سقطت الكلمات كالصاعقة على فيكتور، ساد صمتٌ رهيب، ولم تكن ليلا سوى شاهدةٍ بقلبٍ يرتجف على هذا الصراع بين رجلين؛ أحدهما يدافع عن ممتلكاته الأبوية، والآخر يقاتل من أجل مستقبله.

في حركةٍ حملت كلَّ معاني الاحتواء والامتلاك، سحب فيكتور ابنته إلى صدره، وقال بنبرةٍ غلبت عليها مرارة الخبرة:

___ لأنني لن أسمح بتحطيم قلبها.. لقد أحببتُ يومًا، ولأنني عرفتُ كم يكون الوجعُ مميتًا حين تنكسر الأحلام، أقفُ أنا اليوم كالسد المنيع أمامها.

وقعت هذه الكلمات على مسامع "ليلا" كوقع الرعد في ليلةٍ صافية؛ تسمَّرت في حضن والدها، لم تشغل بالها بقسوة والدها، بل دارت في عقلها جملة واحدة زلزلت كيانها: "هل يعني هذا أنَّ ديم يحبني؟". يا الله.. كيف؟ ومتى؟ كانت تظن أنَّ مشاعرها سرٌّ مدفون، وإذ بها تجدها قضيةً يتصارع عليها رجلان أمام عينيها. نظرت إلى ديم بعينين ملؤهما الذهول، كأنها تراه لأول مرة؛ تراه "عاشقًا" يواجه إمبراطورًا كفيكتور من أجلها.

ساد صمتٌ جليدي، قطعه همس "ديم" الذي جاء كطلقةِ رصاصٍ باردة اخترقت دفاعات فيكتور:

___ لم تفعل ذلك عندما طلب آسر الزواج بتيا..

تسمَّر جسد فيكتور، وخرجت منه تنهيدة طويلة. أرخى قبضته قليلًا عن كتف ليلا، وقال بصوتٍ خفتت فيه نبرة السلطة وحلَّت محلها بحَّة الندم:

___ آسر كان الأحق بها..

ثم ساد صمتٌ مريب، قبل أن يهمس بانكسارٍ لم تعهده ليلا في والدها قط، كأن قناع القوة قد سقط ليكشف عن رجلٍ محطم من الداخل:

___ كان أحقَّ بها.. أكثر مني.

ساد صمتٌ طويل، لكنه لم يكن صمتًا عاديًا؛ بل كان صمتًا موحشًا، ذاك النوع من السكون الذي يسبق العواصف المدمرة، أو الذي يتلو الجنائز. لم يعد هناك صوتٌ سوى حفيف الأشجار الذي بدا كأنه يهمس بأسرار الماضي التي فُضحت للتو.

في ركنٍ يغمره الضوء المنبعث من النوافذ العالية، وقفت "ريم" بوقارها المعتاد وثيابها الملطخة بآثار الإبداع، كانت تنظر إلى الفتيات الجالسات أمامها بوجوهٍ تملؤها الحيرة والترقب. وبنبرةٍ هادئة تحمل سحر الطمأنينة، قالت وهي تشير إلى اللوحات البيضاء:

___ الرسمُ فن.. والكلماتُ أحيانًا تخون، لكن اللون مش بيكذب أبدًا. سيبوا مشاعركم تتحرر، فكوا القيود اللي على قلوبكم وامسكوا الفرشة.. ارسمي اللي بيوجعك، أو اللي بيتمنى قلبك يوصله.. ارسمي مشاعرك زي ما هي، من غير تجميل.

بدأت الفتيات يتبادلن النظرات، وبدأ صرير الكراسي يهدأ ليحل محله صوت ملامسة الفرشاة لنسيج اللوحة. كانت ريم تراقب استجابتهم، وهي تدرك أنَّ كل خطٍ سيُرسم الآن هو حكايةٌ هاربة من واقعٍ مرير، وأنَّ الفن ليس في إتقان الظل والنور، بل في إتقان "الصدق" مع الذات.

غمست ريم فرشتها في مزيجٍ من الألوان القاتمة والدافئة، وبدأت تتحرك على بياض اللوحة بحركاتٍ متخبطة تارة، وانسيابية تارة أخرى، وأخرى تتسرب ببطء في المنتصف لتعطي ضوءًا باهتًا يشبه الأمل البعيد.

وبعد انتهاء الجميع من الرسم..

وقفت "ريم" تتأمل تلك اللوحات كأنها تقرأ اعترافات سرية نُشرت على حبال الألوان. لم يكن ما تراه مجرد محاولات فنية، بل كان عُريًا للروح.

كانت تلك اللوحات الحزينة تطغى على المكان، تشي بصراعاتٍ مكتومة وانكساراتٍ لم تُحكَ بعد، بينما ظهرت هنا وهناك لوحات قليلة تتراقص فيها ألوان البهجة كبقع ضوء يتيمة في نفق مظلم؛ ومضات من الأصفر والأخضر تحاول الصمود أمام طوفان الرمادي، لتخلق توازنًا غريبًا وموجعًا بين "واقعٍ يخنقهن، وأملٍ يرفض الرحيل".

كانت تحمل في صدرها ثقل تلك اللوحات الكئيبة التي رسمتها الفتيات، سارت ببطء في الممر، وخطواتها الصامتة تعكس حيرتها، حتى شقَّ سكون أفكارها صوتٌ مألوف، صوتٌ يحمل في طياته دفء المنزل والأمان:

___ ريم!

التفتت بسرعة، لم يكن غريبًا، بل كان شقيقها، قطعة من روحها. وفي لمح البصر، تلاشت المسافات؛ ركض نحوها كمن وجد ضالته، وضمها بقوةٍ. ثم ابتعد عنها قليلًا، وعيناه تلمعان بلهفة حقيقية وهو يقول:

___ فينك؟ وحشتيني أوي يا ريم.

تعالت ضحكات "رائف" التي بدَّدت سحب التوتر المحيطة بقلب ريم، وبنبرةٍ تحمل مزيجًا من المشاكسة والحنان، أشار بيده قائلًا:

___ بطنك بدأت تظهر أهي.. شكلنا هنشوف نونو جديد قريب!

أطلقت ريم ضحكاتٍ خفيفة، تلك الضحكات التي تخرج من القلب حين يشعر بالأمان المطلق، وهمست بحب أخوي:

___ آه.. وشكلي هبقى تخينة جدًّا يا رائف!

انفجر رائف ضاحكًا، ثم استكانت ملامحه قليلًا وسألها باهتمام الأخ الذي يخشى على قلب شقيقته:

___ المهم.. جاسر كويس معاكي؟

لمعت عينا ريم ببريقٍ خاص، بريق السعادة الحقيقية التي لا تحتاج لتزييف، وارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ صافية وهي تجيب:

___ أوي يا رائف.. أوي بجد. جاسر مش بس جوزي، ده الأمان اللي كنت محتاجاه.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

بينما كانت "ريم" تعيش لحظات الصفاء مع شقيقها، كان هناك عالمٌ آخر يُدار خلف الأبواب المغلقة؛ حيث كانت سارة تجلس في مكتبها، يلفها ذلك الصمت الرزين الذي لا يقطعه سوى صرير قلمها.

كانت سارة غارقةً في أوراقها حين قاطع خلوتها طرقٌ منتظم على الباب، تبعه دخول السكرتيرة التي قالت بنبرة خفيضة:

___ سارة هانم، عثمان بيه عايزك في مكتبه حالًا.

أومأت لها سارة بهدوءٍ ينمُّ عن ثباتٍ داخلي، ثم نهضت من مقعدها وعدَّلت وضع سُترتها بوقار، وتحركت بخطى واثقة نحو مكتبه. طرقت الباب ودخلت لتجده يجلس بهيبته المعتادة، فجلست أمامه بانتظار ما سيقول.

نظر إليها عثمان مطولًا قبل أن يضع أوراقه جانبًا وقال:

___ عاملة إيه في شغلك؟

تعجبت سارة من سؤاله، فهو نادرًا ما يطرح أسئلة عامة بهذا الشكل، لكنها أجابت بثبات:

___ الحمد لله كل حاجة كويسة.. بس ليه؟

اتكأ عثمان إلى الخلف، ورمقها بنظرةٍ ثاقبة جعلت الهواء في الغرفة يبدو أثقل، وقال بنبرة هادئة لكنها حادة:

___ بقيتي بتسرحي كتير، ودايمًا مش مركزة.. في إيه يا سارة؟

تنهدت بوجعٍ مكتوم كأنها تزيح حملًا عن صدرها، وقالت بصوتٍ متهدج:

___ حاسة إن قلبي موجوع.. كأن في حاجة هتحصل.

قطب عثمان حاجبيه بتعجبٍ مشوب بالحذر، وسأل:

___ زي إيه؟

نظرت له بقلقٍ حقيقي، وعيناها تبحثان في ملامحه عن مخرجٍ من هواجسها، وقالت:

___ حاسة إن الماضي هيتفتح.. مش عارفة ليه.

ثم صمتت للحظة، قبل أن تُكمل بغموضٍ لفَّ الغرفة ببرودةٍ مفاجئة:

___ وده لو اتفتح.. هنخسر كلنا.

ساد صمتٌ ثقيل، وشعر عثمان بلسعةِ قلقٍ اخترقت جدار حصانته للحظات؛ فكلمات سارة لم تكن مجرد أوهام امرأة، بل كانت نبوءة تقرع طبول الخطر.

في تلك اللحظة، تجمدت الدماء في عروق تيا، وسقطت الكلمات من على لسانها قبل أن تنطقها. والذهول يرسم على وجهها ملامح الرعب والدهشة في آنٍ واحد. كانت تنظر إلى ذلك الشخص الذي اقتحم عالمها فجأة، الشخص الذي لم يكن من المفترض أن يكون هنا.

اتسعت عيناها بذهولٍ شلَّ أطرافها، وهمست بصوتٍ مرتعش يخرج بصعوبة من بين شفتيها:

___ س.. سيف!

ابتسم بهدوءٍ لا ينمُّ عن خير، ونظراته تتنقل بينها وبين "رهف" ببرودٍ قاتل:

___ أيوة أنا.. إيه، مفاجأة مش كدة؟

تصنمت تيا في مكانها، وشعرت بأنَّ لجام الأمور ينفلت من بين يديها كالماء الذي يتسرب ببطءٍ لا يمكن إيقافه. هزَّت رأسها برعب:

___ أنت؟ لا لا مستحيل! طب إزاي؟ لا أكيد لا!

دلف إلى الداخل بخطًى واثقة ووقف عند عتبة الباب وهو يرمق رهف بنظرة غامضة:

___ وليه لا؟

تراجعت تيا للخلف بخطوات مهزوزة، وعقلها لا يردد سوى سؤال واحد: "كيف؟". خيَّم الصمت الثقيل على المكان قبل أن تسأل بارتعاش:

___ أنت.. أنت عرفت إزاي؟

ابتسم بغموضٍ مستفز:

___ مش مهم عرفت إزاي.. المهم إني عرفت. ها يا بنت عمتي، هتدخلينا ولا إيه؟ ولا أقول يا مرات أخويا أحسن؟

أشارت بيدها للداخل بقلة حيلة، ودلفوا بالفعل. لكن خطوات "سيف" توقفت فجأة حين وقعت عيناه على الطفلين. دقق في ملامحهما، وشعر بوخزة في قلبه؛ فملامح الصغير "أدهم" كانت نسخة مصغرة من "آسر". ابتسم بوجعٍ مرير، فهو من أكثر الناس الذين تمنوا لآسر أن يؤسس عائلة، وقد فعلها آسر حقًّا.. لكن بعيدًا عنه.

نزل سيف إلى مستواهما وهمس:

___ أهلًا.. عاملين إيه؟

نظر إليه الصغيران لثوانٍ، ثم صرخا بصدمة بريئة:

___ أنت بابا ليث!

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

على الجانب الآخر، كان "آسر" يجلس خلف مكتبه، يكسو الهدوء ملامحه لكن قلبه كان يقرع طبول القلق. فُتح الباب فجأة وظهرت "ميسون" بابتسامةٍ باردة اصطنعت فيها الود:

___ إزيك يا آسر.. أخبارك إيه؟

نظر إليها ببرودٍ تام، وأشاح بنظره عنها للفراغ مجددًا:

___ الحمد لله.

جلست أمامه دون استئذان وقالت:

___ جدك قالي إنك عايز تحدد ميعاد جوازك من رهف.

اعتدل آسر في جلسته بذهول، وأشار إلى نفسه بعدم تصديق:

___ ده أنا؟ حصل إمتى الكلام ده؟

تظاهرت ميسون بالتعجب وهي تخفي خبث نواياها:

___ إزاي ده! أنا فرحت والله.. أوعى تكون هتكسر فرحتي.

ردَّ بلا مبالاة قاسية:

___ وأنا مالي ومال فرحتك؟ بقولك إيه، أنا مش ناقص هم فوق همي، فخدي نفسك وفرحتك واخرجي لو سمحتي.

ضربت ميسون الأرض بقدمها بغيظ وهي ما زالت جالسة:

___ إيه سبب رفضك لرهف؟ عايزة أفهم، إديني سبب واحد!

قال بهدوءٍ مميت:

___ مش بحبها.. هو بالعافية ولا إيه؟

___ مش لازم تحبها.. صدقني مش لازم!

هنا تعجب آسر من إصرارها، وانحنى للأمام وهو يهمس بقوة وكبرياء:

___ اللي إنتِ بتعمليه ده.. ترخيص لبنتك على فكرة!

توسعت عيناها بذهول من رده القاسي الذي لم تتوقعه، وقالت بحزن مصطنع تحاول به استعطافه:

___ عشان عايزة مصلحتك تقولي برخص بنتي.

ابتسم بسمة باردة جعلتها تشعر برجفة تسري في جسدها، كأن هواء الغرفة تجمَّد فجأة، وهمس وهو يحدِّق إليها:

___ مصلحتي؟!!! وأنا إيه مصلحتي من جوازي برهف؟

صمتت لا تعلم ماذا تقول، فقد ألجم السؤال لسانها وعجز عقلها عن تدبير كذبة سريعة؛ عذرًا هي لم تخطط لهذا السؤال الصريح، وما الذي سيستفاد به آسر من زواجه من رهف؟ نظرت له بارتباك ويدٍ مرتعشة حاولت إخفاءها، فابتسم بسخرية وقال:

___ خدي الباب في إيدك يا ميسون هانم.

نهضت من مكانها بغضب يشتعل في عينيها، ورفعت رأسها بكبرياء وشموخ زائف واتجهت إلى الخارج، وبداخلها بركان من الحقد يتمنى أن تمسكه وتبرحه ضربًا حتى يسقط مغشيًا عليه أو.. يسقط متوفيًا.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

جلس ألكسندر وحيدًا كعادته في غرفته التي تفوح منها رائحة الوحدة، تفكيره يذهب لمعشوقته إيفا؛ أهي بخير؟ أهي تبكي الآن؟ أهي تشعر براحة أم لا؟ تلك الأسئلة كانت مثل طلقات نارية تخترق قلبه بلا رحمة.

فلاش باك...

نظر ألكسندر لفيكتور وهمس ببطء مخيف، كأنه يقتله بسمٍّ مفعوله يسري في جسده ببطء:

___ الشرط الأول تتجوز والعروسة أنا اللي هحددها.. الشرط التاني بقى...

وصمت طويلًا، تركه ينظر له بقلق وقلب يخفق بشدة بين ضلوعه حتى شعر فيكتور أنَّه سيهوى على الأرض من فرط التوتر، فقال ألكسندر:

___ وآسر يجي هنا إزاي؟ معرفش اتصرف بقى اعمل اللي تعمله المهم يجي هنا.

وتركه وحيدًا يصارع مصيره. غمض فيكتور عينيه بقوة والسؤال الذي يهاجم عقله بلا توقف: هل سأستطيع أن أتزوج بمرأة أخرى غير سارة؟ كيف؟

ظلَّ يتحرك ذهابًا وإيابًا وخطواته المرتبكة كانت تشقُّ السكون الذي يسود حوله، وقعت نظراته على الهاتف الخاص به وظلَّ يقول في داخله:

___ آسر؟ أعمل إيه بس يا رب؟

اقترب من الهاتف ببطءٍ شديد وفتح حسابًا وهميًّا ودخل إلى صفحته وظلَّ ينظر إلى المحادثة بتردد. هل سيفتح أبواب الجحيم عليه بيده؟ هل آسر سيقول لأحد؟ ماذا سيفعل عندما يراها؟ بدأ بكتابة رسالة غامضة عبارة عن:

___ بتدور على اللي ناقصك مش كدة، طب ولو قولتلك اللي الجزء الناقص عندي هتعمل إيه؟

ظلَّ ينظر لتلك الكلمات ويده مترددة فوق شاشة الهاتف، هل سيضغط على إرسال؟ هل هو يشعر بالخوف؟ نعم وبشدة، والقلق والرعب ينهشان في قلبه الذي كان يخفق بعنف. وفي لحظة تهور ضغط على إرسال. وبعد عشر دقائق مرَّت عليه في رعب وهلع وقلق وأسئلة ليس لها أي إجابة، أضاء هاتفه بإشعار وكان من آسر:

___ جزء إيه وناقص إيه، تقريبًا حضرتك اتلخبطت.

كتب فيكتور كلمة واحدة ولكنها تحمل العديد من الكلمات والآلام بداخلها:

___ تيا.

انتفض آسر واعتدل في جلسته سريعًا وهمس بعدم تصديق وصدمة:

___ تيا.. أنت تعرف مكانها؟

غمض فيكتور عينيه بقوة ودموعه تسربت من بين جفونه وبدأ بكتابة:

___ آه أعرف مكانها.

اتسعت ابتسامة آسر في هذا الوقت ولم يسأل عن هوية المتكلم أو هو مِن أين يعلم تيا، أو حتى لم يشعر بالقلق للحظة، فهو كل ما

يشغل باله هو أن يلتقي بصغيرته أيًّا كان الثمن الذي سيدفعه حتى لو كانت.. روحه.

كتب فيكتور باستسلام تلك الجملة التي حددت المصير:

___ أوكرانيا؟ هما في أوكرانيا، بس هتروحلهم إزاي؟

صمت آسر ثوانٍ وكتب دون أن يعطي اهتمامًا بأنه يتحدث مع شخص لا يعلم هويته أو لا يعلم نواياه من الأساس:

___ كدة كدة أنا خلصت تالتة ثانوي يبقى هكمل الجامعة في أوكرانيا.

وأغلق هاتفه بسرعة شديدة واتجه للأسفل بسرعة فائقة واقتحم مكتب الجد بهمجية:

___ أنا عايز أكمل الجامعة في أوكرانيا.

رفع عثمان رأسه من على الأوراق المبعثرة أمامه والضوء الخافت يعطي له هالة من الرعب والوقار وقال:

___ اشمعنا أوكرانيا؟

تنحنح آسر وهمس محاولًا إخفاء لهفته:

___ تقديم الجامعات بدأ فيها وأنا عايز أبدأ دراسة بدري، عايز أشغل نفسي بأي حاجة..... بعيد عن تيا.

ابتسم عثمان بسعادة وشرٍّ مخفي عندما قال ذلك، فهو بدأ يشعر أنَّ آسر تقبَّل الأمر بهدوء، ولكنه كان خاطئًا تمامًا في توقعه، فقال:

___ معنديش مشكلة تماما يا آسر، هتروح امتى؟

صرخ آسر باندفاع وحماس لم يستطع كبته:

___ بكرة الصبح، كدة كدة أنا هاخد هدومي بس.

حدَّق عثمان إلى ملامحه بتعجب من اندفاعه المفاجئ وقال:

___ ماشي تمام بس مش شايف إنك تاخد وقت أكتر و...

قاطعه آسر سريعًا قائلًا:

___ مش عايزة أخد وقتي أنا مستعجل.

وهرول آسر سريعًا إلى غرفته وبدأ بتجهيز حقيبته بسرعة. وبعد انتهاءه ظلَّ مستيقظًا يراقب الساعة حتى حلَّ الصباح، وهبط للأسفل فنظر له سيف بعدم فهم:

___ رايح فين؟

قصَّ عليه ما حدث سريعًا فنظر له سيف بضيق وحزن:

___ هتسيبني لوحدي، وبعدين إيه السرعة دي، الناس الطبيعية بتستنى مش بتاخد القرار كدة، لا بجد إيه السرعة دي.

نظر له آسر ببرود وتجاهل تام واتجه إلى الخارج دون أن يودعهم، واتجه إلى المطار. وبعد انتهاء الإجراءات جلس في أماكن انتظار الطائرة ورفع صورة تيا أمام عيناه وقال بقلب محروق:

___ يا رب ما تكسر خاطري يا رب وترجعني مجبور.

وجاء وقت الصعود إلى الطائرة؛ كانت الأجواء باردة ولكنها لم تكن ببرودة تلك المشاعر الموحشة التي تسكن قلبه. وبعد ساعتين قضاهما في التفكير والتشتت والقلق والريبة، وصلت الطائرة إلى أرض أوكرانيا أخيرًا. هبط من الطائرة وهو يجرُّ قدمه بتكاسل وثقل، قلبه يشعر بقبضة خوف؛ هل من الممكن أنَّه لن يراها؟

وبعد ختم جوازه واستلام حقيبته وجد سيارة تنتظره، شعر بالقلق لثوانٍ لكنه صعد.

وفي قصر عائلة كورولينكو، كانت تجلس تيا وأمامها إيفا التي تحاول المزاح معها لتخرجها من عزلتها ولكنها لم تتجاوب معها، ظلَّت صامتة وعيناها شاردة في الفراغ؛ هي تحتاج شقيقها، والدها، وصديقها الروحي "آسر".

نظرت إيفا إليها بحزن وضمتها إلى أحضانها برقة، ابتعدت تيا عنها برفق ونهضت من على الأريكة بصعوبة نظرًا لقصر قامتها وبدأت تسير ببطء، ولكنها وقفت فجأة على صوت مرتعش يناديها، صوت تعرفه جيدًا:

___ تـ...تيا.

وقفت بصدمة ووضعت يدها على أذنها وهي لا تصدق ما تسمعه، ولكن هذا الصوت عاد يناديها ولكنه كان أقرب هذه المرة:

___ تيتو.

أغمضت عينيها ودموعها انهمرت بغزارة؛ هي تشعر بالخوف، تخشى أن تلتفت وتجد سرابًا. وقفت مكانها وما أصعب من هذه

الحيرة التي يتعارض فيها القلب والعقل. وجدت يدًا دافئة تسحبها من ذاك الصراع ولفها له حتى رأته هو بكامل ملامحه:

___ آ...آسر أنت هنا بجد أنت موجود؟

ضمها بقوة واستنشق رائحتها الطفولية وهو يداعب خصلاتها برقة بيديه، دموعه انهمرت بقوة وهو ينظر لكل إنش في وجهها بشوق وحنين:

___ وحشتيني أوي يا مفعوصة أنت.

نظرت له بدموع وقالت بحب صادق:

___ وأنت كمان وحشتني أووي يا آسر أوي.

وانفجرت في بكاء هيستيري، وهو لم يستطع كتم دموعه أكثر من ذلك، فانفجر هو الآخر في بكاء مرير وضمها بلهفة كأنها ابنته التي غابت عن عينه. نظرت إيفا لهذا المشهد بتأثر ودموع وهمست:

___ شقيقان رائعان.

ابتسم ألكسندر وهمس لها بكلمات تحمل الكثير من المعاني:

___ كم أنتِ طيبة القلب عزيزتي، هما الآن شقيقان ولكننا لا نعلم ماذا يخفي لنا القدر.

باك...

ابتسم ألكسندر بهدوء؛ هو كان محقًّا في رؤيته. فُتح الباب ودخل فيكتور بهدوء وقال:

___ أبي الاجتماع سيبدأ الآن.

___ حسنًا فيكتور.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كانت لمار تجلس في كافيه هادئ وتنظر حولها برقي وهدوء، ولكنها شهقت بصدمة عندما جلس ماكس فجأة أمامها، قالت بعدم استيعاب:

___ هو مش المفروض تنزل بعد شهر ونص ولا إيه إزاااي؟

ضحك بخفة وقال بنبرة هادئة:

___ هو المفروض بس كان ورايا شغل لازم أعمله أنا بنفسي.

ابتسمت بهدوء، ابتسامة تخفي خلفها الكثير من التوتر والقلق من وجوده المباغت أمامها، قلبها يخفق بشدة وأمالت رأسها قليلًا وهي تحاول قراءة ملامحه الغامضة، ثم سألته بنبرة يملأها الفضول:

___ طب روحت لتيا؟

بـبطءٍ وهدوء يوحي بالثقة، رفع يده وخلع نظارته الشمسية، لتظهر عيناه اللتان تحملان بريقًا خاصًا، ورسم على ثغره بسمة هادئة وهو يقول:

___ لا لسه.

عقدت حاجبيها في حيرة، ورمقته بنظرةٍ شابتها الريبة وهي تتساءل:

___ ليه؟ ثم أنت عرفت مكاني إزاي؟

اتسعت ابتسامته بقلة حيلة، وظهرت في عينيه نظرة تجمع بين العطف والسخرية الهادئة من براءتها التي بلغت حد السذاجة، حينها فقط لمعت الحقيقة في عقلها كبرقٍ خاطف، فشهقت باستيعابٍ مفاجئ وصححت قولها:

___ تيا مش كدة؟ إيه السؤال الغبي ده صحيح!

تعالت ضحكاته بصدق، ضحكة صافية اخترقت سكون المكان، ثم مال نحوها قليلًا وهمس بنبرة مرحة:

___ قولي لنفسك.

شعرت بحرارة تجتاح وجنتيها، فتنحنحت بمحاولة يائسة لاستعادة وقارها وإخفاء إحراجها الذي فضحته ملامحها، وسألت بخفوت وهي تتجنب النظر إليه مباشرة:

___ جاي ليه؟

في تلك اللحظة، سكنت حركته تمامًا، وثبَّت نظراته في عينيها بقوةٍ يغلِّفها لطفٌ عجيب، كأنه يحاول اختراق حصونها وعبور أسوار قلبها، وقال بهدوء:

___ عادي.. فيها حاجة؟ ولا مكنتيش حابة وجودي من الأساس؟

كانت كلماته بمثابة رمية حجر في بحيرة راكدة، هزَّت ثباتها وجعلت دوائر الحيرة تتسع في عقلها. نظراته لم تكن مجرد

تطلع، بل كانت حوارًا صامتًا يبحث عن إجابة لم تستطع هي بعد على النطق بها.

بلعت ريقها بتوترٍ ملحوظ. بدأت عيناها تدور في كل أركان المكان، تراقب المارة، والمنضدة، وأي شيءٍ تقع عليه عيناها، هربًا من حصار نظراته التي اخترقت دفاعاتها. قالت بصوتٍ خافت ومتهدج:

___ ع.. عادي، مش قصدي أكيد.

لاحظ توترها فرقَّ قلبه لها، وامتزجت نبرته بدفءٍ غلبه الشوق وهو يقول:

___ بقالي كتير مشوفتكيش وش لوش يعني.. مبقتيش بتيجي أوكرانيا.

في تلك اللحظة ارتسمت على ثغرها بسمة مرتبكة، وحاولت جاهدةً استجماع شتات نفسها وهي ترد بتلعثم:

___ ها.. لا، أصل المذاكرة كتير الفترة دي.

أطلق ضحكة مرحة تعمَّد بها كسر طوق الارتباك الذي أحاط بها، وقال:

___ أنا جعان بجد، وهتتغدي معايا عشان أنتِ عارفة مش بحب آكل لوحدي.

فتحت فمها لتعتذر أو لتتحجج بأي شيء، لكنه رفع إصبعه بحزمٍ ممزوج بالدعابة وقاطعها بسرعة:

___ إيااااكي.. أنا بقول أهو!

تلاشت ملامح التوتر من وجهها وحلَّت مكانها ضحكة رقيقة، وقررت أن تبادله المشاكسة بمثلها وهي تميل برأسها قليلًا:

___ كنت هقولك تقوله يزود الصوص عمومًا.

انفجر ضاحكًا بخفة، وشعر بأنَّ الجليد الذي كان يغلف اللقاء قد ذاب تمامًا تحت تأثير عفويتها التي يحبها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كانت تيا تجلس في مكانها، تفرك كفَّيها بقوةٍ وتوتر جعل أصابعها تشتبك بعضها ببعض، بينما كانت عيناها تدور في حيرة وقلق بين "رهف" و"سيف". شعرت بأنَّ الصمت الذي يغلف المكان أصبح أثقل من أن يُحتمل، فقررت أن تكسر حدته بطريقتها العفوية، وهمست بمزاحٍ لعلها تخفف من وطأة الموقف:

___ إيه يا جدعان ده.. ده لو كنتوا عرفتوا إني مت مش هتقعدوا القعدة دي! وحدوا الله.

لم يستطع سيف المقاومة، فخرجت منه ضحكة رغمًا عنه كسرت جموده، وقال بهدوء:

___ لا إله إلا الله.

وكذلك فعلت رهف التي شاركتهم الضحك، وهو ما أثار دهشة تيا؛ فاستجابة رهف السريعة وضحكتها جعلت تيا تشعر بتعجبٍ كبير.

مالت تيا برأسها قليلًا، وعلى وجهها ارتسمت ابتسامة رقيقة ومشاكسة، ثم قالت بنبرةٍ غلبت عليها خفة الظل:

___ أدهم وكايلا من ساعة ما عرفوا إنك أبو ليث يا سيف وهما بيرقصوا جوه وأنا شايفاهم.. ها، واخدين بالكم؟

في تلك اللحظة، تجمَّدت الحركة تمامًا عند أدهم وكايلا، وتبادلا نظرةً سريعة يملأها الذهول والصدمة. اتسعت أعينهما كأن لسان حالهما يقول: "كيف لاحظت ذلك؟". لقد ظنا أنَّ فرحتهما المستترة وحركاتهم الاحتفالية بالداخل كانت بعيدة عن الأنظار، لكن عين تيا كانت أسرع مما تخيلا.

انفجر سيف ضاحكًا من قلبه، تلك الضحكة التي أزاحت الكثير من ثقل السنين عن كاهله، وقال بنبرة يملأها الوجع الممزوج بالفرح:

___ ليث أصلًا مش بيتكلم غير عنهم.. بس مكنتش أعرف إنهم ولاد أخويا!

لم يطل صمت الصغار كثيرًا، فقد تقدم أدهم بخطوات واثقة يملأها الفخر، ورفع رأسه بشموخ طفولي وهو يقول بلهجة قاطعة:

___ وربنا ليث ده عيل جدع!

نظر إليه سيف بتعجبٍ شديد، وقد ارتسمت على وجهه علامات الذهول من تلك الشبه الصارخ في الأسلوب، وقال بذهول:

___ يخرب بيت كدة! نفس طريقة آسر بالظبط.

انفجرت تيا ضاحكة من قلبها، ومالت تداعب خصلات شعر طفلها برقة وحنان وهي تقول:

___ فعلًا.. نسخة واتقسمت نصين، مكدبتش في دي أبدًا.

في تلك اللحظة، اقتربت كايلا بخطواتٍ هادئة من سيف، وظلَّت تدقق في ملامحه بعينين لامعتين كأنها تستحضر ذكرى قديمة، ثم قالت ببراءة هزَّت أركان المكان:

___ ماما.. أنا شوفت صورة عمو أصلًا في محفظة بابا.

سكنت حركة سيف تمامًا، وتلاشت الابتسامة عن وجهه ليحلَّ محلها ذهولٌ وصدمة ألجمت لسانه؛ فخفقت دقات قلبه بعنف وهو يردد في سره: "أخي كان يحتفظ بصورتي؟ كان يهتم لأمري إذًا؟".

لاحظت تيا ذلك الشرود الذي غلَّف ملامح سيف، وأدركت بحدسها الأنثوي عمق الصراع الذي يدور في صدره الآن، فاقتربت منه دون أن تتعدى حدودها وهمست بنبرة يملأها الصدق والحنين:

___ آسر طول عمره بيحبك يا سيف.. وأوي كمان.

ارتسمت على ثغره بسمةٌ خفيفة، بسمة امتزجت فيها السعادة بمرارة الندم، بدأ قلبه يستشعر دفء الأخوة الذي ظنَّ أنَّه فقده للأبد، ولكن تلك اللحظة لم تكتمل؛ فقد قطعها صوتٌ جهوريٌّ اهتزَّت له أركان المكان، صوتٌ يحمل بين طياته صدمةً زلزلت كيان صاحبه.. إنه صوت آسر.

تلاشت الأصوات من حول سيف. التفت ببطء شديد، وشعر كأن الأرض تهتز تحت قدميه، لتتقابل نظراتهما كسيوفٍ حادة تشق سكون الغرفة. قطع آسر الصمت بنبرة حذرة مشوبة بالذهول:

___ أنت جيت هنا إزاي؟ وعرفت إمتى؟

ارتسمت على وجه سيف بسمة موجعة، بسمة كانت كفيلة بأن تثير بداخل آسر بركانًا من ذنبٍ راح يلتفُّ حول قلبه ويعصره بقوة حتى كاد يهوي أرضًا. قال سيف بسخرية مريرة:

___ كنت عايز نفضل مغفلين لحد ما سيادتك تحن علينا وتعرفنا إنك متجوز ومخلف مش كدة؟

حاول آسر الدفاع عن نفسه بصوت متهدج:

___ مش قصدي و...

لكن سيف قاطعه بصرخة مدوية، صرخة خرجت من أعمق جزء حاول دفنه لسنوات، جزء محطم لا يقوى على المزيد:

___ كفاية كدب بقى! أنا لو مكنتش عرفت من نفسي مكنتش هتقول. خبيت عني أنا.. أنا يا آسر! ليييييه ها؟ ليه هكرهلك الخير؟ هكره إنك مكون أسرة وسعيد في حياتك؟ ليه شايفني بالصورة دي؟ أنا مش كدة، أنا عمري ما كنت وحش معاك أنت بالذات. دايمًا بحاول أقرب منك زي أي اتنين إخوات المفروض يبقوا في ضهر بعض.

توقف ليلتقط أنفاسه المحترقة ثم تابع بوجع:

___ أنت خليتني لما يحصل معايا حاجة أخاف أقولك لا تسيبني.. ليه توصلنا للمرحلة دي؟ أنا طول عمري شايفك ابني بالرغم من إن في سنة واحدة بس فرق بيننا، وأنت طول عمرك بعيد. أنت عمرك ما حسستني إني أخوك.. ده ولادنا اللي هما ولادنا صحاب أكتر مننا وهما ميعرفوش أصلًا إنهم ولاد عم! ولادك لما شافوني عرفوا إني أبو ليث وبعدها افتكروا أصلًا إني عمهم!

صمت سيف، ومع صمته سكن كل شيء، حتى الهواء بدا كأنه تجمَّد في الرئتين. كانت نظرات آسر محملة بمئات المبررات، لكنه لم يجرؤ على نطق حرف واحد منها. شعرت تيا أنَّ الكلمات قد نفدت في حضرة هذا القهر، فنظرت لأطفالها ورهف وأشارت بعينيها بضرورة الخروج، وبالفعل، انسحبوا بهدوء تاركين لهما تلك المساحة الدامية ليخرجا ما في قلوبهما المثقلة بغبار السنين.

جلس آسر منهارًا، وحين حاول الحديث، خانته الكلمات وهو يستمع لنحيب شقيقه؛ ذلك النحيب الذي كان كخناجر حادة تُغرز في قلبه واحدة تلو الأخرى. تبًا لكل من قال إنَّ دموع الرجال ضعف، ففي تلك اللحظة كانت الدموع هي اللغة الوحيدة الصادقة.

نطق آسر بصوت مهزوز:

___ سـ..سيف، أنا مش قصدي أخبي بس...

رفع سيف رأسه، ليظهر وجهه الملطخ بدموعٍ تنهمر كشلال، وهمس بنبرة ثلجية جعلت القشعريرة تسري في جسد آسر:

___ مكنش عندك الثقة فيا.. كنت عايز تقول وتيجي عند آخر لحظة وتسكت. لو أنا مكنتش براقبك مكنتش هعرف.

ردَّد آسر كلمته الأخيرة بذهول:

___ تراقبني؟

ضحك سيف بسخرية وسط دموعه:

___ أنا اللي كنت واقف عند المكتب وأنا اللي كنت جيت هنا. كنت قلقان بسبب غيابك المستمر.. قلقت لتكون مش كويس أو مخبي حاجة، وطلعت مخبي أكبر سر في حياتك.. وعن مين؟ عني أنا!

حدَّق آسر إلى وجه شقيقه بخزي، وبلع غصة مريرة في حلقه، ثم همس كطفلٍ يتلقى عقابًا، بصوت يملأه الحزن:

___ أنا أسف.

ردَّ سيف بجمود:

___ ويفيد بإيه الأسف بعد الجرح؟ يفيد بإيه الحنية بعد القسوة يا آسر؟ ولا أي حاجة. عمومًا براحتك، أنا فعلًا مش ناوي أتدخل في حياتك تاني.. براحتك.

بدأ سيف يلملم أشياءه، مفاتيح سيارته وهاتفه، لكنه في الحقيقة كان يحاول لملمة شتات نفسه وحطام قلبه. في تلك اللحظة، دلفت تيا ببطء، ونظرت لآسر بنظرة حازمة لا تقبل النقاش، ثم أخذته بعيدًا وهمست:

___ احضنه.. صالحه، قوله أي حاجة تطيب بخاطره.

نظر لها بعبوس طفولي يحاول به إخفاء ضعفه وهمس:

___ أنا وسيف لما نيجي نتصالح بنضرب بعض.. فكك من جو كوكب الزهرة بتاع البنات ده.

ضربته في كتفه بضيق وجزَّت على أسنانها:

___ بلاش استظراف.. أخوك بيمشي على فكرة!

رأت تيا جموده، فامتلأت عيناها بدموع حقيقية مرهقة من العناد، حينها فقط تنهد آسر واقترب من سيف وضمه بقوة قائلًا:

___ أسف.. عارف إنها مش كفاية.

تيبس سيف لثوانٍ، جسده يرفض اللين لكن قلبه استسلم، فرفع يده وضمه بوهن وهمس:

___ هحاول أسامحك.

تركه سيف وغادر، تاركًا خلفه أخاه يتخبط في ندمه. أشار سيف لرهف فتبعتْه وهي تنظر لهما ببسمة هادئة خالية من الحقد. عاد الصمت ليسيطر، حتى قطعت تيا الحزن بسحب نفس طويل وهي تنظر لآسر:

___ لازم نقول لداليا وجاسر، لسببين أهم من بعض.

حدَّق إليها بتساؤل، فأكملت:

___ السبب الأول إنَّ في المؤتمر هيبقى بليل طبعًا وهيبقى في سحور، مش عايزين قصاد الصحافة نبيّن إننا منعرفش بعض، فكلمهم ياخدوا الصدمة دلوقتي أحسن. السبب التاني مش عايزة أول يوم رمضان نبقى لوحدنا.. ابقى قولوا بقى حد من صحابكم عزمكم أو حاجة مثلًا.

تردد آسر كثيرًا، لكنه في النهاية استسلم لمنطقها. أمسك هاتفه وبأصابع ثقيلة كتب رسالة موحدة لداليا وجاسر:

___ تعالوا على العنوان ده بكرة.. في حاجة مهمة عايزكم فيها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في مكانٍ آخر، كانت لمار تجلس محاولةً استحضار كل ذرات الانشغال لتخفي ارتباكها، أو هكذا ظنت أنَّها تفعل. لكن، كيف لعقلها أن ينشغل وعن ماذا، وحبيب روحها يجلس قبالتها يبعثر كل حصونها بنظرة؟ قطع صمتها صوت ماكس يهمس ببسمةٍ جذابة:

___ بتفكري في إيه؟

كان ماكس يترقب ردًا خجولًا، أو ربما نظرةً تحمل اعترافًا ضمنيًّا بمكانته، لكن "لمار" حطمت كل آماله الرومانسية حين قالت بجدية تامة:

___ هعمل السمبوسك إمتى؟

نظر لها بضيقٍ طفيف وقد ارتسمت على وجهه علامات الاستفهام، وهمس مصححًا:

___ سمبوسة.. بالتاء المربوطة.

رمقته بنظرة حادة وحذرت بلهجةٍ قاطعة:

___ لا بقولك إيه، بلاش ندخل في نقاش هنا، دي منطقة خطر.. هي سمبوسك والله.

لم يهتم ماكس بمظهره أمام زوار المكان، وصرخ بضيقٍ مرح:

___ طب حلفان على حلفانك هي سمبوسة!

وفي ذروة نقاشهما المصيري، قاطعهما صوت الجرسون الذي وقف بجانبهما برقيٍّ مفتعل وقال بنبرة هادئة:

___ لو سمحت هقطع حواركم المهم ده بس.. هتطلبوا حاجة تانية؟

تركت لمار "ماكس" والتفتت للعامل بسرعة، وسألت بغيظٍ طفولي:

___ سمبوسة ولا سمبوسك؟

نظر إليهما الجرسون لثوانٍ، وبدت على ملامحه نظرة كأنه يرى اثنين من المجانين هربا للتو، وردَّ بحدة غير متوقعة:

___ أنا معرفش يا فندم، وبعدين ما كل واحد يقول اللي يريحه، أنتم هتقرفوني ليه؟

تجمَّدت ملامحهما بصدمة، وساد صمتٌ محرج تمامًا حتى غادر العامل. حينها فقط، تلاقت أعينهما وانفجرا في ضحكٍ هيستيري أذاب كل التوتر. سكن ماكس فجأة، وظلَّ يتأمل ملامحها برقةٍ وعشقٍ يفيض من قلبه الذي يرتجف بصدق، شعرت لمار بنظراته التي تخترق روحها، فكبتت بسمتها بكسوفٍ حقيقي وهمست:

___ أنا.. أنا هدخل الحمام.

فرَّت من أمامه، وبمجرد دخولها نظرت إلى وجهها في المرآة وهمست بضيقٍ وهي تتفحص وجنتيها:

___ يووووه.. مفيش أي لون أحمر حتى يبين إني مكسوفة! منها لله روايات بير السلم اللي بقرأها دي.

بدأت تنظم أنفاسها المتسارعة، وساد الهدوء داخلها لثوانٍ، فقفزت إلى مخيلتها صور والدها ووالدتها. تذكرت كيف كانت علاقتهما مؤذية، مليئة بالندوب والشرور، وكيف انتهى بهما الأمر بتركها وحيدة في مهب الريح، لا تعلم عن مكانهما أو مصيرهما شيئًا.

تنهدت بحزنٍ عميق وهي تحاول طرد أطياف الماضي من مخيلتها، ثم خرجت إليه مرة أخرى محاولةً استعادة قناع المرح. لكن ماكس، الذي كان يقرأها ككتابٍ مفتوح، لاحظ على الفور ذبول ملامحها؛ فقد انطفأت تلك اللمعة التي كانت تشع من عينيها قبل دقائق، وحلَّ مكانها بريقٌ منكسر. سألها بنبرةٍ يملأها القلق:

___ مالك؟

رسمت على ثغرها بسمةً باهتة، بسمة لا تصل إلى العينين ولا تداوي الروح، وقالت باختصار:

___ مفيش.

ابتسم بحنانٍ غامر، كأنه يمنحها الأمان الذي افتقدته طويلًا، وسألها بنبرةٍ هادئة لم تصدِّق نفيها الأول:

___ متأكدة؟

تهربت من حصار نظراته التي تقرأ ما وراء صمتها، وقالت بمحاولةٍ جادة لتغيير مجرى الحديث:

___ آه.. بقولك تيجي معايا نجيب حاجة رمضان؟

لم يضغط عليها، بل أراد أن يمنحها المساحة التي تحتاجها لتستعيد توازنها.

وبالفعل ذهبوا سويًا، وانغمسوا في أجواء الزحام الرمضاني المبهج. كانت لمار تتحرك بخفة بين الممرات، تأخذ رأيه في العديد من المنتجات الغذائية بحيرة طفولية، وهو يتابعها بتركيزٍ واهتمام وكان يختار نوع التمر و ألوان الزينة ببسمة واسعة وفجأة، قطعت حبل نقاشهما سيدة عجوز كانت تقف بالقرب منهما، وقالت بابتسامةٍ طيبة وتجاعيد وجهها تشع حنانًا:

___ شكلكم حلو أوي.. ربنا يخليكم لبعض.

في تلك اللحظة، اجتاحها ارتباكٌ مفاجئ جعل نبضات قلبها تتسارع خلف ضلوعها بعنف. تمنَّت لو تنشق الأرض وتبتلعها هربًا من تلك النظرات، فخفضت عيناها للأسفل بكسوفٍ لطيف، وظلَّت تعبث بأطراف أصابعها في توترٍ عجزت عن إخفائه، بينما كان صمتها يشي بالكثير مما لا تجرؤ على قوله.

أما ماكس، فقد كان يراقبها بهدوءٍ تام، كأنه يقرأ في ملامحها المشتتة فصولًا من روايةٍ يعرف نهايتها جيدًا.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في ركنٍ آخر خاصةً في قصر الطنطاوي تحديدًا غرفة جاسر وريم، كان جاسر يقف فوق سلمٍ مرتفع، وقد تملَّكه الإرهاق وهو

يحاول تثبيت فرع الزينة الملونة، بينما كانت ريم تقف في الأسفل، تراجع المشهد بعيني مهندس ديكور لا يقبل بأقل من الكمال، وتوجهه بتعليمات لا تنتهي:

___ لا.. فوق شوية.. لا ثانية، هاته على الجنب.. لا برده، طب بص اعدله شوية!

توقف جاسر عن الحركة، ونظر إليها من فوق كتفه بضيقٍ واضح ومللٍ بدأ يتسرب إلى ملامحه، وقال بنبرةٍ متهدجة من التعب:

___ أنا بقالي ساعة واقف عشان سيادتك!

لوت ريم شفتيها بضيق طفولي، وعلت نبرة الاحتجاج في صوتها وهي تهمس في المقابل:

___ مش بعرف أعدي رمضان غير لما أعلق زينة يا جاسر.. وبعدين اعدلها بقى عشان تبقى مظبوطة!

نفخ جاسر بضيق، جزَّ على أسنانه وهو يحاول الحفاظ على توازنه فوق السلم الملعون، وقال بنبرة متهكمة:

___ أنا لفيت معاكي وجبنا كل حاجة.. حتى قمر الدين والسمبوسة والعصاير، مكنش فاضل غير فرع الزينة اللي ملوش آخر ده بقالي ساعة بعلق فيه ومش راضي يخلص!

انفجرت ريم بالضحك، وتصاعد رنين ضحكتها في الأرجاء وهي تتأمل فرع الزينة الطويل الذي كان يصارعه جاسر قبل قليل. وفجأة، هدأت ملامحها تمامًا ووضعت يدها برقةٍ فوق بطنها،

كأنها تستشعر ذلك الكائن الصغير الذي ينمو بداخلها، وقالت بصوتٍ يملأه الشجن الجميل:

___ أول رمضان وابننا يحضر معانا..

ساد صمتٌ مفاجئ ومهيب، صمتٌ غلفته مشاعر لا توصف، حيث تلاقت نظراتهما في لحظة إدراكٍ لعظمة هذا التغيير. لم يدم الصمت طويلًا حتى قطعه جاسر بضحكةٍ دافئة، وهو ينظر إليها بعينين تلمعان بالعشق والفخر، وقال مداعبًا:

___ والباشا أصلًا زوّد هرموناتك.. خدي بالك من ده، بس فداه يعني!

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في منزل آسر وتيا، كانت الأجواء مفعمة بدفء العائلة الذي عاد ليغمر جدران البيت. جلست تيا بجانبه على الفراش في استرخاء وهي تتناسى مرضها الموجع الذي ينهش في جسدها وتحاول الاندماج معهم حتى تعيش تفاصيل رمضان التي تعشقها، بينما وقف أدهم وكايلا أمامهما كأنهما في مجلس إدارة مصغر، وعلامات الحيرة مرتسمة على وجه تيا وهي تُعدد المطالب المتضاربة:

___ طيب دلوقتي أدهم عايز مكرونة بالبشاميل، وكايلا عايزة محشي وفراخ، وآسر عايز مكرونة وايت صوص.. وأنا بقى عايزة سمك! هنوزع بقى الأكلات دي إزاي؟

هزَّ آسر رأسه بتفكيرٍ عميق، ثم أجاب بنبرةٍ يملأها المنطق والحسم:

___ أكلة كايلا نبدأ بيها أول يوم؛ لأنها أكلة مصر كلها أصلًا في أول يوم.. وتاني يوم مكرونة بشاميل، وتالت يوم سمك، والرابع وايت صوص.

همهمت تيا وهي تزن الأمور في رأسها، ثم لمعت عيناها بالموافقة وقالت بلهجة ست البيت المدبرة:

___ حلو.. ويوم الخميس بقى نلم البواقي بتاعة الأسبوع كله!

قالت كايلا وهي تضع إصبعها على ذقنها بتفكيرٍ عميق، كأنها تضع اللمسة الأخيرة على مائدة أحلامها:

___ وعايزة عصير بطيخ!

اتسعت عينا تيا بذهولٍ ممزوج بالضيق، والتفتت لابنتها وهي تهمس بنبرةٍ غلب عليها اليأس من طلباتها المستحيلة:

___ اطلبي طلب منطقي طيب! هجيبلك بطيخ منين دلوقتي؟!

عبس وجه كايلا بطفولةٍ محببة، وظهرت مسحة من الحزن على ملامحها الصغيرة بسبب رفض طلبها، فما كان من آسر إلَّا أن جذبها إليه برفق وقبَّل وجنتها بحنانٍ أبويٍّ غامر، محاولًا امتصاص ضيقها وهو يقول بنبرةٍ مطمئنة:

___ خلاص يا كوكي، هبقى أجيبلك عصير جاهز من اللي بتحبيه.

في لحظة، تبدلت ملامحها من العبوس إلى الفرح، والتمعت عيناها ببهجةٍ انتصرت فيها براءة الأطفال، فمالت على وجهه وقبَّلت وجنتيه بضحكةٍ صافية رنت في أرجاء الغرفة كألحانٍ موسيقية، لتذيب بضحكتها أي أثرٍ للتعب أو التوتر.

انصرف الصغيران بضحكاتٍ رنانة تملأ البيت حياة، تاركين خلفهما هدوءًا غلَّفه الدفء، ونظراتٍ متبادلة بين آسر وتيا تحمل من الشوق والامتنان ما لا تصفه الكلمات. مال آسر نحوها، وهمس بنبرةٍ رخيمة يملأها الحنين:

___ خامس رمضان لينا سوا..

وضعت تيا كفها على وجنتها بتأثر، ونظرت إليه بعينين تلتمعان بالحب الصادق، وقالت بصوتٍ يخرج من أعماق قلبها:

___ عقبال كل سنة يا رب.. ويفضل حسك منور دنيتي دايمًا.

ساد الصمت لثوانٍ معدودة، صمتٌ كان يفيض بمشاعر الحب، قبل أن تقرره تيا فجأة كسر هذه الحالة الشاعرية والعودة إلى أرض الواقع. اعتدلت في جلستها بحماس، وسحبت ورقة وقلمًا كأنها تستعد لمعركة حاسمة، ثم قالت وهي تنظر لآسر بجدية تامة:

___ بص بقى.. عايزاك تجيب السمبوسة، والكنافة، والقطايف، وبسبوسة جاهزة عشان مش بعرف أعملها.. وهات عصاير كتير، وسوبيا، وتمر هندي، وعناب.

وضعت تيا كفها على رأسها بملامح يكسوها التركيز الشديد، كأنها تستعرض مخزن المطبخ في مخيلتها، واستطردت وهي تراجع حساباتها بصوتٍ مسموع:

___ والفراخ موجودة.. واللحمة قللت منها عشان مش بنحبها أوي يعني.. واستيك وبانيه وتبلتهم خلاص، وجبت ممبار كمان..

توقفت فجأة كأن فكرة عبقرية داهمتها، ثم التفتت لآسر وأضافت بسرعة قبل أن تنسى:

___ آه صح! هات مع الطلبات دي ورق عنب وكرومب.

كان آسر ينظر إليها بذهولٍ حقيقي، وعيناه تتسعان مع كل صنف جديد تضيفه للقائمة، حتى همس بنبرة يملأها العجز المضحك:

___ أنا هجيب كل ده؟ هلحق إزاي أصلًا؟!

ابتسمت تيا بمشاكسة، ولم تمنحه فرصة للاستيعاب، بل تابعت ببرودٍ تام وهي تعد على أصابعها:

___ زي الناس يا حبيبي.. ومتنساش الطماطم والفلفل عشان خلصوا، واللمون، وهات فلفل أسود عشان هطحنه، و....

لم تكمل جملتها، فقد انتفض آسر من مكانه بذهول وصراخٍ يملأه اليأس المفتعل، مقاطعًا سيل طلباتها:

___ كفاية.. كفاية! هلحق أجيب كل ده إمتى؟ استهدي بالله واحدة واحدة عشان ألحق استوعب أصلًا.

ضحكت تيا بخفة وهي تشاهد معالم الصدمة على وجهه، ثم سحبت ورقة مطوية بعناية ووضعتها أمامه على الفراش قائلة بنبرة الأمر الواقع:

___ لا يا حبيبي متتعبش نفسك.. أنا أصلًا كاتبة كل حاجة بالتفصيل في الورقة دي، هسيبهالك على التسريحة عشان متبقاش ليك حجة. خدها معاك وإياك تنسى حاجة واحدة، أنا حذرتك أهو!

زفر آسر بقلة حيلة وهو يضحك على الورطة التي وضعته فيها، ثم أمسك الورقة وبدأ يقرأ الأصناف المكتوبة بخطها الصغير. كان يمرر عينه على الطلبات بتدقيق وتركيز مضحك، محاولًا ترتيب خطة سيره في الزحام ليفهم من أين سيبدأ وكيف سينتهي.

كانت تراقبه بصمت، وعيناها اللتان تفيضان بالعشق لا تعكسان إلا صورة ذلك الرجل الذي صار هو كل عالمها. لكن خلف نظرات الحب، كان هناك قلقٌ وحشيٌّ ينهش في قلبها بلا رحمة، وسؤالٌ مرير يتردد صداه في أروقة روحها: "كيف ستتركه؟".

شعرت بغصةٍ تخنق أنفاسها وهي تتساءل في سرها: هل اقترب الرحيل؟ هل ستموت وتتركه وحيدًا في مواجهة العالم؟ هل سيتمكن ذلك "الكانسر" اللعين من خطفها من بين يديه، ليمحو كل تلك الخطط التي رسمتها للتو؟ كانت ملامحه وهو يقرأ ورقة الطلبات تبدو لها الآن كأغلى ما تملك، وتساءلت بمرارة: "هل سيكون لها فرصة حقًّا أن تعيش معه كل رمضان قادم مثلما وعدته؟ أم أنَّ هذا الرمضان سيكون هو الوداع الأخير؟".

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كانت سارة تجلس في غرفتها، تستحضر ذكريات العمر وهي تدندن ببعض الأغاني الرمضانية القديمة بنبرة يملأها الشجن والبهجة. وفجأة، التفتت بابتسامةٍ دهشة حين وجدت صوتًا طفوليًّا عذبًا يختلط بصوتها، محاولًا تقليد نبرتها ببراءةٍ تأسر القلوب.

لم يكن سوى "ليث"، حفيدها المدلل وابن ابنتها الكبرى داليا. ذلك الصغير الذي يمتلك قدرةً عجيبة على خطف قلبها في كل مرة تقع عينها عليه، كأنه قطعةٌ من روحها تمشي على الأرض.

اقتربت منه سارة بلهفة الجدة، وجذبته إلى حضنها الدافئ وهي تضمه بقوة، وظلا يدندنان معًا بكلمات الأغنية الرمضانية في انسجامٍ لطيف، قبل أن تتوقف لتقبله بعمق وهي تقول بصوتٍ يملأه الحب:

___ رمضان كريم يا قلب تيتا.. كل سنة وأنت طيب يا حبيبي.

ضحك ليث بصفاء، وطبع قبلة رقيقة على وجنتها بادلها بها حنانها، ثم سألها بفضوله الطفولي المعتاد وهو ينظر لما حولها:

___ وأنتِ طيبة يا تيتا.. ها، بتعملي إيه بقى؟

نظرت سارة إلى الصور المبعثرة أمامها على الفراش، وامتدت يدها لتربت على إحداها وهي تشير لليث قائلة:

___ دي أمك وهي صغيرة.. مكنتش صغيرة أوي يعني، كانت في بدايات مراهقتها.

انتقل نظر ليث بين الصور بفضول، حتى توقفت يده الصغيرة فوق صورة لفتاةٍ باهرة الجمال، ملامحها تمتلك جاذبية طاغية تخطف الأنفاس من النظرة الأولى، وسأل ببراءة:

___ ومين دي؟

ابتسمت سارة بمرارة وحنين، وشعرت بغصةٍ تعصر قلبها وهي تنظر لتلك الملامح الغائبة، ثم همست بصوتٍ يرتجف بالأمل:

___ دي خالتك.. بس هي مسافرة ومحدش يعرف عنها حاجة، بس هترجع.. أنا حاسة إنها هترجع يا ليث، قلبي بيقولي إنها هترجع.

دقق الصغير في ملامح الفتاة التي في الصورة، كأنه يحاول حفظها ثم همس بإعجاب فطري:

___ حلوة أوي.. زي ماما.

تأملت سارة تلك الملامح التي تجمع بين السحر العربي والجاذبية الغربية في آنٍ واحد، كأنها لوحة رُسمت بعناية فائقة، وهمست لنفسها قبل أن تقول له:

___ هي فعلًا طول عمرها حلوة أوي.. جمالها مكنش له زي.

ومالت مرة أخرى نحو حفيدها بفضولٍ محبب وهي تسأله:

___ المهم بقى.. ناوي تعمل إيه في رمضان؟

انفرجت أسارير ليث وابتسم باتساع، وانطلق لسانُه الصغير يقصُّ عليها بحماسٍ كل خططه ومغامراته التي ينوي القيام بها، من الفوانيس واللعب والزينة. استمعت إليه سارة ببسمةٍ حانية، حتى هدأ قليلًا، فربتت على كتفه وقالت برفق:

___ المهم أنَّك تعرف يا ليث إن ده كمان شهر عبادة.. للصلاة، وقراءة القرآن، والذكر، وكل حاجة حلوة بنعملها لربنا.. ماشي يا حبيبي؟

نظر إليها ليث بتقديرٍ طفولي، فأومأ لها بموافقةٍ فورية ورسم على وجهه بسمةً هادئة تفيض بالسكينة.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

أمَّا في الطابق السفلي، فكان عثمان يجلس في ركنه المعتاد، يرقب كل ما يدور حوله ببرودٍ تام ونظراتٍ باردة لكنه ظل بغموضه؛ فشخصٌ مثله لم يعد يفرق معه قدوم شهرٍ كريم أو رحيله. لقد انسلخ عن كل المشاعر الإنسانية التي قد تربط كائنًا بآخر، حتى لم يتبقَّ منه سوى تلك القشرة الصلبة التي تخفي خلفها قلبًا تحجر، شعرت بارتجافٍ يسري في أوصالها، وبرودةٍ تنهش أطراف أصابعها رغم حرارة الجو. توقفت على مسافةٍ منه، وحاولت استجماع شتات صوتها الغائب قبل أن تهمس بنبرةٍ بالكاد مسموعة:

___ عايزة أطلب طلب..

لم يحرك عثمان ساكنًا، ولم تتغير ملامحه الجامدة؛ فقط رفع عينيه الباردتين إليها، وأومأ برأسه إيماءةً بطيئةً وصامتة، مانحًا إياها الإذن بالحديث، كأنه ملكٌ ينتظر سماع تظلمٍ من أحد رعاياه.

أغمضت عيناها بقوة، وهي تحاول استمداد الشجاعة من الظلام خلف جفونها، وقالت بصوتٍ يرتعش كخيط دخان في مهب الريح:

_ عايزة أروح أزور صاحبتي دلوقتي.. أنا ودواليا.

ارتفع حاجب عثمان قليلًا في إشارة تعجب نادرة، وسأل بنبرة خالية من أي انفعال:

___ دلوقتي؟ إحنا بالليل!

ازداد ترددها، وتشابكت أصابعها خلف ظهرها وهي تحاول قول مبرر مقنع:

___ آه.. آه لازم دلوقتي، أصلنا.. هنساعدها في حاجات يعني.

نظر إليها لثوانٍ بدت كأنها دهر، ثوانٍ كانت تفحص فيها نظراته روحها المرتعشة، قبل أن يشيح بوجهه عنها وقال بلا مبالاة تامة، كأن الأمر لا يستحق عناء التفكير:

___ تمام.. مفيش مشكلة.

خرجت رهف من مكتبه بخطواتٍ سريعة، وهي تشعر أنها فرَّت من قفصٍ حديدي، واتجهت مباشرة إلى غرفة داليا. طرقت الباب بهدوءٍ حذر، لتفتح لها داليا بملامح يكسوها التعجب من زيارتها المفاجئة في هذا الوقت، وقبل أن تنطق، سبقتها رهف بلهجة حاسمة:

___ تعالي معايا.. هنروح مكان مهم.

تضاعف تعجب داليا، وقالت وهي تكتف ذراعيها بريبة:

___ هو في إيه بيحصل من ورايا؟ آسر يبعتلي ويقولي تعالي أنتِ وجاسر بكرة، وأنتِ دلوقتي...

قاطعتها رهف بصرامة لم تعتدها منها، كأنها تسابق الزمن:

___ لا، هنروح لآسر دلوقتي.. اجهزي بسرعة.

تركتها رهف في حيرتها وانصرفت، بينما كانت أصابعها المرتعشة تعبث بشاشة هاتفها، تبحث في قائمة الاتصالات حتى

توقفت عند اسم "آسر". ضغطت على زر الاتصال، وبمجرد أن فتح الخط قالت بلهفة:

___ ألو.. يا آسر، أنت فين؟

أتاها صوت آسر مشتتًا، مشحونًا بضجيج المكان من حوله، وهو يقف أمام الكاشير يحاسب على أكوام المشتريات:

___ المفروض إني كنت هجيب حاجة رمضان بكرة، بس للأسف رمضان طلع بكرة أصلًا فنزلت أجيب الحاجة دلوقتي.. في إيه؟

ردَّت رهف بسرعة وهي تحاول بصعوبة ألا تشرح الكثير:

___ طب حلو أوي.. أنا هجيب داليا ونيجي عندك.

توقف آسر عن سحب النقود من محفظته، وقال بذهول وهو ينظر حوله للزحام:

___ ليه يعني؟ تجيبوا داليا وتيجوا فين؟

أجابت بجملة واحدة كانت كافية لتبرير كل شيء، لكنها حملت في طياتها الكثير من القلق الخفي:

___ عندكم عشان نساعد تيا.

أغلقت رهف الخط دون أن تمنحه فرصةً واحدة للاعتراض، تاركةً إياه في حالة من الذهول وسط صخب المتجر. نظر آسر إلى شاشة هاتفه بتعجب، ثم وضعه بسرعة على أذنه وهو يصارع أكياس المشتريات التي كادت تسقط من يده، وضغط على رقم تيا. وبمجرد أن أجابت، قال بنبرةٍ لاهثة تحمل وقع المفاجأة:

___ تيا.. اجهزي، رهف وداليا جايين دلوقتي مش بكرة!

توقفت يد تيا فجأة عن تقليب خلطة المحشي، كأن صاعقةً أصابتها. جمدت الدماء في عروقها، وهمست بصوتٍ قلق ومرتبك:

___ دلوقتي إزاي؟ وليه؟ وإمتى؟

أجابها وهو يحاول موازنة أكياسه ويدفع ثمن المشتريات للكاشير:

___ معرفش والله.. رهف كلمتني وقالت لي إنهم جايين يساعدوكي، وأهو بالمرة داليا تعرف الحقيقة دلوقتي بدل بكرة..

ارتجف جسدها بالكامل، وشعرت ببرودةٍ تسري في أطرافها رغم حرارة المطبخ، وهمست بخوفٍ طفولي يمزق القلب:

___ آسر.. أنا مش جاهزة دلوقتي..

شعر بوجعها عبر الهاتف، فخفض نبرة صوته لتصل إليها دافئة ومطمئنة، تحاول امتصاص رعبها:

___ اهدي يا حبيبتي.. استعيذي بالله كدة واجهزي بس.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في قلب أوكرانيا، وتحديدًا داخل قصر عائلة كوفايلنو الفاخر، كان أندريا يقف بجانب زوجته ميرا، والابتسامة ترتسم بوضوح على وجهه وهو يتأمل الزينة التي غطت أركان القصر بشكلٍ باهر، كأنها قطع من الضوء تراقص جدران المكان.

وسط هذا الهدوء، ارتفع صوت تاراس بنبرة يملأها التعجب، وهو ينظر للأشرطة الملونة والفوانيس التي لا تشبه طراز القصر المعتاد، وقال:

___ أريد أن أعلم.. لماذا قمنا بتعليق كل هذه الزينة ونحن سنغادر إلى مصر بعد أيام قليلة؟

ضحكت ميرا برقتها المعهودة، والتفتت تنظر حولها بعينين تلمعان بالرضا ثم قالت بنبرة حانية:

___ أشعر أنَّه مع قدوم رمضان، يصبح لزامًا علينا أن نعلِّق الزينة في كل ركن.. حتى وإن كنا سنترك القصر يا تاراس.

ضمَّ أندريا زوجته "ميرا" بحنان، وهو يوزع نظراته بين أرجاء القصر المزين وزواياه، ثم مال برأسه قليلًا نحو شقيقه وبنبرة خافتة، حملت في خباياها مكرًا محببًا، همس له:

___ أشعر أنَّك اشتقت إليها.. أليس كذلك؟ "لينا" أليس لها نصيب من هذا الحنين؟

في تلك اللحظة، تبدلت ملامح تاراس "العملية" تمامًا، واحمرت وجنتيه من الخجل وبحركة لا إرادية تنم عن ارتباكه، رفع يده ليضرب شقيقه على رأسه بقوة وعنف مضحك وهو يصيح به:

___ اصمت.. تبًا لك يا أحمق!

انفجر أندريا في ضحكٍ هيستيري لم يستطع كبحه، وهو يرى ملامح شقيقه التي اعتلاها الخجل، في مشهدٍ هزَّ وقار "تاراس" المعتاد وجعله يبدو كطفلٍ كُشف سره للتو.

كان صدى ضحكاته يملأ المكان، محتفيًا بانتصاره الصغير في استيفاظ ذلك الجانب الإنساني المختبئ خلف قناع البرود الذي يرتديه شقيقه دائمًا.

مالت ميرا نحو أندريا وضربته على كتفه بخفةٍ حملت طابع العتاب الرقيق، وهي توبخه بنبرةٍ ضاحكة حاولت جعلها حازمة:

___ أندريا.. كفى، لا تزعجه.. كُف عن هذا الطبع ولو لمرة!

ضمها أندريا بحنان، وكان على وشك أن ينطق بكلمةٍ تحمل مزيجًا من الودِّ والمشاكسة، إلا أنَّ كلماتِه انحسرت حين شعر بجسد ابنه الصغير يرتمي في أحضانه بتلقائيةٍ تفيض بالحب. انحنى إليه آويًا إياه في أحضانه، وراحت يده تداعب خصلات شعره بحنانٍ أبويٍّ بالغ، قبل أن يهمس له بابتسامةٍ دافئة:

___ ماذا تريد يا ليو؟

تعالت صرخة ليو المليئة ببهجةٍ، وهو يرفع أمام والده فانوسًا رمضانيًّا يتلألأ بألوانٍ زاهية، وصاح بلسانه الصغير مشيرًا نحو الباب بحماسٍ شديد:

___ انظر يا أبي! أليس جميلًا؟ لينا وليلا وإيفان.. هم من أحضروه لي!

ومع تردد صدى اسمها التفت تاراس بانتفاضةٍ سريعة وراحت عيناه تبحثان عنها بلهفةٍ لم يستطع مداراتها هذه المرة، حتى استقرَّ بصره عليها وتجمد العالم من حوله، ولكن قبل أن يجد من الكلمات ما يعبّر عن مشاعره، تسلل صوت شقيقه إلى أذنه بمكر.

إذ انحنى أندريا ووشوش له بنبرةٍ تقطر بالشماتة الممزوجة بالضحك:

___ أشعر أنَّه يجب عليك احترام ذلك الشهر الكريم وتخفض نظرك.. أيها الأبله!

للمرة الأولى، لم يجد تاراس في نفسه رغبةً في الرد على سخرية شقيقه، بل استقرت كلمات أندريا في نفسه بوقعٍ غريب من الاحترام.

وفي تلك الأثناء، كانت هي تقف هناك.. فاتنة كالعادة وهذا جعل من محاولته لغض بصره جهادًا حقيقيًّا لقلبه المشتاق، صرخت ميرا بحماس فجأة وتقدَّمت منهما بخطًى سريعة، وضمتهما إليها بلهفةٍ، وفي غمرة هذا الدفء، اقتحم إيفان المكان بمرحه المعتاد، متسائلًا بنبرةٍ غلبت عليها الفضول:

___ ما بكم يا رفاق؟ وفيمَ هذا التهامس الغامض؟

تعالت ضحكة أندريا المكتومة وهو يحاول تغيير أجواء الريبة التي خلقها إيفان، وردَّ بهدوءٍ مصطنع بينما يحاول إخفاء معالم مشاكساته مع شقيقه:

___ لا شيء.. مجرد حديث عابر.. ولكن أخبرني، أين ديم؟

أشار إيفان بيده نحو الخارج، حيث بقايا ضوء النهار تنسحب بهدوء، وقال باقتضاب:

___ إنه في الخارج.. سيأتي حالًا.

تحدثت ليلا برقةٍ ناعمة:

___ مظهركِ رائع كالعادة يا ميرا.

ارتسم الخجل على وجنتي ميرا، وشكرتهم بابتسامةٍ عذبة وهي تتأمل في ألوان أثوابهم، ثم قالت بنبرةٍ تملؤها الحكمة:

___ بل تلك الألوان هي التي تعكس جمال أرواحكم.. إنها تتناسب مع شخصياتكم كثيرًا.

تبادلت الأخوات نظراتٍ ذات مغزى، وارتسمت على شفتي لينا ابتسامة شوق شديد لشقيقتهم، فقالت:

___ حديثك يذكرنا بتيا...نشكرك ميرا.

ضحكت ميرا بمودة، ثم انتقلت بالحديث إلى منحًى آخر وهي تسأل باهتمام:

___ ما أخبار دراستكما؟ أعلم جيدًا أنَّ عثرات الثانوية وصعوباتها ليست بالأمر الهين.

ابتسمت ليلا بإرهاق وارتمت على الأريكة وقالت بشرود:

___ صعبة لأقصى درجة حقًّا ولكننا نحاول بكل طاقتنا.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كانت تيا ترتجف بانتظام وهي تعبث بهاتفها بتوتر، حتى وقع نظرها على الاسم المنشود؛ لم تتردد وبدأت الاتصال فورًا، وبمجرد أن فُتح الخط قالت بصوتٍ مخنوق:

___ لمار.. الحقيني، داليا جاية!

انتفضت لمار من فراشها بتعجب، وصاحت بنبرة استنكارية:

___ داليا؟! إيه اللي لم الشامي على المغربي.. إيه اللي جابها؟!

في تلك اللحظة، لم تتمالك تيا نفسها فانهمرت دموعها بخوفٍ حقيقي وهي تهمس:

___ مش عارفة.. مش عارفة يا لمار أعمل إيه؟

تحركت لمار بسرعة ووقفت أمام خزانة ملابسها، وبدأت تسحب قطعًا عشوائية وهي تحاول طمأنتها بلهجة حازمة:

___ اهدي بس كدة.. اهدي وأنا جاية أهو.

وصل إلى مسامع تيا رنين جرس الباب، فمسحت دموعها بلمساتٍ خاطفة وقبل أن تهمَّ بفتح الباب، استدارت نحو المرآة بحركةٍ سريعة، وبأصابع مرتجفة أزالت عدسات عينيها، لتنكشف عيناها الملونتان على طبيعتهما بكل ما تحملانه من تعبٍ وانكسار. سحبت نفسًا عميقًا وحبسته في رئتيها، ثم مدت يدها وفتحت الباب.

وظهرت أمامها داليا، بعينيها التي تشبه المحيط الهادئ ولكنها مرهقة، ووجهها الشاحب كورقة بيضاء نقية من الحبر، نظراتها كانت حادة وهي تهمس لرهف بكلماتٍ غاضبة، ولكن نظراتها تحولت فجأة لذهول عندما وقعت عيناها على تيا.. ولكن لحظة عيناها ملونتان مثل.... لا.. لا مستحيل.. كيف شقيقتها؟

ابتلعت داليا ريقها بصعوبة، محاولةً مداواة جفاف حلقها الذي خلفته الصدمة، وهمست لرهف بنبرة مرتعشة:

___ أنتِ.. أنتِ جبتينا هنا ليه؟!!

ابتسمت رهف ابتسامة هادئة، وشددت على كفها برقة وسحبتها باتجاه تيا، التي كانت تقف كأنها مومياء غير قادرة على الحركة، وقالت بهدوء:

___ بصيلها.. وهتعرفي أنا جايباكي هنا ليه.

دققت داليا في ملامح تيا وظلَّت على هذا الوضع دقائق عديدة كأنها غاصت في أعماق بحرٍ غادر كشف لها سرًّا لم تكن مستعدة له، ثم خرجت منها شهقة مذهولة وقالت:

___ رهف أنت...أنت أكيد مش قصدك...مش قصدك إنها تيا أختي صح..رهف انطقي ساكتة ليييييه؟

اقتربت تيا ومدَّت يدها ببطء لتضعها على وجه داليا. نظرت في عينيها بقوةٍ تتناقض مع همسها الضعيف المبحوح:

___ ليه؟ ها.. ليه يا داليا؟ بصي في عيني وأنتِ هتعرفي أنا هي ولا لأ.. أصل مستحيل تكوني نسيتيني.

صمتت لثوانٍ، قبل أن تغلبها دموعها الحارقة وهي تهمس بانكسار:

___ صح يا داليا؟ مش كدة؟

لمعت عيناها ببريق الدموع، وهمست بنبرةٍ يملأها الضياع:

___ أنتِ....

لم تمنحها تيا فرصةً لإتمام كلمتها، أو بالأحرى، لم تطاوعها قدرتها على الانتظار؛ فارتمت في أحضانها بانهيارٍ تام، مجهشةً

ببكاءٍ مرير وهي تتشبث بها بقوة، وتستنشق رائحتها بعمق كأنها تبحث فيها عن أمانٍ مفقود، وصرخت ببكاء:

___ أنا هي يا دالياااا أنا تيا...وحشتيني أوووووي.

تسمَّرت في مكانها بذهول، ويداها معلقتان بجانبها، مرت دقائق من الاستيعاب الثقيل، قبل أن تبدأ برفع يديها رويدًا رويدًا وأخيرًا، وبعد طول انتظار، ضمتها بشدةٍ زلزلت كيانها، وخرجت منها صرخة مدوية كتمتها طويلًا، تاركةً العنان لدموعها التي انهمرت دون توقف:

___ تيااااا لا لا مستحيل بجد بعد السنين دي.... إزاااي؟

انهارت قواهما معًا لتستقرا على الأرض، دون أن تفكَّا حصار هذا العناق المتشبث؛ ظلتا متمسكتين ببعضهما بعضًا بقوةٍ يائسة.

وفي تلك اللحظة، ركض ليث، ابن داليا، إلى الداخل ما إن وقع بصرُه على أدهم وكايلا، فارتمى الصغار في أحضان بعضهم بعضًا بشدة، وتعالت ضحكاتهم الصافية بسعادةٍ غامرة وبراءةٍ، لم تمسسها بعد مرارة الدنيا.

ظلت داليا متشبثة بملابس تيا لوقتٍ طويل ثم بدأت تبتعد ببطء وهي تحاوط وجه شقيقتها بكفيها، وهمست بنبرةٍ مرتعشة:

___ ماما.. لازم نعرَّف ماما.

شددت تيا قبضتها على يدي داليا، وردت بنبرةٍ قاطعة يشوبها التوجس:

___ مش دلوقتي.. مقابلتي أنا وسارة مش دلوقتي خالص يا داليا.

حاولت داليا الاعتراض:

___ تيا..

لكنها قاطعتها بحزمٍ لا يقبل الجدال:

___ داليا أرجوكِ، سيبيني براحتي.

كادت داليا أن تنطق بكلمة أخرى، لكنها التفتت سريعًا حين اخترق سكون المكان صوت آسر، وبصحبته صوتا سيف وجاسر..

وقع بصر جاسر على تيا، فتسمَّر في مكانه وهو ينظر إليها بذهولٍ تام.

نظرت داليا إلى آسر بتعجبٍ شديد وهي تراه يضم تيا إلى أحضانه بتلك الألفة، ولكن ذلك التعجب سرعان ما استحال إلى صدمةٍ ألجمت لسانها حين ركض أدهم وكايلا نحوه، وارتميا في حضنه وهما يصرخان ببهجة:

___ باباااااا!

فتحت فمها بذهولٍ تام، وتمتمت غير مصدقة:

___ بابا؟!!!!!!

ارتسمت ابتسامة هادئة على وجه آسر وهو يغمر أطفاله في حضنه، ثم جذب معشوقته إليه بقوة، وهمس لداليا بنبرةٍ غلبت عليها الثقة والمشاكسة:

___ آه بابا.. مشبهش ولا مشبهش يعني؟

نقلت داليا بصرها إلى سيف بذهول، ثم أشارت بيدٍ مرتجفة نحو تيا وآسر وهي تتساءل بعدم تصديق:

___ إزاااي؟

أجابها آسر نيابةً عن سيف، وبنبرةٍ واثقة لم تخْلُ من التحدي:

___ زي الناس.. آمال يعني كنتِ فاكرة إني نسيتها؟

أفلتت ضحكة مذهولة من بين شفتي داليا وقالت بنبرةٍ يملأها العجب:

___ لا بتهزروا! يعني يوم ما أتقابل مع أختي الصغيرة بعد كل ده، أكتشف إنها اتجوزت وخلفت وأنا معرفش؟.. ومن مين؟ من أكتر شخص كنت متوقعهوش!

أشار إلى نفسه بهدوء وثبات، وقال بنبرةٍ واثقة:

___ ده أنا المفروض أكون أول شخص يجي في دماغك، لأني مكنتش ناوي أسيبها لغيري.

ارتسمت على وجه تيا ابتسامة خجولة غلب عليها الارتباك، وانحنت برأسها قليلًا كأنها عادت فتاة مراهقة اعترف زميلها أمام الجميع بحبها.

فقال آسر بمشاكسة وهو يراقب احمرار وجنتيها:

___ إيه الكسوف ده؟ هو أنا حد غريب! ده أنا جوزك و...

لم يمهله القدر ليتم جملته، فقد جذبتها داليا من بين يديه فجأة وضمتها إليها من جديد.

ارتسمت الابتسامة على وجوه الجميع وهم يراقبون تلك اللحظة الصافية التي جمعت شتات العائلة، ولكن وسط هذا الدفء، خطا جاسر خطواته نحوهم بتمهل، حتى وقف أمامهم في تلك اللحظة، لم تستطع تيا منع ابتسامتها اللطيفة من الظهور؛ فلطالما كان جاسر هو الأقرب إلى قلبها، متفوقًا في تلك المكانة حتى على سيف.

مالت تيا برأسها قليلًا، ولمعت عيناها ببريق المشاكسة القديمة وهي تقترب منه. وبنبرةٍ هادئة، لكنها مشحونة بالمداعبة، همست بذلك اللقب الذي كان يثير غيظه ويخرجه عن وقاره المعتاد:

___ إزيك يا ماسورة.. لسه فاكرني؟

تنظر جاسر نحو آسر، وكانت الكلمة تخرج من بين شفتيه بصعوبة، وصوته يرتجف بذهولٍ لم يستطع مداراته:

___ إزاي؟

لم يجد آسر مفرًّا من المواجهة، فبدأ يسرد عليهم الحكاية من بدايتها، كأنه يفتح كتابًا أُغلق لسنوات..

الفلاش باك...

مرت الأيام والشهور ثقيلة في البداية، ثم صارت جزءًا من روتين حياته في أوكرانيا. اعتاد آسر أن يمر وقته كله معها، مع تلك الصغيرة المشاكسة التي ملأت فراغ أيامه هناك بضحكاتها وعنادها المحبب.

وفي أحد الأيام الهادئة، كانت تيا تجلس أمامه في استسلامٍ لطيف، بينما كان هو يمشط خصلات شعرها بدقة وحنان، وفجأة، انقطع هدوء اللحظة حين دلف "ألكسندر" إلى الغرفة، بملامحه الصارمة المعتادة، وقال بنبرةٍ لا تقبل التأجيل:

___ عايز أتكلم معاك.

تعجب آسر من نبرة ألكسندر، فنظر إلى تيا القابعة أمامه، ثم أعاد بصره إليه مرة أخرى بإيماءة صامتة تعني "تحدث أمامها، ليس لدينا ما نخفيه"، فقال ألكسندر بهدوء غريب:

___ فيكتور.. هيتجوز.

شعر آسر بوخزة صدمة خفيفة، لكنه تداركها سريعًا وحاول رسم ابتسامة مهذبة وهو يسأل:

___ ألف مبروك.. ومين العروسة؟

ابتسم ألكسندر ابتسامة غامضة، وظل يحدِّق إلى تيا لثوانٍ كأنه يربط الخيوط ببعضها، ثم نطق الاسم ببطء:

___ جيسيكا دانيلو كوفالينكو.

هنا، اتسعت عينا آسر تدريجيًّا مع كل مقطع من الاسم، كأن صاعقة حلت بالمكان، وهمس بذهول:

___ إزاي؟ مش دي جيسيكا اللي الكل عارف قصتها؟ دي كانت متجوزة وبتعشق جوزها اللي مات.. كانت بتقول

مفيش راجل هيدخل حياتها بعده!

بدأ ألكسندر يسرد فصولًا من حياة تلك المرأة الأسطورية، وعيناه مصلبتان في الفراغ:

___ فعلًا.. جيسيكا في بداية شغلها كانت زي الفراشة، جميلة وقوية لدرجة تخوف، الكل كان بيهابها واسمها لو اتنطق في أي مكان الكل يقف لها احترام. فضلت كدة لحد ما ظهر جوليان.. الوحيد اللي قدر يكسر غرورها ويوقعها في حبه.

توقف ألكسندر قليلًا ليأخذ نَفسًا، وتابع:

___ عشقته بمعنى الكلمة، ولما اكتشفوا إنه مش بيخلف، ده مفرقش معاها، بالعكس زاد تمسكها بيه. لحد ما مات في حادث.. وصيته الأخيرة ليها كانت إنها لازم تتجوز وتخلف عشان يكون مرتاح في قبره. وبما إني أنا ودانيلو صحاب، طلبت إيدها لفيكتور.

وفي اليوم التالي، كان الجميع داخل ردهات قصر عائلة "كوفالينكو". انشغل آسر لثوانٍ معدودة، فترك يد تيا، ولم تكن تلك المشاغبة لتهدر فرصة كهذه، فانطلقت تركض باستكشافٍ بين أرجاء القصر، حتى اصطدمت فجأة بجسدٍ وقف أمامها كحائلٍ رقيق.

رفعت تيا عينيها ببطء، لتجد نفسها أمام سيدةٍ فاتنة، يفيض مظهرها بسحرٍ يخطف الأنفاس. نظرت إليها "جيسيكا" بابتسامة هادئة، وبنبرةٍ مصرية خالصة تجيد مخارج حروفها ببراعة مذهلة، سألتها:

___ أنتِ مين يا سكر؟

تسمَّرت تيا في مكانها، واتسعت عيناها بذهولٍ وانبهار شديدين، وهمست بصوتٍ يملأه عدم التصديق:

___ سنو وايت؟!!!!

تعالت ضحكات جيسيكا الصافية، وهي نبرة نادرة لم يعتدها قصر كوفالينكو المهيب، ثم هبطت بجسدها الرشيق لتصبح في مستوى طول الصغيرة. وبصوتٍ خفيض يملأه الود، همست لها:

___ لا يا صغيرة.. مش سنو وايت، أنا جيسيكا.. وأنتِ اسمك إيه؟

لم تتردد تيا للحظة، بل ارتسمت على وجهها ملامح الفخر الطفولي الفطري، وأشارت بسبابتها الصغيرة نحو صدرها، ثم همست بنبرةٍ واثقة:

___ تيا.

ثبتت جيسيكا نظراتها في عيني الصغيرة، وفي تلك اللحظة، سرت رجفة مفاجئة في أوصالها، لم تكن ترى مجرد طفلة، بل رأت أمامها ملامح نسختها القادمة؛ رأت في بريق عيني تيا ذات القوة الجامحة والجمال الطاغي الذي تملكه هي.

شعرت كأن الزمان قد انحنى ليريها امتدادًا لروحها في هذا الجسد الصغير.

قطع حبل أفكارهما صوت نداءٍ قلق يتردد في الردهة:

___ تيااااا.. أنتِ فين؟

التفتت تيا سريعًا، وانفرجت أساريرها عن ضحكة صافية ملأت المكان بهجة، وهي تهتف بحماس:

___ آسررررر جه!

رفعت جيسيكا بصرها ببطء، لتجد أمامها فتًى في مقتبل العمر، تفيض ملامحه بالوسامة والجاذبية، لكن أكثر ما لفت انتباهها هو ذلك الخوف الحقيقي الصادق الذي يلمع في عينيه وهو يرمق الصغيرة.

تأملته جيسيكا لثوانٍ بصمتها المهيب، ثم سألت بنبرة هادئة:

___ أنت أخوها؟

استعاد آسر ثباته، ورسم على وجهه بسمةً هادئة تليق بوقار المكان، وأجابها بنبرة تحمل من العمق ما يتجاوز صلة الدم:

___ يعتبر أخوها.

تشبثت تيا بملابس آسر في حركة عفوية تفيض بالاحتماء، وكادت أن تنطق بكلماتها المشاكسة، لكن باغتها صوتُ والدها "فيكتور" وهو يصدح في أرجاء القصر بنبرة تجمع بين البحث والسيطرة:

___ تيااااا.. أنتِ فين؟ آسر؟

التفتت جيسيكا ببطءٍ وثبات نحو مصدر الصوت، لتجد نفسها وجهًا لوجه أمام رجلٍ في منتصف الثلاثينيات من عمره؛ كان يمتلك قدرًا طاغيًا من الوسامة والجاذبية التي قد تُسقط أي امرأة في شباكه من النظرة الأولى.

ملامحه كانت حادة، وقوية، تنطق بالسطوة.. ومع ذلك، ظلَّ قلب جيسيكا ساكنًا، هامدًا، ولم يتحرك بداخلها أي شعورٍ تجاهه سوى الفضول البارد، وعلى النقيض تمامًا، ما إن وقع نظر فيكتور عليها حتى تسمرت حواسه في مكانها. وجد نفسه أمام امرأةٍ لا يمكن وصفها بالجمال فحسب، بل كانت فاتنةً إلى أقصى الحدود، تمتلك ملامحًا مذهلة. ورغم ذلك الانبهار الذي سكن عينيه لثوانٍ، إلا أنَّ المعجزة لم تحدث؛ فتمامًا كما حدث لها، ظلَّ قلب فيكتور ساكنًا في مكانه، كان جمالها كفيلًا بأن يحرك الجبال، لكنه لم يكن كافيًا ليحرك روحًا أقسمت على الوفاء لذكرى أخرى.

كلاهما وقف أمام الآخر كتمثالين؛ لكن الحقيقة المرة كانت تسكن أعماقهما.. فكل منهما تعلقت روحه، واستسلم قلبه، ورهن نبضه لشخصٍ آخر غائب.

قطع فيكتور حبل الصمت الذي امتدَّ لثوانٍ بدت كأنها دهر، وقال بنبرةٍ مقتضبة حاولت الحفاظ على ثباتها:

___ أهلًا..

لم تضطرب جيسيكا، بل ارتسمت على وجهها ابتسامة:

___ أهلًا، حضرتك فيكتور مش كدة؟... أنا جيسيكا.

ارتسمت على وجه فيكتور ابتسامة هادئة حملت في طياتها تقديرًا عميقًا، وأجابها بنبرةٍ يملأها الاحترام والرزانة:

___ أهلًا بيكي، أكيد عارفك اسمك مسمع.

لم تزدد جيسيكا إلا ثباتًا، وقالت بكلمة واحدة اختصرت بها الكثير من الرقي:

___ ميرسي..

تقدَّم ألكسندر ودانيلو بخطواتٍ رزينة، وطلبا من آسر وتيا بلطفٍ مغلَّف بالأمر أن يفسحا المجال، ليتركا جيسيكا وفيكتور وحدهما. كان الجميع يتأهب للانسحاب، إلا أنَّ صوتًا هادئًا وقاطعًا أوقف تلك الحركة.. صوت جيسيكا.

رفضت جيسيكا الانفراد بفيكتور بابتسامةٍ غامضة، وأصرت بنبرةٍ لا تقبل الجدل على بقاء تيا، استقرت تيا في جلستها بجوار جيسيكا، بينما جلس فيكتور قبالتهما بهدوئه الرصين. ساد صمت قصير قطعه فيكتور وهو ينظر نحو تيا، وقال بنبرة تحمل مزيجًا من الفخر الحذر:

___ مش عارف بصراحة أنتِ عارفة ولا لا بس دي بنتي.

اتسعت ابتسامة جيسيكا بعذوبة، وانحنت نحو تيا تمسد على خصلات شعرها بحنانٍ فاجأ فيكتور، وقالت وعيناها تلمعان بإعجاب:

___ بسم الله ما شاء الله ربنا يخليهالك زي القمر.

تمتم فيكتور بكلمات الشكر بهدوء، قبل أن تباغته جيسيكا بسؤالها المباشر والرزين:

___ فين والدتها.. هو حضرتك أرمل؟

في تلك اللحظة، انتفض جسد فيكتور وأجاب مسرعًا بنبرة حادة غلفها الخوف التلقائي:

___ لا بعد الشر عنها هي عايشة.

ساد تعجب صامت في نظرات جيسيكا؛ فلو كان يحمل لها كل هذا الخوف والتقدير، فلماذا يخطو نحو زواجٍ آخر؟ لم يترك لها فيكتور مساحة للحيرة، بل قطع حبل أفكارها قائلًا بوضوح:

___ أنا مطلق.

همهمت جيسيكا بتفهم، وهزت رأسها ببطء وهي تحافظ على أدبها ورسميتها، ثم سألت بفضولٍ هادئ:

___ ممكن أعرف الأسباب؟

تنهد فيكتور بعمق، ثم قال بصوتٍ رزين:

___ أكيد، ممكن تقولي مكناش متفاهمين أو هي كانت بتعارض دايمًا وأنا كنت بنفذلها اللي هي عايزاه عشان بحبها بس الضغط زاد فانفصلنا.

ساد صمتٌ ثقيل لثوانٍ، كانت جيسيكا تتأمل فيها ملامحه المجهدة بذاكرة الحب، ثم تنحنحت ببطء وقالت بنبرةٍ غلفتها الحيرة:

___ بتحبها؟

لم يهرب فيكتور من السؤال، بل صمت لبرهة، ثم رفع بصره وثبَّت نظراته في عينيها بقوةٍ وتحدٍ، وسألها:

___ لسه بتحبي جوزك؟

صُدمت جيسيكا للحظات، لكنها استجمعت شتات نفسها وأجابت بصدقٍ جارح:

___ أيوة.

أرخى فيكتور دفاعاته هو الآخر، وأجابها بنبرةٍ هادئة ولكنها قاطعة كالقدر:

___ وأنا برده أيوة.

ساد صمتٌ ثقيل، صمتٌ يشبه هدوء ما قبل العاصفة، حيث كانت الاعترافات المتبادلة لا تزال ترن في أركان الغرفة. ومن دون سابق إنذار انطلق صوتٌ إلكتروني حاد ومرح يغني من بين يدي تيا؛ كانت تحاول بعبث طفولي تشغيل عروستها الصغيرة.

ارتبكت تيا، واتسعت عيناها بذهول وهي تحاول كتم صوت العروسة.

نظرت نحو جيسيكا ثم انفجرت بضحكة ساذجة وعفوية، انحنت جيسيكا بجسدها الممشوق وحملت تيا بخفة بين ذراعيها، وراحت تلاعبها وتدغدغها وهي تغرق في ملامحها الصغيرة.

نسيت جيسيكا في تلك اللحظة وقارها، ونسي فيكتور جروحه وهو يراقب المشهد ببسمة.

باك..

تنفس آسر الصعداء، ونظر إلى جاسر قائلًا بنبرةٍ هادئة:

___ كده أنا حكيتلك إزاي روحت واتأقلمت.

أما جاسر، فقد كان غارقًا في تفاصيل الحكاية، فأجاب بتركيزٍ تام كأنه يستمع إلى حكاية ما قبل النوم:

___ كمل..

لم يتمالك آسر نفسه، فباغت جاسر بضربةٍ غاضبة مشوبة بغيظٍ دفين، وهتف به بضيقٍ هزلي:

___ بقولك إيه.. هو أنا راديو سيادتك؟ أنا جعان وبقالي ساعة بحكي!

في تلك اللحظة، مالت تيا نحو أذن آسر، واقتربت منه بحذرٍ شديد حتى لا يصل صوتها لأحدٍ غيره، وهمست بنبرةٍ حملت كل معاني المشاكسة والذهول المصطنع:

___ جـ.. إيه؟ جعان؟ أمال مين اللي مخلص حلة المكرونة والكفتة قبل ما ينزل؟ تكونش أمي!

ضاقت ملامح آسر وعبست في محاولةٍ منه أن يمثل الغضب والضيق، فما كان من تيا إلا أن أطلقت ضحكةً رقيقة خطفت الأنظار للحظات، ولكن سكنت حركتها فجأة، وهي تغرق بنظراتها في عمق عينيه البنيتين، همست بكلمة واحدة اختصرت بها كل مشاعرها:

___ عيوني هجيبلك أكل..

لم يستطع آسر المقاومة أكثر؛ فتلاشت ملامح العبوس المصطنعة وحلَّت مكانها ابتسامة دافئة، وأجابها وهو يغرق في سحر نظرتها:

___ تسلم عيونك..

بكل برود العالم، اخترقت نبرة داليا المشحونة بالسخرية تلك الحالة الحالمة، وقالت بتهكم:

___ إيه المحن ده؟ كل اللفة دي عشان طلب ياكل!

لم تتحمل رهف هذه المقاطعة للحظة السحرية، فانفجرت بضيقٍ حقيقي وهي تصرخ في وجهها:

___ منك لله! قطعتي الرومانسية دي..

تجمدت ملامح داليا فجأة من فرط الدهشة، والتفتت نحو رهف بنظرة فاحصة مستنكرة، ثم سألتها بذهول:

___ صحيح هو أنتِ عادي كدة إزاي؟ هو مش أنتِ المفروض بتحبي آسر!

ما إن نطقت داليا بجملتها، حتى اشتعلت عينا تيا بشرار غيرة، وانطلقت نظراتها كالسهم نحو رهف. لم تجد رهف مفرًا من التراجع، فرفعت يديها باستسلام وهي ترسم ابتسامة ساذجة تحاول بها تهدئة العاصفة، وقالت:

___ اهدي يا وحش مش كدة.. وربنا آسر أخويا بس!

___ أخوكي!!!!!!!!!

انطلقت الكلمة من أفواه داليا وسيف وجاسر في وقتٍ واحد.

وسط هذا الذهول الجماعي، ارتسمت على وجه آسر ابتسامة صدق نادرة، ونظر إليهم بتحدٍ هادئ قائلًا:

___ آه أخوها.. حد عنده مانع؟

ثم صمت قليلًا ليلتقط أنفاسه، وتابع موضحًا الخطة التي لم يعلم عنها أحد:

___ أنا ورهف متفقين نبين قصاد ميسون هانم وعثمان بيه إن هي بتحبني، بس الحقيقة إني أنا ورهف أخوات جدًّا.

هنا، لم تتمالك رهف نفسها، فنظرت إليه بضيقٍ ممزوج بالتهكم، وقالت بنبرةٍ لاذعة:

___ فعلًا أخوات مووووت.. لدرجة إنه متجوز ومخلف وأنا معرفش!

لم يستطع آسر التظاهر بالثبات أكثر من ذلك؛ فجأة، اتسعت ابتسامته لتتحول إلى ضحكات مجلجلة ومرتفعة، صدى ضحكته ملأ المكان وسط نظرات التعجب والذهول التي ارتسمت على وجوه الجميع، حاول بجهدٍ جهيد كبت ضحكاته المتتالية، وقال بنبرة متقطعة من أثر الضحك:

___ آسف.. بس كل لما أفتكر إني أنا غفلتكم مقدرش أمسك نفسي.

بينما كان آسر غارقًا في انتصاره الصغير، كان سيف يرمقه بضيقٍ حقيقي، وعقد حاجبيه بذهول وهو يهمس لنفسه ولهم بنبرةٍ يملأها التعجب من برود أعصاب صديقه:

___ يخربيت كدة وبتضحك! الكارثة إنه بيضحك وهو عامل مصيبة!

كادت تيا أن تنطق بكلماتها، لكن قاطعها رنين جرس الفيلا الصاخب. نهضت بخفة لتفتح الباب، وما إن رأتهما حتى انكمشت ملامح وجهها بتعبيرٍ يملأه التعجب والارتياب، وقالت بنبرةٍ متشككة:

___ أنتو جايين مع بعض؟

كانت تنظر لماكس ولمار الواقفين أمامها، فسارعت لمار بالتوضيح محاولةً دفع أي شبهة عن بال تيا:

___ لا، أنا جيت لقيته في وشي.

تجاوزت نظرات ماكس الباب ليلقي نظرة على الحاضرين في الداخل، وفجأة اتسعت عيناه بذهولٍ تام وتمتم بغير تصديق:

___ إيه ده؟

انفجرت تيا ضاحكةً من صدمته الواضحة، وسألته بمرح:

___ إيه؟

أجابها وهو لا يزال تحت تأثير المفاجأة، مشيرًا إلى داليا:

___ إيه أنتِ؟

تعالت ضحكات تيا مرة أخرى، ثم أشارت بزهو نحو داليا التي اقتربت بتعجبٍ مما يحدث، فضمتها تيا إليها وقدمتها لماكس بفخر:

___ "داليا فيكتور كورولينكو".. أختي الكبيرة وبنت عمك. وده يا ستي "ماكس ستيفان كورولينكو"، ابن عمك ستيفان الوحيد.. رجل أعمال وبيفهم في الكيميا والعلوم بس مش مهتم بيا أوي يعني.. أكيد سمعتوا عن بعض.

ولكن فجأة انتفض الجميع في مكانهم على أثر صوتٍ مفاجئ وصاخب انطلق من خلف الأريكة، تعالت صرخات الفزع للحظات، قبل أن تتحول فجأة إلى نظرات غاضبة مشتعلة حين تبين المصدر؛ كانت ضحكات أطفالهم الصافية هي التي اخترقت

سكون الجلسة. التفت آسر بوجهٍ محتقن، وكاد أن يطلق صرخة غضبٍ تُلجم شغبهم، لولا أنَّ تيا تشبثت بذراعه سريعةً، وهمست برجاء:

___ في إيه.. العيال بتهزر!

لم تلن نظراته، بل ظل الغضب يلمع في عينيه وهو يقول بصرامة:

___ لا.. دي اسمها قلة أدب.

أغمضت تيا جفنيها لثوانٍ، ثم فتحتهما لتنظر إليه بعتابٍ جارح، وانسحبت من قبضة يده وهي تهمس بمرارة:

___ أنا ولادي متربين.. مش قلالات الأدب.

لكن المشهد تغير فجأة حين لفت انتباهها ضحكات أدهم وليث العالية؛ التفتت لتجد جاسر يحملهما ويداعب معدتهما بمزاحٍ أبوي دافئ. في تلك الأثناء، كانت كايلا تراقب الموقف من بعيد بتردد، قبل أن تقترب من تيا وتهمس في أذنها ببراءة:

___ ماما.. هو عادي يسلم عليا صح؟

ابتسمت تيا برقة وطمأنتها:

___ أكيد يا روحي.

تقدمت الصغيرة نحو جاسر بخطواتٍ طفولية واثقة، ورفعت كفها بابتسامة خجولة:

___ أنا كايلا.

بهرته رقتها فكاد أن يضمها ليدللها، لكنها تراجعت للخلف بحذر، ونظرت لأمها تطلب الإذن بالرفض، فتعجب جاسر من ردِّ فعلها. هنا قالت تيا موضحة بفخرٍ مكتوم:

___ معلش أصل علمتها إن مش أي حد يحضنها، وهي لسه شايفاك يعني.

ابتسم جاسر بهدوء، وأبدى إعجابه برقيّ تربيتها قائلًا:

___ تسلم تربيتك بجد.. أهو أحسن من المصايب اللي بنشوفها كل فترة دي.

رمقت تيا آسر بنظرة عتابٍ طويلة، كأنها تقول له بلا كلمات: "أرأيت؟ أطفالي مهذبون"، ثم تركته وغادرت نحو المطبخ بخطواتٍ مثقلة. لم يحتمل آسر بقاءها غاضبة، فانسحب خلفها بهدوء، وقال محاولًا التبرير:

___ تيا.. مش قصدي.. بس عيب إن إحنا نبقى بنتكلم وهما...

التفتت إليه بغضبٍ عارم، وثبتت نظراتها في عينيه وهي تنفجر بوجعها المكتوم:

___ أنت متخيل أنت قولتلي الكلمة دي كام مرة؟ تحب أفكرك؟ مرة قولتها بعد ما حكيتلك إنهم ضربوا زميل ليهم في المدرسة، وأنت حتى مسيبتليش فرصة أشرحلك إنهم ضربوه عشان كان بيتنمر على زميله وبيإذيه نفسيًّا! ومرة تانية لما كنا بنتكلم وعاندوا شوية.. كأنها لبانة في بوقك! أنا عرفت أربيهم أحسن تربية لوحدي.. ومتستغربش، أنا ربيتهم لوحدي يا آسر!

ساد صمتٌ مؤلم، بينما انهمرت دموعها بغزارة. التفتت عنه وبدأت في تجهيز السحور بسرعة، ويداها المرتعشتان تفضحان حزنها الدفين، وقالت بصوتٍ متهدج:

___ أنا عمري ما أنسى اليوم اللي قولتلك فيه إني حامل و...

لم يترك لها فرصة لإكمال جملتها؛ جذبها من ذراعها نحوه بقوة، وجزَّ على أسنانه بعصبية يحاول بها إخفاء ألمه:

___ أنا قولتلك ١٠٠ مرة مكنش قصدي كده! أنا كنت خايف عليكي.. مكنتيش لسه هتقدرى تشيلي مسؤولية.

صمت قليلًا، ولأول مرة يلمع الحزن في عينيه لينافض نبرة صوته الحادة:

___ أنتِ مكنتيش هتقدرى على مسؤولية طفل، فما بالك بقى وأنتِ حامل في اتنين مش واحد؟ هتشيلي مسؤولية إزاي وأنتِ كنتِ لسه بتتعودي حياتك كزوجة مسؤولة من راجل بقت لازم تاخد بالها من تصرفاتها لأن الغلطة هتأثر علينا إحنا الاتنين مش أنتِ بس.. كنتِ هتبقي أم ازاااي!

نفضت يده عنها بقوة وقالت بجمود:

___ زي ما بقيت أم دلوقتي ونجحت في ده.. ممكن بقى تسيبني أعمل السحور؟

لكنه لم يتركها؛ جذبها إليه برفق هذه المرة، ومسح دموعها بأصابعه، وقال بنبرةٍ غلبها الحب:

___ أنـا راضـي ذمتـك.. هـل طبيعـي إن نبـدأ أول يـوم رمضـان متخانقين؟

لم تجبه، فتابع بابتسامةٍ ساحرة حاولت اختراق حصونها:

___ بالله لتضحكي..

وعلى الرغم من جرحها وغضبها، خانتها دفاعاتها، وارتسمت على وجهها ابتسامة رغمًا عنها.

دلفت داليا المطبخ فجأة، والابتسامة ترتسم على وجهها، لكنها سرعان ما تلاشت وحلَّ مكانها القلق حين وقعت عيناها على دموع تيا. اقتربت منها بلهفة وضمتها إلى صدرها، ثم رمقت آسر بنظرةٍ شائكة يملأها الشك:

___ أنت لحقت تزعلها؟

ابتسم آسر بهدوء واثق، وجذب تيا إليه برفقٍ، وبدأ يمسح أثار دموعها بأصابعه بحنانٍ بالغ، ثم ضمها إليه بقوة وقال مداعبًا:

___ هو في حد يزعل حتة الشوكولاتة دي؟

نظرت له تيا بحزنٍ طفيف لا يزال يسكن عينيها، فلمحت داليا تلك النظرة وأدركت أنَّ بينهما عتابًا لم ينتهِ بعد، فانسحبت بخفة لترحل وتترك لهما مساحةً للبوح. ما إن انغلق الباب، حتى ثبَّت آسر نظراته في عيني تيا وقال بنبرةٍ استرضائية:

___ خلاص بقى.. أسف.. صافية لبن؟

ضحكت تيا برقة، واستحضرت طفولتها معه في ثانية واحدة، فرفعت كفها وضربت كفه ببهجة وهي تهتف:

___ حليب يا قشطة!

اتسعت ابتسامته وقال بغمزةٍ مشاكسة:

___ والله ما في قشطة غيرك.. وسعي بقى عشان هساعدك.

أشارت له نحو طبق الخضار وقالت بلهجةٍ آمرة ممزوجة بالضحك:

___ ماشي يا بكاش.. قطع الخيار والطماطم شرايح مش حتت صغيرة، بلاش تبوظ حاجة.

رفع حاجبه باستنكارٍ هزلي وقال:

___ بتكلميني كأني مبفهمش في المطبخ؟ اش حال مكنتش أنا اللي معلمك الطبيخ!

انفجرت ضاحكة وهي تستعيد ذكريات بداياتهما الفوضوية في المطبخ:

___ أنت هتقولي؟ عمري في حياتي ما أنسى طبق المكرونة المحروقة اللي عملتها والنار كانت هتمسك في المطبخ بسببك وربنا!

رمقها بنظرةٍ فاحصة "من فوق لتحت" كما نقول نحن، وقال بنبرة غضبٍ مصطنعة:

___ طب عيني في عينك كدة.. كان أنا السبب؟

لم تتردد، بل رفعت عينيها إليه وتحدت نظراته بكل قوة:

___ أهو..

هنا، تلاشت الكلمات من على شفتيه، وتاه في بريق عينيها وسحر نظرتها القريبة، وهمس بتوهانٍ صادق:

___ هو بعد النظرة دي.. يبقى أنا اللي غلطان.

فلم تجد تيا مفرًّا من الهروب بنظراتها، وابتسمت بخجلٍ أذاب ما تبقى من جليد الخلاف.

___ هما ولادك فين؟

قالها جلال بنبرةٍ خشنة وهو يرمق فاطمة الجالسة أمام المرآة؛ كانت ملامحها لوحة من العذاب؛ وجه شاحب كالموت، كدمة زرقاء تحيط عينها، وقطرات دم جافة تزين زاوية شفتيها.. وكل هذا القبح كان بصمة يده هو.

أغمضت فاطمة جفونها بقوة لتمنع سحابة الدموع من الهطول، وأجابت بصوتٍ مرتعش يملأه الوهن:

___ معرفش.. آسر مش موجود من الصبح وسيف خرج هو ودواليا من فترة.

احتقن وجه جلال بالدماء، وصرخ بلا داعٍ في أرجاء الغرفة:

___ يعني إيه؟ محدش فيهم بقى بيحترم كلمتي ولا كلمة جدهم!

وفجأة، حدث ما لم يتوقعه جلال طوال سنوات الذل؛ نهضت فاطمة، وقفت وعيناها تلمعان بدموعٍ تحولت إلى نيران، وقالت بحدة:

___ هما مش صغيرين عشان ياخدوا إذن من حد.. آسر بسم الله ما شاء الله ٣٥ سنة وسيف ٣٦، يعني كمان أربع سنين هيبقى ٤٠ سنة! مش أطفال عشان تتحكم فيهم.

اقتربت منه خطوة، وتابعت بانهيارٍ كشف المستور:

___ إنتو لحد الآن مانعين إن سيف يخلف تاني وبتحطوا حبوب منع الحمل ليها في الأكل وأنا مش راضية أتكلم ومدارية على قرفكم! كل شوية في خناق وكمان لما قالوا هنخلف زمان منعتوهم والنتيجة إن ليث لسه يا دوب طفل ومعندهمش غيره.. ارحم ولادك بقى يا أخي كرهتهم فيا وفيك! أنا بكره اليوم اللي شوفتك فيه يا جلال.. بكرهك وبكره أبويا إنه وافق يجوزني لواحد زيك! أنا زهقت وأنا بمثل دور الست اللي مش شايفة غير نفسها.. مش ناقصة أشوف نظرة كره في عين سيف.. كفاية إني بشوفها في عين آسر!

شهقت بمرارة وهي تسترجع أبشع ذكرياتها:

___ آسر اللي كان بيتضرب وأنا واقفة أسمع موت طفولته على إيدك أنت.. أنا بكرهككك سامعني؟ بكره اليوم اللي اتجوزتك فيه!

لمعت الدموع في عيني جلال للحظة، واهتزت ثقته بنفسه أمام هذا الطوفان من الكراهية، لكنه، وكعادته في وأد أي شعور

إنساني، استلَّ سلاحه الوحيد.. العنف. نزلت يده على وجهها بصفعة قوية أطاحت برأسها جانبًا، وجذبها من خصلات شعرها بعنفٍ وحشي وهو يهدر:

___ جرى إيه يا روح أمك؟ هتبجحي فيا كمان؟ ما هي دي غلطتي إني عملت منك هانم وأنتِ أصلًا متسويش حاجة.. ده أنتِ أبوكي كان ناقص يرميكي ليا يوم لما اتجوزنا.. كان ليكي غيري!

صرخت فاطمة بعنف وهي تحاول الإفلات من قبضة الوحش، تبكي بحرقة لم تشهدها الجدران من قبل، فألقاها بقوةٍ مفرطة نحو الأرض، لتصطدم رأسها بحافة السرير الحادة.

سكن كل شيء.. إلا دماء فاطمة التي بدأت تغرق الفراش بغزارة. وضعت يدها على رأسها بذهول، وحين رأت كفَّها غارق باللون الأحمر القاني، انتفض جسدها برعب، وزاغت عيناها في فراغ الغرفة قبل أن يسقط جفنها وتغيب عن الوعي.

كان جلال يدور كالثور الهائج في الغرفة، غير منتبهٍ للكارثة، حتى التفت ليصرخ فيها مجددًا، فتجمد مكانه. هبط الهلع على قلبه كالصاعقة، وارتمى فوق جسدها صامًا الآذان بصراخه:

___ فاطمة.. فاااااطمة!

تجمع الخدم بوجلٍ أمام الجناح، يتهامسون برعب حتى ظهر عثمان الطنطاوي بهيبته الباردة، وطرق الباب بقوة:

___ جلال.. جلال افتح!

فُتح الباب، ليرى عثمان ابنه القوي يبكي بارتعاش كطفلٍ ضائع:

___ فاطمة.. فاطمة.. أنا.. أنا قتلتهاااااا!

اتسعت أعين الخدم بصدمة غيَّبت ألسنتهم، بينما دلف عثمان ببرودٍ مرعب، نظر إلى جسد فاطمة الملقى في دمائها ولم يطرف له جفن، ثم قال لابنه بكلمة واحدة قاطعة:

___ شيلها.

حملها جلال وهو يتهاوى من الخوف، وفي تلك اللحظة، كانت إحدى الخادمات تدعى "زينب" تنسحب بهدوءٍ مريب نحو المطبخ، وأصابعها المرتعشة تعبث بهاتفها لتكتب رسالة قد تكون المسمار الأخير في نعش هذا القصر..

في فيلا "تيا وآسر"، كانت الأجواء تفيض بالبهجة والسكينة؛ كان الجميع يراقب جاسر الذي تحول فجأة من الرجل الرزين إلى طفل رابع، يتحرك بخفة بين الصغار، يداعب معدتهم ويقبّلهم بذهولٍ لم يغادره بعد.. أهو حقًّا عم لثلاثة أطفال؟

قاطع هذا المشهد الدافئ صوت رنين هاتف سيف الملح. نظر إلى الشاشة بتركيز وقال:

___ دي زينب.

قالت داليا بهدوء:

___ رد.

قضم آسر قطعة من الخيار، وضحك وهو يهمس لسيف بتهكم:

___ إيه رد دي؟ ما طبيعي ترد.. هو أنت هتاخد منها إذن!

فتح سيف الخط والابتسامة لا تزال على وجهه، لكن قبل أن يلفظ حرفًا، اخترق مسمعه صوت زينب المرتعش وهي تصرخ بانهيار:

___ جلال بيه فتح دماغ فاطمة هانم، وهي دلوقتي غرقانة في دمها يا بيه!

تجمدت الدماء في عروق سيف، وانتفض بفزعٍ هزَّ أركان الجلسة:

___ ماماا!! إزاي؟ وعمل كده ليه؟

بمجرد أن نطق سيف بكلمة "ماما"، تيبَّست ملامح آسر؛ تحول وجهه إلى قناع من البرود الصخري، لكن في أعماقه، ثار بركانٌ حاول إخماده بكل قوته. أغلق سيف الاتصال والتفت لآسر بعينين تائهتين:

___ أبوك ضرب أمك وهي دلوقتي في المستشفى.. تعالى معايا.

بلع آسر غصة مريرة في حلقه، وأجاب ببرودٍ قاتل:

___ روح أنت.. أنا مش هروح في حتة.

ساد الذهول المكان؛ نظرت إليه تيا بصدمة، بينما انفجر سيف في وجهه صامًا الآذان بصراخه:

___ بقولك أمك في المستشفى! إيه اللي مش مفهوم في كلامي؟

ردَّ آسر بنبرةٍ خاوية كالقبر:

___ وأنا قولت مش هروح في حتة.

لم تترك تيا المجال لهذا الصمت الجليدي أن يطول؛ نهضت بقوة وجذبت آسر من يده بعنف، وصعدت به إلى غرفتهما. أغلقت الباب خلفهما، وقالت بصوتٍ حازم لا يقبل الجدل:

___ أنت دلوقتي حالًا هتلبس وتجهز عشان نروح لوالدتك.. ومش عايزة نقاش.

جذبها آسر من ذراعها بقوة، وعيناه تشتعلان بغضبٍ مكبوت:

___ أنا جوزك.. يعني أنا اللي أقرر!

نفضت تيا يدها من قبضته بعنفٍ مماثل، وصرخت فيه بحرقة:

___ أنت في إيه النهاردة؟ طايح فينا كلنا! وبعدين من إمتى بنمشيها جوزك وأنا اللي أقرر؟ ما طول عمرنا بنتناقش سوا!

مسح آسر على وجهه بعنف، ونظر إليها بوجعٍ نزف من صوته:

___ الست دي هي اللي كانت بتشوفني وأنا بموت على إيدهم ولا كانت حتى بتحضني ولا بتطبطب عليا! عايزاني دلوقتي أروحلها يا تيا؟ أنتو بتتعاملوا معايا كأني آلة ليه؟ أنا ليا مشاعر.. أنا مش حجر!

لم تنطق تيا بكلمة عتاب، ولم تستخدم منطق الواجب؛ بل فتحت له ذراعيها وجذبته إليها في حضنٍ دافئ، حضنٍ يحمل كل الطمأنينة التي حُرم منها طفلًا. قالت برقةٍ تذيب الصخر:

___ مش أنت دايمًا بتقولي إني أنا قومت معاك بدور الأم كمان.. مش ده كلامك ليا؟

هزَّ رأسه داخل أحضانها بضعف.

همست تيا بتلك الكلمات ونبرتها تحمل حكمةً تفوق سنوات عمرها، كانت تمسد على خصلات شعره بحنانٍ بالِغ، وتابعت برقةٍ تلامس شغاف قلبه:

___ يبقى خلاص يا حبيبي.. روح يا آسر، أنا حاسة بقلبك وعارفة إنك عايز تروحلها، يبقى روح.. إياك يا آسر ترفض؛ لأن ممكن يجي اليوم اللي تندم فيه، يجي اليوم اللي تعوز تشوفها فيه وما تعرفش.

استكان آسر في حضنها لثوانٍ، كلماتها كانت كالدواء الذي سكن ضجيج غضبه، فاستسلم تمامًا لمنطق قلبها الذي يراه دائمًا بوصلته الحقيقية.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في قلب شركة "آل كورولينكو"، حيث السطوة والعمل الذي لا يهدأ، كان ألكسندر يجلس في مكتبه كتمثالٍ من الرخام، يغلفه سكونٌ مهيب لا يكسره سوى صوت عقارب الساعة الرتيب.

رائحة القهوة السوداء ممتزجةً بعبق الأوراق الفاخرة، كان غارقًا في صمته، دهمته ملامح إيفا كطيفٍ ملائكي، واستحضر صوتها الهادئ كلما رأت ملامحه مشدودة من فرط التفكير، وهي تهمس له برقة:

"أليكس.. أرجوك حاول تصفي دماغك شوية، جسمك وعقلك ليهم حق عليك.. بلاش ترهق نفسك عشاني".

أغلق ألكسندر عينيه بقوة، لكن الدموع خانته وتجمعت في مقلتيه لتعلن هزيمته أمام ذكراها. كم يشتاق إليها؟ كم يشتاق لذاك الحنان

الذي كان يحتويه، ولهمسها الذي يسكِّن عواصف رأسه؟ تساءل بمرارة: "أهو كان سيئًا لكي ترحل وتتركه يواجه صقيع العالم وحده؟".

فتح عينيه ببطء، ليجد حكمتها الراسخة تتردد في أركان مكتبه من جديد:

"كل حاجة في الدنيا نصيب ومكتوب من عند ربنا، مستحيل حد يعترض عليه لأن ده من عند ربنا".

ابتلع غصته، وقال بصوتٍ مرتعش أوهنه الشوق:

___ عندك حق.. كل حاجة نصيب ومكتوب.

لم تدم لحظة الضعف طويلًا، إذ اقتحم ستيفان الغرفة فجأة، وصوته يملأ المكان صخبًا وقلقًا:

___ بابـــاااا.. مـــاكس! مـــاكس بيقـــول إن كـــل حاجـــة بتتكشـــف وفيكتور... فيكتور.

لم تهتز شعرة واحدة في ألكسندر؛ بل عاد لبروده وقال بهدوء مخيف:

___ دي أصح حاجة تيا تعملها.. هي مش هبلة، تيا ذكية ودي تربية آسر الطنطاوي.. وذكاءها ده ممكن يحرق كل حاجة، تيا مش سهلة.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

فـي ممـرات المستشـفى البـاردة التـي تفـوح برائحـة المـوت والمنظفات، كان يشعر جلال باختناق، فك عقدة الكرافتة بضيقٍ

وتوتر، وحاول استجماع شتات نفسه وهو ينظر لوالده عثمان، الذي كان يقف ببرودٍ جليدي لا يليق بموقفٍ كهذا. سأل جلال بصوتٍ مرتعش يملأه الندم المتأخر:

___ هي... هي ممكن تموت عشان كبيرة في السن؟

التفت إليه عثمان، ولم يمنحه نظرة شفقة واحدة، بل ربت على كتفه بقسوةٍ مفرطة، وقال بنبرةٍ يقطر منها الغل:

___ حتى لو ماتت، في داهية تاخدها! فاطمة مهمتها انتهت من زمان، وياريت حياتها كمان تنتهي.

تجمدت الدماء في عروق جلال، واتسعت مقلتاه بذهولٍ حقيقي؛ كان يعلم أنَّ والده رجلٌ حازم، لكنه لم يتخيل أبدًا أن يصل به الجبروت إلى هذا الحد من القسوة تجاه رفيقة عمر ابنه وأم أحفاده. في تلك اللحظة.

قطع الدكتور هذا الصمت الجنائزي بخروجه الهادئ من غرفة العمليات، ليلتفَّ حوله الجميع بانتظار كلمة واحدة. أزال كمامته ونظر إليهم بعينين روتينيتين وقال:

___ الخبطة الحمد لله مأثرتش على المخ، يا دوب بس اتفتحت ١٤ غرزة في الراس نفسها واتخيطت.

في تلك اللحظة الحرجة، اقتحموا الممر كعاصفةٍ، كان سيف ودواليا وجاسر وآسر يتقدمون بخطواتٍ تنهب الأرض، وفي ختامهم كانت تيا تقف بهدوئها المعهود.

انفجر سيف بصوتٍ يملأه الهلع، وعيناه تفتشان في الوجوه ببحثٍ يائس:

___ ماما.. ماما فيييين؟

رفع جلال يده المرتعشة وأشار نحو الغرفة، وقال بصوتٍ خافت يكاد لا يُسمع من فرط الخزي والارتباك:

___ جوه..

وسط هذا الضجيج، ظلَّ عثمان محتفظًا بحدَّة نظراته، وفجأة وقع بصره على تيا. ضاقت عيناه بتركيزٍ مخيف وقال بنبرةٍ يملأها الاستنكار:

___ مين البت دي؟ مش.. مش دي اللي ضربت سيرين!

لم يتركه آسر يتم جملته أو يتمادى في نظراته الفاحصة؛ بل جذبها إليه بقوةٍ غلَّفتها الحماية، وثبَّت عينيه في عيني جده بتحدٍ لم يسبق له مثيل، وأجابه بكلمتين زلزلتا كيان الحاضرين:

___ قصدك مراتي.

بكل سلاسة وهدوء، نطق آسر بتلك الكلمة التي ألقاها في بركة آل الطنطاوي الراكدة، فكان وقع أثرها كصدمة لجمت لسان عثمان.. وجمدت ملامح جلال.

التفت جلال ببطء، لينظر لتلك الأنثى الواقفة بجوار ابنه. لم يجد فيها انكسار الخوف أو ارتباك الغرباء، بل وجدها تقابل نظراته المحتقنة بابتسامةٍ واثقة، وعينين تلمعان بفخرٍ لم يستطع جبروت عثمان أن يطفئه. كانت تيا في تلك اللحظة لا تمثل نفسها فقط، بل

تمثل إعلان استقلال آسر عن إمبراطورية جده، والدرع الذي سيتحطم عليه غرورهم.

نطق عثمان بجملته بنبرةٍ هادئة بشكلٍ مريب، هدوء لم يكن إلَّا ستارًا لعاصفة بداخله، وسأل وهو يحاول استيعاب حجم التمرد:

___ مراتك إزاي؟

هنا، اتسعت ابتسامة آسر ببرودٍ مستفز، وزاد من إحكام قبضته حول كتف تيا، جاذبًا إياها إليه أكثر في حركةٍ تعلن الملكية الكاملة والتحدي، ثم أجاب بنبرةٍ تقطر بالتهكم:

___ زي الناس ما بتتجوز... يا جدي.

انفجر سيف أخيرًا بصراخٍ هزَّ جدران الممر الصامتة، صراخٌ خرج من قلبٍ مثقل بالقلق والخوف، ولم يعد يطيق هذا الجدال العقيم في وقتٍ تنزف فيه أمه خلف الأبواب:

___ أنتو هتقعدوا تتكلموا؟ أنا عايز أشوف أمي!

التفت إليه عثمان بوجهٍ محتقن، وصبَّ عليه حنقه وعصبيته التي فجَّرها آسر، وصرخ فيه بزجرٍ وقسوة:

___ أهي مرمية جوه أهو غور شوفها!

لم يكد سيف يبتعد، حتى عاد عثمان ليوجه نظراته الحادة كالسكين نحو آسر، وبدأت الأسئلة تخرج من بين أسنانه كأنها استجوابٌ بوليسي:

___ م....م..من إمتى وإزاي؟

اتسعت ابتسامة آسر لتصل إلى أقصى مداها، ابتسامة باردة مستفزة، تحمل في طيَّاتها نصرًا طال انتظاره، ونظر في عيني جده مباشرةً وهو يلقي قنبلته الأخيرة بهدوءٍ قاتل:

___ من ٥ سنين.

سكنت الحركة في الممر تمامًا. خمس سنوات وآسر يخدع عثمان الطنطاوي، خمس سنوات وعثمان الذي يظن أنَّه يعلم دبيب النمل في قصره، كان مغيَّبًا تمامًا عن حياة حفيده، عن زواجه.

وهنا، وفي تلك اللحظة المشحونة، خرج صوت تيا.. لم يكن صوتًا خائفًا أو مرتجفًا، بل كان نبرةً مغلفة ببسمة منتصرة، نظرت إلى عثمان، ذلك الرجل الذي يقف أمامها بجبروتٍ لم ينكسر، بل ازداد صلابة وقسوة مع مرور السنين.

قالت تيا بنبرةٍ باردة كالثلج، وصوتٍ يحمل أصداء ماضٍ حاول عثمان دفنه تحت تراب القصر:

___ أهلًا يا عثمان بيه... ولا أقول يا جدي؟

اشتعلت عينا عثمان بضيقٍ وغضبٍ عارم، وصاح بها محقرًا من شأنها:

___ إياكي تنطقي الكلمة دي! أنتِ مين أنتِ عشان أبقى جد ليكي؟

في تلك اللحظة، لم تتراجع تيا خطوة واحدة، بل تقدمت حتى أصبحت المسافة بينهما مجرد أنفاسٍ غاضبة، ونظرت في عينيه بقوةٍ هزَّت ثباته، وقالت بهدوءٍ مرعب:

___ اسمي، وشكلي، وعيني، مش بيفكروك بحد؟ مش بيفكروك بحاجة؟

تعمَّق عثمان في النظر إليها، ضاقت عيناه وبدأت ذاكرته المتهالكة تحفر في ملامحها؛ تلك النظرة المتحدية، رسمة العينين التي لا تخطئها عين، وبريق الذكاء الممزوج بالتمرد. كانت ملامحها مألوفة لدرجةٍ أوجعت قلبه، وبينما هو يتخبط في دهشته، باغتته هي بابتسامةٍ يملأها المكر والكُره، وهمست بالسر الذي سيهدم أركان إمبراطوريته:

___ لا لا.. مش معقول نسيت بنت بنتك يا عثمان.. سارة!

تراجعت خطوة عثمان للخلف، كأن الكلمة كانت دفعة مادية لصدره، اهتزَّت عصاه التي يستند إليها، وقال بصوتٍ خرج ثقيلًا، متهدجًا، يملأه إنكار الذات قبل إنكار الحقيقة:

___ لا.. لا أنتِ بتكدبي.. أنتِ...

لم يتركه آسر يكمل تخبطه، بل تقدم خطوة ليقف بجوار تيا، وكتَّف يديه أمام صدره بمنتهى الثقة والشموخ، ونظر لعين جده التي انطفأ بريق كبريائها ليحل محله ذهول الانكسار، وقال بنبرة هادئة لكنها حادة:

___ فاكر لما قولتلك إني هلاقيها؟ إديني لقيتها، واتجوزتها، وخلفت منها.. وأنت ولا تعرف.

اشتعل الممر من جديد بنيران غضب عثمان التي لم تنطفئ، بل زادتها كلمات آسر وقودًا. وبحركة سريعة فاقدة للسيطرة، هجم

عثمان وجذب آسر من ملابسه بعنف، وصرخ في وجهه بعروقٍ ناتئة وصوتٍ يملأه الحقد:

___ من ورايا؟.. ما طبعًا غلطتي إني سيبتلك الحبل سايب وما شدتش عليك.. طلقهاااا!

لم تهتز شعرة واحدة في آسر؛ بل ظلَّت ابتسامته الباردة مستقرة على ثغره، وبحركة هادئة أزال يد جده عن ملابسه كأنه يزيل غبارًا عالقًا، وقال بنبرة مستفزة:

___ لا مش هطلقها.. دي حتى حفيدتك!

جنَّ جنون عثمان، وفقد وقاره المعتاد وهو يسبهم بغضبٍ أعمى، يكرر كلمته كالممسوس:

___ مش حفيدتي.. طلقهاا.. هتطلقها يا آسر!

حاول جاسر التدخل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فاقترب وجذب جده برفق محاولًا تهدئته:

___ جدي اهدى لو سمحت، طريقتك دي بتعقد الموضوع أكتر، وبعدين هما بيحبوا بعض يبقى خلاص..

التفت إليه عثمان بعينين تشعان شرًّا وصرخ فيه:

___ حب إيه وزفت إيه اللي يخليه يكسر كلامي؟ أنا أكسر قلبه بإيدي ولا إن كلمتي تتكسر!

التقت عينا آسر بعيني والده جلال؛ كانت نظرة آسر باردة، خالية من أي مودة، كأنها سوطٌ يجلد روح جلال ويذكره بكل لحظة

صمت فيها عن الحق. لم يحتمل جلال ثقل تلك النظرة، فأخفض عينيه في انكسارٍ لم يعهده من قبل.

وأخذ آسر تيا ودلفوا إلى غرفة المشفى وكانت يداهما متشابكتين بقوة، أصابعهما متعانقة كأنها ترسم ميثاقًا أبديًّا أُعلن أمام الملأ.

كان كف تيا يرتعش بين يداه، عيناها تلمع لمعة مختلفة وبسمة مرتعشة مرسومة على شفتيها، كان يظهر فرق الطول بينهم مما يجعلها تشبه علبة الكانز المعلبة بجانب زجاجة شديدة الطول.

ساد صمتٌ مهيب في الغرفة، لم يكسره سوى صوت الأجهزة الطبية الرتيب. كان سيف يجلس بجانب فراش أمه ببسمة هادئة، بسمة تحمل ارتياح الابن الذي كاد أن يفقد أغلى ما يملك، بينما كانت فاطمة في عالمٍ آخر؛ عيناها معلقتان بفتحة الباب، تترقب بلهفةٍ ممزوجة بالخوف دخول قطعة من قلبها. بعدما بلَّغها سيف بوجوده.

وعندما انفتح الباب، لم يدخل آسر وحيدًا..

دلف آسر بخطواتٍ مرتعشة كأنه يقدم قدم ويؤخر الأخرى، ويده لا تزال تقبض على يد تيا بإحكام، وقف بعيدًا، حافظ على تلك المسافة الباردة التي حفرتها سنوات الخذلان، وقال بنبرةٍ جافة تفتقر للدفء ممزوجة بارتعاش طفيف:

___ ح... حمد لله على سلامتك.

سقطت الكلمة كالصاعقة على مسامع فاطمة، شعرت بقلبها يتحطم إلى أشلاء؛ ليس فقط بسبب نبرة آسر، بل من تلك المسافة التي وضعها بينهما كأنها غريبة عنه.

بأصابع مرتجفة وإرهاق يكسو ملامحها الشاحبة، رفعت يدها وأشارت نحو تيا، لم تجرؤ على توجيه السؤال لآسر، فقد قرأت في عينيه نظرة كسرت قلبها إلى أشلاء وظهر الحاجز التي شيدته سنوات من القهر الصامت، فالتفتت بضعف نحو سيف، وقالت بصوت متهدج:

___ مين دي؟

نظر سيف إلى تيا، ومن ثم نقل بصره إلى عيني أمه، وفي نظراته مزيج من الإشفاق والحزم، وأجاب بهدوء:

___ تيا... مرات ابنك.

اتسعت عيونها بذهول بلعت ريقها وأشارت:

___ مراته إزاي....إزاي ومحدش فينا يعرف رد عليا؟

اخفض سيف نظراته ولم يستطع بالتفوه بأي حرف، ولكن تيا اقتربت قائلة بهدوء في محاولة أن تعتاد على وجود والدة زوجها:

___ ممكن تهدي عشان راسك... أنا تيا بنت عم آسر.

انفجرت في الغرفة مشاعر تمزج بين الصدمة والذهول والقهر والدموع، فلم يعد هناك مكان لمساحيق التجميل العائلية؛ الأقنعة سقطت، والجروح القديمة انفتحت لتنزف أمام الجميع.

صرخت فاطمة بغضبٍ مكتوم خلف دموعها المنهمرة، ونبرتها تحمل إنكارًا لواقعٍ يصفعها:

___ أيًّا كان أنتِ مين؟ مراته إزاي من غير ما أمه وأهله يعرفوا!!!!!

سكتت فاطمة لثوانٍ، واسم تيا يتردد في عقلها كصدى بعيد.. تذكرت تلك الطفلة التي كان آسر يلتصق بها كظلها في الصغر، أدركت الآن أنَّها ابنة سارة، لكن هذا الإدراك لم يهدئ من روعها، بل زاد النار اشتعالًا في صدرها، وصاحت بمرارة:

___ مش مهم.. المهم إن ابني متجوز وأنا معرفش!

التفتت لآسر بعتابٍ قاصم، لكن آسر لم يترك لها مجالًا؛ تنهد بضيقٍ وانفجر بصوتٍ مخنوق بدموعٍ حبسها لسنوات خلف جدران قلبه:

___ كفاااية بقى! أنتِ بتعاتبي بناءً على إيه؟ وإيه أمك اللي إنتِ ماسكاها دي؟ أنا معرفش عنك حاجة أصلًا! أنتِ موجودة في حياتي بالاسم بس، جاية دلوقتي تتضايقي إني اتجوزت من غير ما تعرفي؟ ما أنا طول عمري باخد قراراتي لوحدي ومحدش فيكم يعرف عنها حاجة.. أنتِ أو عثمان بيه اللي جاي يقولي طلقها كأني عيل صغير ماشي بأوامركم.. قاعدين تدوسوا تدوسوا ومحدش مهتم بمشاعري!

احمرت عيناه بشدة وهو يوجّه نيران غضبه نحو سيف:

___ وأنت.. زعلت إني خبيت عليك مش كدة؟ أنت عملتلي إيه في حياتي يا سيف؟ فضلت بعيد تشوفني أتضرب وتسكت.. شفتني بموت من قهرتي وأنا مراهق عندي ١٢ سنة ولسه بتهان من جدي وبرضه متكلمتش بالرغم إن كان في إيدك..

لم يكمل آسر، فقد وقف سيف أمامه بجمودٍ كسر حدة الموقف، وقال بسخرية لاذعة:

___ لا برافو بجد.. شايف نفسك الضحية الوحيدة هنا؟ محدش قلل من اللي شفته، بس متقللش أنت من وجعنا.

أشار بيده نحو فاطمة المنهارة وتابع بقسوة:

___ أمك اللي أنت قاعد تزعقلها وتقطم فيها، كانت بتاخد نفس الأذى اللي بتاخده وأكتر.. كانت بتضرب وتتهان وتسكت لأن مش في إيدها حاجة! وأنا.. أنا عمري ما كنت بعيد، أنت اللي دايمًا عايش دور الضحية كأن مفيش حد اتعذب غيرك!

نظر إليه آسر ببرودٍ مميت، بابتسامة باهتة لا تصل لعينيه وقال:

___ صح.. أنت صح فعلًا لدرجة إني عيني دمعت من كلامك! أنا مش هتكلم ومش هبرر، لأن فعلًا مفيش حد في الدنيا عارف أنا مريت بإيه.

وفي تلك اللحظة القاتلة، اخترق صوت عثمان الأجواء ببرودٍ شيطاني وهو يخطو داخل الغرفة قائلًا:

___ .....

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في الخارج، كانت الأنفاس محبوسة داخل جدران السيارة الموصدة. التفتت لمار نحو ماكس، وعيناها تلمعان بقلقٍ نهش ثباتها، ثم نقلت بصرها للأطفال الجالسين في الخلف بسكونٍ زاد من توترها، وقالت بصوتٍ متهدج:

___ هننزل ولا إيه؟

ثبَّت ماكس نظره على هاتفه الصامت، وأجاب بنبرةٍ جافة حاول بها إخفاء ارتباكه:

___ أنا قولت لتيا إننا تحت، بس لسه مردتش..

وفجأة، انبعث ضوء شاحب من شاشة الهاتف مع صوت إشعارٍ بترددٍ مخيف؛ كانت رسالة من تيا:

ماكس.. امشي بالولاد لو سمحت، مش هينفع خالص تبقوا موجودين!

قرأ ماكس الكلمات بوجوم، بينما كانت لمار تحاول جاهدة فتح باب السيارة وهي تقول بإصرارٍ مستميت:

___ لا.. مستحيل أسيبها!

بسرعةٍ خاطفة، ضغط ماكس على زر الإغلاق الإلكتروني، ليرتد القفل بصوتٍ حاد، وانطلق بالسيارة مبتعدًا عن المدخل، وقال بحزمٍ لا يقبل الجدل:

___ مش هينفع.. عشان الولاد.

انفجرت لمار بصرخة احتجاج، وضربت بكتفها المقعد وهي تراه يبتعد عن "تيا" في أصعب لحظاتها:

___ ماكس! طب نزّلني آخد أوبر.. مش هسيبها في الموقف ده لوحدها.

تنهد ماكس بغيظ وهو يشدد قبضته على عجلة القيادة، وقال محاولًا السيطرة على أعصابه:

___ حاليًا هي محتاجة بجد تبقى لوحدها، ولو عايزة تساعديها.. خدي بالك من الولاد معايا.

سكنت لمار فجأة، ووضعت كفها على رأسها كأنها تحاول منع أفكارها السوداء من الخروج، وهمست بوجعٍ حقيقي:

___ أنا خايفة عليها أووي.

تنهد ماكس بهدوءٍ حاول به طمأنتها وطمأنة نفسه، وقال بصوتٍ منخفض:

___ بإذن الله هتعدي.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

انفجر فيكتور ببركانٍ خامد منذ سنوات، بركانٍ لم تعد جدران المكتب الهادئة قادرة على احتوائه. برزت عروق عينيه المحتقنة بالدم وهو يرمق والده بنظرات يمتزج فيها القهر بالغضب، وصرخ بصوتٍ هزَّ أركان المكان:

___ أنت قولت هنبقى معاها! إزاي دلوقتي تبقى لوحدها؟ أنا مش مصدق.. دي مهزلة.

لم يهتز ألكسندر، ظلَّ محتفظًا، لكن ملامحه حملت نبرة تحذيرية باردة وهو يقول:

___ صوتك! أنت بتكلم أبوك مش واحد صاحبك.. وبعدين تيا دلوقتي بقت مسؤولة عن حياتها، ملناش الحق نتدخل ونؤمر.. هي على ذمة راجل.

هنا، انكسر شيءٌ ما داخل فيكتور، مسح وجهه بعنف، ولأول مرة، خانته قوته وترقرقت الدموع في عينيه أمام والده، وصرخ بمرارة ذبحت الصمت:

___ نفس الراجل ده فضَّلته عليا بالرغم إني أنا اللي أبوها! أنت بتكرهني ليييه؟ مكنش ذنبي إني حبيت غلط واتجوزت من غير أمركم.. أنت ليه مش مستوعب إني راجل مش عيل يمشي على أوامر! محيت وجودي وبقيت شايف إني ميت بالنسبالك.. حتى حرمتني من أمي، وبنتي.. خليتها تلجأ لحد غيري! مش أنا قولتلك يومها مش هكلِّم آسر؟ صممت وقولت كلمه.. والنتيجة إني بقيت خيال في حياة بنتي.. أب بالاسم.. لييييه؟

ارتعشت يد ألكسندر بشكلٍ ملحوظ، والقلم الذي كان يحركه بين أصابعه كاد أن يسقط، لكنه حاول التشبث بهدوئه الزائف وقال بصوتٍ متحشرج:

___ أنا كنت شايف اللي أنت مش شايفه..

قاطعه فيكتور بصرخةٍ خرجت من روحه المقهورة:

___ كفاية بقى! كفاية الكلام ده.. كنت شايف إيه وأنت بتبعد تيا عني؟ ها؟ كنت شايف إيه وهي متعلقة بآسر أكتر مني؟ كنت شايف إيه وهي لما يحصل معاها مشكلة تروحله على إنه ولي

الأمر الخاص بيها؟ كفاية مبررات عمرها ما كانت صح.. أنت كسرتني يا بابا أكتر من أي حد!

ساد صمتٌ خانق في الغرفة، صمتٌ لم تقطعه سوى أنفاس فيكتور المتلاحقة وثقل الكلمات التي ألقاها في وجه والده. وفي تلك اللحظة، وبينما كان ألكسندر يحاول استجماع شتات كبريائه، تردد صدى صوت إيفا في عقله كأنها تقف بجانبه الآن.. صوتها الرقيق الذي كان يحمل تحذيرًا أخيرًا قبل وفاتها، كلماتٌ ظن أنَّه واراها التراب معها، لكنها انبعثت الآن لتحاكمه:

___ ألكسندر.. بلاش تقسى على فيكتور أكتر من كدة، المكسور من عيلته لا يشفى أبدًا، وأنا مش عايزة يحصل شرخ بينك وبينه.. إنتو ملكوش غير بعض. ألكسندر، لأول مرة بقولها.. أنت كنت غلط!

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

وقف عثمان أمام آسر ويداه ترتجف وهو ينظر في عين آسر مباشرةً كأنه يحاول أن يزرع به الخوف من خلال نظراته وقال بصوت متقطع:

___ إيه اللي أنا عملته، ها إيه؟ كل ده عشان كنت بربيك؟ كل ده عشان كنت عايزك شخص كويس ومحترم؟

قبض آسر على كفه وهو يحاول أن يظل على هدوئه واقترب خطوتين منه وقال بصوت مكتوم من كثرة غضبه الذي يشبه النار التي تنتظر أي مصدر حراري لتشتعل:

___ تربي إيه؟ أنت مقتنع إن دي تربية؟ أنت مصدق نفسككك؟ أنت كنت عايز تموتني، أنت كنت بتكرهني أناااا كآسر، ليه عملتلك إيييييييه؟

نظرت تيا لآسر، عيناها تدور على ملامحه، لأول مرة تشعر أنها تستكشف الجزء المظلم بداخله، تستكشف طفولته الضائعة بين تفاصيل حياتها هي بينما كان يدللها ويداعبها ويسعى جاهدًا أن يجعلها في أفضل حال كان هو... يتألم.

___ أسر اهدى عشان خاطري.

أشار لها بهدوء باتجاه الغرفة:

___ تيا معلش اطلعي ثواني.

تعجبت ولكنها بالفعل خرجت وفجأة اصطدمت بجسد ضئيل وكادت أن تسقط ولكن امتدت يد وسندتها، رفعت رأسها، واتسعت عيناها وهي تحدِّق إلى ملامح سارة، كأنها تبحث عن حقيقةٍ تخشى العثور عليها. حاولت قدر مستطاعها أن تزيح نظراتها بعيدًا، فتراجعت خطواتٍ قليلة إلى الخلف، وقالت بصوتٍ مرتجف وهي تشعر كأنها تمشي على حبالٍ ذائبة وتحاول ألا تسقط:

___ سـ... سارة؟!!!

تسمَّرت نظرات سارة على تيا بتأملٍ ثقيل؛ فجاء إلى عقلها سؤال كان يلح عليها: لماذا يدفعها القدر في طريق هذه الفتاة المرة تلو الأخرى؟ وبنبرةٍ هادئة لم تخلُ من الحيرة، قالت:

___ عرفت من زينب إن فاطمة راسها اتفتحت.. ألف سلامة. بس أنتِ بتعملي إيه هنا؟

أشارت سارة نحو تيا، التي كانت تقف بجسدٍ يرتجف، وقلبٍ يخفق بعنف تحت وطأة الخوف من صعوبة اللحظة. وهنا، تدخل عثمان، وبصوتٍ يقطر سخريةً واستمتاعًا بالألم، رمى كلماته كالقذيفة:

___ دي؟ دي اللي الأستاذ غفلنا كلنا بسببها.. تيا بنتك يا سارة!

سقط الهاتف من يد سارة ليصطدم بالأرض محدثًا صوتًا دوى في أرجاء الصمت الذي حلَّ فجأة. تراجع الدم من وجهها، وبدأت تهز رأسها يمينًا ويسارًا في حركةٍ هيستيرية لإنكار الواقع، وهي تهمس بصوتٍ مخنوق:

___ بنت مين؟ لا.. أكيد بتهزر يا بابا صح؟ بنت مين؟ إزاي.. فيكتور.. تيا.. لا مستحيل! أنت بتقول إيييه؟

حاولت داليا الاقتراب بخطوات حذرة، ومدت يدها لتمسك بكتف والدتها في محاولة يائسة لتهدئة العاصفة:

___ اهدي يا ماما لو سمحتِ..

انتفضت سارة وصرخت بصوتٍ يملأه الذهول والقهر:

___ أهدى إزاي؟ بيقولك تيا! أنتِ سمعتِ هو قال إيه؟

أجابت داليا بهدوءٍ مرير، ونبرة حملت اعترافًا ضمنيًّا بالمعرفة المسبقة:

___ آه سمعت يا ماما.. وعرفت.

اتسعت عينا سارة بذهولٍ مضاعف، وشعرت أنَّ الأرض تميد بها وهي تنظر لابنتها الأخرى بغير تصديق:

___ أنتِ بتقوليها عادي كدة؟ ده بيقولك رجعت! بنتي كانت قدامي وأنا معرفتهاش.. إزاي؟ أنتو هتجننوني!

في تلك اللحظة، شعرت تيا بمرارةٍ تسري في حلقها، مرارة سنوات اليتم وهي على قيد الحياة. ارتسمت على شفتيها سخرية سوداء، وقالت:

___ طبيعي يعني.. إذا كان سيبتيني وأنا عيلة وطردتِ أي شعور أمومة جواكِ، مستغربة ليه دلوقتي إنك محستيش بيا؟

نظرت لها داليا بنظرة تحذيرية حادة وهي تضم سارة بقوة إلى صدرها:

___ تيا.. بلاش كلامك ده دلوقتي!

ارتسمت على شفتي تيا ابتسامةٌ شاحبة غلب عليها الانكسار، ونظرت إلى سارة بنظرةٍ طويلة مزجت بين التعجب والقهر ومن دون كلمةٍ أخرى، استدارت بجسدٍ منهك وتركتهم خلفها، لتسرع الخطى نحو الحمام، هاربةً من نظراتهم التي باتت تخنقها.

بمجرد أن أغلقت الباب خلفها، وانهمرت دموعها بقوة. وقفت أمام المرآة تحدِّق إلى ملامحها بذهول، تهمس لنفسها بصوت مكسور: "أكلُّ شيءٍ كُشف أخيرًا؟". لكن السؤال الذي كان ينهش قلبها المسكين هو: هل هذا حقًّا في مصلحتها؟ ولماذا تشعر الآن بكل هذا الوجع يمزق قلبها بدلًا من الراحة؟

وفي غمرة ضياعها، سقطت قطرة دماء دافئة من أنفها، ثم تلتها أخرى، لتذكرها بمرضها اللعين الذي حاولت مرارًا أن تتناساه أو تتجاهله في زحام أحزانها. لكنها تسمرت مكانها حين لاحظت أنَّ الدماء هذه المرة كانت غزيرة بشكلٍ لم تعهده من قبل، انتفضت تيا برعب، وجسدها يرتجف وهي ترى مقبض الباب يتحرك إثر خبطات هادئة، وبسرعةٍ، فتحت صنبور المياه وغسلت وجهها، محاولةً محو آثار الدماء والدموع قبل أن تفتح الباب لتجده آسر واقفًا أمامها.

تجمد آسر مكانه، وارتسمت على ملامحه علامات الحيرة والتعجب وهو يتفحص هيئتها المبعثرة، وشحوب وجهها الذي لم تستطع المياه إخفاءه، فقال بنبرة يملأها القلق والاستغراب:

___ مالك في إيه؟

___ ها مفيش.

___ لا فيه، وشك عامل زي الورقة البيضة كدة ليه؟

___ من اللي حصل برة هيكون من إيه.

ضمها آسر بقوة، محاولًا احتواء شتاتها وبرد مشاعرها برقة بالغة، وهمس بجانب أذنها بنبرة مطمئنة:

___ عارف إن كتير اللي حصل واللي بيحصل وهيحصل، بس إحنا جنب بعض دايمًا.. مش ده اتفاقنا؟

أومأت تيا بالموافقة وهي تغرق داخل أحضانه، وهي تشعر أنها تستمد قوتها من خلال حبس أكبر قدر من رائحته في رئتيها، وقالت بخفوت:

___ معاك حق.

ابتعد عنها قليلًا، لكن عينه وقعت فجأة على قطرات دماءٍ متناثرة على أرضية الحمام. عقد حاجبيه بتعجب ونظر إليها متسائلًا:

___ أنتِ اتعورتِ؟

جف حلق تيا من كثرة التوتر الذي اجتاحها في تلك اللحظة، وشعرت بقلبها يخفق بعنف، لكنها رسمت بسمة مرتعشة وقالت محاولةً لتشتيت انتباهه:

___ لا.. ممكن يكون حد تاني يعني اتعور، المهم يالا ولا إيه؟

رغم الشك الذي راوضه، إلا أنَّه تظاهر بالاقتناع بحديثها، فأمسك يدها بقوة وضغط عليها بحنان، وخرجت منه تنهيدة محملة بخوف داخلي يحاول دفنه قبل أن يقول:

___ يالا.

أحكم آسر قبضته على يدها ودلف بها إلى الغرفة، لكن جسد تيا تيبس مكانه واتسعت عيناها بذهولٍ شلَّ حركتها؛ حين وجدت الجميع في حالة استنفار وجلبة، مجتمعين في حلقة ضيقة حول سارة التي كانت ممددة وفاقدة للوعي، بينما تتعالى الأصوات بمحاولات يائسة لإفاقتها.

اتجهت لها سريعًا وانحنت بجسدٍ يرتجف، ويدها تبحث بهلع داخل حقيبتها عن أي زجاجة عطر، لم تهتم بنظرات من حولها، بل دفعت داليا بغير وعي لتجلس هي بجانب سارة. رشَّت كمية من العطر على كفها وقربتها من أنف سارة، وهي تصرخ بصوتٍ يحاول مغالبة الرعب الذي ينهش قلبها:

___ سارة... سااارة سمعاني؟ سااارة!

بدأت سارة تستجيب ببطء، تهز رأسها يمينًا ويسارًا كأنها تطرد كابوسًا ثقيلًا، ومع أول شهقة وعي، انهمرت دموع دافئة غسلت وجهها الشاحب، وتمتمت بكلماتٍ متقطعة خرجت من أعماق انكسارها:

___ تيا... أنا.. أنا مسيبتش حد... والله ما سيبت حد.. هما السبب.

تجاهلت تيا تلك الكلمات التي اخترقت روحها، وضغطت على مشاعرها بقوة وهي تسند رأس سارة بحذر، كأنها تحاول فصل الأم التي جرحتها عن المريضة التي تحتاجها الآن، وقالت بنبرة حازمة تخفي خلفها اضطرابًا هائلًا:

___ مش مهم حاجة دلوقتي.. أنتِ سمعاني؟

استجابت سارة بضعف، وهزت رأسها بموافقة واهنة وهي تغمض عينيها بشدة من ألمٍ اعتصر ملامحها، وتمتمت بصوتٍ مخنوق:

___ سمعاكي.. بس صداع.. صداع هيموتني.

___ متقلقيش ده طبيعي.

سكبت كوب من الماء وقربته من شفتيها وهي تقول:

___ براحة كدة سمي الله واشربي.

بدأت بارتشاف كمية قليلة من الماء وقالت بعدما انتهت:

___ كفاية مش عايزة.

وضعت تيا الكوب جانبًا بهدوء، وعادت لتقف مرة أخرى بجانب آسر، الذي لم تُفارق عينه تفاصيل حركتها. كان ينظر إليها ببسمة هادئة، يملأها الفخر؛ فهو الآن يرى ثمرة تربيته لها واضحة أمام عينيه. تذكرت تيا في تلك اللحظة كلماته التي كان يرددها دائمًا:

___ "عارفة لو في شخص أذاكي جامد بس لقيتيه محتاج مساعدة، اتعاملي وقتها بأصلك أنتِ مش بأصله هو.. ساعدي يا تيا".

ارتسمت بسمة رقيقة على وجهها هي الأخرى، كأن تلك الكلمات كانت الوقود الذي دفعها لتتجاوز قهرها، بجانب ذلك الحنين الغريب لوالدتها الذي استيقظ فجأة. رفعت كفها ببطء وأمسكت بكفه، وضغطت عليها برفق.

قد يعتقد الكثيرون أنَّ تلك الحركة تعبر عن الاحتياج فقط، وهي بالفعل كذلك، ولكنها في عمقها تعبر عن الأمان. فعندما تشعر المرأة بالأمان، تتمسك بيد زوجها كأنها تثبت أقدامها على أرض صلبة؛ تشعر بدفء يغمر كيانها، وقلقها يطمس تمامًا تحت وطأة حنانه.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

حاولت ريم كبح جماح غضبها وهي تضغط على هاتفها بقوة، وصوتها يخرج حادًا لكسر صمت الفجر:

___ جاسر أنت فين؟ الساعة ٤، أنت بتهزر؟ الفجر خلاص فاضل عليه وقت قليل.

كانت الكلمات تخرج منها بضيق حقيقي؛ ففكرة أن يفسد أول يوم صيام لهما بسبب غيابه غير المبرر كانت تثير أعصابها. أجابها جاسر بنبرة صوت يظهر عليها الإرهاق والتشتت:

___ معلش يا ريم، حصل شوية حاجات كدة..

صمت فجأة، كأن استيعابه قد عاد إليه دفعة واحدة، وسأل بشك:

___ ريم، أنتِ فين؟ المفروض إنك في البيت.

تلعثمت ريم قليلًا وهي تحاول تبرير موقفها:

___ ها.. لا ما بصراحة سارة صاحبتي كلمتني ونزلت معاها.

في تلك اللحظة، احتقنت ملامح وجه جاسر بغضب عارم، وطبق في تلك اللحظة المثل القائل "اتقِ شر الحليم إذا غضب". خرج صوته بنبرة حذرة مكتومة تحمل في طياتها وعيدًا:

___ خرجتِ فين معلش؟

أجابت باختصار وهي تشعر بتوتره:

___ برة.

ردَّ عليها بحزم قاطع، وهو يضع حدًّا لهذا التجاوز:

___ أيوه.. إزاي من غير ما أعرف؟

بلعت ريم ريقها بصعوبة، وشعرت بغصة في حلقها، فالمبرر الذي نطق به لسانها بدا أحمق حتى في أذنيها:

___ ما.. ما هو.. هو يعني أنت برة، أستأذنك إزاي؟

كانت تلك الكلمات هي القشة التي قصمت صبر جاسر، فثار حقًّا وانفجر فيها بصرخةٍ هزَّت الهاتف:

___ وهو الزفت اللي بكلمك منه ده اخترعوه ليه؟ أنتِ هتستهبلي؟

لمعت عينا ريم بالدموع، فقد أصبحت هشة وحساسة للغاية بعد علمها بخبر حملها الذي لم يكتمل فرحها به بعد بسبب المشاكل، وقالت بصوتٍ متهدج:

___ جاسر لو سمحت متزعقليش..

لكنه كان في قمة اشتعاله، ورد بنبرةٍ تقطر غضبًا:

___ مزعقش؟!! ده أنا هكسر دماغك عشان لما تيجي تخرجي تفكري ألف مرة!

ارتفع صوته لدرجة لفتت انتباه تيا، فاقتربت منه بهدوئها المعتاد وسألت:

___ في إيه؟

في تلك اللحظة، ومع سماع ريم لصوت أنثوي بجانب زوجها، اتسعت عيناها بذهول، وجفت دموعها فجأة لتبدلها ببركانٍ من الغيرة والاندفاع، فصرخت في المقابل:

___ أنت بتزعقلي وأنت بتخوني أصلًا؟ ده أنت بجح!

أبعد جاسر الهاتف عن أذنه لثوانٍ وهو ينظر لتيا بقلة صبر وضيق، فمدت تيا يدها بهدوء وقالت:

___ ممكن أكلمها؟ وآسفة يعني لو بتدخل..

أجابها جاسر وهو يسلمها الهاتف كأنه وجد طوق نجاة:

___ لا.. أنتِ الأحسن فعلًا تتدخلي.

ابتسمت تيا، ووضعت الهاتف على أذنها قائلة بنبرة هادئة لطيفة:

___ أهلًا يا ريم، أنا تيا.. مرات آسر، قبل ما تقولي أي حاجة.

ساد صمت مميت على الطرف الآخر، كأن الزمن توقف عند ريم، قبل أن تنطق بصدمةٍ لجمت لسانها:

___ مرات مين؟

ضحكت تيا برقة، وكررت كلماتها بمزاح لكسر حدة الموقف:

___ مرات آسر.. هو في إيه يا جماعة؟ أي حد أقوله كدة يسكت ليه؟ هو آسر كان معقد ولا إيه؟

لم تستوعب ريم الكلمات بعد، وسألت بذهول وغباء فطري:

___ آسر إزاي؟ هو مش المفروض يعني آسر سنجل؟!!!

أجابتها تيا بضحكة واثقة:

___ دي تبقى عيبة في حقي! بقولك تعالي بس وأنا هفهمك كل حاجة.

سألت ريم بنبرة حذرة وخافتة، كأنها تستجدي الأمان:

___ هو جاسر موافق؟

ابتسمت تيا والتفتت لجاسر الذي أخذ منها الهاتف وقال بهدوء يحمل وعيدًا مؤجلًا:

___ تعالي يا ريم.. وحسابي معاكي لما نبقى لوحدنا.

هنا ردَّت ريم بنبرة مازحة وشبه باكية من فرط التوتر:

___ أنا كدة مش هاجي في حتة!

تعالت ضحكة تيا الصافية، وشعرت براحة غريبة تجاه ريم؛ فبرغم الهولية التي حدثت، إلا أنَّ عفوية ريم وخوفها من جاسر جعلا تيا تشعر بأنها وجدت روحًا تشبهها في بساطتها.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

وقف الإخوة الثلاثة "ستيفان، أدريان، وسيرجي" في مواجهة فيكتور، كانت نظراتهم كفيلة بإحداث ضجيج في هذا الصمت المطبق. تقدم ستيفان بخطوات ثقيلة، ونظر إلى فيكتور بعينين يملأهما حزنٌ عميق وعتاب مرير، وقال بصوتٍ منخفض:

___ مكنش ينفع أيًّا كان يا فيكتور إنك تكلم بابا بالطريقة دي.

رفع فيكتور نظره إلى ستيفان بذهولٍ تام، والدموع المتحجرة في عينيه توشك أن تفلت من سيطرته، وقال بصوتٍ مخنوق:

___ بعد كل ده.. وأنا اللي غلطان؟ أنت شايف كدة فعلًا؟

كانت نبرته تحمل خيبة أملٍ عميقة، كأنه لم يتوقع أن يُوضع في قفص الاتهام بعد كل ما مرَّ به. جلس سيرجي بجانبه محاولًا تهدئة الموقف، وربت على كتفه برفق وهو يقول:

___ أكيد ستيفان مش قصده يا فيكتور، اهدى بس.

تدخل أدريان في تلك اللحظة، وقال بلهجته الأوكرانية المحببة إلى قلبه بنوعٍ من عدم الاكتراث:

___ أنا أشعر بأنَّ هذا الأمر أخذ أكبر من حجمه.

لم يتحمل سيرجي بروده، فالتفت إليه وضربه سريعًا وهو يحدِّق إليه بعصبية وغضبٍ ظاهر:

___ كفى يا أدريان!

لوى أدريان شفتاه بضيقٍ وابتعد قليلًا وهو يتمتم محاولًا تبرير موقفه:

___ بالطبع لم أقصد التصغير من مشاكله..

نظر ستيفان إليهما بضيقٍ عارم؛ فالمشهد تحوَّل أمامه إلى مشاجرة جانبية بين شقيقيه في وقتٍ يحتاج فيه فيكتور للدعم والتماسك، وليس لمزيد من التشتت. زفر بحدة وقال بنبرة حازمة:

___ كفى أنتما الاثنان! انظرا إليه.. أهذا هو الوقت المناسب لتلك المشاحنات التافهة؟

ساد الصمت في الغرفة، وبدأ الإحراج يكسو ملامح أدريان وسيرجي، فنظرا إلى فيكتور بأسفٍ حقيقي وتمتم أحدهما بنبرة منكسرة:

___ نعتذر يا فيكتور.. لم نقصد.

لم يُعر فيكتور اعتذارهما أدنى اهتمام، بل ثبَّت نظراته المشتعلة على ستيفان، وقال بنبرة قاطعة لا تقبل الجدال:

___ أنا هنزل مصر.. يعني هنزل. مش هستنى المؤتمر ده، مش فارق معايا.

حـاول سـتيفان أن يتمسـك بـآخر ذرة منطـق لديـه، فـاقترب منـه بخطوات هادئة وقال محاولًا تهدئته:

___ فيكتور بلاش تهور.. المؤتمر أصلًا فاضل عليه يومين، إيه اللي هيجد يعني في الـ ٤٨ ساعة دول؟

فـي تلـك اللحظـة، ارتعشـت يـد فيكتـور بوضـوح، وخـرج صـوته مخنوقًا بالدموع التي لم يعد قادرًا على حبسها أكثر:

___ مش هيجد حاجة.. بس أبقى مع بنتي.

وقف ستيفان أمامه مباشرة، محاولًا بث بعض الطمأنينة في قلبـه، وقال بنبرة هادئة:

___ طب ما آسر معاها يا فيكتور..

لم يكد ينهي جملته حتى انفجر فيكتـور بغضـبٍ عـارم، وانهمـرت دموعه رغمًا عنه وهو يصرخ بصوتٍ زلزل أركان الغرفة:

___ هو مش أبوهاااا! فاهم ولا لأ؟ أنا اللي أبوها يـا سـتيفان.. هو خد مكاني غصب عني! كفاية بقى.. محدش يجيب لي سيرته!

تراجع ستيفان خطوات للخلف وأشار له:

___ خلاص اهدى مش هنجيب سيرته.

تراجع فيكتور بجسده المنهك وجلس فوق المقعد، مخبئًا وجهه بين كفيه، صمت الجميع فجأة، لكن الصـدمة الحقيقيـة ألجمـت ألسنتهم عنـدما تسـلل إلـيهم صـوت شـهقاته الباكيـة، الممزوجـة بمـرارة سنوات من الكتمان، وهو يتمتم بكلمات تقطر وجعًا:

___ محدش اتظلم قدي.. اتحرمت من داليا، وعيشت خيال مآتة في حياة تيا.. وسارة طلقتها.. وجيسيكا وإيفا ماتوا.. وأنا بقيت لوحدي.. حتى ليلا ولينا عايشين في حياتهم.

كانت الكلمات تخرج منه كنزيف لا يتوقف، جردته من وقاره المعتاد أمام إخوته، ليظهر أمامهم رجلًا محطمًا يرى حياته مجرد سلسلة من الفقد والغياب، كأن كل الوجوه التي أحبها قد تسربت من بين أصابعه تاركة إياه في عزلة موحشة.

ضمه ستيفان بقوة إلى صدره، محاولًا أن يمتص هذا الانهيار العنيف بين ذراعيه، وهمس له بنبرة يملأها اليقين والرجاء:

___ بإذن الله كل حاجة هتعدي.. زي ما أي حاجة بتعدي.

لم يجد فيكتور قوة للرد سوى بصوتٍ يغلب عليه القهر والاحتياج لرحمةٍ تنتشله من هذا الشتات، فغمغم بكلمة واحدة خرجت كزفيرٍ حارق من أعماقه:

___ يا رب.. يا اااارب.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

على ضفاف النيل، كانت الأجواء تفيض بروح رمضان؛ الزينة تتدلى في كل مكان، وأصوات الفوانيس تتعالى وتختلط بصخب الباعة الجائلين، بينما انعكست أضواء الزينة الملونة على صفحة المياه لترسم لوحة ساحرة تحت عباءة الليل. وقف ماكس يراقب ليث وكايلا وأدهم، ثم التفت إلى لمار وقال بنبرة يملأها الأسف:

___ مش صعبان عليا غير العيال دي.. متبهدلة والله.

ارتشفت لمار الماء ببطء، كأنها تحاول استيعاب شيء، ثم علَّقت قائلة:

___ تقريبًا ده اللي آسر كان خايف منه.. تفتكر آسر مكنش عايز يخلف عشان كدة؟

ردَّ ماكس بهدوء وهو يشرد في مياه النيل:

___ تقريبًا لا.. خوف آسر كان ممكن يكون خوف من المسؤولية مش أكتر.

لم تقتنع لمار بحديثه وقالت بجدية:

___ مش مقتنعة بصراحة.. طب ممكن يكون مكنش قادر على مسؤولية التربية؟

نظر إليها ماكس بتعجب واستغراب من سؤالها:

___ طب ما ده اللي أنا قولته!

ساد صمت لثوانٍ قصيرة، قبل أن ينفجر ماكس ضاحكًا وهو يحاول توضيح وجهة نظره:

___ أنا قصدي بمسؤولية التربية مش المادية.. التربية مسؤولية صعبة، أنتِ مالك بقيتي غبية ليه؟

هرشت في رأسها بحرج وقالت محاولةً تدارك الموقف:

___ افتكرتك تقصد المادية.

نظر ماكس إلى عينيها مباشرة، وارتسمت على وجهه بسمة هادئة وهو يغير مجرى الحديث تمامًا:

___ سيبك بقى.. المهم.

سألته بفضول:

___ إيه؟

أمال رأسه قليلًا وقال بنبرة غازلة:

___ هي ماما كانت حورية بحر؟

ضحكت لمار بذهول وتعجب من سؤاله المفاجئ:

___ اشمعنا؟

أجابها وهو يغرق في نظراتها:

___ أصل أول ما شوفت عينيكي سحرتني، وغرقت فيهم.

انفجرت ضاحكة من قلبها وهي ترد بصوتٍ مبهج:

___ أنت جبت الكلام ده منين؟

أشار ماكس بيده على قلبه ببسمة واثقة، وهمس بنبرة صادقة:

___ من هنا.

نظرت لمار إلى عينيه بكسوف، وصبغت حمرة الخجل وجنتيها وهي تهمس بصوتٍ خافت:

___ بقيت بكاش على فكرة.. وبتاكل بعقلي حلاوة.

غمز لها ماكس وهو يواصل غزله بها:

___ والله ما في حلويات غيرك.

في تلك اللحظة، رنَّ صدى كلمات تيا في عقلها كجرس إنذار هزَّ كيانها:

"لمار، متخليش الشيطان يخدعك.. ماكس مش جوزك، لازم تبقي عارفة ده. خلي في حدود على قد ما تقدري عشان ربنا يبارك ويحقق لك اللي بتتمنيه.. لا تخضعي بالقول أبدًا".

شردت لمار لثوانٍ وهي تشعر بغصة ذنب تأكل قلبها؛ فمنذ وصوله وهي تشعر بأنها تنزلق في دائرة من التجاوزات التي لم تعهدها، بدءًا من نظراتها التي لا تشبع منه، وصولًا إلى هذا الحب الذي تفيض به ملامحها رغمًا عنها. رفعت بصرها نحو السماء كأنها تستغيث بخالقها ليعينها على قلبها، لكن فجأة، شقَّ صوته هذا الصمت الرخامي وهو يقول بوضوح لم يحتمل التأويل:

___ بحبك.

اتسعت عينا لمار بذهولٍ شلَّ حركتها، واختلطت مشاعرها بصرخة رفضٍ وتفاجؤ:

___ إيييييييه؟!!!

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<.

"وهيا بنا نذهب إلى مكان أول مرة نراه".

في زاوية معتمة من ذلك المكان المهجور، حيث تفوح رائحة الرطوبة وتختلط الفوضى، ساد صمتٌ مخيف لم يقطعه سوى

حفيف الأوراق. جلس ذلك الرجل الغامض على مقعدٍ متهالك، والضوء الشحيح يسقط على ملامحه لِيُبرز ابتسامة خبيثة، نمت ببطء كأفعى تستعد للانقضاض.

كانت عيناه مثبتتين على صورة موضوعة أمامه فوق طاولة خشبية متآكلة، فتمتم بنبرة تقطر سمًا:

___ اللي كنت بتمناه أخيرًا حصل.. تيا ظهرت. نبدأ بقى.

وبحركة بطيئة ومستفزة، أمسك بقلمٍ أحمر قانٍ، ورسم دائرة عريضة حول صورة تيا، ثم انتقل بحدة إلى صورة سيف، ليخط فوق وجهه علامة X كبيرة تعني أنه سيبدأ به.

اتجه بخطواته الثقيلة نحو الكرسي المتهالك، وجلس عليه والجمود يحتل ملامحه. كانت ملامحه جامدة، لكن عينيه تشتعلان بغلٍّ داخلي لا حدود له، وصوته خرج كفحيحٍ يملأ أركان المكان المهجور:

___ ورينـــي بقـــى هتتحمـــل إزاي يـــا عثمـــان.. لمـــا تشـــوف إمبراطورياتك بتتهد واحدة ورا واحدة.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

تنهدت داليا بإرهاقٍ نال من روحها قبل جسدها، وفركت جبهتها كأنها تحاول طرد شعور الضياع الذي تغلغل في أعماقها، وقالت بصوتٍ واهن:

___ سيف.. أنا تعبت بجد.

نظر إليها سيف بتعجب، محاولًا إيجاد حلٍّ ملموس يخفف عنها:

___ أروَّحك؟

أومأت بالرفض في صمتٍ مرير، فتابع بقلق:

___ طب نروح للدكتور؟

خرجت منها تنهيدة حارقة، كأن صدرها ضاق بما يحمل، وقالت بنبرة يائسة:

___ ياريته تعب جسدي.. التعب تعب نفسي يا سيف. مبقتش قادرة.. هو أنا مش مكتوب لي فرحة؟

أغمض سيف عينيه بقوة، فقد أصابت كلماتها وترًا حساسًا في قلبه؛ فهي محقة تمامًا. إذا حاول الآن أن ينبش في ماضيهما عن ذكرى سعيدة واحدة، سيعود بيدين فارغتين، وإن وجد، فستكون مجرد ومضات باهتة لا تقوى على مواجهة ظلام الحاضر. ضمها إليه برفق، محاولًا أن يكون هو السند الذي تفتقده، وهمس بيقينٍ يحاول إقناع نفسه به قبلها:

___ كل حاجة هتكون كويسة.

انهمرت دمعة حارقة من عيني داليا، كأنها كانت القشة التي قصمت صبرها، وقالت بصراخٍ مكتوم يمزقه الوجع:

___ مفيش حاجة بتبقى كويسة يا سيف.. كل شوية حياتنا بتتعقد أكتر وأكتر، أنا مبقتش مستحملة!

نظر إليها سيف بهدوءٍ غريب، وإيمانه هو الدرع الوحيد الباقي لهما، وقال بيقينٍ صادق:

___ إذا أحب الله عبدًا ابتلاه.. ده ابتلاء يا داليا ولازم نعديه.

كادت أن تعترض بدموعها الثائرة، لكنه سبقها بحكمةٍ بالغة:

___ عارف إنك مش مستحملة، بس هو ده الابتلاء.. ربنا بيبتلينا عشان يختبر صبرنا، إنَّ الله مع الصابرين.

استكانت داليا قليلًا، ومسحت دموعها وهي تردد بانكسارٍ:

___ ونعم بالله.

ابتسم سيف برفق:

___ شاطرة يا داليا.

فجأة، انقطع حبل السكون الهش بدخول لمار من باب المشفى؛ كانت تجري ونحيبها يسبق خطواتها، وجهها يكسوه شحوب الموت، وقالت لداليا بارتعاشٍ هزَّ كيان الجميع:

___ فين.. فين تيا؟

أشارت داليا بتعجبٍ وقلق:

___ جوه.

في تلك اللحظة خرجت تيا، وتوقف قلبها عن النبض لثوانٍ وهي ترى شقيقتها الروحية وصديقة عمرها تنهار بهذه الطريقة البشعة:

___ في إيه يا لمار؟ متخضينيش!

نظرت إليها لمار بأعينٍ غارقة في القهر، وصوتٍ مرتعش يخرج بصعوبة:

_ رفضته يا تيا... رفضته مقدرتش والله ما قدرت.

من حديثها وبكائها بدأت تيا تستنتج ما حدث؛ فنظرت إلى آسر وهي تقول بتنهيدة وصوت مبحوح من كثرة الضغط النفسي الذي تمر به:

___ هاخدها وأروح الكافيه اللي تحت.

أومأ لها بهدوء، بينما انشغل هو بالبحث في قائمة الاتصال عن اسم "ماكس"، وظلَّ يتصل به مرارًا دون جدوى. شعر بيد تستقر فوق كتفه، فالتفت ليجد سيف يحدِّق إليه قائلًا:

___ إيه الحكاية؟

مسح آسر على وجهه وقال بصوت مجهد:

___ الحكاية إن كل حاجة بتبوظ وبتفلت مننا، وكل لما نقول خلاص طلعنا من حاجة بنقع في حاجة تانية.. الحكاية إني مش فاهم حاجة، حاسس إني تايه ومش لاقي مرسى.

ارتسمت بسمة هادئة على شفتي سيف وهو يسحب منه هاتفه، وتفوَّه بكلمات جعلت آسر يُظهر شبه ابتسامة:

___ في مسجد تحت شفته وأنا بجيب قهوة، ده المرسى ومظنش إن في مرسى أحسن من كدة.

___ عندك حق.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في ركن هادئ يخلو من ضجيج المارة، حيث تنتشر رائحة المخبوزات والقهوة في الأجواء، ويتردد صدى ضحكات الأطفال البعيدة كأنها تذكر الجميع بأنَّ البراءة ما زالت موجودة؛ جلست

تيا وأمامها لمار التي انخرطت في موجة من البكاء مرة أخرى.
بلعت تيا ريقها وهي ترتشف القليل من الماء وقالت:

___ ممكن تهدي وتفهميني في إيه؟

مسحت لمار دموعها بكفها بانهيار وقالت:

___ قال... قال إنه بيحبني.

فلاش باك...

وقعت كلماته عليها كالصاعقة، فشعرت برعشة تسري في أطرافها وجفَّ حلقها تمامًا، وقالت بصوت مرتعش متهدج:

___ بـ.. بـ.. إيه؟

ابتسم وهو يظن أنَّ ارتباكها أثر الصدمة فقط، ونظر لعينيها بشغف وقال:

___ بحبك.

هزَّت رأسها برفض؛ فقد ظنت أنَّها توهمت، لكنها لم تكن تريد سماع تلك الكلمة الآن. قالت بدموع بدأت تتجمع في مقلتيها:

___ لا.. لا لا مش دلوقتي مش عايزة لا.

عقد حاجبيه واختفت البسمة من وجهه وقال مستنكرًا:

___ هو إيه اللي مش دلوقتي ومش عايزة؟ بقولك بحبك!

تراجعت خطوات للخلف وهي لا تزال تهز رأسها بهيستيريا، بينما قفزت ذكريات طفولتها وعلاقة والديها أمام عينيها؛ لتعيد أبشع المشاهد من ضرب مبرح وإهانة دائمة، وقالت بصوت مكتوم:

___ لا.. لا مش هعيد ده، مش عايزة مش عاااايزة.

شعر ماكس كأن نصلًا حادًّا شقَّ قلبه، لكنه حاول أن يفهم إن كانت ترفضه لشخصه أم لسبب آخر:

___ أنتِ... أنتِ مش عايزاني؟ مش بتحبيني؟

صمتت لأنها كانت تائهة بين ذكريات الماضي التي تلاحقها، ولكنه ترجم ذلك السكوت بأنه رفض؛ فنظر لها بوجع وقال:

___ أنا مش هغصبك على حاجة.. براحتك. ليث، كايلا، أدهم.. تعالوا عشان هنروح.

التفت ليقول لها برسمية أن تأتي معه، ولكنه لم يجدها.. كأنها فص ملح وذاب.

"باك"...

___ وإنتِ بتعيطي ليه دلوقتي؟ مش ده اللي أنتِ طلبتيه؟

___ لا لا يا تيا مش هو ده اللي أنا عايزاه.. أنا.. أنا بحبه بس مش قادرة.

___ مش قادرة على إيه بالظبط؟ لمار أنا أختك، وعشان أختك هقولك حاجة؛ اللي حصل زمان مش هيتكرر تاني، مش عشان

ماكس ابن عمي، لا.. عشان أنتِ أصلًا متربية معانا وعارفة طبعنا. إحنا مش كدة، أنا في حياتي كلها ما شفت حد من أعمامي أو جدي أو أي حد بيرفع إيده أو صوته على مراته قدامنا ولا حتى من ورانا. مش شكر فينا برده، أكيد في خناقات بس ده طبيعي.

وضعت كفها على ثغرها لتكتم شهقاتها وهي تهز رأسها برفض ودموع وجسدها ينتفض وهي تقول:

___ أنا مش واثقة يا تيا مش واثقة...أنا مش هتحمل إني لما أخلف طفل يترمي في الشارع والله ما هستحمل.

ارتمت في أحضانها وهي تشهق كطفلة تبحث عن الأمان في دنيا أصبح بها الأمان والثقة... معدومين.

شددت تيا عليها وهي تمسد على رأسها بحنان ونحيبها لم يقف بل زاد بشكل موجع، تنهدت تيا ودمعة وقفت على حافةِ عينيها ولكنها حبستها بقوة لم يأتِ الوقت المناسب للانهيار الآن، اهتزَّ هاتفها ونوَّر بإشعار مسكته بهدوء ووجدت رسالة من ماكس مضمونها:

___ " هي لمار معاكي ولا إيه؟ مش لاقيها؟".

ابتسمت بحزن على حالهما وكتبت وبيد مرتجف:

___ "معايا متقلقش".

اختفت علامة "typing" فعلمت أنَّه أغلق هاتفه.

نظرت للمار بأسف وقالت:

___ مش عارفة أواسيكي ولا أزعلك.

همست بصوت مبحوح أثر نحيبها القوي:

___ أنا مش عارفة أي حاجة يا تيا...مش عارفة.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

لم تكن الصلاة بالنسبة لآسر مجرد واجب يؤديه، بل كانت المساحة الوحيدة التي يجد فيها نفسه. هي تلك المحادثة الهادئة مع الله، حيث يفرغ ثقل قلبه وحزنه، ويبكي دون خوف من لوم أو حكم، داعيًا بكل ما يتمناه.

"اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك".

كانت الكلمات تخرج من بين شفتيه وهو يضم المصحف بين يديه، غارقًا في القراءة حتى شعر ببرد السكينة يغسل قلبه المتعب. فجأة، شعر بلمسة دافئة على كتفه، التفت ليفاجأ بـ "تيا" تقف خلفه.

قال بدهشة:

- تيا؟ دخلتي مصلى الرجال إزاي؟ افرضي حد شافك؟

جلست أمامه بابتسامة رقيقة، تحاول جاهدة أن تداري بها انكسارها الداخلي وقالت:

- المكان فاضي دلوقتي، المهم أنت شربت؟ الفجر أذن ومينفعش تصوم من غير ما تشرب.

فرك رأسه بألم واضح وأجاب بهدوء:

- شربت شوية.. المهم طمنيني، عملتي إيه؟

بدأت تقص عليه ما حدث، والدموع تلمع في عينيها وهي تهمس بحزن:

- الاتنين صعبانين عليا أوي يا آسر.. ليه الدنيا ماشية عكسنا كدة؟

جذبها إليه باحتواء، ومسد على رأسها وهو يستند بظهره إلى الحائط قائلًا:

- عشان دي الدنيا يا تيا.. لقد خلقنا الإنسان في كبد، الصعوبات جزء من حياتنا.

شعرت بحرارة غريبة تنبعث من جسده، فوضعت كفها على جبينه وشهقت بخوف:

- آسر! حرارتك عالية جدًّا.. أنت شكلك تعبت.

أغمض عينيه بإرهاق، وشعر برأسه يثقل كأنه يحمل صخرة:

- فعلًا.. حاسس بصداع رهيب.

زفرت بضيق من إهماله المستمر لنفسه وقالت بعتاب:

- كان لازم تقولي أول ما تحس بكدة! والله أنت طفل أكتر من ابنك.. هو أنا المفروض أخلي بالي من كل حاجة؟ طب افرض مكنتش جيت دلوقتي؟

استمرت في محاضرتها المعتادة، فضحك رغمًا عنه ونهض مادًا يده إليها. تلاقت أيديهم وخرجوا معًا إلى ممر المستشفى. وجدت

تيا لمار تقف مع داليا، فشعرت ببعض الاطمئنان وتركت ذراع آسر لتتجه إليهم، بينما ذهب هو نحو جاسر وسيف.

قال جاسر متسائلًا:

- كنت فين يا عم؟

أجاب آسر بملل:

- موجود، بتابع اللي بيحصل.. سيف، متعرفش هنخرج إمتى؟ أنا اتخنقت.

نظر سيف إلى الغرفة التي ترقد بها والدته وقال بأسف:

- الدكتورة قالت لازم راحة تامة، وهتمشي على مسكنات قوية عشان ألم الجرح.. هنفضل شوية لحد ما تفوق.

أومأ آسر بتفهم، لكن جاسر قاطعه بنبرة مازحة وهو يشير إلى تيا التي كانت تبتسم لهاتفها:

- مراتك لو بتسمع تملي معاك مش هتبقى مبتسمة كدة!

ضربه آسر بغيظ:

- يا عم سيبها في حالها، هي مش ناقصة.

لكن آسر لاحظ أنَّ ابتسامتها باهتة، كأنها ابتسامة يأس. قبل أن يتحرك نحوها، كانت هي قد وصلت إليه وأرته الرسالة التي وصلت من ستيفان:

"تيا.. فيكتور اتخانق مع جدك ومصمم يجي.. وجدك وافق وهنيجي كلنا بكرة، مش هنستنى المؤتمر".

ضرب آسر وجهه بكفه بيأس:

- إحنا فقر الفقر.. والله العظيم الواحد مش ناقص.

ثم التفت لجاسر بضيق:

- ارتحت؟ عينك دي عايزة رصاصتين عشان نخلص! هكلمهم.

أراد أن يتصل بهم، لكن تيا سحبت الهاتف وقالت بتفكير:

- لا.. سيبهم يجوا.

نظر في عينيها بعمق وقال:

- تيا.. تعرفي إني بخاف لما بتبدأي تفكري كدة؟

رفعت حاجبيها بتعجب:

- بتخاف مني أنا؟ بتهزر!

هزَّ رأسه بجدية:

- والله بتكلم جد.. كيد النسا ده بخاف منه.

ضحكت تيا من قلبها وهي تستند إلى يده

- والله أول مرة أعرف إنك بتخاف من تفكيري.. ده أنت الأستاذ يا آسر!.

ضمها إلى كتفه بحنان وأجاب بابتسامة:

- الطالبة ساعات بتتفوق على معلمها.

تدخل جاسر ببرود:

- خلصتوا الحوار ده؟ إحنا في إيه ولا في إيه؟

جذبه سيف من ياقته ضاحكًا:

- تعالى يا هادم اللذات وسيبهم في حالهم.. مش ناقصين حسد.

فجأة صمت سيف وأشار للممر بخبث:

- مش دي ريم مراتك برضه؟ ولا أنا بيتهيألي؟

التفت جاسر بسرعة، وما إن رآها حتى اشتعل الغضب في عينيه، متذكرًا أنَّها خرجت دون إذنه. مال آسر على أذن سيف وسأل:

- هو جاسر اتعصب ليه كدة؟

ردَّ سيف بيأس:

- معرفش، هو أنا الاخصائي بتاعه؟ ده إيه الهم ده؟

جذب جاسر "ريم" بقوة نحو المصعد. حاولت تيا التدخل لكن آسر منعها بهدوء. داخل المصعد، ضغط جاسر على زر وشد على ذراعها بعنف.

قالت ريم بدموع:

- جاسر أنت بتوجعني.. ابعد!

لم يبالِ واحتقن وجهه بالغضب وهو يهمس بحدة:

- هو أنتِ متجوزة سوسن عشان تخرجي من غير إذني؟

بكت بصمت وقالت بصوت مخنوق:

- آسفة مكنش قصدي.. كلمتك كتير ومردتش، ورياد كانت تعبانة.. سيبني بقى.

ترك ذراعها فجأة فترنحت، لكنه سارع بسندها. نظر إلى يدها التي احمرت بشدة، فبدأ يدلكها وهو يتمتم بضيق:

- أدي اللي بناخده من الجواز ومشاكله.

نظرت إليه بذهول وضربت كتفه بغضب:

- ماله الجواز يا ابن سهر؟ ما تنطق!

ردَّ وهو يحاول التماس الهدوء:

- اسكتي يا ريم.. أنا على أعصابي أقسم بالله.

صمتت تمامًا، ومع فتح باب المصعد، خرجا سويًا والصمت يلفُّ المكان.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كان فيكتور يقف في منتصف غرفته، يلقي بملابسه داخل الحقيبة بفوضى تعكس الشتات الذي يعيشه. شعر كأن جدران الغرفة تضيق عليه، أنفاسه تلاحق بعضها، وبينما هو يجذب ثيابه بعشوائية، سقطت صورة قديمة بهتت ألوانها بفعل الزمن.

رفعها، وبمجرد أن وقعت عيناه على الملامح المألوفة، مسح وجهه بعنف.. كانت صورته مع سارة.

بكى فيكتور، بكاءً مرًّا لا يعرف عدده، بكاءً يخرج من أعماق رجل منهك. همس بصوت مخنوق:

- أنا عايز أكرهك.. أنتِ السبب في كل اللي وصلت ليه. دمرتي حياتي يا سارة، كنتِ لعنة.. بس مش عارف أكرهك!

صرخ بكلمته الأخيرة بانهيار تام، وبدأ يحطم كل ما تصل إليه يده في الغرفة، وهو يكرر بهيستيريا:

- ليه يا سارة؟ ليه دخلتي حياتي من الأول؟ يا رب.. يا رب مابقتش متحمل، أنا مش جبل!

علا صوت التحطيم، اندفع ألكسندر للداخل، مانعًا البقية من الدخول. اقترب من ابنه ويده ترتعش، لكنه حاول التحلي الثبات وهو يقول:

- فيكتور.. اهدى.

هزَّ فيكتور رأسه والدموع تغرق وجهه:

- أنا بيحصل فيا كل ده ليه؟ أنا معملتش حاجة والله.. ليه أنا؟

خارت قواه فجأة، وسقط على الأرض منهارًا. في تلك اللحظة، لم يعد رجلًا يقترب من أواخر الأربعينات، بل بدا كطفل ضائع يسأل بكسرة:

- هو أنا وحش يا بابا؟

حبس ألكسندر دموعه بصعوبة؛ فمهما كبر الأبناء، يظلون في عين الأب أطفالًا يوجعه وجعهم. انحنى نحوه وقال بحنان:

- لا يا فيكتور.. أنت عمرك ما كنت وحش. طول عمرك قلبك أبيض.

رفع فيكتور رأسه، وشهقاته تزداد حدة:

- طب ليه بيحصل فيا كل ده؟ أنا تعبت.. خلاص مابقتش قادر.

تخلَّى ألكسندر عن وقار الرجل الحكيم، وتحدث بنبرة أب يرى روح ابنه تحترق:

- عيط يا فيكتور.. خرج كل اللي جواك. الدموع عمرها ما كانت ضعف، دي بتغسل قلبك عشان تقدر تقف من تاني وأنت أقوى.

كانت هذه الكلمات هي الإشارة التي يحتاجها فيكتور ليعلن استسلامه التام؛ فارتمى في أحضان والده كمن وجد مرفأه الأخير. ضمه ألكسندر بقوة، وفي تلك اللحظة، دخل ستيفان وسيرجي وأدريان، ووقفوا يراقبون المشهد بابتسامة يملأها الحزن والانكسار.

في مطعم فاخر بأوكرانيا، يتسم بتصميم يخطف الأنظار، كانت الإضاءة الخافتة تضفي دفئًا شاعريًّا على المكان، تنعكس في نعومة على السيراميك اللامع. أضواء الشموع العطرية كانت تتراقص في الأركان، تنثر عطرها الذي ينساب مع الهواء ليملأ الأرجاء بهدوء وجمال.

في زاوية هادئة، جلست ميرا بفستانها الأزرق الرقيق، الذي زادها وقارًا وأنوثة. رفعت خصلات شعرها بمشبك من نفس اللون، مع ضفائر صغيرة منحت مظهرها لمسة طفولية ناعمة. أمامها، كان يجلس أندريا ببدلته السوداء الأنيقة وقميصه الأبيض الذي فك أول أزراره بعفوية، تزينه ابتسامة واثقة.

أمسك يدها بحنان، ورفع كفها الصغير ليطبع عليه قبلة رقيقة وسأل:

- هل أعجبكِ المكان يا أميرتي؟

أجابت بانبهار لم تستطع إخفاءه:

- أعجبني فقط؟ أنا مبهورة حقًّا.. لكن لماذا لم نُحضر ليو معنا؟

- لأنني أردت عشاءً هادئًا مع زوجتي فقط.. بعيدًا عن المشاغبة، أريد فقط أن أتأمل عينيكِ.

قالت بمداعبة وهي تترقب رده:

- تتحدث كأن عينيَّ هما أجمل ما في الحياة؟

أجابها بهدوء لم تتوقعه:

- لم أقل ذلك.

تعجبت من رده وبدا عليها الارتباك، لكن سرعان ما تحولت ملامحها لخجل شديد حين استكمل:

- لأن عينيكِ ليستا مجرد شيء جميل.. هما العالم والحياة الخاصة بي وحدي.

- كفى يا أندريا.. أنت تخجلني.

- أعني ما أقول.. أنتِ كزهرة نادرة تنكمش بخجل كلما اقترب منها أحد.

فركت يدها بتوتر كأنها في موعدها الغرامي الأول معه، وقالت بجدية مصطنعة لتداري خجلها:

- ما مناسبة هذا الموعد يا سيد أندريا؟

حدَّق إلى ملامحها التي يعشقها، وبنبرة هادئة حملت في طياتها حزنًا غامضًا يشبه الوداع، قال:

- لا توجد مناسبة.. فقط اشتقت للجلوس معكِ وحدنا، اشتقت لكلماتك التي تجعلني أشعر بأنني أملك العالم.

تسرب القلق إلى قلبها من نبرته، فأمسكت كفَّه بحنان وسألت:

- ما بك يا عزيزي؟ هل أنت بخير؟

طمأنها بابتسامة باهتة:

- بخير دائمًا ما دمتِ بجانبي.

ثم مدَّ يده نحوها وقال:

- هل تسمحين لي بهذه الرقصة؟

نظرت حولها للمطعم الشبه خالٍ من الناس، ثم وضعت يدها في يده ونهضت معه. اقتربا من الساحة الفارغة مع انسياب الموسيقى الهادئة، بينما أسندت هي يدها على كتفه.

ضمها أندريا بقوة غير معتادة، فهمست بقلق حقيقي:

- أندريا.. أرجوك أخبرني ما بك؟ قلبي لا يشعر بالاطمئنان.

نظر إلى عينيها بحبٍ كبير وقال:

- بل يجب أن يظلَّ قلبكِ مطمئنًا طالما أنتِ بقربي.

رفعها فجأة ودار بها، فتعالت ضحكاتها وسط الدوار:

- أندريا.. كفى، أشعر بالدوار!

أنزلها برفق وقال بصدق:

- أعشقكِ.

- وأنا أعشقك أيضًا.

سأل بمزاح ليخفف حدة الموقف:

- حقًّا؟

أجابت بابتسامة صافية:

- حقًّا.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كانت نظرات سارة معلَّقة على ملامح تيا، كأنها تبحث فيها عن أثر لسنوات غابت عنها. اقتربت منها بملامح يكسوها اللطف الممزوج بالدموع، وهمست بصوت متهدج:

- فيكتور.. عامل إيه؟

ارتسمت ابتسامة ساخرة وباردة على وجه تيا وهي تجيبها:

- وأنتِ بتسألي ليه؟ حابة تطمني دمرتي حياته للآخر، ولا لسه فيه نفس؟ عمومًا بابا كويس.. عاش حياته، واتجوز، وخلف.. بس للأسف مراته ماتت.

اتسعت عينا سارة بصدمة، وتجمَّعت العبرات على لسانها وهي تهز رأسها بإنكار:

- بتهزري صح؟ فيكتور مستحيل يتجوز بعدي.. لو قاصدة تجرحيني قولي، والله هسامحك.. بس قولي إنك بتكدبي.

اقتربت تيا منها خطوة، وقالت بقسوة هادئة:

- وليه ميتجوزش؟ أنتِ بجد فاكرة إنه هيموت من غيرك؟ يبقى عمرك ما عرفتيه.. أو يمكن عرفتي فيكتور بس، لكن مالحقتيش تعرفي فيكتور كورولينكو الحقيقي.

انهمرت دموع سارة بمرارة وقالت بصوت مكسور:

- فعلًا.. معرفش الشخص اللي طلع مبيحبنيش، وكان سهل عليه يتجوز غيري.

شعرت تيا بغليان الدماء في عروقها، فالتفتت إليها بذهولٍ قائلة:

- أنتِ بجد مصدقة نفسك؟ أنتِ إيه! فعلًا طلعتي بنت عثمان.. نفس الظلم والغل. أنتِ إنسانة نرجسية، عايزاه يفضل مستني إشارة منك؟ أنتِ أكبر أنانية شوفتها في حياتي، ومستحيل تنفعي تكوني أم أو زوجة.

أخذت تيا نَفسًا عميقًا وأكملت بحدة:

- تعرفي.. رغم إن جيسيكا وفيكتور مكنوش بيحبوا بعض في الأول، بس قدروا يبنوا عيلة. كنت بشوفهم بيضحكوا سوا، وكان بيطمِّن بوجودها.. جيسيكا قدرت تخليني مسألش عنك، سابت كل حاجة عشاني وعشان بيتها.. شوفتي الفرق؟

سالت الدموع من عيني تيا وهي تنهي حديثها بجفاء:

- جيسيكا ماتت وسابت لي نص ثروتها، والنص التاني لليلا ولينا.. ياريت تفوقي من الوهم ده، لأن فيكتور تخطى وجودك من زمان أوي يا سارة.

تركتها تيا وغادرت والدموع تغرق وجهها، لتصطدم بـ "داليا" التي كانت تقف بعيدًا تستمع لكل كلمة. سألت داليا بذهول:

- هو أنا عندي أخوات تانية بجد؟

أومأت تيا برأسها وهي تمسح دموعها:

- أيوة.. ليلا ولينا، في تالتة ثانوي دلوقتي.

نظرت داليا إلى والدتها، ولأول مرة شعرت أنَّها تستحق هذا الألم.. فهي من اختارت الرحيل وترك أبنائها خلفها. أمسكت يد تيا وقالت:

- تعالي نشوف آسر وسيف فين.

مضت تيا معها وهي تشعر بضيق في صدرها، بينما بقيت سارة في مكانها تنظر أمامها بشرود، والدموع تنساب على وجنتيها بلا توقف. تذكرت في تلك اللحظة كلمات فيكتور القديمة حين كان يهمس لها بحب:

"تعرفي.. شوفت ستات كتير أشكال وألوان، بس مفيش حد قدر يخطفني غير العيون الزرقا دي".

أغمضت سارة عينيها بألم؛ فكلمات ابنتها كانت كالسِّم، لكنها كانت تدرك في أعماقها أنَّها... محقة في كل حرف.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كانت تتحرك تيا بجانب داليا ودموعها لم تتوقف فقالت داليا:

___ اهدي يا تيا عشان خاطري كفاية عياط.

كادت أن تجيب ولكنها اصطدمت بشخص رفعت عيناها لتجده رجل ينظر إليها نظرة غامضة وبسمة غير مريحة وقال:

___ لا مؤاخذة يا مدام..

انتبهت لنفسها، فهزت رأسها بهدوء مقتضب وأجابت:

- حصل خير، ولا يهمك.

جذبتها داليا برفق وهي تنظم خصلات شعرها المتمردة، فالتفتت إليها تيا وسرعان ما غاب ذلك الرجل عن مخيلتها. سادت لحظة صمت قصيرة وهي تتأمل وجه شقيقتها، قبل أن تسأل بنبرة هادئة:

- داليا.. إنتِ ليه مش محجبة؟

توقفت يد داليا لثوانٍ، ثم تنهدت قائلة بصدق:

- مش عارفة.. حاسة إني لسه مش جاهزة آخد الخطوة دي.

ردَّت تيا بحسم لا يخلُو من اللين:

- بس ده فرض.. مش مجرد خطوة يا داليا.

طأطأت داليا برأسها وقالت بنبرة خافتة:

- عارفة، وصدقيني حاولت كتير بس لسه مش قادرة.

هنا، ربتت تيا على خصلات شعرها بحنان واحتواء، كأنها هي الأخت الكبرى وليس العكس، وقالت بلهجة قاطعة لينتهي الجدل مؤقتًا:

- هنتكلم في الموضوع ده بالتفصيل، بس لما نطلع من هنا.

وقفت تيا وداليا أمام آسر وسيف؛ انقبضت ملامح آسر فور رؤيتها، فاقترب منها محاوطًا وجهها الشاحب بكفيه وهو يسأل بقلق:

- مالك؟

أغمضت عينيها لثانية وأجابت بنبرة واهنة:

- مفيش.. دايخة شوية بس.

تحسس برودة كفها التي أثارت ريبته، ثم شدد من قبضته على يدها برفق وهو يقول:

- تعالي أجيبلك عصير.

انسحبت معه بهدوء، بينما ظلت نظرات سيف وداليا تلاحقهما في صمت. وفي تلك اللحظة، التقت أعينهما في نظرة طويلة، بدت كأنها تفيض بكلمات لم تُنطق قط.

تساءل كل منهما في سره: لماذا لا نكون مثلهما؟ لماذا يلفُّ الجفاء علاقتنا بينما يختبئ الحب في الزوايا المظلمة؟ بدا المشهد أمامهما مرآةً عكست كل ما يفتقدانه؛ العلن، والاهتمام العفوي، والدفء الذي قتله الكتم والبرود المصطنع.

حاول سيف كسر الصمت الذي غلفهما، فسألها بنبرة خفيضة:

- إنتِ كويسة؟

هزَّت رأسها بإيماءة لم تقنعه، خاصة حين لمح بريق دموعٍ توشك على الانهيار. سحبها برفق نحو زاوية خالية من المارة، وقبل أن ينطق بكلمة واحدة، انفجرت في بكاءٍ مرير هزَّ كيانها، وخرج صوتها متقطعًا ومحملًا بمرارة القهر:

- أنا طلع عندي أخوات يا سيف.. حاسة إني تايهة، كأني مكنتش في الدنيا ومغيبة عن كل حاجة تخص حياتي. مش قادرة أمثل إني مش متأثرة أكتر من كدة، أنا مقهورة أوي يا سيف.. أوي.

ربت على كتفها بمواساة وقال:

- مش حكاية مغيبة.. إنتِ مكنتيش تعرفي، وده طبيعي. إنتِ كنتِ هنا معانا، مش معاه.

لم تهدأ، بل زاد نحيبها حدة، وخرجت كلماتها ممزوجة بغصة الندم:

- يا ريتني روحت معاه.. يا ريتني اخترته يا سيف.. يا ريتني!

رفع وجهها بين كفيه، مجبرًا إياها على النظر إليه وقال بنبرة هادئة:

- ما هو إنتِ لو كنتِ روحتي معاه.. مكناش اتجوزنا يا داليا.

هزَّت رأسها برفض قاطع، نظراتها تتأمل في ملامحه، وقالت بنبرة يملأها الشك والمرارة:

- وده على أساس إنك مبسوط معايا يا سيف؟

ردَّ سيف بثقة هادئة وصوتٍ يحمل الصدق:

- لو مكنتش مبسوط مكنتش هكمل يا داليا.. إنتِ أكتر واحدة عارفاني، الحاجة اللي مش برتاح فيها بطلعها من حياتي.

ساد صمت قصير وهو يغوص في أعماق نظراتها، قبل أن يهمس:

- ما بالك بقى لما تكون حياتي كلها هي إنتِ؟ داليا.. إنتِ حب عمري، ومهما حصل، لازم تعرفي إني في ضهرك.. وبحبك.

رسمت داليا على وجهها بسمة هادئة وهي تهز رأسها ثم بدأت تمسح آثار دموعها بأطراف أصابعها لتسترد بعضًا من ثباتها. مدَّ سيف يده إليها، فتشبثت بها بقوة، وعادا معًا بخطى أكثر ثقة إلى حيث ينتظرهما آسر وتيا.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

داخل قصر آل كورولينكو، كانت ليلا تقف أمام حقائبها والبهجة تلمع في عينيها ببريق طفولي،غير آبهة بما يدور خلف الأبواب المغلقة.

على النقيض تمامًا، كان ديم يراقب فرحتها بصمت مثقل بالهواجس؛ كان وحده من يدرك حجم الكارثة التي ينتظرونها. فقرار العودة إلى مصر في هذا التوقيت لم يكن بالنسبة له مجرد رحلة، بل كان بمثابة فتح أبواب الجحيم التي لن تستثني أحدًا منهم.

اتكأ إيفان بملل وهو يقول بنبرة نافدة الصبر:

- أنا خلصت تحضير حاجتي بقالي أربع ساعات.. إنتو مش ناويين تخلصوا ولا إيه؟

كان يوجه حديثه لـ ليلا ولينا اللتين استغرقتا وقتًا طويلًا، لكن تاراس الذي كان حاضرًا كظلهما فهو بالطبع لن يترك لينا تذهب بمفردها أبدًا، تدخَّل بهدوء:

- اتركهم يا إيفان.

ابتسمت لينا بخجل من دفاعه عنها، وقالت وهي تغلق حقيبتها أخيرًا:

- انتهيت أخيرًا يا رفاق.

تبادل ديم مع ليلا نظرة هادئة، كأنه يخبرها أن تأخذ كامل وقتها دون اكتراث لتململ البقية. لكن تلك الألفة تلاشت فجأة حين ساد صمت مطبق على المكان؛ فقد كان لظهور ألكسندر وهو يتقدم أبناءه الأربعة هيبة طاغية، جعلت الأنفاس تُكتم.

أزاح ألكسندر نظارته السوداء ليستقر بها فوق عينيه في حركة آلية باردة، ثم سأل بحزم مقتضب لم يقبل النقاش:

- خلصتوا؟

لم يجرؤ أحد على النطق، بل اكتفى الجميع بهز رؤوسهم في موافقة صامتة وسريعة. ودون أن يلتفت خلفه، تحرك بخطى واثقة سبقتهم جميعًا نحو السيارة.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

رمقت كاترينا زوجها دانيلو بنظرةٍ قلقة؛ كان يقف بشموخٍ طاغٍ أمام شرفة غرفتهما، يراقب الأفق وعيناه تلمعان ببريقٍ ماكر، يشي بتدبيرٍ خبيثٍ يختمر في عقله. سألته بصوتٍ خافت حذر:

- ما بك؟

أجابها دون أن يلتفت، ونبرته تحمل ثقةً مخيفة:

- لم يبقَ إلا القليل يا كاترينا.. وحينها ستحدث المواجهة.

قطبت جبينها بتوجس وسألت:

- عن أي مواجهة تتحدث؟

ساد صمتٌ ثقيل، قبل أن يستدير إليها وينظر لها بنظرةٍ تحمل أسفًا غامضًا، وقال:

- عثمان.. وألكسندر.

خرجت منها شهقةٌ مكتومة ذعرًا، وهمست بارتجاف:

- كيف؟

- قد كان يخطط لهذا الصدام منذ وقت بعيد، لكنه الآن عازمٌ على استرداد حق ابنه.. وزوجته. أنتِ تعلمين جيدًا كم كانت إيفا تحب مريم.

لم تتمالك كاترينا نفسها فانفجرت في بكاءٍ مرير قاطعةً حديثه:

- أعلم.. أعلم، لكن عثمان لم يرحم أحدًا؛ قتلها وقتل ابنه ماهر، ولا ندري كم من الضحايا سقطوا في خفائه أيضًا! هل تستوعب حجم الكارثة التي نحن أمامها.

أومأ دانيلو برأسه في جمود، وقد ازدادت نظراته قسوة وهو يردف بصوتٍ رخيم:

- أعلم.. ولكن هذا ثأره، والثأر لا يسقط يا كاترينا؛ يجب عليه أن ينتقم.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كان ماكس يجلس في قصر آل كورولينكو العتيق في مصر، الصمت من حوله لا يقطعه سوى صوت عقارب الساعة، وألقى بسترة بدلته فوق الكرسي بإهمال، وبقي بقميصه الأبيض الذي شمَّر أكمامه عن ساعديه بضيق، ورغم سكون المكان، كان ضجيج كلماتها يرجُّ في أعماقه، تتردد في أذنه بصدًى لا يهدأ، وهي تصرخ بجفاء:

- مش عايزة.. مش عايزة يا ماكس.. مش هحب!

فك ماكس أول زرين من قميصه وهو يشعر بضيق يخنق أنفاسه، قاطع خلوته صوت أدهم الصغير، الذي خرج من غرفته مقتربًا منه بخطوات مترددة:

- ماكس.. أنت كويس؟

انحنى ماكس ليصبح في مستوى طوله، وربت على شعره بحنانٍ أبويٍّ، ذلك الحنان الذي اعتاد منحه لأطفال تيا، وقال محاولًا الابتسام:

- آه يا دوما.. كويس.

وضع أدهم إصبعه الصغير على فمه بتفكير طفولي، ثم هزَّ رأسه برفض وقال بوضوح:

- لا مش كويس.. أنا شوفت لمار وهي بتجري وبتعيط.

أطبق ماكس جفونه بوجع، ثم قال بصوت خافت:

- اتخانقنا بس.

- أنت بتحبها؟

نظر إليه ماكس بذهول، لم يتوقع أن يخرج هذا التساؤل من طفل في عمره. رفعه بهدوء وأجلسه على رخامة المطبخ ليكون في مواجهته، قبل أن يجيب بنبرة شاردة:

___ الحب مش كل حاجة يا أدهم، الحب وجع.

قال أدهم وهو يحاول شرح وجهة نظره ببراءة طفولية:

- لا مش وجع.. أنا بحب ماما وبابا وكايلا وليث، وبحبكم كلكم.. يبقى الحب مش وجع.

داعب ماكس أذن الصغير بتفكير شارد، وقال بصوت خافت:

- في حب تاني بيوجع يا أدهم.

ردَّ الصغير بسذاجة:

- زي حب بابا وماما؟

ضحك ماكس بمزاح وهو يحاول تلطيف الأجواء:

- آه.. بس حب أبوك وأمك مش بيوجع.

استنتج أدهم بثقة طفولية:

- يبقى الحب مش بيوجع!

صمت ماكس قليلًا، ثم نظر في عيني الصغير بتركيز، وقال بنبرة حملت الكثير من الهزيمة:

- فعلًا.. الحب في حد ذاته مش بيوجع، الرفض والفراق هما اللي بيوجعوا.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

بخطوات تفيض غطرسة، شق حسن المنياوي ممرات المستشفى، ومن خلفه سار أحمد وشهد بجفاءٍ وغرورٍ موروث.

توقفوا أمام غرفة فاطمة، حيث كان الجميع بانتظارهم؛ آسر وجاسر وسيف، برفقة تيا وداليا ولمار ورهف، وعثمان وجلال. ظلت داليا على وضعيتها، تضع قدمًا فوق الأخرى بكبرياءٍ، لكن شرارة الغيرة لمعت في عينيها بمجرد أن لمحت شهد، تلك الفتاة التي لا تكف عن الحوم حول سيف. ومع ذلك، لم تهتز لها شعرة، بل رسمت على ثغرها بسمةً باردة واستقرت في مقعدها دون أدنى نية للنهوض.

اتجهت شهد نحوها منتظرةً أن تنهض داليا لاستقبالها، لكن الأخيرة سحقت توقعاتها وظلَّت متسمرة في مكانها ببرود، وقالت بنبرة تقطر زيفًا:

- أهلًا يا شهد.. كان نفسي أقوم أرحب بيكي والله، بس رجلي وجعاني شوية.

جزت شهد على أسنانها محاولةً كتم غيظها، ثم حشرت نفسها بجانبها قائلة:

- ولا يهمك.. عرفت اللي حصل وما هانش عليا ماجيش، أصل سيف وآسر غاليين عندي أوي.

رفعت تيا حاجبها باستنكار، ورمقتها بنظرة فاحصة وهي تسأل بسخرية:

- آسر مين اللي غالي عندك يا سكر؟

ارتبكت شهد لثوانٍ ثم سألت داليا بحدة مكتومة:

- مين دي يا داليا؟

أمسكت داليا كف تيا بزهوٍ وهي تقدمها:

- تيا أختي.. ومرات آسر.

اتسعت عينا شهد بذهول، ونظرت لآسر الذي كان يهمس لسيف بمزاحٍ غير مبالٍ بوجودها، وتمتمت:

- هو آسر اتجوز؟ وأختك إزاي؟!

أجابتها تيا بابتسامة مستفزة:

- آه، من خمس سنين.. في حاجة؟

- خمس سنين؟!

- عندك مانع؟

حاولت شهد استعادة توازنها فقالت ببرود مصطنع:

- اممم.. ويا ترى في أولاد؟

ردَّت داليا بنبرة حاسمة:

- طبعًا.. أدهم وكايلا، ربنا يحفظهم ويبعد عنهم أي عين وحشة.

ضغطت شهد على حقيبتها بعنف وقالت:

- طيب.. هقوم أشوف سيف.

كانت ترمي بورقتها الأخيرة لاستفزاز داليا، لكن داليا اكتفت بابتسامة جليدية وهي تشير له ببرود:

- روحي يا حبيبتي، أهو واقف هناك.

قطبت شهد حاجبيها، وتحركت نحوه بخطوات تشتعل غضبًا.

___ إزيك يا سيف؟ عامل إيه يا آسر؟

كادت تيا أن تنهض لتضع حدًّا لتجاوز شهد، إلا أنَّ يد داليا استقرت على ذراعها، وهي تهمس ببسمة ماكرة:

- لا لا.. خليكي مكانك يا تيتو، ده أنا قولت إنك أكتر واحدة فاهماني!

لم تستوعب تيا مقصدها في البداية، لكن حين لمحت نظرات المراقبة المتربصة في عيني داليا، فهمت الخطة؛ فعادت لجلستها ببرودٍ مماثل.

هناك، لم يلقِ آسر لها بالًا كأنها هواء بينما ردَّ سيف باقتضاب وهو يطالع هاتفه:

- تمام.. شكرًا على زيارتك مكنش له لزوم تتعبي نفسك.

ثم عاد لاستكمال حديثه مع آسر وجاسر، متجاهلًا وجودها تمامًا.

كتمت تيا ضحكتها بصعوبة وهي ترى شهد تسحب يدها التي مدت للمصافحة بإحراجٍ قاتل، قبل أن تلتفت إليهم وعيناها تشتعلان غلًّا. هنا، نهضت داليا ببطء ووقفت أمامها بوقارٍ زائف:

- سوري يا شهود.. بس أنتِ عارفة آسر وسيف.

ثم مالت نحو أذنها، وهمست بنبرة حادة كالنصل:

- خليكي في حالك بقى.. أنا سيبتك تروحي بنفسك عشان تتأكدي إنك مش في دماغهم... ماشي يا شهود؟

ربتت على كتفها بخفة مستفزة، وتابعت بابتسامة منتصرة:

- قلتي إيه.. ماشي؟

انسحبت بغضب واتجهت صوب شقيقها، الذي كان يقف ببرودٍ مستفز تحت نظرات داليا وتيا؛ نظراتٌ تقطر اشمئزازًا من هيئته التي تفتقر لأدنى معايير الرجولة.

رمقه آسر بنظرةٍ فاحصة من الأعلى إلى الأسفل، ثم مال على سيف وهمس بسخرية:

- هو الواد ده طايق نفسه إزاي؟

رفع سيف حاجبيه بتعجب وهو يسأل:

- اشمعنا يعني؟ ماله؟

ردَّ آسر بملامح وجهٍ تفيض بالاشمئزاز:

- إيه كمية السلاسل والخواتم دي؟ إيه القرف يا جدع.

أمنَّ جاسر على كلامهما بهزة رأسٍ مستنكرة وقال:

- عندك حق والله.. وبعدين مش الحاجات دي حرام أصلًا؟

ردَّ سيف وهو يرمقه بنظرة أخيرة قبل أن يشيح بوجهه:

- أكيد حرام.. الدهب والزينة دي للستات، وتشبه الرجال بالنساء مطرودين فيه من رحمة ربنا، دي لوحدها كارثة أصلًا إنهم يطردوا من رحمة ربنا.

وكزهم آسر محذرًا حين رآه يقترب منهم، فصمتوا جميعًا على مضض. توقف الشاب أمامهم، وقال بنبرة مائعة:

- هاي يا شباب..

كتم جاسر نفسه محاولًا كتم ضحكته ولكن انفجر وهو يميل على أذن سيف وآسر هامسًا بصوتٍ سمعه الاثنان بوضوح:

- الحقوا.. لوسي ابن طنط فكيهة وصل!

انفلتت ضحكاتهم رغمًا عنهم، قبل أن يستجمع آسر ثباته بصعوبة، ورد بنبرة جافة:

- أهلًا يا أحمد.

أجاب أحمد وهو يضع يده على صدره:

- أهلًا.. عرفت إن طنط فاطمة رأسها اتفتحت.. حقيقي زعلت أوي!

هنا لم يتمالك جاسر نفسه، فباغته بكلماتٍ تقطر سخرية:

- لا يا بيضة متزعلش، أحسن الزعل بيأثر على البشرة!

تغيرت ملامح أحمد وامتقع وجهه حين شعر بنصال سخريتهم تصيب رجولته؛ فانسحب بكرامةٍ مهدورة كما فعلت شقيقته، ووقف بعيدًا يرمقهم بنظراتٍ يملأها الغل والحقد الدفين.

ولكن فجأة، شقَّ سكون الممر صرخة تيا المذعورة. كانت صرخة تيا مُحملةً بمزيجٍ مرير من المشاعر؛ خوفٌ جارف، وقلقٌ تجسد في دموعٍ هطلت حين رأت جسد صديقتها يميلُ للأمام قبل أن يهوي ساقطًا نحو الأرض.

- لمار!

صرخت بها بقلبٍ يرتجف هلعًا، وهي تضرب على وجهها ضرباتٍ خفيفة محاولةً تشجيعها على الاستفاقة، ولكن دون جدوى. رفعت عينيها نحو آسر وقالت بنبرةٍ متوسلة:

- كلم ماكس.. كلمه بسرعة! أنا كنت حاسة إنها مش كويسة.

أشارت إلى داليا لتساعدها، وبالفعل تعاونتا في رفعها.

بعد مدة، وفي غرفةٍ طغت عليها رائحة المعقمات النفاذة، فتحت لمار عينيها ببطء، ثم أغمضتهما بقوة لثوانٍ قبل أن تعود لفتحهما محاولةً الاعتياد على الضوء الساطع فوقها. تجولت نظراتها في أرجاء الغرفة حتى استقرت على ذاك المحلول المُعلق وسن الإبرة المنغرس في معصمها، فهمست بصوتٍ واهن:

- تـ.. تيا.

اقتربت تيا منها سريعًا، وتأملت وجهها بلهفة:

- أنا معاكِ أهو.. حاسة بإيه؟

سألتها لمار بسؤالٍ لم يتوقعه أحد:

- هو.. هو المحلول ده بيفطر؟

لوت تيا شفتيها وضيقت عينيها بدهشة، وهمست بذهول:

- هو ده وقته يا لمار؟! وعمومًا.. أيوه بيفطر.

ترقرقت الدموع في عيني لمار، فاقتربت تيا وداليا منها قائلتين بحنان:

- في إيه بس؟

نظرت إليهما بنظراتٍ زائغة، وهي تمسح دموعها بيدٍ مرتجفة:

- مكنتش عايزة أفطر.

تنهدت داليا برفق، وربتت على كتفها وهي تعدل لها حجابها لتُخفي خصلات شعرها المتمردة:

- بسيطة يا حبيبتي.. عوضيه بعد رمضان.

أومأت لمار بالموافقة بصمت، ولم يقطع ذلك السكون سوى صوت الباب الذي فُتح بقوةٍ جعلتها تنتفض في فراشها، لتهمس لتيا بضيق:

- مين الطور اللي بيفتح الباب على واحدة مريضة كدة؟!

دون مقدمات، اقتربت تيا وقبَّلت رأسها في ضمةٍ سريعة، ثم جذبت داليا التي كانت تحاول كتم ضحكاتها وقالت بمكر:

- هسيبك مع الطور بذات نفسه!

خرجت تيا برفقة داليا وتركتاها وحدها في مهب الريح. لم تستطع الرؤية بوضوح في البداية، حتى وقف أمامها.. معشوقها.

اقترب ماكس بهدوءٍ ورزانة، وقال بصوتٍ غلبه الحنان رغم محاولاته المستميتة للثبات:

- حمد لله على السلامة.

حاولت لمار استعادة مرحها المعتاد لتُخفي لهفتها، فقالت بمشاكسة:

- الله يسلمك.. بس إيه الطريقة دي؟ ده أنا لو خارجة من عملية ولادة مش هتقولي كدة! دي مجرد دوخة وإغماء بسيط يعني.

- لمار.

همس باسمها بنبرةٍ دافئة، غارقة في الحنان وهو يحدِّق إلى عمق عينيها، ثم قال بلهجةٍ لا تقبل الجدل:

- بحبك.. وهتجوزك.. حتى لو مش موافقة، رغم إن عينك فضحاكي ومأكدة ليا إنك بتموتي فيا.

اتسعت عيناها رويدًا رويدًا؛ أهو يعترف لها بمشاعره أم يبلغها بقرارٍ اتخذه وحده وفرضه عليها؟ فقالت بنبرةٍ غاضبة:

- لا يا ماكس.. ده مسموش..

قاطعها بإصرارٍ وعناد، وبنبرةٍ حازمة تحولت تلقائيًّا إلى لغته الأوكرانية دون وعيٍ منه من فرط انفعاله:

- كفى! لقد اتخذتُ القرار ولن تستطيعي منعي.. اصمتي وكفى ثرثرة!

أشارت إلى نفسها بذهول، والشرار يكاد يندلع من عينيها من شدة الصدمة قائلة:

- أنا؟! أنا يتقال لي كفى ثرثرة؟ أنا يا ماكس ثرثارة؟!

لم يحرك ساكنًا، ولم ينطق بكلمة، بل اكتفى بنظرةٍ حادة ثاقبة جعلت الكلمات تتجمد في حلقها.. فصمتت مرغمة، ولأول مرة، لم تجد في نفسها القدرة على المجادلة أمام هذا الطوفان.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

وفي الخارج، كانت حرب النظرات مشتعلة بين سارة وحسن، الذي ظلَّ يرمقها بنظراتٍ غامضة ومريبة، لم تكن مريحة بالمرة؛ مما دفع سارة لكسر هذا الحصار قائلة بحدة:

- في حاجة؟

عدَّل حسن وقفته ببرودٍ مستفز، وهو يضغط على عقدة رابطة الكرافتة بإبهامه في حركةٍ باردة، ثم أجاب باختصار:

- لا.. مفيش.

ابتسمت بجمودٍ، وهي تعيد خصلات شعرها المتمردة خلف أذنها في حركةٍ تنم عن الثقة، وقالت بنبرةٍ ساخرة:

- غريبة.. أصل نظراتك حسستني إنك عايز تاخد صورة.

ردَّ حسن بنبرةٍ حملت غزلًا صريحًا ومستفزًا في آنٍ واحد:

- والله هو مفيش أحلى من كدة عشان آخد صورة!

هنا احتدت نظراتها تمامًا، وتحولت ملامحها لصرامةٍ وهي تقول بحزم:

- متجبرنيش أتصرف معاك تصرف ميعجبكش.. وإنت بتكلمني تحترم نفسك وتعرف مقامك قصادي كويس!

شعر حسن بالإهانة، فاقترب منها خطواتٍ معدودة محاولًا استعادة سيطرته وقال بصوتٍ مكتوم:

- إيه المقامات دي؟ هو أنا أي حد عشان تقوليلي كدة؟

رفعت رأسها بشموخ وكبرياء أنثى تدرك قيمتها جيدًا، وقالت بنبرةٍ حادة:

- ولا أنا أي حد.. أنا سارة الطنطاوي على سن ورمح، والطريقة دي متبقاش معايا! لفت نظرك ١٠٠٠ مرة بالذوق ومفيش فايدة، وما دام الذوق مش جايب نتيجة يبقى أرد بقلة ذوق ومش هيفرق معايا حد.. احترم سنك وولادك بقى!

ولكن، وقبل أن ينطق حسن بحرفٍ واحد، اخترق صوتُ تيا تلك المشاحنة بهدوءٍ ورزانة، وهي تقترب منهما بنظرةٍ متفحصة قائلة لسارة:

- في حاجة ولا ايه؟

نظرت سارة إلى حسن نظرةً أخيرة تملؤها الاشمئزاز، كأنها تنفض غبارًا عن ثيابها، ثم التفتت لتيا بابتسامةٍ باردة وقالت:

- لا يا حبيبتي، مفيش أي حاجة.. كان مجرد توضيح مقامات مش أكتر.

مدت تيا يدها وأمسكت بكف سارة بقوة، ثم رمقت حسن بنظرةٍ باردة خلت من أي تعبير، وسحبت سارة معها مبتعدةً عنه.
همست تيا ببطءٍ ونبرةٍ ساخرة:

- يخرب بيت كدة! هي الغتاتة بالوراثة؟ أبو شكلهم بجد!

فلتت ضحكة خافتة من بين شفتي سارة، وشددت من قبضتها على يد تيا وهي تنظر إليها ببسمةٍ رقيقة قائلة:

- غريبة يعني.. مش كنتِ من شوية مش طيقاني؟

أجابت تيا وهي تشيح بنظرها بعيدًا، محاولةً إخفاء اهتمامها الحقيقي:

- في مثل بيقولك أنا وأخويا على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب.. عارفاه؟

أومأت سارة بهدوء وهي تضحك من قلبها على تشبيه تيا:

- اممم عارفاه.. بس أنا أمك مش ابن عمك يا تيا!

ردَّت تيا بلا مبالاة مرحة وهي تواصل السير:

- مش هتفرق كتير، المهم إننا عليهم وخلاص!

توقفت سارة فجأة، وجذبت تيا إلى أحضانها بقوةٍ مباغتة. حاولت تيا المقاومة في البداية، وعافرت بكل قوتها لتفلت من بين ذراعيها، لكن سارة كانت متمسكة بها، شددت من ضمتها أكثر وأجهشت في بكاءٍ مرير، وهي تردد بنحيبٍ يمزق القلب:

- أنا آسفة.. آسفة بجد يا تيا.. سامحيني.

في تلك اللحظة، تسارعت دقات قلب تيا بشكلٍ جنوني، وشعرت أنَّها ترى طيف جيسيكا يلوح أمامها، وتسمع صدى كلماتها الأخيرة قبل رحيلها وهي تهمس في أذنها:

"تيا.. أنتِ بنتي أكتر من أي حد، بس متنسيش إن سارة هي أمك يا حبيبتي.. وأكيد بتحبك. أنتِ بقيتي آنسة قمورة، وبكرة تبقي أم وهتعرفي إحساسها.. بلاش تقسي عليها يا تيا".

رفعت يدها بترددٍ شديد، ظلت لثوانٍ معلقة في الهواء قبل أن تستسلم تمامًا وتُبادلها الحضن بهدوء.. هدوءٌ لم يكن يعني الغفران التام، بل كان هدنةً مؤقتة؛ ففي القلوب جروحٌ غائرة لا تشفى بمجرد عناق، لكنها على الأقل، بدأت تلتئم.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

في تلك الأثناء، كانت الطائرة تُحلِّق في الأعالي، تخترق السحب لتقترب من أرضٍ تُعرف بأجمل الصفات والكلمات.. "مصر" أم الدنيا.

كان فيكتور يتابع المشهد من نافذته بتركيزٍ شديد، يراقب الأضواء الذهبية وهي تتراقص فوق سطح النيل برقة، ليرتسم أمامه مشهدٌ ساحر لمصر من الأعلى.

فاق فيكتور من سحر ذاك المشهد على لمسةٍ رقيقة من يد ابنته ليلا، التي سألته بنبرةٍ يملأها القلق:

- بابا.. أنت كويس؟

تنهد بعمق، وظلَّت عيناه معلقتين بالأفق قبل أن يجيب بصدقٍ جارح:

- مش عارف يا ليلا.. حقيقي مش عارف. مبقتش حاسس بحاجة.. فراغ وبس.

شددت على يده بدعمٍ ومحبة، وقالت بصوتٍ واثق:

- أنا ولينا وتيا جنبك.. دايمًا هنفضل جنبك.

ضمها إليه بحنانٍ بالغ، وقال بخفوت:

- عارف.. لأني أصلًا ماليش في الدنيا دي غيركم.

هنا، اخترق إيفان تلك اللحظة المؤثرة بمرحه المعتاد، وهو يقترب منهما بتمثيليةٍ مضحكة قائلًا:

- شايف أحضان وكلام من غيري؟ أخص عليكم بجد! يعني عشان سنجل يعني ومش لاقي حد يحضني ويحتويني، بصوا أبويا بيبصلي إزاي ولا كأني جوز أمه؟

هبطت الطائرة على أرض مصر أخيرًا.. وبمجرد خروجهم جميعًا وملامسة الهواء لوجوههم، سرى في أجسادهم شعورٌ غريب بالسكينة، والدفء الذي يغمر زوَّار ذلك البلد الساحر منذ اللحظة الأولى.

كان يتقدمهم ألكسندر بخطواتٍ ثابتة وواثقة، ويليه البقية في صمتٍ مهيب.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

___ هو مش أنا قولت ميت مرة الزفت ده ميتحطش؟!

قالها آسر بنبرةٍ غاضبة وعينيه تشتعلان غيرةً وهو يراها تضع أحمر شفاهٍ بلونٍ صارخ، أعطاها طلةً جريئة لم يتحملها قلبه.
ردَّت تيا بتذمر وهي تحاول الدفاع عن موقفها:

- فيها إيه يعني؟ وبعدين داليا هي اللي قالت لي إنه لايق عليا جدًّا!

اقترب منها خطوة وزمجر بصوتٍ منخفض يحمل وعيدًا حقيقيًّا:

- تيا.. يتمسح حالًا، وإلا أقسم بالله هيبقى يومك أسود.

نظرت إليه بغيظ شديد وهي تمسك المنديل وتزيله بعنف، وهمست في سرها بصوتٍ خفيض:

- اللهم طولك يا روح.. راجل ظالم!

التقطت أذناه كلمتها الأخيرة، فاقترب منها بنظرة تحذيرية مخيفة:

- مين ده اللي ظالم؟ ولو قومتلك دلوقتي هتعملي إيه؟

ربعت يديها أمام صدرها ونظرت إليه بنظرات متحدية:

- ها.. هتعمل إيه يعني؟

لم يحرِك ساكنًا، بل اكتفى بنظرةٍ صامتة جعلتها تدرك أنَّه على وشك الانفجار بطريقته الخاصة. هنا قررت تغيير خطتها اقتربت منه بحنانٍ مبالغ فيه وقالت بنبرة طفولية مستفزة:

- آسورة.. أسورتي.. خلاصي يا ناس.. كوتي حجي أنا!

اتسعت عيناه بذهولٍ تام، وأشار إلى نفسه بصدمة:

- عيب والله! أنا يتقال لي كوتي؟! ليه، شايفاني ماسك ببرونة ولا بمشي على إيدي ورجلي؟!!

___ خلاص بقى.. ميبقاش قلبك أسود.

ردَّ عليها ببرودٍ ساخر وهو يرفع حاجبه:

- لا.. قلبي كحلي بعيد عنك، عارفة الكحلي؟

لوت شفتيها بضيقٍ مصطنع، وحاولت جاهدة ألا تبتسم أمام سخريته المحببة إلى قلبها:

- دمك مش خفيف على فكرة!

حدَّق إلى عمق عينيها لثوانٍ طالت، قبل أن يميل برأسه قليلًا ويهمس بنبرةٍ غارقة في العشق، جعلت قلبها ينتفض بين ضلوعها:

- طب عيني في عينك كدة.. واحلفي إن دمي مش خفيف.

وكالعادة يا سادة، غرقت تيا في سحر نظراته الجذابة التي سحبتها كالمغناطيس نحو عالمٍ لا يشاركه فيه أحد.

وقبل أن تنطق تيا بكلمة، قاطع سحر اللحظة وهدوءها صوتُ أدهم وكايلا وهما يندفعان نحوهما بمرحٍ صاخب، وهتافٍ:

- بابيييي! ماميييي!

تراجع آسر للخلف ببطء، ونظر إليهما ببسمةٍ صفراء باهتة، تُخفي وراءها غليان من مقاطعتهم، وقال بنبرةٍ حاول جعلها طبيعية لكنها خرجت متهكمة:

- أهلًا.. أهلًا يا حبايب قلبي.. إيه اللي جابكم؟

ضربته تيا بخفةٍ على كتفه وهي تضحك على ملامحه الممتعضة، ثم انحنت تجذب أطفالها إلى أحضانها بلهفةٍ وحنان قائلة:

- بس يا آسر دول حبايب قلبي يا ناس.

تعالت ضحكات الصغيرين برقةٍ ملأت الأرجاء بهجة، وهم يستقبلون قبلات والديهما بلطفٍ وحبٍّ غامر، ليتلاشى توتر آسر تمامًا أمام مشهد عائلته الصغيرة وهي تلتف حوله، مدركًا أنَّ هذه المشاكسات هي الملح الحقيقي لحياته مع تيا.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

وصلت إلى سيف رسالة غريبة، كان مضمونها يحمل تحذيرًا مبطنًا:

- ساعات كتير بيبقى في ناس بتلعب من تحت لتحت، وممكن يكونوا ناس مكنتش تتوقع منهم الأذية.. خلي بالك واعتبرها نصيحة من فاعل خير.

ظلَّ سيف يقرأ الكلمات عدة مرات بعدم فهم، والشك يتسلل إلى عقله كالأفعى. في تلك اللحظة، اقتربت داليا منه، ولاحظت شروده الغريب، فربتت على كتفه وسألته بقلق:

- سيف.. في حاجة؟

رفع رأسه إليها، وحاول رسم جمودٍ زائف على ملامحه وهو يجيب باقتضاب:

- مفيش.

لم تقتنع داليا، بل زاد إصرارها وهي تراقبه بدقة:

- لا، فيك حاجة.. في إيه بجد؟ قولي مالك؟

تنهد سيف بضيق، ثم رفع الهاتف أمام وجهها قائلًا ببرود:

- اقرأي دي..

بدأت عيناها تتجولان فوق الكلمات بصدمة، ثم رفعت رأسها والدهشة تسيطر عليها:

- ده مين اللي باعت الكلام ده؟

أجاب سيف وهو ينظر للفراغ بشرود:

- مش عارف.. وده أكتر حاجة مخوفاني.

ولكن فجأة، اقتحمت عائلة كورولينكو الممر بهدوءٍ وثبات، تجمد الزمن في تلك اللحظة، وشعر الجميع بأنَّ الهواء بات معلَّقًا بين الأنفاس. وقف "فيكتور" بوقاره المعهود أمام "تيا"، التي كانت تحدق إلى عائلتها بفخرٍ لا تسعه الكلمات؛ فهم جيشها الوحيد، وسندها الذي تثق تمامًا أنَّه لو مالت بها الدنيا، سيكونون أول من يسندها بعد آسر..

اقتربت تيا بخطى واثقة، وسرعان ما تلاشت قوتها أمام حنان أبيها، فارتمت في أحضان فيكتور بلهفة قائلة:

— وحشتني يا بابا.

ضمها فيكتور بحنان أبويٍّ جارف، وشدد من قبضة ذراعيه عليها كأنه يستعيد قطعة من روحه فُقدت منه، وقال بصوتٍ غلفه الاشتياق:

— وأنتِ وحشتيني أكتر يا تيا.

وقعت أنظار تيا على ألكسندر، الذي كان يداعب أدهم وكايلا باشتياقٍ ظاهر. رأت دلال كايلا الطفولي المبالغ فيه، وأدركت أنَّ من يملك مفاتيح تدليلها قد وصل أخيرًا؛ فجدها الحبيب هو الوحيد الذي يجعلها تفعل ما تشاء دون قيد.

ولكن، ما كان يشغل بال تيا حقًّا هي تلك النظرات المبهمة، الحادة، التي كانت تدور في صمتٍ مريب بين فيكتور وآسر. أمسكت كفَّ آسر بتعجب وهمست له:

— في إيه؟ النظرات دي معناها إيه؟

أجابها آسر وعيناه لا تزالان معلقتين بفيكتور:

— مش عارف.

— هو أنت كنت كلمته في حاجة؟

أومأ بالرفض فقطبت حاجبيها، وحاولت استعادة شريط ذكرياتها القريب والبعيد؛ بحثًا عن أي خلافٍ قديم أو موقفٍ عابر يبرر هذا التوتر، لكنها لم تجد شيئًا.

قطع شرودها التفات فيكتور نحو الجهة التي ظهر منها صوت حذاء بكعبٍ عالٍ، يصدر وقعًا منتظمًا ينم عن التمرد والأنوثة الطاغية. وعندما التفت، وجدها أمام عينه.. "داليا"، ابنته الكبرى.

تلقائيًّا، ارتسمت بسمة دافئة على شفتيه، وتجمعت دموع حارقة في مقلتيه أبى أن يذرفها أمام الجميع. لقد أصبحت ناضجة، متزوجة، ولديها طفل.. طفل؟!

حدَّق فيكتور إلى تيا وسألها بهمسٍ يحمل صدمة الاكتشاف:

ـــ فين ليث؟

أشارت تيا باتجاه "سيف"، الذي كان يحاول إقناع طفله الصغير بأنَّ هؤلاء الأشخاص ليسوا غرباء بل يحبونه. قطع فيكتور ذلك التردد حين مال على الصغير قليلًا، وقال بنبرةٍ حاولت الهدوء:

ـــ إزيك يا صغير؟

تمسك ليث بملابس والده بقوة، وتفحص ملامح فيكتور بعينيه الزرقاوين اللتين ورثهما عن والدته، فتابع فيكتور بنبرة حنونة:

ـــ أنا فيكتور.. أبو داليا، يعني جدك يا ليث.

اتسعت عينا الصغير بانبهار؛ أهو يملك جدًّا آخر؟ وما زاد من دهشته هو اقتراب ألكسندر الذي أضاف بوقار:

ـــ وأنا جد داليا.. يعني يعتبر جدك كمان.

نظر ليث بذهول إلى أدهم وسأل بنبرة مستنكرة:

ـــ إزاي؟

ابتسم أدهم بدعم أخوي، واقترب يجذبه من يد سيف بلطف، ليقفه أمام ألكسندر وفيكتور قائلًا:

ـــ عادي يا ليث.. المهم إننا عندنا جد واحد وجيش واحد!

ودفعه نحوهما فجأة، فارتمى الصغير بين أحضان ألكسندر الذي استقبله بحنانٍ غامر، وهو يرمق أدهم بغمزة مشاكسة، بادلها الأخير ببسمةٍ واسعة منتصرة.

همست تيا لآسر وهي تراقب المشهد:

ـــ ابنك مصيبة زيك بالظبط..

ارتسم الذهول الساخر على ملامح آسر وقال:

ـــ يا شييخة! الله يرحم أيام ما كنتِ تعملي المصيبة وتيجي تستخبي في ضهري.. خليني ساكت أحسن!

ضحكت تيا بخفة، ولكن فجأة.. ضرب الدوار رأسها بعنف، وشعرت بضغطٍ شديد يعتصر صدغها. تراجعت للخلف بوهن، بينما بدأت الرؤية أمامها تتشوش.

لكن يد "آسر" كانت الأسرع في التقاطها قبل أن تهوي؛ حاوط خصرها بقوةٍ أسندت ضعفها المفاجئ، وقال بنبرةٍ امتزج فيها القلق بالحدة وهو يربت على وجهها بخفة:

ـــ تيا! أنتِ كويسة؟ فيكي إيه من الصبح؟

أغمضت عينيها وهي تشعر بألمٍ يمزق أعماق رأسها، ثم همست بوهنٍ حاولت إخفاءه:

ـــ مفيش.. تلاقيه بس صداع بسبب الصيام، كدة كدة فاضل وقت بسيط والمغرب يأذن وأفطر وأبقى أحسن.

لم يقتنع بكلماتها، بل تجوَّلت نظراته في المكان بحثًا عن أي مقعدٍ قريب، حتى وجده؛ فاقترب بها ببطء وجعلها تجلس برفق ثم سألها وهو ينحني لمستواها:

ـــ ها.. حاسة إنك أحسن دلوقتي؟

ـــ اممم..

قطب حاجبيه بضيق وقبض على يدها برقة:

ـــ اممم يعني إيه؟ تيا.. أنتِ سامعاني أصلًا؟

أومأت برأسها بضعف، بينما كان الألم يزداد بشاعةً وضراوة، كأن مطارق تضرب داخل جمجمتها، وقالت بصوتٍ خافت:

ـــ كويسة.. متقلقش عليا.

وضع كفه على جبينها، ثم مررها على رأسها وهو يتنهد بضيق:

ـــ مقلقش إزاي بس؟ أنتِ بقالك فترة حالك مش متظبط، ولا أكلك ولا نومك حتى.

بلعت ريقها بتوترٍ ملحوظ، وشعرت بأنَّ نبضات قلبها المتسارعة ستفضحها؛ فآسر هو من رباها على يديه، ويعلم جيدًا متى يرتجف صوتها، وكيف تبدو ملامحها حين تحاول قول كذبة لا تقوى على حملها.

ضغطت على رأسها قائلة:

ـــ كويسة يا آسر بجد مفيش حاجة، هي زي ما قولتلك صداع عادي وهيروح.

ـــ متأكدة؟

ـــ آه متقلقش.

كان آسر يراقبها بصمت، والريبة تنهش قلبه من هذا الإرهاق المفاجئ الذي غلَّف ملامحها، لكن نظرات "تيا" تجمدت فجأة حين رأت "سارة" تقترب من بعيد. أطبقت تيا جفونها بقوة؛ فهي

تعلم يقينًا أنَّ المواجهة القادمة لن تمر بسلام، بل ستكون "ملحمة" تُنبش فيها قبور الماضي.

تسمرت سارة في مكانها، وشعرت كأن الأرض تميد تحت قدميها.. أهو حقًّا؟ لا.. مستحيل! لا يمكن أن يكون هو! تعالت أنفاسها وازدادت نبضات قلبها عنفًا وسرعة، بينما تجمعت الدموع في عينيها لتغشي رؤيتها. التفتت نحو داليا التي كانت حالتها لا تقل صدمةً عنها، وسألت بصوتٍ مرتعش:

— هـ.. هو.. هو ده يبقى.. يبقى فيكتور؟

أومأت داليا بالموافقة والقلق ينهش قلبها، وقالت بكلمة واحدة اختصرت كل شيء:

— هو.

أغمضت سارة عينيها بقوة، ورأت شريط ذكريات العمر كله يمر أمامها في ثوانٍ. بدأت تقترب خطوة تلو الأخرى، كأنها تمشي على جمرٍ ملتهب يحرق باطن قدميها، حتى وقفت.. خلف ظهره تمامًا.

شعر هو بها قبل أن يراها؛ رائحتها، عبق "الياسمين" الخاص بها الذي لم ينسه يومًا. حاول تكذيب حواسه، لكن الهدوء المهيب والصمت الذي خيَّم على الجميع من حوله جعله يلتفت ببطء شديد.

وهنا.. تلاقت الأعين في لغةٍ صامتة لا يفهم شفرتها غير العشاق الذين أضناهم الفراق. خرجت من سارة شهقة مكتومة دون وعي، وتبخر الجميع من عقلها ولم يبقَ في الوجود سواه. همست بصعوبة بالغة ومرارة تملأ حلقها:

— فـ.. فيكتور.

ظلَّت عيناهما متشبثتين ببعضهما بعضًا، تتجول كل نظرة على ملامح الوجع في الآخر بلهفةٍ وقلبٍ مرهق من أنين الشوق. تردد في الأجواء صدى كلمات قديمة، تعود لزمن ريعان شبابهما:

"بحبك".

"طب ما أنا عارفة".

لكن فجأة، نطق فيكتور بصوتٍ بارد كالجليد، حطم آمالها تمامًا على صخرة اليأس:

— خير؟

كادت سارة أن تمد يدها لتلمس كفه، لتتأكد أنَّه حقيقة وليس سرابًا، ولكنه ابتعد عنها بحركةٍ جافة رغم اشتياق يده لملمس كفها الناعم. قالت بذهولٍ وعدم تصديق:

— فيكتور؟! أنت.. أنت فاكرني؟

أشاح بوجهه عنها، وقال بنبرةٍ خالية من أي مشاعر:

— مش متذكر للأسف.

حاولت أن تتفوه بأي حرف، أن تستجدي منه نظرة حنان واحدة، ولكنه تركها خلفه تحترق بذهولها، وذهب مباشرةً نحو داليا.. وقف أمامها، وهمس بصوتٍ متحشرج من كثرة التأثر:

ـــ داليا.

تعالت أنفاس داليا وهي تجاهد لحبس دموعها التي أبت إلَّا أن تلمع في مقلتيها، وبدأت نظراتها التائهة تبحث بين الوجوه عن أمانها المطلق.. "سيف".

كأن قلبه استجاب لنداء عينيها قبل أن ينطق لسانها؛ ففي لحظات كان سيف بجانبها، وضع يده على كتفها بحمايةٍ واحتواء، ورمق فيكتور بابتسامةٍ هادئة تحمل الكثير من المعاني.

هنا، قرر فيكتور أن يكسر حدة التوتر بأسلوبه الخاص، فتبدلت ملامحه المتأثرة إلى ملامحٍ يكسوها المرح وهو ينظر لسيف وآسر قائلًا بمزاح:

ـــ واحد خد الصغير ـــوأشار بيده نحو آسر وتياـــ وواحد خد الكبيرة.. أقول عليكم إيه بس يا ولاد الطنطاوي؟

رفع سيف يده بدفاعٍ مرح، محاولًا مشاكسة فيكتور وتلطيف الأجواء المشحونة:

ـــ لا.. أنا بحب داليا من قبل ما آسر يشوف تيا أساسًا! سوري يا فندم، إحنا قصة حب عريقة على فكرة، وبفكر أكتبها رواية والله.

ضحك فيكتور بخفة، لكن سرعان ما تلاشت ضحكته حين عادت عيناه لتستقرا على وجه ابنته الكبرى. تقدم خطوة، وحاوط وجهها بكفيه بخشونةٍ حانية، وهمس بصوتٍ دافئ يحمل لوم المشتاق:

ـــ للدرجادي أبوكي موحشكيش يا داليا؟ للدرجة دي بقيت غريب؟

لم تستطع داليا المقاومة أكثر؛ انهمرت دموعها الدافئة فوق كفيه، وهزت رأسها بوجعٍ وهي تجيب بصوتٍ مخنوق:

ـــ أنا فاكرة آخر كلمة قولتهالي قبل ما تمشي يا بابا.. فاكراها كأنها اتقالت من دقيقة.

انهمرت دموعها أكثر فأكثر، وصوتها يرتجف بمرارة السنين وهي تكرر الكلمات التي نُقشت في روحها كالنار:

ـــ "من اللحظة دي ماليش بنات غير تيا".. دي كانت آخر حاجة قولتهالي.. كنت بتمحي وجودي بجملة واحدة!

ـــ أكيد مكنش قصدي اللي فهمتيه، مفيش أب يقدر يكره بنته.

ظلت ثابتة لثوان لا تعلم أتقترب أم لا، أخذت نفسًا عميقًا ونظرت إلى تيا التي شجعتها بنظراتها، وبالفعل خطت خطوة واحدة فقط جعلت فيكتور يقطع المسافة كلها ويأخذها بين ذراعيه بقوة انهارت دموعها بشدة وقالت:

ـــ آسفة يا بابا آسفة.

ظلَّ يقبّل رأسها وأعطى إلى دموعه الحرية وقال:

ـــ أنا اللي آسف يا حبيبتي.

رفعت رأسها والابتسامة ترتسم على وجهها رويدًا رويدًا عندما رأت ألكسندر يقترب منهم وأخذها من فيكتور وضمها هو بدلًا منه:

___ أهلًا بيكي في عيلتك يا داليا.

<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<<

كان سيف يقف خارج أسوار المشفى، يدخن سيجارته بهدوءٍ غريب كأنه يحاول تبخير همومه مع دخانها، حتى اقترب منه آسر وجاسر. هبطت يد آسر على كتفه وهو يقول بلومٍ أخوي:

ـــ مش ناوي تبطل البتاع ده؟ صحتك يا ابني!

ضحك سيف بخفة، ونظر إليهما بعينين أرهقهما التفكير، ثم قال بصوتٍ خافت:

ـــ يا عم أهي أي حاجة الواحد يطلع غله فيها..

وقف الثلاثة جنبًا إلى جنب، يحدقون إلى الفراغ أمامهم بصمت، وفجأة.. ودون سابق إنذار، فلتت منهم ضحكةٌ عفوية، لا يدرون ما سببها! ربما كانت سخرية من واقعهم، أو ربما هو الحنين للأيام الخالية. تعالت ضحكاتهم أكثر، وضموا بعضهم بعضًا بلطفٍ نادر، كأن كل واحدٍ منهم يستمد طاقته وثباته من الآخر في مواجهة عواصف عائلة الطنطاوي.

في تلك اللحظة الدافئة، لم ينتبه أحدٌ منهم لذلك القناص القابع فوق البناية المقابلة، الذي كان يوجه فوهة بندقيته بتركيزٍ مُميت نحو هدفه.. ضغط بإصبعه ببرود، لتنطلق رصاصةٌ غادرة شقَّت سكون المكان.

دوى صوتُ طلقةٍ واحدة.. أعقبها صوتُ صرخةٍ مكتومة ومتألمة خرجت من أحدهم، ليتجمد الزمن في أعينهم. تراجعت الضحكات لتحل محلها صدمةٌ مرعبة، وصرخوا بذعرٍ حين سقط أحدهم بين أيديهم غارقًا في دمائه.

يتبع في الجزء الثاني...